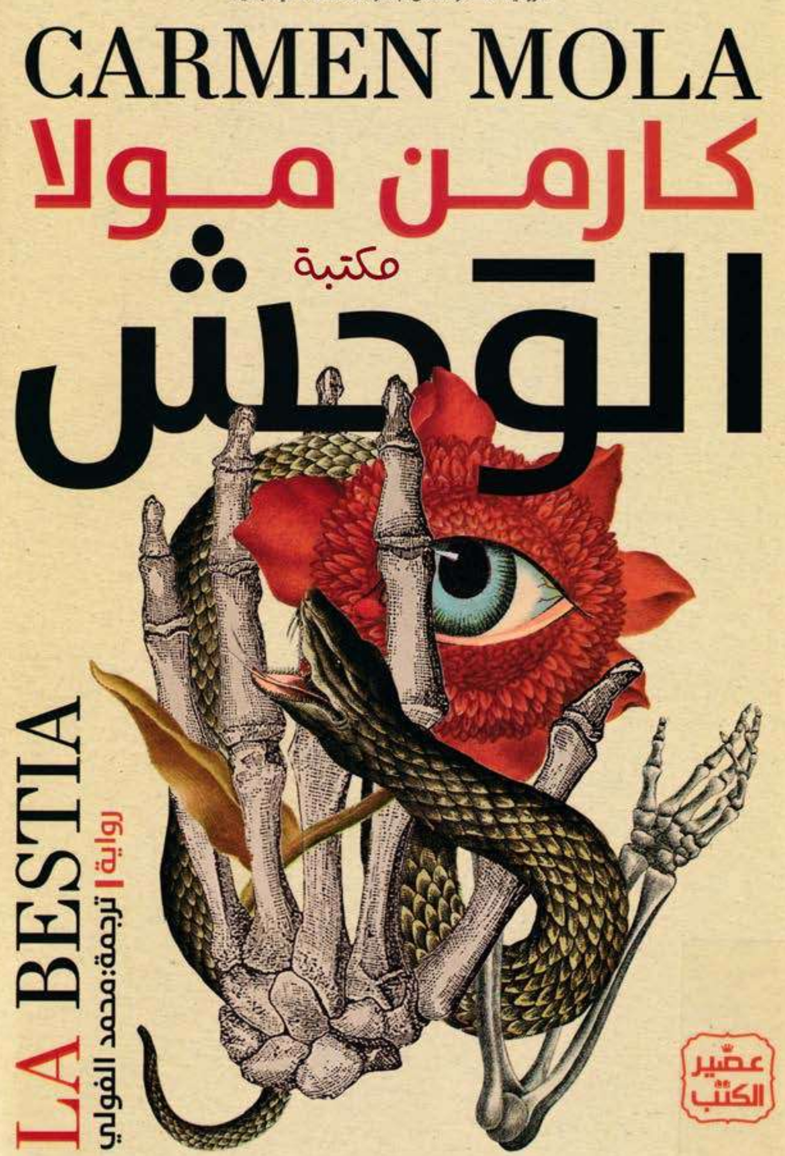

الرواية الحائزة على جائزة Planeta الإسبانية
CARMEN MOLA
كارمن مولا
مكتبة
الوحش
LA BESTIA
رواية | ترجمة: محمد الفولي
عصير الكتب

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

محمد خطاب

الوَحش







إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

● العنوان الأصلي: La bestia

● العنوان العربي: الوحش

● طُبِع بواسطة: Egedsa

● ترجمة: محمد الفولي

● تدقيق لغوي: نهال جمال

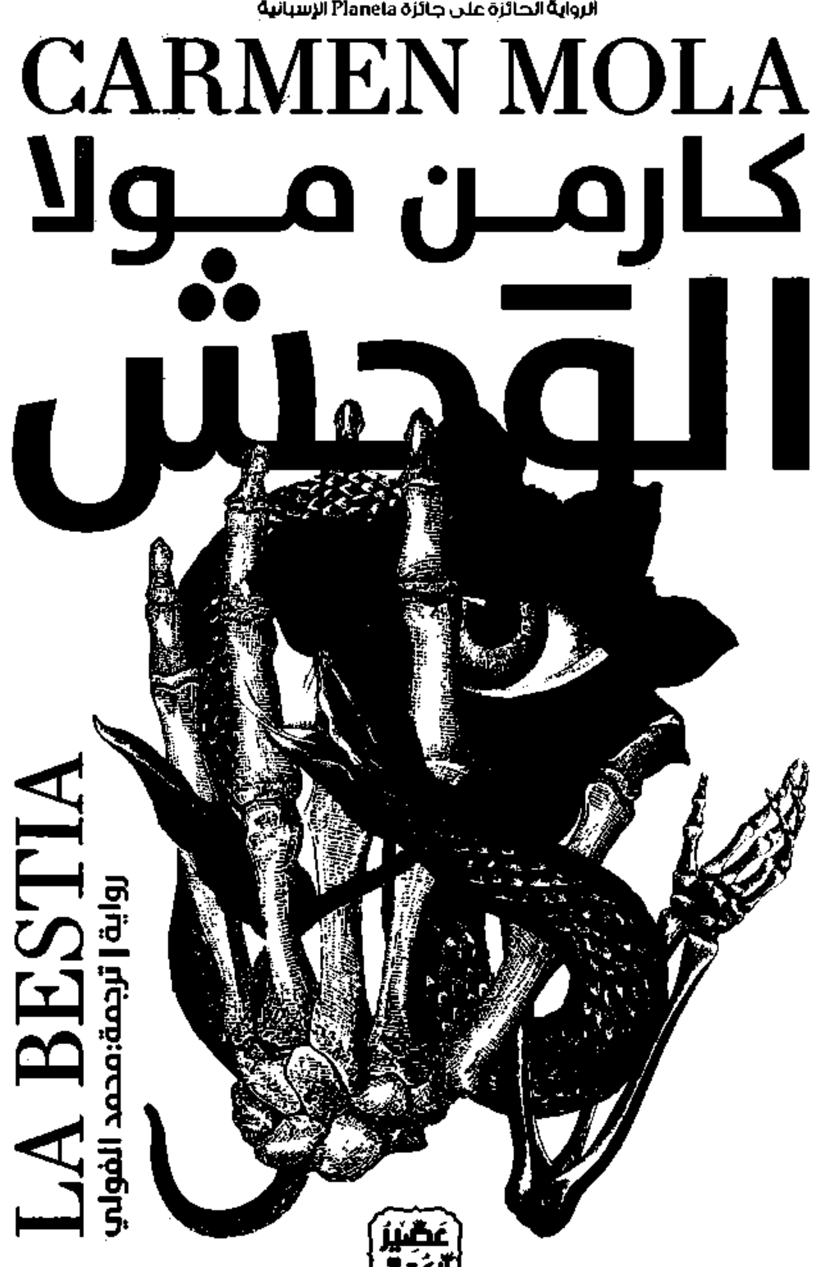
● تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

● الطبعة الأولى: مايو / 2023م

● رقم الإيداع: 2023/4796م

● الترقيم الدولي: 978-977-992-248-5




الرواية الحائزة على جائزة Planeta الإسبانية
CARMEN MOLA
كارمن مولا
الوحش
LA BESTIA
رواية | ترجمة: محمد الفولي
عصير الكتب



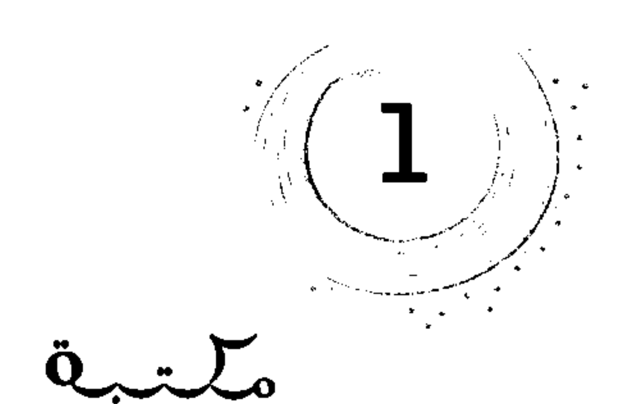
إلى: أمي.


MOHAMED KHATAB

الجزء الأول




MOHAMED KHATAB



مدريد، 23 يونيو 1834

تحت الوابل الذي صارت معه الأرض الرملية وحلًا، يلعب كلب برأس فتاة. تنهمر الأمطار بلا رحمة فوق البيوت المتواضعة والأكواخ الخشبية والعشش البائسة التي تبدو مع كل هبَّة ريح كأنها على شفا الانهيار. لا يقع حي «إل ثيرِّييو ديل راسترو» بعيدًا جدًّا عن «مسلخ مدريد»، وكلما هطل المطر غرق في الماء.

يجب على المرء أن ينزل منحدرًا وعِرًا، وأن يتخطى شقوقًا أرضيةً تُشكِّل بعض الهوات هنا وهناك، كي يصل إلى هذا الحي الفقير والمنسي. يقرع الماء بقوة فوق أسطح مساكِنه المصنوعة من الصفيح والقش وأفرع الأشجار، وينفذ إلى دواخلها، فيُشكِّل بركًا في أرضه الرملية وشلالات عند مناطقه المنحدرة. ليس غريبًا ألا يمعن أحد النظر في الكلب أو زمجرته وهو يلعب ويهز الرأس الذي غرز أسنانه في خده.

تنبثق قرقرة هستيرية وسط جلبة المطر من امرأة عجوز تركع إلى جوار جثة يغطيها الطمي في قاع هوة صغيرة:

- «الوحش»، سينال من الجميع. «الوحش» سيقتلنا!

يعجز دونوسو عن إسكاتها. تُدمدم العجوز من دون توقف: «الوحش هنا». كان قد نزل ببطء فوق الأرض الوعرة، فصارت تحت قدميه الآن بقايا جثة تبدو كفضلات من ذبيحة جزار: ثمة جذع قد انخلعت منه إحدى ذراعيه، ومع ذلك ظل متصلًا بها بنسيج من العضلات واللحم الممزَّق. لا تبدو الساق اليمنى متضررة، لكن حيث يفترض أن تظهر الساق اليسرى ثمة بقايا مبتورة وحفرة تكشف عن بياض عظم الحوض. اقتُلعت الأعضاء الناقصة بطريقة عنيفة. لا دليل على حدوث عملية بتر دقيقة، حتى في مكان العنق، إذ يقدر المرء أن يرى عظامه المكسورة وسط نسائر اللحم. وحدهما نهدا الجذع الناشئان يسمحان للمرء بتخيُّل أنها فتاة لا يتعدى عمرها اثني عشر أو ثلاثة عشر عامًا. غسلت الأمطار الرفات ولا وجود للدم تقريبًا، لهذا قد يحسب المرء أنها مجرد دمية مكسورة مهمَلة ملطخة بالطمي.

تكرِّر العجوز عبارتها، كأنها عجلة غزل تلف وتدور من دون توقف:

- «الوحش» هنا.

يُبعدها دونوسو عن الجثة بدَفعة.

- لماذا لا تذهبين إلى كوخك وتتوقفين عن تخويف الناس؟

يؤلمه رأسه، إذ لا تزال العاصفة تقرع فوق صفيح الأسطح، فيشعر أن الرطوبة تتسلل إلى مخه. سيروقه أن يكون بعيدًا عن هنا. ما من أحد يروقه أن يبقى في «إل ثيرِّيو ديل راسترو» وقتًا أطول من المطلوب سوى أفقر الناس ورثّي الثياب ومن ليس لديهم مكان آخر في هذا العالم، أو بمعنى آخر أولئك الذين نصبوا أكواخ هذا الحي الخشبي بأيديهم وعزة أنفسهم ويأس من يعوزه سقف.

يتزامن اليوم –بل الليلة– مع «عيد القديس يوحنا»[1]. لو أنها سنوات أخرى، لأقدم سُكان الحي القادمون من كل أنحاء إسبانيا والمُخلصون لعادات قراهم على إشعال المحارق والقفز والرقص حول نيرانها، لكن عادات مدريد نفسها مختلفة عن كل هذا، إذ تحتفل المدينة قبلها بعدة أيام بعيد «القديس

(1) تُحيي «ليلة القديس يوحنا» ذكرى ميلاد يوحنا المعمدان. مع ذلك يُقال أيضًا إن لها أصولًا وثنية، بعيدة عن المسيحية. من أبرز مظاهر احتفالات هذه الليلة، إشعال بؤر النيران أو المحارق والرقص حولها. (المترجم).

أنطونيو دي لا فلوريدا»، بمراسمه الراقصة وتقليد إبر الخياطات[1]، يمنع المطر اليوم على أي حال كل الأشكال الاحتفالية. ليس المطر وحده، وإنما المطر والتدابير الصحية التي تحظر أي تجمعات حاشدة. يبدو أن كل الأمور ستغدو سيئة في عام 1834 الملعون: الكوليرا، والحرب الكارليَّة[2]، وعيد القديس يوحنا، و«الوحش»، وخصوصًا «الوحش».

كان دونوسو جُوال حارسًا ملكيًا، لكنه فقد إحدى عينيه في نزال غرامي وأُوقف عن العمل، أما الآن فجنَّدوه ثانية حتى انتهاء جائحة الكوليرا ضمن تعزيزات قوات الشرطة لمراقبة بوابات المدينة وتقديم العون في كل ما قد تستدعيه الحاجة. يرتدي الزي الموحَّد للجهاز الأمني المكوَّن من سترة حمراء ضيقة مزوَّدة بياقة، وبنطلون أزرق ذي خطوط بارزة، وكتَّافتين من القطن الأبيض تبدوان كظُربانين مُبتلين يقطران ماءً بسبب المطر. ينبغي أن يحمل معه بندقية خفيفة، ومسدسين بمقبضين مقوَّسين، وسيفًا مقوَّسًا، لكنه اضطر إلى إعادة أسلحته حين أُوقف عن العمل، ولم تُرَد إليه حين جنَّدوه من ضمن التعزيزات. لو انقض عليه الأهالي، فلن يجد شيئًا يدافع به عن نفسه، لذا فالتصرف الأمثل هو محاولة إبقائهم على الهامش، وإقناعهم بأنه الأقوى، وبأن سلطته وجسارته أكبر منهم.

- إنها مجرد طفلة! ما الذي تفعلونه؟ طارِدوا «الوحش». اصطادوه قبل أن يصطادهن جميعًا.

لا تتوقف العجوز عن الصراخ، فينضم إليها سريعًا في استنزال اللعنات أهالٍ آخرون قذرون وملطَّخون بالوحل. يبدون جميعًا كغربان هستيرية في هذا المساء الذي صار ليلًا بفعل العاصفة.

---

(1) جرت العادة أن تزور الخياطات صومعة «القديس أنطونيو دي لا فلوريدا» في الثالث عشر من يونيو لإلقاء ثلاث عشرة إبرة في حوض مائه المبارك، ووضع أيديهن فيه وإغلاقها، ثم إخراجها لعد الإبر التي التصقت بها لمعرفة عدد الخُطَّاب الذي سيحظين به في ذلك العام. (المترجم).

(2) المقصود هنا هي الحرب الكارلية الأولى التي دارت في الفترة بين 1833-1840 وسببها هو مطالبة الأمير كارلوس بحقه في العرش بعد وفاة شقيقه فرناندو السابع واعتلاء ابنته إيسابيل له، تحت وصاية أمها الملكة ماريا كريستينا دي بوربون. يُعرف أنصار الأمير كارلوس بالكارليين، ومعرفة معنى هذا المصطلح لا غنى عنه حين يتقدم القارئ في قراءة الرواية. (المترجم).

يتساءل دونوسو متى سيأتون لحمل الجثة. يشك كثيرًا في أن تتوغل عربة عبر هذه الأراضي مع كل ما ينهمر من السماء. من يأتي فعلًا هو دييجو رويث. يدفعون له في الصحيفة بالقطعة مقابل كل خبر منشور. لا يُمكنه أن يفوِّت خبرًا شهيًا مثل هذا. بدأ مشواره منذ وصلته رسالة دونوسو، صديقه ورفيقه في العربدة الليلية. يجتاز دييجو الوحل الذي تشكلت فيه برك من الطمي ومسارات جارية من مياه الصرف الصحي لبعض البيوت المتواضعة القريبة. ليست زيارته الأولى للمنطقة، إذ كتب مقالًا عن «إل ثيرّبيو ديل راسترو» منذ عدة أشهر أدان فيه نقص اهتمام السلطات بالمعوزين، في واحدة من المرات القليلة التي سمح فيها مدير صحيفته له بالتطرق إلى موضوعات اجتماعية. من المحتمَل ألا يستمر الحي وقتًا طويلًا، لأن مجلس البلدية يريد أن يهدمه وأن يُرسل سكانه بعيدًا عن «جدار فيليبي الرابع»، السور الذي يطوِّق مدريد. يُحمِّلون الفقراء ذنب وصول جائحة الكوليرا إلى العاصمة بعد أن دمرت مناطق أخرى في إسبانيا وأوروبا. «عدم اهتمامهم بنظافتهم الشخصية يقتل المدينة». هذا هو ما يقولونه في الصالونات المدريدية.

يتمكن دييجو من تمييز دونوسو على بعد عشرين مترًا من وراء ستار الأمطار، ويحاول تسريع خطاه، لكن هذه المنطقة ليست حيًا قد يسير المرء فيه متعجلًا، ولهذا ينزلق في الوحل وترتطم عظامه بالأرض. يضحك طفلان عمرهما سبعة أو ثمانية أعوام، ويظهر فماهما المثلومان، فقلة قليلة من تحتفظ بكل أسنانها هناك.

يسخر أحدهما:

- على مؤخرته! لقد سقط على مؤخرته.

- فليتراجع الجميع إلى الوراء.

يُبعد دونوسو الأطفال بحركات مبالغ فيها، فيما ينفض دييجو بنطلونه وسترته وذيلها من دون جدوى. لن تنمحي هذه البقع بسهولة كبيرة.

يسأله:

- جثة أخرى؟

- أصبح العدد أربع جثث معها، أو أن هذا هو ما يقولونه.

لم يصل دييجو لرؤية الجثث السابقة. دفنوها قبل أن يتمكن الصحفي من رؤيتها، ومع ذلك، كتب خبرًا حول هذا «الوحش» الذي يمزِّق ضحاياه. لاقى

الخبر استقبالًا جيدًا، وحين مضى في طريقه إلى «إل ثيرّبيو» فكر في أن هذه قد تصبح فرصة جيدة ليرفع من قيمته في الأوساط الصحفية، وأنه قد يحكي مباشرة ما يفعله «الوحش»، لكنه بعد أن وجد أمام عينيه هذا الجسد مقطوع الأوصال الملطَّخ بالطين، صار يعرف أنه لن يعثر أبدًا على الكلمات المناسبة لوصف هذا الرعب، لأن موهبته لا تصل إلى هذا الحد.

- هنا! تعالوا إلى هنا!

هتفت إحدى الفتيات بهذه العبارة ببؤس من عند أحد المشاتل وقالت:

- إنه الرأس! سيأكله الكلب!

ينطلق دييجو راكضًا. يظهر رأس الفتاة، بين ساقَي الكلب الهزيل الذي أخذ يقطر ماءً، كأنه فزاعة. يقتلع لحم خدها، وهو ميت من الجوع، فيقذفه أحد الفتية بحجر ويصيبه في جانبه. يُطلق الكلب أنينًا متألمًا ويهرب من سيل الحجارة التي لا يكف الأطفال عن إلقائها عليه.

- إنها بيرتا. ابنة خينارو.

من قال إن اسم الفتاة بيرتا هو رجل عجوز نحيل. يشعر دييجو بوخز في قلبه وهو ينظر إلى رأس الفتاة الذي سقط في أحد المشاتل. ها هي ذي بجفونها المفتوحة وعضة الكلب الظاهرة في خدها وشعرها الأسود المجعد الذي يفترش الوحل. قد تدفع كل هذه الأمور المرء للحظة إلى تذكر صور عذراوات الكنائس. نظراتهن المنتشية والتائهة في السماء، هذه السماء التي لا تتوقف عن قيء الماء. هل تخيُّل الألم الذي عانته بيرتا أمر ممكن؟ دخل الأهالي في محادثة فوضوية ترسم حياة الطفلة، كأنها ضربات بفرشاة: عمرها اثنا عشر عامًا، استقرت مع والدها، خينارو منذ ثلاثة أو أربعة أعوام في هذه الأكواخ الخشبية. لا يعرفون شيئًا عنها منذ ما يقرب الشهر، مع ذلك لحمها سليم. لو أنها ماتت منذ فترة تتخطى يومًا، لأقامت الحيوانات، مثل الكلب الذي عقر رأسها، وليمة على شرفها. لم يكونوا ليجدوا شيئًا إلا عظامها.

- إنه «الوحش». لقد اصطادها «الوحش».

يتكرر هذا العويل بين الأهالي. لا يريد دييجو أن يصدق قصة «الوحش»، إذ تتمازج توصيفات ملأى بالهراء حول هذا الاسم من عدة شهود مزعومين. تحدَّث البعض عن دب، وآخرون عن عظاءة حجمها هائل. يظن البعض أنه شيء يبدو مثل الخنزير البري. ما هو الحيوان الذي قد يقتل بغرض المتعة

فقط؟! على حد معرفته، قُطعت أوصال كل ضحاياه، لكن أيًّا منهن لم يبد عليها أنها قد صارت طعامًا لهذه الفصيلة الحيوانية الوهمية التي تسكن ضواحي مدريد. الأمر الوحيد الذي يختبئ وراء اسم «الوحش» هو إحساس دبق لا شكل له ومُقلق جدًّا مثل هذه الأوصاف الخَرِفة: إنه الخوف.

نادى أحد الجيران صارخًا. عثروا على الساق الناقصة. ذهبوا من الجسد إلى الرأس ومن الرأس إلى الساق، لا بُد أن الذراع الأخرى في مكان ما. ربما ستظهر. يسرح الطفلان المثلومان هنا وهناك بحثًا عنها، كأنها لعبة.

تنغرس إطارات العربة التي يجرها بغل في الطين، ويصرخ السائق في دونوسو. يقول له إنه لا بُد من حمل الجثة إلى هناك، فهو عاجز عن الاقتراب أكثر من ذلك. يتردد صوت ثلاث ندّابات تجمّعن عند البيوت المتواضعة، فيما تحاول إحدى الأمهات إعادة أطفالها إلى مسكنهم، لكن انجذابهم لمشاهدة جثة مقطوعة الأوصال يتفوق على أي عقوبة قد تفرضها عليهم، ولهذا يرفضون تنفيذ أوامرها. يستمر البحث عن الكنز. أين هي الذراع الناقصة؟ سيُسمح لأول من يعثر عليها بضرب بقيتهم على أقفيتهم.

يرى دييجو ويسمع كل شيء كأنه داخل كابوس سخيف، هواجس العجائز المشؤومة وغياب عاطفة الصغار، ولا مبالاة بعض الرجال الذين يحيطون بالجثمان من دون أن ينظروا إليه وهم مشغولون بأمورهم، لكن هل هو أفضل منهم؟ لم يفكر وهو في طريقه إلى «إل ثيرّيبو» إلا في عدد الريالات التي سيتحصل عليها من هذا النبأ، إلى درجة أنه قد تخيل عنوان: «الوحش يقتل من جديد» على الصفحة الأولى من صحيفة «إل إيكو ديل كوميرثيو»، والعالم كله وهو يتساءل عن هوية «القط المستخِف»، الاسم المستعار الذي يوقّع به مقالاته دائمًا. فجأة يشعر أنه انعكاس للكلب الجائع وهو يتغذى على الموت.

تتوقف الأمطار، كأنها قد أدت هدفها بإضفاء طابع مأسَوي على اللحظة. تنقشع السماء، فينكشف معها رعب هذه المنطقة أمام العيان وأشلاء جسد الفتاة.

يحمل دونوسو جذع بيرتا بمساعدة السائق، ويتركه فوق العربة.

2

يبدو شارع «طريق القديس جيروم» للوثيا كأكثر مكان يرتاده الكهنة والراهبات والرهبان في العالم، فبداية من «بوابة الشمس» حتى متنزه «الرهبان الفرنسيسكانيين»، يصطف «دير النصر» وكنيسة «الحدث الطيب»، ودير «راهبات بينتو» و«صومعة الإيطاليين» ودير «الروح القدس». توجد بنايات سكنية كثيرة أيضًا. أغلبها من ممتلكات الكنيسة. يقولون أيضًا إن كثيرًا منها يسكنه كهنة. لا تُخفي فخامة دور العبادة عفن المدينة، إذ تتشكل أنهار مائية تجر القمامة التي يُلقيها الأهالي في أي مكان لأن شبكة المجاري سيئة. دفعت عاصفة الصيف كل السكان إلى الانعزال في بيوتهم، ولهذا لم يعد الشارع لبعض الوقت يمتلئ بالمجيء والذهاب التقليدي للأردية الكنسية.

احتمت بمظلة متجر نبيذ من المطر. تسقط دفقة ماء من الأعلى كأنها ذيل حصان فتتخيل لوثيا أنها تختبئ في مغارة وراء شلال شفاف. هذا هو الملجأ المثالي لطفلة عمرها أربعة عشر عامًا تتحدى الأخطار وتعيش متحدة مع الطبيعة. تُصفي شعرها الأحمر، كأنها تحممت للتو، فتتشكل بركة صغيرة عند قدميها. في خيالها، قد يأتي أي طفل جائع في أي لحظة بحثًا عنها كي يرجوها أن تشفي أبويه المريضين من الكوليرا لأنها تعرف كل العلاجات،

وأنواع الشراب السحرية التي يُمكن تجهيزها من نسغ أشجار هذه الغابة ومن سم العناكب.

تضيع لوثيا في أوهامها كأنها داخل متاهة، لكن ينتهي الأمر دائمًا بالواقع وهو يهدم زخارف خيالها. يرتبط الأمر في تلك المرة بصاحب متجر النبيذ الذي يغرز عينيه الشهوانيتين فيها. تشعر كأن هذه النظرة الثخينة تلامس نهديها. التصق فستانها المصنوع من القماش الخشن بمحاسنها بفعل المطر ورسم لها هيئة طفولية تُغري البائع، لكن لوثيا لن تختبئ، ولهذا ترد له نظرته بازدراء بعينيها السوداوين اللتين تحاوطهما خصلات شعرها الأحمر الناري. تتحداه هاتان العينان: «تجرأ فقط وتعال إلى هنا». تعلمت في غزواتها عبر المدينة أن آخر شيء يجب عليها إظهاره هو الخوف، إذ يعرف أهالي مدريد كيف يرصدونه، وينقضون على فريستهم كالضباع.

يشيح بائع النبيذ ببصره أولًا، فتتنفس الصعداء. صارت قدرتها على إخفاء الفزع هبة متكاملة الأركان، لكن أعماق لوثيا فارت حقًا بالقلق -كأي طفلة- مما كان هذا الرجل ليفعله بها، ومن احتمالية اضطرارها إلى مغادرة المكان. لم ترد لوثيا أمرًا كهذا، فهي لا تقف تحت مظلة متجر النبيذ بالمصادفة، وإنما لأن هذا المكان يمنحها رؤية مميزة للطابق الأول من البيت المقابل. ثمة شرفة مفتوحة فيه، على الرغم من الإعصار، ويتسلل الماء عبرها. ظلت هكذا منذ عدة أيام، من دون أن يُغلقها أحد لحماية دواخل المكان. إنه مجرد تفصيل صغير. ربما لم يلحظه أحد، باستثناء لوثيا.

رأت منذ أسبوع الرجل الذي يعيش في هذه الشقة، وهو عجوز تخطى عمره خمسين عامًا على الأرجح. لاحظت مشيته المترنحة ولونه الضارب إلى الزرقة وسلوكياته السخية المحسِنة للفقراء، فاستنتجت أنه رجل دين يرتدي ملابس مدنية من ضمن رجال الدين الكثيرين الذين يعيشون في شارع «طريق القديس جيروم». سار آنذاك في صحبة شاب واستند إلى ذارعه، مع ذلك لم يكن مظهر هذا الشاب أفضل منه، إذ ألقت عظام مُحياه بظلالها على تقاسيم وجهه، فبدا كجثة مشّاءة. مضت وراءهما حتى وصلت إلى البيت الذي تراقبه الآن، وصارت مقتنعة بأنهما أصيبا بعدوى الكوليرا. تُخبرها الشرفة المفتوحة على مصراعيها، على الرغم من العاصفة، بشيء آخر: يرقد جثمان كل منهما بعد أن فارقا الحياة وراء الستائر المبتلة والقذرة التي تعصف بها الريح، وتنتظرها أغراض كثيرة قيمة في الداخل لن يحتاج إليها لا رجل الدين

ولا الشاب بعد الآن. يعيش الكهنة في رخاء، وبما أنهما قد ماتا الآن، لن يحتاج أحد إلى هذه الثروات أكثر منها. يُمكنها أن تبيعها وأن تشتري طعامًا ودواء لأمها كانديدا. سقطت هي الأخرى في شباك الكوليرا التي تُضنيها وسط عجز أختها كلارا صاحبة الأحد عشر عامًا عن تفهم أن أمهما تذوي كشمس غاربة، وأنه ما من شيء يُمكن فعله كي تبقى مزيدًا من الوقت معهما.

ترى عربة دار الجنازات وهي تمر. إنها مجرد صندوق فوق أربع عجلات يجره حصانان يقودهما رجلان يرتديان زيًا موحدًا. تفكر لوثيا: «لا بد أن شخصًا مهمًا قد مات». لو أنه ليس مهمًا، لحملوه على محفة. لم تعد الأجراس تدق من أجل الموتى، لأن الحكومة ترى أن الرنين الجنائزي يملأ الناس بالسوداوية. الصمت هو القاعدة السارية الآن، لهذا لا تدق الأجراس مع كل ضحية جديدة. زاد عدد الموتى على الحد مع جائحة الكوليرا التي تجتاح المدينة منذ شهر، ولهذا تغير التدبير الأول الذي اتخذته السلطات من عزل الأصحاء إلى عزل المرضى.

تعبر لوثيا الشارع ركضًا، حين ترى باب المبنى ينفتح، إذ تستغل خروج سيدة مسنة كي تتسلل إليه. بينما تصعد إلى الطابق الأول، ينبض قلبها بقوة شديدة. تتخيل أن العالم كله سيخرج إلى صحن السلم ليرى ما يحدث. مع ذلك، لم يظهر أي ساكن. لا يمثّل الباب أي مشكلة. تستغرق ثواني قليلة في فتحه بملقطين رفيعين. قد تملأ بطنها اليوم بفضل الألعاب التي مارستها وهي تنشأ في حي «لاس بينيولاس»، حينما تنافسوا لمعرفة من الأسرع في فتح الأقفال الصدئة القديمة.

يُصيبها الإحباط حين تدخل. المسكن متواضع، على الرغم من فخامة البناية من الخارج. ربما لن تعثر هنا على الممتلكات التي توقعتها. ثمة كتب متراكمة هنا وهناك. يظهر فوق أحد الأرفف صندوق زجاجي في داخله نباتات. تقف بلا حراك بضع لحظات قبل أن تتخطى الردهة، على الرغم من انعدام المؤشرات على وجود أحد. تفعل هذا الأمر تحسبًا لسماع أي ضوضاء. بلل الماء أرضية الغرفة الرئيسية، مع ذلك لن تغلق الشرفة، لا تريد المخاطرة بأن يلمحها أحد، ولهذا تتوخى الحذر وهي تتحرك كي لا تغدو مرئية من الشارع. عليها أن تُسرع، ففي الثامنة تُغلق «بوابة طُليطلة» التي يجب أن تجتازها لتعود إلى بيتها.

لا توجد أشياء قيِّمة تقريبًا، هنالك شمعدان وبعض أدوات المائدة التي قد تكون من الفضة وعملات. تضع كل شيء في حقيبة قماشية تعثر عليها في المطبخ، وتلاحظ أنه وراء رائحة الرطوبة التي خلَّفتها العاصفة في الشقة، ثمة رائحة أخرى لاذعة ونفاذة، رائحة الموت.

تفتح الغرفة وترى شيئًا ما متكتلًا فوق الفراش. تيبست جثة الشاب فوق الملاءات وهو لا يزال في ملابسه. يقولون إن الجثث قد تُصيب المرء بالعدوى، لكن الأمر لا يهمها. تُفتش في جيوب الميت وتنتشل منها بعض العملات. لا يرتدي ساعة أو حُليًا، وإنما صليبًا لا يبدو قيِّمًا. تقرر أن تتركه مكانه لعله جواز مروره إلى السماء، أو ما سيدفعه إلى خارون[1]. لا يوجد أي شيء جذاب في الغرفة يمكن أن تواصل ملء الحقيبة به، باستثناء الكتب، والمزيد من الكتب، لكنها لا تهمها، فهي لا تميز الحروف تقريبًا.

يرقد رجل الدين في الغرفة التالية، لا على الفراش كسابقه، وإنما على الأرض في وضعية غريبة، ولونه هو لون موتى الكوليرا ذاته الضارب إلى الزرقة. تفتش الجثة أولًا، ولا تعثر على شيء. ترى معطفًا معلقًا فوق مشجب. إنها حلة مراسم بنية من الجوخ الصوفي. ترتديها وهي تفكر في أمها، على الرغم من أنها واسعة جدًّا عليها. تتيه يداها داخل الكُمين. تستمر في تفتيش الغرفة، وهي تجر المعطف على الأرضية، بحثًا عن شيء يستحق العناء. تعثر عليه في النهاية في صندوق خشبي منحوت، ثمة خاتم ذهبي داخله يبدو كختم، وعليه رسم لشيء يبدو كمطرقتين متقاطعتين.

تسمع بابًا يُصفع ومن بعده على الفور صوتًا لرجل:

- أبانا إجناثيو!

دخل أحد ما. تشعر لوثيا أنها مُحاصَرة. من المستحيل أن تخرج في الخفاء. تتسلل أسفل الفراش قبل ثانية من اقتحام الدخيل للغرفة. تحتضن الحقيبة القماشية بغنيمتها الضئيلة، العملات، والخاتم، والفضة، وأشياء أخرى قليلة. من موقعها تقدر على رؤية جثة رجل الدين بتيبُّسها المفزِع. فجأة تلتف الجثة نحوها، كشخص يتقلب على فراشه بحثًا عن وضعية أفضل.

---

(1) شخصية من الميثولوجيا الإغريقية، وهو منوط بتسهيل عبور الأرواح لنهر ستيكس على متن قاربه مقابل الحصول على عملة تُدفن مع أجساد أصحابها وتوضع في فمهم حين توافيهم المنية. (المترجم).

يرسم تخشب الموت على وجه صاحبها ابتسامة بهلوان حزين. تكتم لوثيا صرختها حين تتفهم أن الشخص الذي وصل للتو يفتش الميت بحثًا عن شيء ما. لا بد أنه قلب جثمانه لفحص جيوبه.

لا تتجرأ على التنفس. تبتعد قدر استطاعتها، وبينما تفعل هذا، تتعثر يدها بشيء تتبين أنه عصا فرشاة. هل جرت العصا حين لمستها بيدها؟ هل أصدرت ضوضاء؟ لا تعرف. تسمع تنفسًا ثقيلًا ولاهثًا ينسحق تحته تنفسها الأشبه بحيوان صغير مفزوع. تلاحظ لمسة ما في قدمها اليمنى، فتتمنى بكل قواها أن يغدو مجرد وسواس أو أن تكون قدم الجثة قد لامستها في واحدة من الاختلاجات التي تعانيها. لكن الأمر ليس هكذا، إذ تقبض يدٌ ما على كاحلها وتجذبها بقوة. لقد كشفها الدخيل!

تُمسك لوثيا بعصا الفرشاة وتضرب بها بقوة نحو الأسفل بحثًا عن اليد والوجه الذي يظهر من تحت الفراش. تستنتج من صرخة ألم أنها تمكنت من إلحاق الأذى به، على الرغم من أنها تدافع عن نفسها كعمياء. بات لديها الآن ثوانٍ قليلة. تعرف هذا الأمر جيدًا. تخرج من الجانب الآخر للفراش، وهي مسلَّحة بالفرشاة في يدها، كي تهرب بسرعة قدر استطاعتها.

تكتشف وهي تنهض أن أمامها رجلًا ضخمًا، يتخطى طوله سبعة أقدام تقريبًا ويظهر لحمه الحي في نصف وجهه المحروق، الذي يبدو ورديًّا أكثر من كونه أحمر. يتألم من فمه حيث يبدو أن الفرشاة قد أصابته وينظر إليها بغضب. لا تفكر لوثيا في الأمر مرتين، إذ تضرب بطن العملاق بطرف العصا. حين ينثني جسده من الألم، تنطلق راكضة نحو الباب وهي تقبض على حقيبتها القماشية جيدًا وتجر الرداء وراءها، كأنه ذيل فستان عروس هاربة. تنزل فوق قطاعَي الدرج، وتخرج إلى الشارع من دون أن تنظر وراءها. تعرف أن الرجل يلاحقها. ترعد صرخاته في بئر السلم وها هي ذي الآن تتردد في الشارع.

- أمسكوها! أمسكوا اللصة.

ينظر بعض الفضوليين لكن لا يُبدي أحد منهم استعداده لمساعدته في ملاحقتها، فتستمر لوثيا في الركض.

- من هنا.

مَن يناديها عند مدخل أحد دكاكين الفحم فتى أصغر منها بقليل، عمره نحو ثلاثة عشر عامًا. ربما هو فخ لن تنجح في الخروج منه، لكنها ليس لديها خيار آخر سوى الوثوق به. تمر عبر جبال من الفحم وتخرج إلى فناء خلفي، ثم تصل من هناك بعد القفز من فوق سياج إلى شيء يبدو حديقةً لأحد الأديرة. تجد نفسها فجأة في مكان هادئ وجميل ونظيف وصامت يضم طرقًا صغيرة من الحصى ونافورة حجرية في منتصفه. تبدو أجواؤه كأنها متشربة بانتعاش الماء وتطفو فيها رائحة الأرض المبتلة بسبب العاصفة.

- من الأفضل أن ننتظر هنا برهة قبل أن نخرج. على الأقل إلى أن ينفضَّ جمع الشارع. لن يحدث شيء لو قلتِ: «شكرًا جزيلًا يا إيلوي».

تمعن لوثيا النظر في مُساعدها غير المنتظَر. إنه ولد شعره خفيف ويرتدي بنطلونًا صغيرًا باليًا، ونظرته مفعمة بالحياة.

- سيغلقون «بوابة طليطلة» عليَّ.

- يمكنكِ أن تبيتي في مدريد، داخل السور. أعرف أماكن كثيرة. يصل الأمر إلى درجة أن لدينا قصورًا خاوية.

- لا يُمكنني أن أفعل هذا. عليَّ أن أعود إلى أمي.

يسمح إيلوي لابتسامة ساخرة بأن ترتسم على وجهه.

- تسرقين الموتى، لكنكِ لا تودين مضايقة أمك! يا طائر الطنان.

يلعب إيلوي بشعرها الأحمر بِمَكر، فتكبح رغبتها في صفعه، والصراخ في وجهه بأن أمها تحتضر، وبأن هذه قد تغدو ليلتها الأخيرة على قيد الحياة إن لم تذهب إلى البيت ومعها المال لإطعامها. مع ذلك تختار أن تكز على أسنانها وتُدمدم:

- اسمي لوثيا. لا أعرف ما هو طائر الطنان هذا. لم أطلب منك أي مساعدة، ولهذا ليس عليَّ أصلًا أن أشكرك.

يمضي إيلوي في حديثه كأنه لم يسمعها ويُخرج قبعة من جيبه ويقحمها في رأسه:

- شتتهم يا طائري الطنان. اخلعي حلة المراسم هذه، وإلا فستتعثرين وسيقبضون عليكِ.

يُسلمها بعدئذٍ ساعة مزودة بسلسلة.

- خذي، لا أريد أن تضيع مني. سرقتها للتو من طالب وصرت منهَكًا بعد الساعتين اللتين قضيتهما وأنا ألف وأدور حول «بوابة الشمس». أرجعيها إليَّ غدًا في الثانية عشرة في ميدان «الحطب». سأجعلهم يطاردونني، واذهبي أنتِ من الناحية الأخرى.

قبل أن تتمكن لوثيا من قول أي شيء، يتسلق إيلوي سياج الدير ويقفز إلى الشارع، وينطلق راكضًا في اتجاه متجر النبيذ الذي احتمت هي بمظلته في وقت سابق. يجر عددًا من الزجاجات المعروضة عند الباب، فيجذب اهتمام العملاق الذي يقف مع اثنين من الحراس.

تضع لوثيا المعطف في الحقيبة وتشم وهي لا تزال فوق السور رائحة النبيذ المسكوب. ترى إيلوي وهو يهرب برشاقة. خلق حالة كافية من الارتباك كي تتمكن من القفز والفرار عبر شارع «طريق القديس جيروم» نفسه، لكن في الاتجاه المعاكس. تقبض على الحقيبة التي سرقتها من بيت ميتَي الكوليرا بإحدى يديها، وتمسك في الأخرى بالساعة التي ناولها لها إيلوي. ستذهب ظهيرة الغد إلى ميدان «الحطب» لإعادتها إليه.

3

أصبح جثمان بيرتا، أو ما تبقى منه، فوق العربة التي يجرها البغل: الجذع والذراع والساق المتصلة به والأخرى المنفصلة عنه. وضع السائق تلك الأخيرة فوق معدتها بالعرض كأنها قطعة حطب، أما الرأس فتواثب مع اهتزاز الإطارات فوق الأرض الوعرة، بعينيه المفتوحتين وبؤبؤيه المحجوبين بالقماش وهما ينظران إلى الشمس المتوهجة فوق الوحل. يبتعد سكان بيوت «إل ثيرّيبو» المتواضعة عن طريقه. يرشم أحدهم الصليب وتبكي بعض النساء، وتعود أخريات إلى مشاغلهن، فيما يتجمع بعض الرجال في دائرة وهم يطالبون بالثأر. يريدون أن يخرجوا للبحث عن «الوحش»، كأنها رحلة صيد. كل ما يحدث جرأة زائفة.

يقترح دونوسو:

- انتهينا من كل شيء هنا. هيا بنا؟

- إلى أين ستمضيان بها؟

- إلى «المستشفى العام». أما بعد ذلك، سيدفنون رُفاتها في مكان ما.

يود دونوسو مغادرة «إل ثيرِّيبو ديل راسترو» وارتداء ملابس جافة واحتساء بعض أكواب النبيذ، أو ربما من الأفضل أن يشرب بضع كؤوس من «الأجوارديينتي» لإخراج البرد من عظامه، وإنهاء دوام عمله، العمل الذي لا يروقه، العمل الذي لا يهمه. مع ذلك يصر دييجو على البقاء ليتحدث مع أحد يعرف الطفلة بيرتا، ابنة خينارو.

- اذهب وحدك. لن يود أحد أن يتحدث معك إن وَجد شرطيًّا إلى جوارك.

حتى وإن كان شرطيًّا ذا سمات عسكرية قليلة مثل دونوسو وينفذ مهام وظيفته متململًا، لأنه في نهاية المطاف يرتدي زيهم الموحد، وما دام يرتديه، لن يثق به أحد من أهالي أقل مناطق مدريد نفوذًا.

- أنت تعرف كيف هو الأمر. ليست أول مرة تتجول فيها عبر هذا الحي. لا بُد أنك على دراية بأن فائدة دموع هؤلاء القوم هي إلهاؤك لسرقة محفظتك.

- ارحل مطمئنًا. سأمر لاحقًا على المستشفى، تحسبًا لظهور أي معلومات إضافية مفيدة في إكمال المقال.

يبتعد دونوسو بإنهاك كما هي الحال دائمًا، فيما تغطس قدماه في الطين. ينتبه دييجو إلى نظرات أهالي «إل ثيرِّيبو». يرتدي الصحفي زنارًا أحمر، ودثارًا وسروالًا من القماش المخملي، ويحتفظ بعذارين عريضين، فيما أن شعره مصفف على شكل حلقات، تماشيًا مع الموضة الرائجة. كونه ليس من أبناء الحي الذي يسكنه رثُّو الثياب أمر واضح، لكنه ليس أيضًا ابن ذوات من أصحاب الشعر المرفوع فوق جبهاتهم الذين يرتدون حلل المراسم، وإنما شخص يمكنه أن يحمل سكينًا مخفيًّا في زناره، بل ورجل قادر على الدفاع عن نفسه إن تطلب الأمر. سلوكياته حاسمة، بل وتميل إلى المناكفة، مع ذلك لديه نظرة كئيبة كأنه شاعر فرنسي، وهي تركيبة لا تقاومها النساء اللاتي يحوم حولهن غالبًا بإفراط.

بسؤال أولئك وهؤلاء وعبر استخدام خفة روحه وجاذبيته -أو ربما أن ملابسه الملطخة بالطمي هي ما جعلتهم يثقون به بصورة أكثر- يصل في النهاية إلى طفل يقسم إنه قد رأى «الوحش».

- عرضه عرض رجلين معًا، وعيناه حمراوان كالدم، رأيته ذات ليلة خارج «الجدار». أصدر صوتًا مثل الخنازير، لكن جلده بدا كالسحالي.

- قال لي آخرون إن جسده مكسو بشعر كفراء الدببة.
- أجل، بالضبط. فراء الدب وأسنان الخنزير البري.

يعرف أن الولد ينقاد وراء خياله أو ربما يرتبط الأمر بحماسه للعب دور البطولة. ها هي ذي المزيد من الصور السخيفة لهذا «الوحش»، كتلك التي قدمها تاجر الملابس القديمة الذي اكتشف واحدة من ضمن الجثث الأخيرة. قال إن «الوحش» رباعي القوائم، وله رأس إنسان يعلوه قرنان ضخمان، كأنه فصيلة من الأيائل البشرية. حين يجتهد دييجو في البحث عن العناصر المشتركة بين مختلف الشهادات، لا يجد واحدًا منها. لكن بغض النظر عن حقيقة السمات البشرية المنسوبة إليه، لماذا قد يتجول حيوان خارج جدران المدينة أصلًا ويختار ضحاياه بإتقان؟ يجد نمطًا بالفعل حين يصل إلى هذه النقطة، كل ضحاياه بنات اقتربن قليلًا من سن البلوغ. لو أن هذا «الوحش» قوي جدًّا كما يقولون، فلماذا ينتقي أضعف الضحايا؟ على ما يبدو إنها أسئلة لا تهم أحدًا سواه، فهو الصحفي الوحيد الذي كتب عن هذه الحوادث، لا لأنه حصل على أي معلومات حصرية، وإنما لأن قُرَّاء الصحف لا يريدون في الحقيقة أن يعرفوا شيئًا عنها. من قد يهتم بفتيات يعشن في أشد الأحياء بؤسًا مثل بيرتا؟ إنها أماكن يزورها الموت باستمرار، سواء جاءت الدعوة من الجوع أم الكوليرا أم «الوحش».

يتوقف دييجو إلى جوار رجلين يُخططان لمطاردة.

- هل عرف أحدكما خينارو؟
- اختفى هو الآخر، بعد الطفلة بقليل.

يتحدث رجل عيناه زجاجيتان مع دييجو عن خينارو، والد بيرتا، وهو يرتعش، كأن جسده أفرط في تشبعه بـ «الأجواردييتني»:

- كان يتحصل على بعض الريالات من بيع الـ «جوانو». عاش من هذا الأمر هو وابنته، أو بالأصح، عاشا بمشقة.
- اذهب إلى «حظيرة الدم». يتحصل على الـ «جوانو» من هناك. قد تجده هناك، على الرغم من أنني لا أعلم هل سيرغب في معرفة ما فعله «الوحش» بابنته. بالطبع لا أود أن أكون أنا من يحكي له الأمر.

يُفضل دييجو الذهاب إلى المستشفى. لا تغريه فكرة إبلاغ خينارو بخبر مقتل ابنته، لا سيما في ظل هذه الظروف. سيصل نبأ مقتل بيرتا إلى مسامع

أبيها، كعدوى الكوليرا. ربما سيذهب ليزوره، حين يعرف ما الذي يريد أن يستجوبه بخصوصه ويقتنع بأن النبش في ذاكرته يستحق العناء.

يقع المستشفى العام إلى جوار شارع «أتوتشا»، بالقرب من منزله، وبُني فوق الموقع السابق لـ «مستشفى الفقراء». إنه أكبر مستشفى في مدريد يتسع إلى ألف وخمسمائة مريض -تسعمائة رجل وستمائة سيدة- ويتضمن أربعة وعشرين جناحًا كبيرًا. انتهى المطاف برفات بيرتا هناك، لكنه أيضًا المكان الذي يُقاد إليه مرضى الكوليرا. لا تتمكن حتى أبعاده الضخمة من استقبال هذا الكم من المرضى الواصلين، إذ يتكومون في مختلف أركانه بداية من ممراته وحتى بهوه، وكثيرٌ منهم في حالة احتضار.

- كان عليك ألا تأتي، فهنا تُسحَب تذاكر يانصيب الكوليرا. إنهم يشيِّدون مستشفى جديدًا للجائحة وحدها في الموقع القديم لمصنع مملحات لحم الخنزير، في ميدان «القديسة بربارة»، عند السجن، لكنه لن يصبح جاهزًا حتى الشهر المقبل. في الوقت الحالي، لا يمكننا هنا إلا فعل القليل. يصل إلينا أيضًا مرضى من «بيت إغاثة القديس كاجيتان». إنهم يعجزون عن استقبال المزيد هناك، وصار عشرات الأطباء مرضى.

بفضل إصرار دييجو لم يتكرر ما حدث في المرات السابقة، إذ لم يُنقل جثمان بيرتا مباشرة إلى المقبرة من دون أن يفحصه طبيب، على الرغم من أن هذا الطبيب هو الدكتور ألبان، وهو مجرد شاب أمرد تحت التمرين يُكلفه الأطباء المتمرسون بمهام لا يرغب أي منهم في تنفيذها. تعد القاعة التي يقبع بها جثمان بيرتا معتدلة الحرارة إن قُورنت ببقية المستشفى، وبخاصة أنها بداية الصيف المدريدي. مع ذلك تعجز نافورة مياهها التي لا تتوقف عن إخفاء الرائحة النتنة التي تُباغت المرء بمجرد دخوله، وهي المسألة التي تُشوش دييجو على الفور.

- تحمَّل. ما من أحد يعتاد هذه الرائحة.

لم يسمع دييجو عن مستودع للجثث باستثناء «جراند شاتليه» في باريس. تُعرض هناك، في قاعة داخل بناية تضم محكمة وسجنًا ومقرًّا للشرطة، الجثث التي تظهر في الشارع كي يراها الكل ويسهل التعرف على هوية أصحابها. على الرغم من أن هذا الأمر قد يبدو خيالًا، فهذا المكان كان منذ سنوات قليلة ملتقى وشيئًا أشبه بمعرض عام للباريسيين. على أي حال، هذه

القاعة المدريدية مختلفة. ثمة طاولتان رخاميتان وخرطوم متصل بصنبور لتنظيف الرفات. يقع جثمان بيرتا فوق إحداهما.

- لم أتمكن من التعمق في عملية فحصها بعد. حالتها ليست عاجلة بقدر مرضى آخرين لا يزالون على قيد الحياة. يمكنني فقط أن أظهِر لك شيئًا.

يضع الطبيب قطعة ذهبية في يد دييجو. إنها شارة من تلك التي تُعلَّق في طية الصدر. يبدو شكلها كعلامة الضرب. إنها علامة ضرب مكونة من أداتين. إنهما مدقان، أو بالأصح مطرقتان.

- ما هذا؟
- لا أعرف. وجدته مغروزًا داخل فم الفتاة، وراء اللُّهاة.
- ما هي اللُّهاة؟
- إنه ذلك الشيء الذي يشبه الجرس الصغير عند سقف الفم، أما كيفية وصول الشارة إلى هذا المكان، فهو سؤال ليس لديَّ إجابته.

ينظر دييجو بإمعان إلى الشارة التي يبلغ طولها سنتيمترين تقريبًا. لا يزال هنالك أثر داكن في دبوسها. إنها بقايا من دم بيرتا. أي يدٍ قدرت على غرز هذه الشارة هناك؟ هل هي رسالة؟ لا بد أن آلبان قد لاحظ ارتباك دييجو أمام هذا الاكتشاف، لأنه يبتسم ويعرض عليه مقعدًا ليجلس عليه.

- لا داعي. الأمر وما فيه أنني لم أنتظر شيئًا كهذا. كل ما سمعته حتى الآن بخصوص حوادث القتل التي تشبه مقتل هذه الفتاة يرتبط بوحش ما، بكائن يبدو أنه ينتمي إلى عالم الخرافات وليس الواقع، لكن هذا الأمر... الشعار. من يقتل هؤلاء الفتيات إنسان.
- لا أعرف. هل فهمتُ ما قلتَه بصورة خاطئة؟ أم أنك قلت: «حوادث القتل التي تشبه حادثة هذه الفتاة»؟ هل وقعت حوادث أخرى؟
- نشرتُ عن الأمر في «إل إيكو ديل كوميرثيو». أفترض أنك لا تقرؤها أو أنك لا تتوقف عند الأخبار القصيرة في الصفحة الرابعة، ظهرت جثث ثلاث فتيات أخريات على الأقل وفي حال مشابهة. لا بد أن تعرف مدريد ما الذي يحدث خارج «الجدار».

تنتقل نظرة آلبان الآن إلى رفات بيرتا الراقد فوق الطاولة الرخامية. يقترب بحرص ويفحصها بنظرة جديدة. يتوقف عند الذراع المبتورة. يتفقد بإصبعه خدشًا على شكل دائرة في معصمها المتيبس.

- لا أعرف كيف نُفِّذت هذه المجزرة، لكن هل يمكنك أن ترى تمزق المعصم هذا؟ هذه الفتاة كانت مقيَّدة!

- أعرف ما هو وضع المستشفى وكمية الحالات التي يجب عليك أن ترعاها، لكن هل يمكنك أن تجري فحصًا أشمل للإصابات؟ ربما تكتشف خيطًا ما عن هوية مرتكب هذا الفعل البربري.

يعده الدكتور آلبان:

- أتمنى أن أجد الوقت المناسب، بالصورة نفسها التي أتمنى بها أن يكون ما يقوله الكهنة صحيحًا، ألا وهو أن الرب يختار من سيعاني الكوليرا. على العالي المتعالي أن يصيب الشيطان الذي اقترف هذا الفعل المتوحش بالعدوى.



يُعد حي «لاس بينيولاس»، الواقع على الجانب الآخر من «الجدار»، أفضل بقليل من «إل ثيرِّيبو ديل راسترو». لا يبعد أكثر من مائة متر عن «متنزه الأكاسيا» أو «طريق السفراء»، لكنه يبدو عالمًا آخر. تعيش لوثيا مع أختها كلارا وأمها كانديدا في بيت له دهليز وباب صغير مقوس من الأعلى يطل على فناء شبه منحرف. تتفرع من الفناء أروقة ملأى بغرف مساحتها أربعة أمتار مربعة قد يعيش فيها -حتى وإن بدا الأمر خيالًا- خمسة عشر أو عشرون شخصًا. حالفهن الحظ، فهن ثلاث فقط في غرفتهن. تمكنت أمها حتى الآن من دفع الإيجار من غسل الملابس في النهر، لكنها سقطت في شباك المرض ككثير من الأشخاص الذين يسكنون في عقار متكدس كهذا. ليس للحي شوارع معبدة وتقتصر إضاءته على مصابيح غاز بالية ويُجبرهن انعدام الماء الجاري على اللجوء إلى أربعة صنابير تُغذيها مياه نهر «إل لوثويا» في منهل الميدان، كما أن قليلًا من مساكنه فيها مراحيض، وكلها في الهواء الطلق إلى جوار مقالب القمامة. تبدأ المجارير الوحيدة الموجودة في الحي من شارع «الحارث» وتنتهي في شارع «الغار»، فيما تمتلئ كل أنحائه بجداول من ماء

الصرف الصحي. يتكون «لاس بينيولاس» من عِشش، لكن تبرز بعض المباني الصلبة: مصنع أسرّة «السيد دوتو» وبيت «عائلة لاورجا» ومصنع «طحين لورينثالي».

حين دفعت لوثيا الباب، لم يكن الليل قد حل بعد، فليلة القديس يوحنا هي الأقصر في العام. تعثر الآن على امرأة كبيرة في السن. إنها السيدة دي بيافرانكا من «المجلس الخيري». تجدها تعتني بأمها وتسقيها الماء المثلج الذي جلبته في زجاجة. يؤكد فستانها المضلع الأنيق ومشدها وقفازها المصنوع من جلد الجدي أنها غريبة عن «لاس بينيولاس». إنها واحدة من ضمن النساء اللاتي يلتزمن بالأعشار الطيبة مرضاة لربهن. تأتي أحيانًا لتجلب لهن الطعام والملابس المستعمَلة. تسند كلارا رأس أمها، وهي مفزوعة، كي تتمكن من الشرب. تؤطر خصل شعر شقراء قذرة تكاد أن تكون ضاربة إلى البياض مُحيا كانديدا التي تُحيِّي لوثيا بابتسامة ضعيفة.

- أحتاج إلى ماء فاتر وخِرق. لا بُد من إنزال حرارتها.

تُبلغها كلارا:

- ليس لدينا خِرق. أخذها الحراس.

إنه أحد قرارات السلطات التي لم يفهمها أحد، مروا على أحياء ما وراء «الجدار» وصادروا كل الخرق، بيتًا تلو الآخر، بذريعة أنها السبب وراء تفشي الكوليرا.

تُخرج السيدة دي بيافرانكا منديلها المعطَّر وتفرك جسد المريضة بالماء والخل، فهذا هو التصرف المعتاد، على الرغم من أنه ليس معروفًا ما إذا كانت له فائدة أصلًا. تنطبق المسألة نفسها على رشفات الثلج.

- سأعود غدًا ومعي مسحوق الزرواند.

- هل هو ذلك النبات الذي يدعونه «الأفعوانية»؟ يقولون إن الحصول عليه مستحيل.

- أنا أعرف أين سأجده.

تُفكر لوثيا في أن ما قالته طبيعي، لا يقدر الفقراء على الوصول إلى هذا النوع من علاجات الكوليرا، لكن الأمر نفسه لا ينطبق على شخص مثل السيدة دي بيافرانكا. مع ذلك، تُخرج حفنة من العملات من حقيبتها القماشية:

- يُمكنني أن أسدد ثمنه.

- احتفظي بها. ستحتجن إليها. لا أعرف كم من الوقت ستبقين في هذا البيت. يقولون إنهم سيهدمون البيوت.

تسري هذه الشائعة منذ بضعة أيام. يلقون بذنب الكوليرا على الفقراء كتُراب تقذفه المجاريف. يريدون هدم أحيائهم ونفيهم بعيدًا عن مدريد. لا يكتفون بإغلاق بوابات «الجدار» والسيطرة على اجتيازهم لها فقط، وإنما يريدونهم بعيدًا تمامًا عنهم، بل إن لوثيا مقتنعة بأنهم يريدون موتهم.

- سأترك لكما قليلًا من الخل. أذيبا بعضًا منه في قدر من الماء المغلي واسقياها إياه لإجبارها على القيء. ستتحسن غدًا.

تنهض كانديدا وهي تتألم وتعانق السيدة دي بيافرانكا. قد يبدو الأمر تعبيرًا عن الامتنان، لكن ما تبدؤه في الحقيقة هو رجاء يائس. تهمس ببعض الكلمات في أذنها بصوت لاهث من فرط الجهد الذي تبذله:

- لا تتركي ابنتيَّ وحدهما

- ستتعافين يا كانديدا. تحلي بالإيمان.

- إنهما صغيرتان جدًّا. اهتمي بهما، بحق الرب. ليس لديهما أحد.

تُمسد السيدة دي بيافرانكا بأصابعها شعر الأم المريضة الذي يشبه القش. تُقبِّلها في جبهتها قبل أن ترحل. تنظر كلارا إلى أمها بعينين ملآنتين بالدموع من فرط تأثرها. صحيح أن عمرها أحد عشر عامًا، لكنها قادرة على التعرف على مظاهر الوداع. مع ذلك ليست مستعدة لقبوله.

- لا أريد أن ترعاني هذه السيدة. أريد أن ترعيني أنتِ.

تحاول كانديدا الابتسام في وجه كلارا، لكن تعبيرها يتحول إلى إيماءة غريبة تتشبع بالألم. ترقد فوق حاشية الفراش بإنهاك. تُخرِج لوثيا من حقيبتها المعطف الذي سرقته من شقة شارع «طريق القديس جيروم» وتُدثرها به.

- أمي، لديَّ مال كافٍ كي نأكل بضعة أيام.

تُضيق كانديدا عينيها، وهي منكمشة أسفل المعطف، لتحتمي بحرارته، فيما تتهلل أسارير كلارا.

- من أي مكان جئت به؟

تبتسم لها لوثيا.

- اكتشفت نافورة سحرية في مدريد. تضعين فيها الحجارة الصغيرة، كالحصى، فتتحول إلى ريالات.

- إذن يجب أن يصبح العالم كله ثريًا.

- لا، لأنه يجب أن توضَع فقط بعد أن تمطر وتلمع النافورة من ماء المطر، حين تُشرق الشمس تحديدًا وتسقط أشعتها فوقها. أنا الوحيدة التي تعرف هذا الأمر.

- عليك أن تعلميني إياه.

تُهمهم كانديدا وسط نعاسها وتكسر التعويذة:

- لا أريدك أن تسرقي يا بُنيتي.

تقطب لوثيا وجهها. ليست أول مرة تتطرق المحادثة إلى هذا الموضوع. تلح أمها عليها كي تَخلُفها في مغسلة «باليتين» على ضفة نهر «مانثاناريس». لطالما قالت لها: «كوني امرأة شريفة. لا تتسكعي مع نشالي المدينة. ابقي عند هذا الجانب من الجدار. ما من شيء في مدريد جيد لنا». إنها الحكاية نفسها التي كررتها على مسامعها يومًا تلو الآخر. لكن ما هي فائدة أن يكون المرء شريفًا؟ فحتى لو تمكنت من الحصول على مكان أمها في النهر، فلن تكسب مالًا كافيًا لجلب الطعام لثلاثتهن. ما هي الفائدة من أن يكسر المرء ظهره وهو ينظف قذارة الأغنياء؟ أن يموت من الإنهاك، بخلاف موته من الجوع، كما كانت حال أمها دائمًا؟ على الرغم من أن عمر لوثيا أربعة عشر عامًا، فهي لم تعصِ أوامر أمها إلا مرات قليلة. ساهم في ردعها قصص ساكنات حي «لاس بينيولاس» اللاتي حاولن كسب قوت يومهن في المدينة، فأصبحن مومسات أو تعرضن إلى الاغتصاب والضرب بالعِصي أو صرن مريضات ولهن ألف ابن. مع ذلك تختلف الأمور الآن، سقطت كانديدا في براثن الكوليرا وصار

جلب الطعام مسؤولية لوثيا، لهذا عزمت على أن تستكشف المدينة وأن تبحث عن هذا المال الذي لا ينبثق من نافورة سحرية، وإنما من بيوت الموتى. هذا هو السر الذي اكتشفته. الذهب موجود هناك، مثل ذلك الخاتم الذي انتظرها وعثرت عليه اليوم.

تتناول كلارا ولوثيا قطعة من الخبز، بعد نوم أمهما مرة ثانية، لكنه نوم متقطع بسبب الحمى. حالفهما الحظ اليوم وجلبت لهما السيدة دي بيافرانكا أيضًا بعض البصل.

تضحك كلارا:

- الخبز مع البصل. لم أظن قط أنه قد يصبح طعامًا.

- سنأكل اللحم غدًا.

- اللحم؟ هل أخرجتِ عملات بهذه الكثرة من النافورة؟

- إنها كافية لشراء جدي كامل. سنأكل اللحم إلى حد التُّخمة.

تُظهِر لها لوثيا الخاتم بمطرقتيه المتقاطعتين:

- انظري. هذا ذهب.

- يا لجماله ولمعانه! هل أخرجتِه هو الآخر من النافورة؟

- سأحكي لكِ هذه القصة في يوم آخر.

تنام الاثنتان في الغرفة نفسها مع أمهما المريضة بأنفاسها الثقيلة وآهاتها المتفرقة التي تُشبه التكتكة الكثيفة، فتُهدهد الأختين وصولًا إلى النوم، لكن يتفجر الشروق بالعويل والجلبة والصرخات.

- إلى الخارج! جميعكم إلى الخارج!

اقتحم أكثر من مائة جندي من «الميليشيا الحضرية» الحي وخطوا فوق برَكه بأحذيتهم العسكرية، وهي الأحذية ذاتها التي أسقطوا بها الأبواب عبر ركلاتهم غير الضرورية، لأن حالتها المتهالكة أصلًا تجعلها تتجاوب مع أي دفعة خفيفة.

تنظر لوثيا عبر النافذة الصغيرة. تجد جيرانًا يصرخون ونساء يركعن ويتضرعن طلبًا للرحمة، فيما يتشبثن بأبواب بيوتهن. تتواجه مجموعة من

العتَّالين تسكن الغرفة الواقعة عند الناصية ويتخطى عدد أفرادها عشرة أشخاص مع الجنود، فيصب أحدهم عليهم ضرباته بالعصا يمينًا ويسارًا. يُلطخ الدم رواق الغرف. تخرج ماريانا، التي تسكن في الغرفة رقم سبعة مع أبنائها الخمسة، وهي تحمل رضيعًا بين ذراعيها. ربما تفكر في أنها قد تُحرك عواطف الحرس بهذه الصورة، لكن أحدهم يزعق في وجهها كي ترحل قبل أن يضرموا النيران في الفناء كله.

تسأل كلارا بعد أن أيقظتها الصرخات:

- هل ينبغي لنا أن نرحل؟

تبتعد لوثيا عن النافذة وتبدأ في تجهيز الصرة. تأخذ الطنجرة الفخارية، وقدرًا، وثلاثة آنية من القصدير، وحفنة صغيرة من أدوات المائدة الموجودة لديهن. تُقحم داخلها البطاطس والبصل وقطعة من الجبن وكسرة من الخبز.

- خذي ما يمكنك أخذه يا كلارا. أسرعي!

تضع الطفلةُ داخل سلة من القش قطعَ الملابس القليلة التي تشكِّل متاعهن، وهي فستانان وبُخنق وتنورة طويلة وقبقابان وملاءة وبطانيتان قرضهما العث. قبل انتهائهما من جمع أغراضهن، كانوا قد بدؤوا يضربون بابهن بعنف. تنظر الأختان إلى بعضهما بفزع. تتقلب كانديدا وسط الحُمى. تسبق ضربة قوية دخول اثنين من الحراس.

- الحي صار مغلقًا حتى إشعار آخر. اخرجن من هنا.

ترجوه لوثيا:

- أمي مريضة. بعضًا من التعاطف فقط!

يتجنب الحارس بأُنفة النظر إليها. يحدق إلى الكتلة المثيرة للشفقة التي تُشكِّلها كانديدا فوق الأرض وهي ملتحفة بالمعطف، ثم يهزها:

- انهضي! أمامكن دقيقة لإخلاء البيت.

تنقض لوثيا على الحارس وتعض يده. تستيقظ كانديدا تمامًا من عواء الرجل وتنهض مفزوعة ومضطربة وعاجزة عن فهم ما يحدث. تسقط لوثيا على الأرض بعد أن صفعها الحارس.

- كلبة مسعورة! سأقتلك.

تصرخ كلارا:

- لا تلمسها.

- ابنتاي! من فضلكما...

ترجوه كانديدا بعينين مغرورقتيْن بالدموع. دموع الخوف والغضب والعجز.

يُخمد الحارس الثاني الشجار ويفرض السلام. يكبت رغبة زميله في ضرب لوثيا بالعصا ويصدر الأوامر النهائية:

- سنشعل النيران في المنازل. يمكنكن البقاء لو أنها رغبتكن.

يغادر الحارسان الغرفة. تساعد كلارا أمها على النهوض وانتعال حذائها وتغطية نفسها بالمعطف واستجماع قواها. تنظر لوثيا إلى ما حولها، إلى ما كان مسكنها الدائم، الكرسي الخشبي عديم الظهر الذي لطالما جلست عليه كانديدا لتقشير البطاطس أو غسل البازلاء، الطست الذي استخدمنه للنظافة، وحاشية الفراش الملأى بالبراغيث التي نام ثلاثتهن عليها في عناق واحد. تتفقد الغرفة بنظرها كي لا تترك شيئًا مهمًّا. غنيمة المساء، والخاتم الذهبي، وساعة إيلوي المزودة بسلسلة. يُمكنها أن تضع تلك الأخيرة في جيبها. تأخذ الشمعة والثقاب والدلو لجلب المياه في كل صباح وسلك المواعين لفرك الشرث[1]. يُمكنها أن تحمل كل هذا، لا حاشية الفراش ولا الطاولة الصغيرة المكونة من لوح صفيح عثرت عليه في إحدى المزابل وأربع عِصي غير متساوية لُصقت فيه بالصمغ. ستكرِّس كل قواها لأمها المريضة، التي تقف على قدمها بمشقة. لا بد من الفرار بالأغراض التي لا يُمكن الاستغناء عنها. الصُّرة، وسلة القش، ودلو الماء، وأمها.

حين يخرجن إلى الشارع، تتفهم لوثيا أنها أحسنت صنعًا بالاستغناء عن عدة أغراض. ترى رجالًا يتعثرون مع كل خطوة لأنهم يعجزون عن جر متاعهم. ترفع إحدى الأمهات طفلها فوق ذراعها وهي تجر حقيبة وتحمل كيسًا كبيرًا مربوطًا بحزام فوق كتفها، فيما تمسك بطنجرتين في يدها الحرة. تراها لوثيا وهي تسقط في إحدى البرك بعد أن سحقها كل هذا الوزن. تبدأ

---

(1) تورم في الأصابع ينجم عن تكرار التعرض إلى الهواء البارد. (المترجم).

ألسنة اللهب في الارتفاع نحو السماء من عدة أكواخ. لم يكن ما صدر من الحارسين تهديدًا مبتذلًا: سيشتعل حي «لاس بينيولاس». يلف شاب ويدور كأنه درويش ويصرخ في وسط الشارع بجنون، أو كأن الحي يحتفل بعيد القديس يوحنا. تنبح الكلاب وتركض من جانب إلى آخر، من دون نظام أو انسجام، فتقطع الطريق الذي سار فيه الموكب. تقدم هؤلاء البائسون وسط خوف الفوضى، والمشاجرات، وضربات الهراوات، والبيوت المشتعلة، في خط مستقيم طابعه الحزن واليأس وهم يحملون أغراضهم وأبناءهم فوق كواهلهم وسط صمت مستسلم ناعس. هكذا شكلوا شريانًا. إنه شريان من الفقراء الملاعين الذين يسيرون إلى اللامكان، ومعهم لوثيا وكلارا وكانديدا، التي تستند إلى كتفَي ابنتيها بفم مفتوح ولاهث، كأنها محمولة وسط الهواء تقريبًا. من ورائهن، تلتهم النار الحي الذي ينهار وسط تفشي ألسنة اللهب. تهوي جدرانه الهزيلة أرضًا، فتتسبب في انفجار يبدو كأنه أكبر عرض للمحارق في أقصر ليالي السنة.

لا يتوقفن عن التقدم وراء الآخرين، فيتجاوزن منطقتَي «يسيرياس» و«بالوس دي مونجير»، لكن لأن سيرهن أبطأ يتخلفن وراء الجمع. بالقرب من هناك توجد كهوف استُخدمت للسكن في أوقات سابقة، اختبأت لوثيا فيها قبلئذٍ وهي تلعب، لكن الوصول إليها يتطلب تخطي هوة وتسلق منحدر. صارت الأرض زلقة بسبب أمطار اليوم السابق. لا يُعد تجاوز وعُورة الأرض أمرًا سهلًا مع امرأة شبه محتضِرة فوق كاهلهما. ترغب كلارا في الاستسلام، لكن لوثيا تمضي قدمًا. هذا هو الأمر الوحيد الذي تعلمت فعله في هذه الحياة. يهبطن الهوة وينزلقن عدة مرات عبر منحدرها الموحِل. تنظر لوثيا بين الحين والآخر إلى أمها بطرف عينيها للتأكد من أنها لا تزال تتنفس. يتبقى لهن الآن تسلق المنحدر مجددًا والعثور على كهف خاوٍ. تجد الأخت الكبرى نفسها مجبَرة على التوقف بعد سماع صرخة من كلارا. لقد انغرز فرع صغير في قدمها.

- تحملي يا كلارا. كدنا نصل.

تكتم كلارا دموعها وتواصل السير. في الكهف الأول، يلهث رجل من فرط إنهاكه. تتبعثر مقتنياته على الأرض، فيما يتشممها فأر. يبدو الكهف الثاني خاويًا، لكن لوثيا تميز في نهايته لمعة بعض الأعين كأنها حبات من اللؤلؤ.

تعثر على مرادها بعد صعودها عدة أمتار أخرى، كهف صغير، يبدو تقريبًا كمحراب. ربما حفرته قبيلة رحالة منذ آلاف السنين، لكنه سيغدو مسكنهن. تنزِلان متاعهن وتتركان أمهما المريضة لترقد إلى جوار الجدار الطيني.

- ها نحن أولاء يا أماه. لقد وصلنا. عليكِ الآن أن ترتاحي.

ترد عليها كانديدا بتنهيدة ارتياح وامتنان، وتُغلق عينيها باستسلام. تقترب كلارا بالمعطف وتُدثِّر أمها به.

تقول لوثيا:

- دعينا نرى هذا الجرح.

تجلس الطفلة على الأرض. انغرزت شظية من فرع صنوبر صغير بين أصابع قدمها. تُخرِجها لوثيا من مرة واحدة وتبتسم بفخر في وجه أختها. لا بد أن الأمر آلمها، لكنها لم تشكُ. تظهر نقطة من الدماء عند ثقب الجرح، فتلطخه الأخت الكبرى ببعض الطمي.

- بحلول الغد سيلتئم.

- إلى أين ستذهبين؟

- لن أتأخر كثيرًا. ابقي هنا مع أمنا.

تخرج لوثيا إلى المصطبة الترابية التي تتخذ شكل منحدر من الأحجار الطينية تملؤه الشجيرات والأجمات. تريد بعضًا من أوراق الشجر والأفرع لتصنع فراشًا وثيرًا لأمها. تجتث الخلنجات والأعشاب وتحتضن الأوراق الذابلة التي تجرها الريح من غابة أشجار الصنوبر والكستناء التي تتوِّج قمة هذا المنخفض.

تستقبلها كلارا:

- تأخرتِ كثيرًا.

- ساعديني في صنع فراش جيد.

تجهزان الفراش معًا وتضعان كانديدا فوقه. بعدئذٍ تفرشان ملاءة على الأرض لترقدا.

- هل سنعيش هنا؟

- أجل، في الوقت الحالي. سنبحث عن مكان آخر لاحقًا.

- هل تعتقدين أن أمنا ستموت؟

تلعب لوثيا بشعر أختها. تُضفره، وبعدئذٍ تفكه. في تلك الأثناء تجتهد كي تبدو هادئة وواثقة.

- أمنا مريضة، أُصيبت بالكوليرا. حالتها خطيرة.

- ولو ماتت، فما الذي سنفعله؟

- أنا لديكِ وأنتِ لديَّ. لن يفرق بيننا أحد أبدًا.

- لكن ليس لدينا مال.

- بل لدينا وسأحصل على المزيد.

- ستتركينني وحدي.

- لكن أنتِ محمية أصلًا.

- كيف؟

تمد كلارا يدها الآن لتمسك شعر لوثيا، تفعل هذا الأمر كلما توترت، تجذبها من شعرها، أحيانًا بقوة، كأنها في حاجة إلى التشبث بها.

- هل تتذكرين الإعصار الذي جاء منذ عامين وأغرق بيتنا؟

- أجل. أغرق كل بيوت الحي.

- ليس كلها جميعًا. نجا بيتان اثنان كان على باب كل منهما زوجان من العِصي المتقاطعة. يعرف الجميع أن هذا الدرع هو ما حماهما.

- هل تؤمنين بهذه الأشياء؟

- بالطبع أومن بها. التمائم أمور موجودة في الحياة كلها. يوجد عدد كبير من القصص التي تتحدث عن التمائم. فائدتها هي إنقاذ حياة الناس وحمايتهم.

تشد كلارا شعر لوثيا.

- هل ستضعين زوجين من العِصي المتقاطعة عند مدخل الكهف؟

- لا. سأفعل شيئًا أفضل بكثير.

تفتش لوثيا في جيبها إلى أن تعثر على الخاتم الذهبي الذي تتخذ مطرقتان شكل علامة الضرب فوقه. تُظهره إلى أختها.

- تميمة!
- أجل، وهي لكِ، كي تحميكِ.
- فعلًا؟
- أجل، فعلًا. احرصي على الحفاظ عليه، فهذا الخاتم سينقذك. سيحيطك بسحره كدرع ولن يتمكن أحد أو شيء من إلحاق الأذى بكِ. إنه مميز جدًّا ولا يوجد إلا نظائر قليلة له في العالم، وهي مع قُطاع طرق في الجبل ولا يُمكن أن يصطادهم أحد.

تأخذ كلارا الخاتم وتقبِّله. تُهدهد نفسها في حجر أختها وهي ترتديه، فتعانقها لوثيا وتستنشق رائحة شعرها الذي يبدو لها دائمًا كرائحة الغابة أو الحطب المحروق. تُغلق كلارا عينيها بهدوء، كأنه ما من شيء فعلًا قادر على إلحاق الأذى بها. تتمكن لوثيا من أن تميز في السماء عبر فتحة الكهف أدخنة الأكواخ المشتعلة في «لاس بينيولاس». إنها تتبدد، كحال حياتها، وتوشك على الاختفاء.



كأغلب الصحف، تتكون جريدة «إل إيكو ديل كوميرثيو» من أربع صفحات من خمسة أعمدة تتراكم فيها الأنباء، كأن كلًّا منها يضرب الآخر بالكوع ليشغل مساحته. تتناول أخبار الصفحة الأولى شؤون السياسة الوطنية والدولية، وفي الصفحتين التاليتين تظهر الأنباء المحلية وحلقات الروايات، أما الأخيرة فهي مخصصة للحوادث ومقالات المجتمع والعروض. ليس غريبًا أن مقالات دييجو رويث، «القط المستخِف»، لم تحظَ وسط كل هذا المحتوى بالصدى الذي يحلم به. يشكِّل مكتب تحرير الصحيفة غرفة في بيت ناشرها ومديرها أوجوستو مورينتين، ويقع في شارع «خاكوميتريثو» فوق المطبعة التي تصدر الصحيفة، المملوكة أيضًا لمورينتين.

يستقبله مديره:

- هل تعرف من الذي مات من الكوليرا؟ الأب إجناثيو جارثيا.
- لا أعرف من هو.

- عالم لاهوتي ومتخصص في علوم النباتات القروسطية. إنه قامة. دخل أحدهم لسرقة منزله في شارع «طريق القديس جيروم». عليك أن تكتب شيئًا ضد نهب بيوت موتى الكوليرا.

- هل يبدو لك سرقة بيت كاهن أمرًا غريبًا؟ الناس في حالة غضب من رجال الكهنوت لأنهم لا يتوقفون عن إلقاء اللوم على الفقراء في مسألة تفشي الكوليرا.

- وهم غالبًا محقون.

- هل أنت متفق مع الكنيسة؟ لم تسأم منابرها من تكرار أن الكوليرا عقوبة من الرب لأن الشعب يتجاهلهم. هل ستعترف إليَّ الآن بأنك من الكارليِّين؟

- اكتب ما أقوله لك.

- سأكتب، أعدك. لكني أجلب لك نبأ آخر أهم، ارتكب «الوحش» فعلته مجددًا، وفي هذه المرة، ترك مؤشرات على هويته.

أوجوستو مورينتين صحفي جيد، بل ومدير جيد ومتحمس جدًّا لمهنته. تتوفر فيه أهم خصلة قد تهم المرؤوسين في رئيسهم، يدفع جيدًا ومن دون تأخير. يصر على تحويل الصحيفة إلى وسيلة إعلامية توازي في نجاحها وسمعتها جريدة «إل أوبسيربادور»، حيث يكتب ماريانو خوسيه دي لارَّا، أشهر صحفي في مدريد، لكن عيبه الوحيد -في رأي دييجو رويث- أنه لا يهتم بأخبار الطبقات البائسة.

- أظن أننا ليس لدينا قارئ واحد خارج «الجدار». ركز يا دييجو، أم أنك تود أن تظل دائمًا في الصفحة الرابعة؟ ألا أترى أن أحدًا لا يهتم بتفاصيل هذه القصة الفلكلورية المخيفة؟

- اقرأ هذا وسترى كيف ستهتم بالأمر.

اجتهد دييجو في استخدام أفضل أساليبه الكتابية وكل مهارات صنعته -التي يعرف أن مديره يُثمنها- ليحرر نبأ موت بيرتا.

- شارة ذهبية مغروزة في اللهاة؟

- في صورة علامة ضرب تشكّلها مطرقتان متقاطعتان. لا بد من معرفة ما إذا كانت موجودة لدى بقية الفتيات المقتولات. لو أنهم لم يعثروا عليها، فبإمكاننا أن نطلب أن يخرِجوا رفاتهن. هذا هو الدليل الذي سيدفن كل الافتراضات حول أن حيوانًا خياليًا قد ارتكب هذا. «الوحش» إنسان.

لا يُجيبه مورينتين. يستمر في القراءة، وبين الحين والآخر يهز رأسه مستنكرًا.

- سفاح يقتل الفتيات؟

ينهض المدير عن مقعده ويقترب من علبة السيجار ويأخذ واحدًا. يُشعله ويسحب بشراسة بضعة أنفاس متتالية. حين ينفث أول نفس، يختفي وجهه خلف دخان كثيف.

- المقال الأخير الذي كتبته عن موضوع «الوحش».
- عن الطفلة التي عثروا عليها بالقرب من «بوابة الآبار».
- هذا الخبر كان له أهميته. أتذكر وصف أحد الشهود للحيوان، أيل له وجه إنسان يعوي.
- كلانا يعرف أنه من غير الممكن أن يكون حقيقيًا.
- انظر يا دييجو: هنالك شيء اسمه الوحش الأسطوري أو الحيوان المتوحش الذي يظنه الناس دبًا أو أيلًا أو أيًا كان، أو ربما لا يصدقون وجوده على الإطلاق، ويحسبون أن ما كتب عنه حلقة روائية ظهرت بالخطأ في الصفحة الأخيرة، لكن أن تتحدث عن وجود سفاح متوحش يقطع أوصال الفتيات ورؤوسهن في وسط مدريد أمر مختلف تمامًا، وكل هذا بناء على مؤشر شديد التفاهة مثل هذه الشارة الموجودة داخل جثة.
- ألا تراها كافية لإثبات أن يد إنسان تقف وراء هذه الجريمة؟
- في الأوقات الصعبة، لا يُريد أحد شائعات تثير خوف الشعب بشكل أكبر.

- إنها ليست شائعة. هذا ما يحدث. رأيت الأمر بأم عينيّ بالأمس تحديدًا يا دون أوجوستو. الطفلة بيرتا، ربما لو وقفت بنفسك إلى جوارها.

- ليس هذا ما يريده القراء. نحن نقدم لهم ما يريدونه.

- وما الذي يريدونه؟

- قليل من الفهم. لدينا وباء الكوليرا، وبيوت الموتى التي تُنهَب، والكارليُّون الذين يتقدمون نحو مدريد، والملكة الوصية التي انعزلت في «قصر المزرعة». يفقد أشخاص كثيرون ذويهم ويخافون من أن يدق الموت أبوابهم. جريدتنا ملتزمة بإظهار أنهم ليسوا بمفردهم، وبأننا نعرف ما يعانيه أهالي مدريد.

- ومن الذي سيقول لأهالي القتيلات إنهم ليسوا بمفردهم؟

- لو أردت أن تكتب عن دب يتجول حول «الجدار»، فليس لدي مشكلة، بل يمكنك أن تقول إنه غرغول يقتل وقت اكتمال القمر. إنها أسطورة صريحة وتروقني. بالنسبة إلى مسألة سفاح الفتيات، فلا، آسف، لا مكان في جريدتي لشيء مثل هذا.

يستنتج دييجو بمرارة ممزوجة بقليل من التهكم:

- لأنك مهتم بعدم إفزاع عائلات المدينة ذات الحسب والنسب أكثر من الالتزام بالواجب الأخلاقي مع أهالي الضواحي.

يشير إليه مديره بسيجاره:

- لو أردت أن تعمل لصالحي، فلا تلعب دور الذكي. انسَ هذا الوحش واكتب سيرة مثالية عن الأب إجناثيو جارثيا. ليس لدينا كم فائض في هذا البلد من الأشخاص المرموقين، وفقدنا واحدًا للتو.

يغادر دييجو غاضبًا. لن يُفيده النقاش مع مورينتين. إنها صحيفته ولهذا من حقه تقرير ما يُنشر، كما أنه أيضًا ليس مهتمًا بمواجهته لأنه مديون وفي حاجة إلى المال لسداد إيجار غرفته المتأخر منذ عدة أسابيع. تُمثل وظيفة في «إل إيكو ديل كوميرثيو» فرصته الأخيرة ليجد لنفسه مكانًا في هذه المهنة واستقرارًا نوعيًا في حياته التعيسة جدًا حتى الآن. لطالما أخبره دونوسو

بالأمر في ليالٍ كثيرة: «المبادئ الأخلاقية مثالية لسهرات السمر، لكنها لا تُدفئ المرء في أوقات البرد».

يفكر وهو يتمشى في شارع «خاكوميتريثو» في أن رفض مورينتين لنشر مقاله يتضمن شيئًا غريبًا. لو أن دييجو يحق له التباهي بشيء ما، فهي مهارته في فهم الناس، لأنه قادر على التيقن من انفتاح أي امرأة على اهتمامه بها من تبادل نظرة واحدة سريعة معها، بل وتخمين هوية الجيران الذين قد يَشُون به حين يستقبل النساء في غرفته، والتعرف على الزوج المغدور به الذي يأتي بحثًا عنه ليشفي غليله عبر صوت خطواته الحاسمة وهو في مدخل بنايته. لطالما تميز بحدة بصيرته في رسم تصوره المبدئي عن الناس. حينما تعرف على أوجوستو مورينتين، رسم قلمه صورة لرجل أمين وصحفي صاحب رسالة، لذا فأن يرفض رجل مثله مقاله عن «الوحش» ليس أمرًا ممكنًا. مهما تعاظمت رغبته في عدم إثارة الفزع من دون وجود أدلة كافية، فإن تخليه عن منجم أخبار كهذا وبمثل هذه السهولة ليس أمرًا مفهومًا.

يدفع هذا الأمر تحديدًا دييجو إلى المضي قُدمًا في استقصاء قضية «الوحش». سيعثر على الأدلة الكافية كي لا يجد مُورينتين بُدًّا من الذهاب بمقاله إلى المطبعة. لو أن الجانب العملي في حياته أكثر انضباطًا، لأغلق على نفسه باب غرفته وكتب نعيًا عن عالِم اللاهوت، لكن اللعنة الكبرى في شخصيته هي جانبه الطائش والرومانسي، وهي لعنة ترافقه منذ مراهقته وتدفع خُطاه الآن نحو «حظيرة الدم» في مستهل «طريق إقليم الأندلس الملكي»، وهو مجرد دكان قذر، عفن الرائحة، يُلوث الحي قبل الوصول إليه من على بعد مئات الأمتار. يُديره رجل فرنسي يشتري فوائض الدم من ذبائح المسلخ ويخلط فيه الدماء المتعفنة مع مكونات أخرى ليصنع الـ «جوانو»، وهو سماد له تقديره في عالم البستنة.

ها هي ذي الرائحة والذباب الذي يحيط بنتانة الدم. ثمة بغل مربوط بعارضة وقدر يغلي بالدماء، يتنفس دييجو بمشقة مع كل هذه الأمور ويعاني الغثيان. يضحك الفرنسي مستمتعًا بمناعته ضد هذا الجو المؤذي الذي لا يُطاق.

- خينارو؟ أجل. كان مشتريًا جيدًا للـ «جوانو». لم يكن رجلًا غبيًا. أدركت ذات يوم أين أبرم صفقاته.

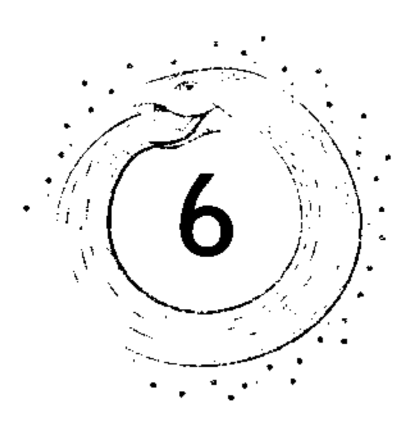
- وأين أبرمها؟

- في الأديرة. يعشق الرهبان والراهبات الاعتناء ببساتينهم، ومدريد ملأى بالفاسقين والأديرة. هكذا اعتاد أن يمضي من هذا القديس إلى ذاك وهو يبيع الـ «جوانو».

- لماذا تتحدث عنه بصيغة الماضي؟ ما الذي حدث له؟

- نحن في مدريد يا «مون آمي»[1]. إنها الكوليرا. أصابه المرض وأخذوه إلى «محجر بالبيردي»، لكن كما هو معروف، من يذهبوا إلى هناك، لا يبقوا وقتًا طويلًا. لا أعرف ما إذا كنت ستعثر عليه حيًا أم لا.

(1) وردت في النص الأصلي مكتوبة بالفرنسية. فضّلت كتابة المنطوق الصوتي لها بالفرنسية للحفاظ على الروح نفسها. (المترجم).



تزداد صعوبة الدخول إلى مدريد يومًا تلو الآخر. تحصنت المدينة وأغلقت بواباتها تمامًا، كأن المرض سيفكر في استخدامها ليتوغل في كل شارع وكل ميدان وكل دهليز. دخلت لوثيا من «بوابة خيليمون» في اليوم السابق، لكنها مُغلقة اليوم. ينطبق الأمر نفسه على «بوابة طليطلة». تظل «بوابة القديس فينسنت» مفتوحة، لكن يُسمح بعبورها فقط لخادمي «البيت الملكي»[1] والغسَّالات اللاتي يتوجهن إلى النهر. ما من أحد قادر على الدخول إلى المدينة أو الخروج منها. أتت عظات الكهنة بثمارها، يؤمن الكثيرون بكل جوارحهم بأن الكوليرا مثل الضربات الكتابية[2]، وأنها قاتل أطلقه الرب كعقاب بدلًا من الجراد، لأن أبأس خلقه توقفوا عن النظر إلى الكنيسة كأمهم الوحيدة، وهي الأم التي لم تشغل بالها مُطلقًا بتوفير الغذاء لهم. لكن من قد يهتم بما يحدث وراء «الجدار»؟ أشار رجال الكهنوت نحو المذنبين، ألا وهم الفقراء، ففضلت

(1) مصطلح يشيع استخدامه في إسبانيا للإشارة إلى العائلة المالكة. (المترجم).

(2) وفقًا لسفر الخروج في الكتاب المقدس، فالضربات الكتابية أو الضربات العشر هي عشر طامات أنزلها الرب على مصر لأن فرعون رفض تنفيذ كلامه. (المترجم).

السلطات أن تُقصيهم، بمنع دخولهم إلى المدينة. ليموتوا، لكن ليموتوا خارج المدينة وبعيدًا عن البلاط.

يتعرف أحد أهالي «لاس بينيولاس» القدامى على لوثيا. يراها تبحث عن طريقة لتخطي الحراسة، فيذهب لمساعدتها.

- تعالي معي. ثمة ناس قد حفروا نفقًا.

إنه شاب بلا أسنان، وضخم الجثة، ويعاني تأخرًا بسيطًا. تندهش لوثيا من الحسم الذي يقودها به نحو محيط «بوابة طليطلة». هناك، في مكان خفي، تظهر حفرة إلى جوار «الجدار».

يبتسم الجار قبل أن تفلت منه ضحكة خافتة:

- لن تسعني، لكن أنتِ يُمكنكِ أن تعبري.

تقف لوثيا في انتظار التحول المؤلم الذي صار عادة مألوفة، أو بمعنى آخر المبلغ الذي سيطلبه منها الشاب بعد تدخله، لأنه لا وجود في حياتها القذرة لمساعدة تخلو من غرض. لكن الأمر ليس هكذا هذه المرة، إذ يتمنى لها جارها التوفيق فقط.

- واعتنيا بأمكما، إنها امرأة طيبة. لم أمت من الجوع أكثر من مرة بفضل كانديدا.

لا يصل طول الممر بين الجانبين إلى مترين، لكنه ضيق ووعر بسبب الطمي المتبقي من عاصفة اليوم السابق. ينبغي للوثيا أن تزحف من دون أن تستخدم يديها، تخوفًا من أن تعلق وتعجز عن التنفس. معها أيضًا الحقيبة التي تضم الأغراض القليلة التي سرقتها من بيت الكاهن في اليوم السابق: أدوات المائدة والشمعدان. حين تصل إلى الجانب الآخر، تصبح مكسوة بالطين تمامًا، فتنطمس حمرة شعرها ذاتها. تتحقق وهي ملطخة بالوحل من أن أيًا من الحراس لم يلحظ وجودها. يجب أن تبحث الآن عن مكان لتغتسل فيه قبل أن تتوغل داخل المدينة. أمامها ساعتان لتصل إلى «ميدان الحطب»، القريب جدًا من «الساحة الكبرى»، حيث اتفقت أن تلتقي مع إيلوي.

كلما خرجت لوثيا للتسكع، تعلمت بعض الأشياء، ومن ضمنها نوعية البشر التي يمكنها أن تقترب منهم وأولئك الذين يجب عليها أن تفر منهم. تبينت أن الكهنة والراهبات والرهبان أعداؤها، وأن ثمة نساء يَجُبن الشوارع بحثًا عن زبائن يريدون الاستمتاع بأجسادهن. يدعونهن «نساء الشوارع» ويتمركزن

غالبًا في أهدأ أركان المدينة، وفي كثير من المرات في الأجزاء الخلفية من الكنائس. يتعاملن دائمًا بكرم مع فتاة مثلها ويهربن من الشرطة بطريقة هروبها منها نفسها. إن طلبت مساعدة من إحداهن، فقد تحصل عليها على الأرجح.

- إلى أين تذهبين هكذا يا فتاة؟ سيضعونك في زنزانة بمجرد أن يروكِ.

تتبين لوثيا من النظرة الأولى إلى هيئتها أنها من نساء الشوارع، فتتركها تقودها إلى ميدان شبه خفي إلى جوار سياج أحد الأديرة، حيث تجد نافورة صغيرة.

- اخلعي ملابسك ونظفي نفسك جيدًا. لن يراكِ أحد هنا. أعلم الأمر جيدًا. أنا خير العالمين، إذ أجلب زبائني إلى هنا.

بينما تغتسل لوثيا، تحاول المرأة تنظيف ملابسها قليلًا.

- جسدك جميل وشعرك أحمر. يظن الرجال أن خطيئتهم تكون بمقدار الضعف مع صهباء. يمكنك أن تشقي طريقك هنا، على الأقل إلى أن يقبلوكِ في أحد البيوت المهمة، مثل بيت «اللبؤة». لماذا لا تقتربين من شارع «القرنفل»؟ هل اللون نفسه موجود لديكِ في الأسفل؟

- لن أصبح عاهرة.

- ستنتهي هذه العزة سريعًا يا جميلة. لو واصلتِ السرقة هنا وأمسكوا بكِ، فستدركين أن النوم مع الرجال ليس سيئًا جدًّا كليالي الحبس.

- لن يُمسك بي أحد.

تجلس عاهرة الشارع على النافورة وتبتسم أمام سذاجة لوثيا.

- تذكري هذه النصيحة، نحن معشر الفقيرات ليس لدينا سوى أجسادنا. لو تحليتِ بالذكاء، فيمكنك بيع جسدك -وهو جميل- بسعر باهظ. أنا في سني هذه، وبهذين النهدين، سيكون جيدًا بالنسبة إليَّ أن أكسب ما يكفيني لشراء بعض من أطباق العصائد، أما أنتِ فاستغلي صغر سنك الآن.

تعلن أجراس الكنائس تبقي ربع الساعة على انتصاف الظهيرة. تفكر لوثيا بعد أن تودع السيدة، كيف يبدو النوم مع رجل؟ قالت لها بعض النساء في «لاس بينيولاس» إنه أمر مؤلم، فيما قالت أخريات إنهن لم يشعرن بشيء.

لا يزال يشق عليها تفهم ما الذي قد يجذب الرجال في جسدها. شعرت بنظراتهم في مرات كثيرة، وهذا حينما لم يتعلق الأمر بأيديهم وهي تبحث عن ملامسة بشرتها. هل ما تقوله العاهرة صحيح بخصوص أن جسدها مكمن قوتها الحقيقية؟ تنفض هذه الأفكار من رأسها، كأنها تشعر أن أمها قادرة على التجسس عليها.

على الرغم من أنه يُدعى «ميدان الحطب»، فإنه مجرد زقاق غير متناسق يفضي إلى ميدان «الجمارك القديم»، الواقع إلى جوار شارع «العربات». ليست في حاجة إلى السير كثيرًا كي ترى إيلوي، الذي يظهر ومعه ثلاثة أو أربعة نشالين مثله. تتعرف عليه بفضل قبعته وبشرته المُسمرَّة وهيئته النشيطة. تعجز عن فهم لماذا لم يستوقفها لون عينيه الأزرق الحاد. لا بُد أنها كانت مرتبكة جدًّا في اليوم السابق، إلى درجة عدم إدراك الأمر.

ينفصل عن رفقائه حين يراها.

- كنت أعرف أنك ستأتي يا طائر الطنان.
- ها هي ذي ساعتك. هل أمسكوا بك؟
- تمكنت من الهرب لحسن الحظ. كانوا ليضربوني ضربًا مبرحًا.
- لكنك لم تحز شيئًا مسروقًا.
- كانوا سيضربونني على أي حال بسبب زجاجات متجر النبيذ. كسرتُ كثيرًا منها.
- يستحق البائع ما حدث، لا تعرف كيف نظر إليَّ، لديَّ بعض الأشياء التي سرقتها بالأمس. هل تعرف أين يُمكنني أن أبيعها؟
- عند «الأكتع». سآتي معكِ. عليَّ أن أبيع الساعة أنا الآخر.

يقع دكان «الأكتع» على بعد أمتار قليلة من «جادة القديس برنارد»، تحديدًا في شارع «البئر» حيث تقول الأسطورة إن اثنتين من أفاعي الباسيليسك[1] قد عاشتا محبوستين هناك. تتذكر لوثيا وهي تتقدم مع إيلوي نحو المتجر ما حكته لها أمها عما حدث لفتاة اسمها خوستا حين قررت أن تنظر إلى البئر بدافع الفضول وكيف أنها صارت رمادًا. لطالما أحبت كانديدا أن تحكي لها

(1) من مخلوقات الأساطير الأوروبية ويزعم أنه ملك الثعابين وقادر على قتل ضحاياه من اللمحة الأولى. (المترجم).

قصصًا لتأجيج فطنتها، لكن يبدو أن الأمر لم يفدها كثيرًا، بالنظر إلى ما يحدث الآن. تعم الفوضى الجزء المفتوح للعامة من المتجر، إذ يبدو كمخزن يبيع فيه تجار السقط من حي «لاس إنخورياس» الملابس والخردة وصوف المراتب القديمة الذي يُستخدم في صناعة ورق الصحف. تندهش لوثيا من رؤية كل شيء هناك، بداية من أكوام من الملابس القذرة والمرتوقة ألف مرة حتى قطع قديمة من الأثاث. يتحدث إيلوي بزهو مع الفتى الذي خرج ليستقبلهما.

- جئنا من أجل «الأكتع».

- ما الذي تجلبانه؟

- ما جلبناه سنظهِره له، وليس لك أيها العظاءة.

يفضي باب صغير يقع في نهاية المتجر إلى فناء، وعبره يُمكن الوصول إلى دكان آخر أكثر تنظيمًا ومملوء بأغراض يبدو أن لها قيمتها ومن ضمنها ناقوس زيَّن حتى فترة قريبة أبراج إحدى الكنائس. وراء إحدى الطاولات، يجلس رجل عجوز أصلع ذو ظهر محني يرتدي قميصًا كان أبيض اللون ذات مرة. ترى لوثيا على الفور لماذا يسمونه «الأكتع»، فحيث يجب أن تظهر يده اليسرى، ثمة غمد جلدي يُغطي مكانها المبتور.

- ما الذي معك يا إيلوي؟ قمامة كما هي العادة؟

- تدفع لي وكأنها قمامة، لكنها بضاعة جيدة.

ينظر «الأكتع»، وهو يستخدم يده اليمنى فقط، إلى الساعة ذات السلسلة التي يعرضها عليه الفتى.

- ستة ريالات.

- تعرف أن قيمتها أكبر يا أكتع.

يمد «الأكتع» يده ليعيدها إليه من دون أسف.

- إذن خذها إلى حيث سيدفعون لك أفضل.

- اتفقنا. ستة ريالات.

- وأنتِ ما الذي تجلبينه؟

تتحصل لوثيا على خمسة عشر ريالًا مما سرقته من بيت الأب إجناثيو: طقم أدوات المائدة الفضية والشمعدان. تفترض أنها كانت ستتحصل على

الضعف على الأقل من بيع الخاتم الذهبي الذي احتفظت به أختها. لا تتذمر. يمكنها شراء الدواء لأمها وطعام يكفي لمدة أسبوع على الأقل بالريالات الخمسة عشر.

يخرجان مجددًا إلى الشارع ويسيران إلى «ميدان الحطب».

- ستجدينني موجودًا هنا في كل صباح يا طائر الطنان. لو أردتِ أن نتقابل، فها أنتِ ذي تعرفين مكاني.

- لماذا تصر على مناداتي بـ «طائر الطنان»؟ على أي حال، أنا مضطرة إلى الرحيل.

- كيف ستخرجين من مدريد؟

- ثمة نفق إلى جوار «الجدار» عند «بوابة طليطلة». لو وجدته مغلقًا، فالخروج ممكن أيضًا عبر مجارير يستخدمها المهرِّبون.

- خذي حذرك. لا تسمحي لهم بالإمساك بكِ. الآن توجد دورية من الأهالي تراقب لكيلا يدخل سكان الضواحي إلى هنا.

تودعه لوثيا بعبوس متبجح، كأنها تعرف فعلًا كيف يُمكنها تفادي هذه الدوريات، لكنها بعد أن تقطع بضع خطوات، تسمع صوت إيلوي:

- ذات مرة أديت بعض المهام لأحد وزراء الملكة ودخلت قصره، وفي الداخل وجدت لديه طيورًا غريبة جدًّا جلبها من آسيا وأمريكا. وجدت في أحد الأقفاص طائرًا صغيرًا جدًّا رأسه لونه أحمر ناري. قالت لي الخادمة إنه طائر الطنان. أظن أنكِ كنتِ ستحبينه، فهو يحرك جناحيه سريعًا جدًّا ويطفو بسكون في الهواء، قبل أن يذهب فجأة إلى مكان آخر، فلا يحظى المرء تقريبًا بوقت لرؤيته.

تنصت لوثيا إلى القصة باهتمام. إنها المرة الأولى التي تلاحظ فيها رعشة الخجل في صوت إيلوي.

بعدئذٍ بساعتين، حين تتمكن من عبور «الجدار» والاقتراب مما كان حتى الأمس بيتها القديم في «لاس بينيولاس»، تجد نفسها لا تزال تفكر في الطائر الذي وصفه لها صديقها. تتخيل أنها تصعد على متن سفينة وتجتاز بحارًا كي تصل إلى الغابة التي فيها هذا المخلوق الأحمر الصغير، وأنها تراه يرفرف

بجناحيه حول وردة بنفسجية جميلة ويجمع طلعها، فتحتفظ به في مرطبان لتصنع الإكسير الذي سيشفي أمها.

حين ترفع بصرها عن حذائها، تدرك أنها أمام بيتها. صار الآن مجرد أنقاض تكتسي بالسواد بفعل النيران، مثل بقية بيوت «لاس بينيولاس»، مجرد حطام من بناء منهار، وجمرات لا تزال مشتعلة لأن أحدًا لم يحاول إطفاءها. بذلوا قصارى جهدهم في جعله مكانًا غير قابل للسكن. تُفضل أن تسرع خطاها وأن تخرج من هناك في أقرب وقت ممكن. تتوجه نحو ضاحية «الطفل رامون»، وهو غجري عمره أكثر من ثلاثين عامًا، لكنهم ينادونه بهذا اللقب، كأنه لا يزال عالقًا في الطفولة. يبيع الغجري لحم الماعز وجبنًا معتقًا يصنعه بنفسه. تشتري قطعة من اللحم وأخرى من الجبن. لديها مال وتريد أن تعد لأمها حساء باللحم والبطاطس والبصل. تنزل الوهدة وتصعد المنحدر المقابل بأرضه الحجرية الملأى بالخلنجات والكهوف التي تبدو كأفواه. ازدادت صلابة الطمي ولم يعد يشق عليها كثرة التسلق حتى المغارة التي صارت الآن بيتها.

ما إن تدخل حتى تفهم أن أمها ظلت تتشبث بالحياة انتظارًا لعودتها فقط، لكيلا تترك كلارا بمفردها. يستند رأسها إلى حِجر أختها التي تبكي بوداعة، وهي تحرك شعر أمها المحتضرة كمن ينبش في الأرض ليقلب تربتها. شفتا المرأة البيضاوان، لون خديها الضارب للزرقة، نظرتها الخالية من التعبير، تشير كل هذه الأمور إلى وداع وشيك، لكن لوثيا ليست مستعدة للاستسلام. ثمة خوف وأسى في عينَي كلارا، لهذا يجب أن تعكس عينا لوثيا الحزم والشجاعة.

- خذي هذا الدلو واذهبي إلى النافورة. سأُحضر النار.
- لكن يا لوثيا... أعتقد أنها تحتضر.
- افعلي ما قلته لكِ.

تعرف أن كلارا سيروقها الهواء المنعش، وتحريك قدميها، والبدء على وجه الخصوص في مهمة تُخفِّف من وطأة الحزن الذي استقر فيها. في تلك الأثناء ستبحث هي عن أفرع وأوراق شجر وأكواز صنوبر وأحجار لتجهيز بؤرة النار. حين تصل أختها، وهي تتعثر في مشيتها من وزن الدلو، تملأ القدر بالماء وتضعه فوق النار. تضيف البصلة وثمرتي بطاطس وقطعة من

اللحم. تنتشر رائحة نفاذة ولذيذة في الكهف. إنها رائحة اليخنة التي لطالما طبختها لهن كانديدا في مرات كثيرة.

- أظن أنها ماتت.

وضعت كلارا أذنها فوق صدر أمها ولمست خديها وقرّبت فمها من فم أمها لتتبين ما إذا كانت ثمة أنفاس تخرج منه، قبل أن تمسك بعدئذٍ بيدها.

- ستوقظها رائحة الطعام. ثقي بي.

تُحرك لوثيا اليخنة وتستنشق رائحتها. يُحرك بخار الماء دموعها الزجاجية فتنزلق في صورة مسارين على مُحياها. تمسحهما بظهر يدها. لا تريد أن تراها أختها وهي تبكي. عليها أن تتحلى بالقوة، لكن كلارا لا يمكنها أن تراها أصلًا، إذ أسندت رأسها إلى كتف أمها وتكورت داخل جسدها كي تودِّعها.

تتمكن لوثيا من كبح دموعها ويبدو صوتها واثقًا حين تقول:

- يقولون إن رائحة اليخنة الجيدة تُساعد الموتى على الصعود إلى السماء.

- من يقول هذا؟

- الطفل رامون.

- وما الذي يعرفه أصلًا؟

- الكثير. يعرف الغجر الكثير عن الموت. لا تخرج الروح من الجسد لو فاحت رائحة القذارة والفئران، لكنها على العكس تخرج مع الرائحة الطيبة.

تظل كلارا صامتة بضع ثوانٍ، فلا يُسمَع سوى صوت طقطقة النيران وغليان الماء. يبدو أنها تنظر في معنى هذه القصة. في النهاية تنهض وتنظر إلى أختها عبر الدخان. تظن أنها قد ميزت لمعة رطبة في عينيها.

- إذن، دعينا نقرِّبها من النيران.

تجذبان جسد أمهما عبر جرها من إبطيها وتقربانها من القدر. تتعاملان مع جسد كانديدا كأنه دمية قماشية، فينتهي بها الحال وهي جالسة مستندة إلى ابنتيها. ترفع لوثيا ذقنها كي تستنشق رائحة الطعام بشكل أفضل. تنظر بطرف عينيها بحثًا عن التعبير المرسوم على وجه أختها.

- إلى أين تذهب الروح حين تخرج من الجسد يا لوثيا؟

- تصعد إلى السماء وتتحول إلى طائر. ستصبح أمنا طائرًا صغيرًا بألف لون، ومن شدة جمال هذا الطائر سيغشى على كل من يراه وهو يحلّق. ستكون موجودة دائمًا فوق رأسينا. لن نتمكن لا أنا ولا أنتِ من رؤيتها، لأن الشمس تعمينا، لكنها ستكون موجودة هناك وهي تحلّق بجناحيها الصغيرين.

تبتسم كلارا وتنظر من مكانها في الكهف إلى السماء، إلى الغيوم التي تُلطخها، إلى حيث ترتفع رائحة اليخنة وروح كانديدا لتتحول إلى هذا الطائر الملون. تعرف لوثيا أنها تمكنت من تخفيف وطأة ألم كلارا، لكنها تعي أيضًا أن الغد قادم. سيصير موت أمهما ألمًا متحمَلًا، أما الجوع فلا. سيضيع مبلغ الريالات الخمسة عشر الذي تحصلت عليه لتدفع ثمن قطعة أرض رملية صغيرة في مقبرة «القديس نيكولاس»، وهي الأقرب إلى «لاس بينيولاس»، لكن من أين ستعيشان بعد ذلك؟

7

في بدايته، كان التخييل بالأوهام فنًّا للتواصل مع الموتى، لكنه تحول مع مرور الزمن إلى عروض رعب استُخدمت فيها المصابيح السحرية وأخيلة الظل لعرض هياكل عظمية وشياطين وأرواح متألمة تُفزع الجمهور. مع ذلك وصل النجاح الحقيقي حين صارت وطأة العروض أخف، بما يتماشى مع ذوق النساء، إذ ازدادت شعبيتها في مدريد في حقبة الفرنسيين واستقبلتها مسارح شارعَي «النصر» و«فوينكارّال». بعدئذٍ توقفت لأن الظلام الذي كان أحد شروط عملها أثار ريبة الكنيسة. ساهم تفكيك «محاكم التفتيش» في تخفيف الأعراف، فعادت العروض من جديد في شارع «فارس الغفران». ما من أحد يعرف حتى الآن ما إذا كانت ستستمر أم ستغلق ككل الأشياء التي أغلقت بسبب الكوليرا.

كمساهمة مدريدية في هذا النوع من العروض، يمتلك «مسرح التخييل بالأوهام» كلبًا حاز إعجاب الجمهور لأنه يُجيب عن الأسئلة السهلة وأسئلة الثقافة العامة بتحريك رأسه للإثبات وذيله للنفي. هل اكتشف كولومبوس أمريكا؟ هل الأرض كروية؟ تصل أقوى الفقرات مع المتطوعين الذين يقبلون الخضوع إلى تكهنات الكلب في أمور ذات طابع شخصي: هل سأتزوج هذا

العام؟ هل سيسير عملي بشكل طيب؟ تحول دونوسو جوال، منذ افتتاح المسرح، إلى أحد جماهيره، ونادرًا ما يغيب عن أي واحدة من لياليه. في تلك المرة، اصطحب معه صديقه دييجو رويث الذي استغل الفرصة ليستجوب الحارس الملكي القديم.

- شارة ذهبية وراء اللُّهاة في الجثث؟
- مطرقتان متقاطعتان تشكّلان علامة ضرب.
- يبدو لي أمرًا سخيفًا يا دييجو. عقلك أكثر توهمًا من هذا المسرح.
- ألم تسمع شيئًا عن هذا الأمر في الأوساط الشُّرطية؟
- عملي هو الاعتناء ببوابات مدريد، لماذا سأسمع شيئًا؟
- ربما يومًا ما سيفلت شيء من لسان حارس ملكي آخر. أبقني على اطلاع.
- من سيعثر على شارة ذهبية في جثة سيحتفظ بها لنفسه وسيبيعها. إياك وأن يساورك الشك في هذا. أنا نفسي سأفعل هذا الأمر.

فكر دييجو في القضية كثيرًا. اختفت الفتيات الأربع المقتولات، اللاتي قُطعت أوصالهن، قبل أن تظهر جثثهن بفترة. عُثر دائمًا على أدلة تشير إلى أن وفاتهن كانت قريبة. تقول هذه المسألة، بخلاف الخدوش التي رآها بنفسه مع الدكتور آلبان في معصم بيرتا، إن أحدًا ما يحبسهن قبل قتلهن بعدة أسابيع. لماذا؟

- لا أعرف يا دييجو. إنه وحش، إنه دب، هل تعرف لماذا تفعل الدببة ما تفعله؟ لأنني فعلًا لا أعرف.
- توقف عن ترديد هذه الأغنية. من يقتل إنسان، مثلي ومثلك.
- إذن لا حاجة إلى وجود شخص عبقري لتخيل ما الذي يفعله بهن في تلك الأسابيع، ألا تدرك أن تصديق كونه دبًا هو الأفضل؟ ما هي نوعية الإنسان الذي قد يمزق طفلة بهذه الصورة؟
- وحش.

تتعرض فتيات إلى الاختطاف ويغبن طيلة أسابيع. لا يشغل أحد باله بهن إلا هذا «الوحش» الذي يستغلهن إلى أن يمل منهن ويمزقهن إلى أشلاء تشبه

قطع الأحجية، كأنه يريد محو ما شهدنه. مهما بدا الأمر رهيبًا، فهو التفسير الوحيد الذي يبدو معقولًا في الوقت الحالي.

تنتزع ضحكةُ امرأةٍ دييجو من هذيانه. تقف أمام الكلب ويرافقها رجل غريب الأطوار. يرتدي سترة رسمية وينتعل حذاء ملمَّعًا بالبرنيق، ويضع منديلًا أبيض معقودًا حول رقبته. يُطلق على من هم على شاكلته في لندن مُسمى الغندور، وهذه ليست أول مرة يراه فيها دييجو هو وشعره الأشقر المموج. يعتقد أنه يُدعى أمبروز. يسأل الرجل الحيوان هل خانت هذه السيدة زوجها ذات مرة، فيهز الكلب رأسه من أعلى إلى أسفل -وهي طريقته لقول نعم- كأنه صار مجنونًا. لا يلقي دييجو بالًا بقهقهة أمبروز الحادة وتصفيق الجمهور، كأنه خلق فجأة لنفسه حيزًا فارغًا داخل المسرح لا تسمع أذناه وسط صمته إلا صوت المرأة وضحكتها الصافية.

- من هذه المرأة؟

- آنا كاستيلار. زوجة أحد الوزراء ودوق ألتويانو.

يبدو دييجو مسحورًا بجمال المرأة، ويلاحظ صديقه الأمر.

يُحذره دونوسو بشدة:

- لا تزج بنفسك في مشكلات.

- بناء على ما يقوله الكلب، فقد تعرض هذا الوزير للخيانة عدة مرات. هل قد يُبالي بواحدة أخرى؟

ليس لجمال المدعوة آنا كاستيلار مثيل تقريبًا. لم تكمل الثلاثين بعد، لكن لا بد أنها على مشارفها. شعرها أسود، عيناها داكنتان، شفتاها لهما حُمرة تتعارض مع بياض أسنانها. طويلة وذات جسد رشيق وترتدي فستانًا أنيقًا.

- معها صُحبة. لو أنها تفكر في أن تخون زوجها، فلن تفعلها معك.

- أختلف معك. أراهن على أن الغندور الذي يرافقها سيكون مهتمًا بك أكثر منها يا دونوسو.

يُبعد أمبروز آنا كاستيلار عن الكلب وهو يُمسكها من ذراعها ويهمس بشيء ما في أذنها. يشغل متطوعان آخران مكانهما لسؤال الحيوان. تلتقي نظرتا آنا ودييجو، وسط حركة المشاهدين الراقصة هذه. تُشيح ببصرها فورًا لكنها تعود بعدئذٍ لتنظر إليه خلسة. يبدو عدم إنصاتها إلى همسات مرافقها

أمرًا واضحًا. يبدأ الطائر الرومانسي والمتهور الذي يحمله دييجو داخله في الرفرفة بقوة. يقترب من المرأة بحسم حين يتركها أمبروز وحدها أخيرًا.

- آنا كاستيلار؟

- من الذي أتشرف بمحادثته؟

- دييجو رويث، صحفي من «إل إيكو ديل كوميرثيو». سأود أن أجري معكِ مقابلة حول شؤون متنوعة تخص البلاط وتُقلق قرائي.

- عليك أن تتحدث مع زوجي، لو أن الأمر بخصوص شؤون البلاط.

- لست مهتمًا بزوجك سيدتي. أنا مهتم بكِ. مكتبة سُر مَن قرأ

تنظر إليه آنا بإباء، وهي تتظاهر بشعورها بالإهانة من وقاحته، لكن دييجو لا ينخدع بهذه الحيل. يعلم أنه قد ألقى شباكه بالفعل.

تقول له:

- آسفة، لكن ينبغي لي الرحيل؛ ينتظرونني في جلسة سمر.

- في هذه الحالة...

يودِّعها دييجو بانحناءة مبالغ فيها كفارس خلوق قديم. يعود إلى صديقه مبتسمًا وراضيًا كأن نتيجة محاولته صارت نصرًا مجيدًا. يُلقي نظرة إلى الوراء خلسة فيتبين كيف تجتمع آنا مجددًا بأمبروز، وكيف أنه لا يتأخر في الإمساك بذراعها للتوجه نحو المخرج للحاق بأمور لا يعرفها سوى الرب. تدفعه ابتسامتها المتكلفة إلى افتراض أنها لا تزال تفكر في محادثتهما القصيرة.

يُحذره دونوسو:

- ستزج بنفسك في مشكلات يا دييجو.

- اهدأ يا رفيقي. أنا لم أفعل شيئًا.

- سمعتك تقول هذا مرات كثيرة جدًّا، ولا واحدة منها كانت صحيحة.

لم يعد دونوسو، على النقيض من دييجو، راغبًا في الدخول في أي علاقة رومانسية، منذ أن هجرته زوجته بعد أن قتل عشيقها في نزال. يذهب مع صديقه إلى المسرح وإلى الشرب في الحانات وإلى مقاهي الغناء، وأحيانًا حين تطالب الطبيعة بإفساح مجال لها، يطلب من الصحفي أن يرافقه إلى بيت يقع في شارع «إل باركيّو» يقولون إن فيه أجمل نساء مدريد، وهن

نساء كوبيات من أصول أوروبية، أو إلى بيت خوسيفا «اللبؤة» في شارع «القرنفل»، حين تكون أحواله المادية جيدة. بالنسبة إلى الغراميات، لم يعد راغبًا في أن يعرف شيئًا عنها. مع ذلك فدييجو ليس زبونًا في هذه البيوت، فهو يستمتع بألعاب المغازلة ويرفض أن يدفع المال ليبقى في صحبة امرأة، حتى وإن وضعته هذه الألعاب في مواقف خطيرة.

يخرج الرجلان من مسرح شارع «فارس الغفران» ويتمشيان حتى «بوابة الشمس». يسيران في صمت. يبدو دييجو غائبًا، وبالمثل مدهوشًا حين يتبين أنه للمرة الأولى منذ خطت قدماه فوق وحل «إل ثيرِّبيو» لم يعد يفكر في «الوحش»، وإنما ابتسامة تلك المرأة التي تعرف عليها في «مسرح التخييل بالأوهام». تتناثر أقاويل وسط الشائعات التي تسري في المدينة حول أنها امرأة فاسدة. يود دييجو فجأة أن تصبح هذه الشائعات صحيحة وزائفة في الوقت نفسه، صحيحة لأنها ستمنحه فرصة معها وزائفة لأنه لا يود أن يفكر فيها كامرأة عابثة كما يظهر من خياناتها المتكررة وصحبة أمبروز.

يشير دونوسو إلى صمت صديقه وتُصيب تكهناته حول أنه يبني علاقة رومانسية داخل رأسه، لكن دييجو لا يُجيبه ويختار مرافقته إلى حانة صغيرة في شارع «زقاق المعاتيه» لشرب كأس «الأجوارديينتي» الأخيرة وإخراج آنا كاستيلار من أفكاره.

يقول دييجو:

- أحتاج إلى دخول «محجر بالبيردي».
- لأي سبب؟ هل تريد أن تصيبك عدوى الكوليرا؟
- خينارو والد بيرتا موجود هناك.
- انس هذه الفتاة يا رفيقي.
- أنت شرطي يا دونوسو. لا أفهم لماذا لا تود أن تجذب هذا الخيط وتحقق في القضية!
- كنت شرطيًا حتى أصابني العور. أنا الآن مجرد تعزيز أمني لبوابات مدريد، ومع كل يوم يمر من دون أن أزج بنفسي في مشكلات، ستزداد سعادتي قليلًا.
- ألا تهمك مسألة «الوحش» الذي يقتل البنات؟

- ما يهمني هو أن يصبح جيبي نصف ملآن كي أتمكن من دفع ثمن «الأجواردييننتي» لك. هذا طبعًا مع طبق طعام فوق مائدتي يوميًا.

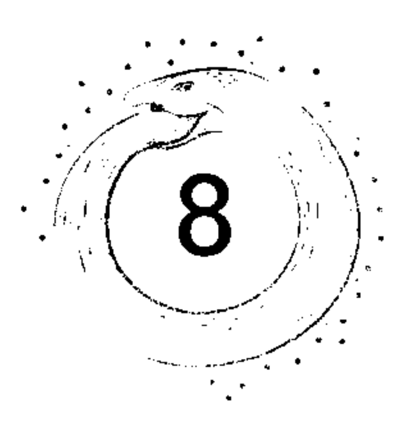
ينظر إليه متهكمًا لإخفاء التعاطف الذي يُثيره صديقه فيه. هل سيشعر هو بالمرارة ذاتها لو فقد عينه؟ إنه أمر ممكن. محاولة فهم الناس أمر واجب.

- حسنًا. لا تساعدني. لا أطلب منك أن تأتي معي، لكن امنحني وسيلة لدخول المحجر.

يمعن دونوسو النظر بعينه السليمة في صديقه وإصراره، يفرغ قدح «الأجواردييننتي» في جوفه ويطلب من صاحب الحانة أن يصب قدحين آخرين.

- توفي طبيب شرعي مؤخرًا. تحدثوا عن هذا الأمر فعلًا عند «بوابة القديس فينسنت». يُمكنني أن أحصل لك على هويته الطبية، لكن لو أمسكوا بك وأنت تنتحل شخصيته، فستورط نفسك في مشكلة كبيرة.

- شكرًا يا صديقي.



تتمكن لوثيا من رؤية مئات الملاءات والقمصان وملابس مختلفة الأشكال، وهي منشورة لتجف على ضفة نهر مانثاناريس. عملت أمها في مغسلة باليتين. ليست من أكبر المغاسل إذ يعمل فيها خمسون أو ستون عاملة فحسب. تكسب نحو أربعة آلاف امرأة قوت يومهن في النهر من غسل ملابس المدينة القذرة في وظيفة منهكة ذات راتب قليل تُدمر أياديهن وتصيبهن بالمرض. في كل صباح، يجوب الحمالون مدريد لجمع الملابس وتوصيلها إلى هناك كي تغسلها النساء، ويعيدونها في آخر ساعات المساء. لا وجود للعطلات أو الراحة، باستثناء يوم الأحد، ومن لا تعمل، لا تقبض. تنزل مياه النهر في الشتاء وهي شديدة البرودة وتصيبهن بالشرث والتهاب الشعب والروماتيزم. يقضين أيامهن وكل واحدة منهن جاثية أمام صندوق خشبي لتفرك الملابس في الألواح، إلى أن تختفي القذارة. يضطر الكثير منهن -أولئك اللاتي يعملن لحسابهن الشخصي- إلى تصنيع الصابون بأنفسهن بغلي أرمدة المطابخ في الطسوت. توفر مغسلة باليتين الصابون لعاملاتها، ولديها أيضًا فريقها الخاص من الحمالين. لولا أنها تقبل كل أنواع الملابس،

بما فيها ملابس مرضى الكوليرا، لقيل إن ظروف العمل فيها أريح. تعرضت نساء للعدوى من غسل الملابس، كما حدث مع كانديدا.

- لم تأت أمك منذ أسبوع.
- لقد ماتت. أريد أن أشغل وظيفتها.
- شغلتها واحدة أخرى بالفعل. ارحلي، ليس لدينا عمل.

لا وجود أصلًا لكلمات العزاء أو أي تعبير عن التعاطف. يكتسح الغضب لوثيا. تشعر برغبة في خمش وجه هذا السمين الملآن بالشحوم، لكنها تعرف أن العيش في مدريد يتطلب تنحية المشاعر. بخلاف ذلك إنها سعيدة في أعماقها لأنها لا تريد أن تنزل إلى النهر طوال أيام حياتها، كما فعلت أمها. أين انتهى المطاف بكانديدا بالحياة الشريفة التي لطالما طالبت بها ابنتها؟ في مقبرة «القديس نيكولاس». لا يُمكن أن تختفي لوثيا بهذه الصورة، فكلارا تعتمد عليها. تستغل المكان قبل رحيلها كي تغتسل في الحمامات العامة، وهي مجرد حفر منخفضة العمق مفتوحة في الرمال. يمضي نهر مانثاناريس كله فوق مسار رملي يتشرب الماء، مشكلًا تكتلات رملية صغيرة تكوِّن بدورها جزرًا تحيط بها أشجار العليق وحشائش الآسل.

تمضي في طريق عودتها وسط سقائف الحصير التي اسودت بفعل الزمن، وبين المناشر المتقاطعة المصنوعة من العِصي الصغيرة حيث يجف غسيل العاملات. تمتلئ هذه الضفة نفسها في أيام الأحد، بحانات ريفية تقدم يخنة الكِرشة والقواقع ومنافذ لبيع الزلابية في الهواء الطلق. كلها مطاعم صغيرة. يتجمع الحمالون هناك، وأغلبهم من أستورياس، مع النساء اللاتي يغسلن في النهر، وأكثرهن من جاليثيا. لم تعرف لوثيا وكلارا أباهما، لكنه واحد من هؤلاء الرجال، أوسم من فيهم، وشعره بحُمرة شعر لوثيا نفسها، وفقًا للرواية التي اعتادت كانديدا أن تحكيها لهما ومزاجها رائق. مات من رفسة حمار منذ عدة سنوات. لا تتذكرانه. يمثل غيابه شرخًا في روح لوثيا، لكنها لا تريد أن تفكر كثيرًا فيه. لا بد أن يتحلى المرء بجلد ثخين، وأن يترك الحنين محبوسًا تحت أربعة أقفال.

تعبر «الجدار» مجددًا، هذه المرة عبر أحد المجارير التي يستخدمها المهرِّبون لنقل بضائعهم من دون أن يضطروا إلى دفع الحقوق الملكية،

وهي طريقة أنظف بكثير من النفق الذي مرت عبره منذ أيام، وعند «ميدان الحطب»، تجد إيلوي.

- أحتاج إلى المال. أريد أن أتعلم السرقة.

تباغته بتحيتها عبر هذه العبارة. تُلاحظ بناء على طريقة قولها له إنها لا تزال تشعر بحُكم أمها عليها حتى الآن، والإحباط الذي سيعنيه لها أن تتحول ابنتها إلى نشالة، فتُجيبها في صمت: «ومن أي شيء تريدين أن نعيش يا أماه؟».

- تعالي معي وركزي جيدًا، لكن لا تلتصقي بي كثيرًا.

يتوجهان قرب «بوابة الشمس». تبتعد لوثيا قليلًا كي ترى إيلوي وهو في قلب الحدث من دون أن تُثير الشكوك. يقدر الفتى على إخراج محفظة من جيب رجل من دون أن يدرك. احتاج فقط إلى الاقتراب منه وهو وسط مجموعة تُشتت انتباهه. يوجد نشالون كثيرون مثل إيلوي يمارسون مهنتهم عند مخارج العروض أو حلقات ثرثرة مدرجات «دير القديس فيليبي الملكي» عند بداية «الشارع الكبير». يجتمع رجال الأعمال هناك لمناقشة الأخبار اليومية، ويصيرون فرائس يطمع فيها النشالون.

يشير إيلوي إلى لوثيا بعد العرض الذي قدمه كي تمضي خلفه عبر شارع «المقدَّرون». يُظهِر لها المحفظة.

- الحظ سيئ. ليست ملأى جدًا. الآن حاولي أنتِ يا طائر الطنان.

- لا أعرف كيف أفعلها. سيمسكون بي.

يوشك إيلوي على السخرية منها لحثها على المحاولة، فعلى الرغم من انعدام خبرتها، يجب على المرء أن تأتي لحظة يفعل فيها شيئًا لأول مرة. مع ذلك ينظر إليها بشك ثم يُغير استراتيجيته.

- لا أعرف ما إذا كانوا سيقبلونك. لا يريد السورياني[1] نساء. يقول إنكن تجلبن المشكلات فقط وإن لديكن طرقًا أخرى لكسب المال.

يرافقها إيلوي إلى شارع «الجرمانيين». يقع شارع «الأُسود» بالقرب جدًّا منه وثمة حانة داخله اسمها «ملتهم الأطفال»، وهو ملتقى للمومسات والمجرمين اكتسب شهرته من أن لويس كانديلاس، أشهر رجل عصابات في

(1) نسبة إلى مدينة سوريا في إسبانيا. (المترجم).

المدينة بل وإسبانيا كلها، يرتادها. اجتاز إيلوي الحانة من دون توقف، كما فعل في دكان «الأكتع»، حتى وصل إلى غرفتها الخلفية، حيث وجدا رجلًا نحيفًا صفيقًا، عينه بيضاء، يجلس إلى جواره ولدان يتعلمان سرقة المحافظ من تمثال عرض يرتدي ملابس أنيقة.

- ما الأمر يا إيلوي؟ من هي؟

- إنها صديقتي. اسمها لوثيا.

- حسنًا، خذا الباب في أيديكما واخرجا من هنا.

تتقدم لوثيا:

- سيدي، يجب أن أتعلم السرقة. أنا في حاجة إلى المال. سأدفع لك مما سأسرقه. النصف لك والنصف الآخر لي.

- سيدي؟ لا يوجد سادة هنا! اخرجي.

- من فضلك.

- لو أنكِ تريدين المال، فعليكِ أن تصبحي من نساء الشوارع، أو اذهبي إلى ماخور. الصهباوات مثلك أسعارهن جيدة جدًّا. إلى الخارج.

يتمشيان الآن باستسلام في شوارع وسط المدينة، الخاوية على غير العادة. ينعزل نصف السكان في منازلهم، ألا وهم المرضى، ويفضِّل كثير من الأصحاء الذين يمكنهم أن يخرجوا -أو النصف الثاني من أهل المدينة- ألا يخاطروا بالخروج خوفًا من الكوليرا. إنها أزمنة سيئة للنشالين.

يُظهِر لها إيلوي المناطق التي يجب عليها معرفتها في مدريد وأين يوجد حراس أكثر وأين عليها أن تأخذ حذرها، وفي أي كنائس يُمكن للمرء أن يطلب الإحسان، وأيها لديها شحاذوها الثابتون -وهي بالطبع أفضلها- وأين يُمكن للمرء أن يحصل على صحن من الحساء الفاتح أو كسرة خبز، حين يسود الجوع.

- خذني إلى شارع «القرنفل». أود أن أقابل امرأة يسمونها «اللبؤة».

- «اللبؤة» خوسيفا؟

- هل تعرفها؟

- يعرفها العالم كله يا طائر الطنان.

تفهم لوثيا من غمزة إيلوي المتواطئة أنه ليس شخصًا قد يصدر أحكامه عليها إن باعت جسدها. بينما يسيران في شارع «الجنات»، يسمعان صوتًا يدوي كالرعد:

- إنها هي!

تلتفت لوثيا فيداهمها فزع أكبر من فزعها الأصلي. إنه العملاق، الرجل ذو الوجه المحروق الذي يتخطى طوله مترين. تركض هي وإيلوي وصولًا إلى ميدان «الأحد المقدس» ويتفرقان هناك، إذ ينطلق هو نحو مركبة خيل فاخرة ويصعد من قفزة واحدة فوق درجة بابها الجانبي، في اللحظة التي تنعطف فيها عند شارع «جادة القديس برنارد»، أما لوثيا فتختبئ في عربة ملأى بالبرتقال متوقفة أمام السوق. لا تعرف هل رآها مُطاردها أم لا. على الرغم من أنها غطت نفسها بنسيج عفن، تخشى أن يكون اختباؤها سيئًا. تظن أنها تسمع خطوات العملاق وهي تدهس الأرض، لكنه صوت قلبها المثلوم. تبدأ العربة سيرها فتترك رجرجة عجلاتها فوق الشوارع الحجرية تهزها. تتخيل أن أحدًا لن يكتشفها على الإطلاق، وأن العربة ستسافر حتى بالنثيا، حيث سيرفعون حمولة البرتقال على متن سفينة ستأخذها بعيدًا نحو حياة جديدة في بلد أجنبي، لكن خيالها يتحطم إلى ألف قطعة لأن كلارا لا تظهر فيه.

دفنا أمهما منذ يومين، ومنذ ذلك الحين لا تفعل أختها شيئًا سوى البكاء والجلوس عند نهاية الكهف كحيوان مفزوع. تتركها على هذه الحال في الأصباح وتجدها عليها ليلًا، حين تعود من غزواتها في المدينة. عليها أن تُخرج كلارا من الهوة التي سقطت فيها. عليها أن تقدم لها مستقبلًا وحياة أفضل من حياتهما الآن.

تتوقف العربة، فتقرر لوثيا الخروج والسير على قدميها. تنزل في شارع «الكُرة» وتنعطف يمينًا عبر زقاق ضيق. تبدو لها طريقة جيدة لكيلا ينتبه أحد إليها، لكنها ارتكبت خطأ، الزقاق مسدود وينتهي بسياج ابتكر منه شخص ما منشرًا مرتجلًا، إذ تتدلى فوقه بتراخٍ قمصان بيضاء وبنطلونات سوداء. حينما تعود على عقبيها لتخرج إلى الشارع، إذا بالعملاق يغلق الطريق أمامها. لا مجال للهروب. تتراجع لوثيا وتبحث عن أي نافذة لتتسلل منها، أو باب دكان فحم، أو أي مجارير مُنقِذة، لكنها لا تجد شيئًا.

- أين الأشياء التي سرقتِها؟ الخاتم...

يبدو صوته حادًا ويأتي مصحوبًا برنين عجيب، كأنه منبثق من هوة.

تتمكن لوثيا من تهدئة رعشة صوتها:

- ليس معي.

يُخرج الرجل سكينًا من حذائه. إنه ضخم. يلمع نصله كأنه قد غُسل في الصباح نفسه:

- إما أن تعطيني الخاتم وإما أن أقتلك.

تعرف لوثيا أنه ليس تهديدًا مبتذلًا. سيقتلها فعلًا في هذا الزقاق.

- ليس معي. إنه في بيتي.

- أين تعيشين؟

ليست مسألة يُمكنها أن تكشف عنها فعلًا. لن تقود العملاق إلى الكهف، حيث توجد كلارا.

- في شارع «بينيولاس». رقم أربعة.

لم يخطر على بالها سوى هذا الحل، أن تمنحه عنوانًا حقيقيًا، لكن ليس عنوانها الحالي. شارع «بينيولاس» لم يعد موجودًا أصلًا. لقد احترقت بيوته، وما كان شريانًا مهمًا للحي في وقت سابق، صار الآن مجرد ندبة ضخمة في الأرض.

- أنت تكذبين.

يتقدم العملاق نحو لوثيا، فتعرف أن نهايتها قد حانت. تُكرس آخر أفكارها لكلارا وتدرك أنها ستعجز عن العيش بمفردها. يلمع نصل السكين لدى مروره قرب وجهها، فتغلق عينيها وترفع رقبتها لتسهل الأمر أكثر على القاتل. تفتح عينيها حين تسمع تأوهًا مكتومًا. ثمة حبل من القنب ملفوف حول رقبته. يحاول أن يتخلص من الضغط الذي يخنقه. تكثر حبال مثل هذا بين جانبي الزقاق لنشر الغسيل. لقد أمسك إيلوي أحدها واستخدمه كأنشوطة.

- اركضي!

لم تتعرف على صوته. يدرك الفتى مدى خطورة الوضع، ولهذا أكسب الخوف نبرته الاعتيادية كعربيد متغطرس صغير طابعًا جديدًا ورعشة غنائية

مفزوعة. تعثر لوثيا على عصا وراء قفص صدئ ملآن بالريش وقضبانه مكسورة. تضرب العملاق في اللحظة نفسها التي يبدأ فيها وضع إيلوي يتأزم.

يصرخ النشال:

- الآن علينا أن نركض! اركضي بأقصى ما لديكِ!

يركض الاثنان لاستغلال الثواني الخمس التي يستغرقها العملاق ليتعافى من الاعتداءات ويخرج من ذهوله. إيلوي أسرع ولهذا يغيب عن نظرها سريعًا. تركض من دون أن تنظر خلفها بأقصى قوة لديها. تستمر في الركض طيلة عشرين دقيقة. تتوقف فقط حين توشك على القيء وهي منهَكة من مجهودها. ما من أثر للعملاق. مع ذلك لا تشعر بأنها نجت. هل ستصبح هذه حياتها؟ الركض والهرب الدائم من هذا الرجل؟ تعرف أن الحُكم عليها قد صدر بالفعل. لن تُفيدها إعادة الخاتم إليه بشيء. ثمة عملاق في شوارع مدريد لن يتوقف حتى يقتلها. الأمر الوحيد الذي يُمكنها فعله الآن هو أن تأخذ أختها وتترك هذه المدينة الملعونة وراءها. لكن هذه مغامرة لا يمكنها أن تنطلق فيها بجيوب خاوية. إنها في حاجة إلى المال. ربما لو كسبت القدر الكافي منه، فستخلق مستقبلًا لها هي وكلارا، وهو مستقبل سيمكنها ذات يوم أن تنام فيه وهي مرتاحة البال.

تجلس فتاة وجهها ملآن بالنمش وشعرها مموج عند عتبة باب البيت الواقع في شارع «القرنفل» وهي تلعب بدميتها القماشية. اسمها خوانا. تتفحصها لوثيا بعد تقديم نفسها:

- هل هذا هو بيت «اللبؤة»؟

تقول الطفلة وهي تُجلس دُميتها كأنها ستشرب الشاي:

- إنها نائمة الآن.

- نحن في منتصف الظهيرة.

- «اللبؤة» وأمي وبقية النساء يعملن ليلًا. هل ستعملين معهن؟

- لا أعرف.

- قالوا لي إنني لا أستطيع العمل قبل أن أكمل عامي الرابع عشر. حين يصبح عمري أربعة عشر عامًا، سأقضي الليل معهن ومع الزبائن.

- ما عمرك الآن؟

- أحد عشر

- مثل أختي كلارا. متى يستيقظن؟

- عليك أن تنتظري ساعتين أخريين. لو أيقظتهن قبل هذا الوقت، فسيشعرن بالضيق، هل تريدين أن تلعبي؟ اسمها «ثيليستي».

تُحرك خوانا يدَي الدمية القماشية وتصنع لها صوتًا:

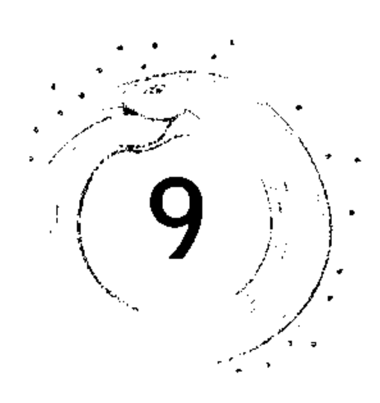
- أنتِ فتاة جميلة يا لوثيا. أحب شعرك الأحمر. هل يمكنني لمسه؟

- بالطبع يا «ثيليستي».

تطير خوانا بالدمية إلى شعر لوثيا. تجوب اليد القماشية شعرها حتى كتفيها ثم تنزل حتى فتحة صدرها. تستمر خوانا في الحديث بنبرة «ثيليستي» المصطنعة نفسها:

- عليكِ أن تُظهري ما لديكِ أكثر يا حبيبتي كي يرغب الرجال في أن يكونوا معكِ، فهم يرون الراهبات كل يوم.

تغطس الدمية في صدر لوثيا وتضحك خوانا. تُخفي لوثيا ارتباكها. لو أنها ترغب حقًا في العمل في هذا الماخور، فيجب ألا يشي خوفها بما في داخلها.



قبل وصول دييجو إلى المحجر الواقع في دير «سيدتنا العذراء» في بالبيردي، على أعتاب قرية «فوينكارّال»، يجد نفسه مضطرًا إلى الابتعاد عن الطريق، تلبيةً لطلب الجنود الذين يحرسون عربة تُقل ثمانية رجال مصابين بالكوليرا رصدتهم دوريات الأهالي التي تتجول عبر مدريد في كل ليلة. يصرخ أحد المرضى من الداخل:

- سيقتلوننا.

ينظر الكل إلى الجانب الآخر. ما من أحد يرغب في المواجهة. لن يُغامر أحد بحياته لمساعدة الموبوئين. واجب الحرس هو عدم تواصل هؤلاء مع بقية المواطنين الأصحاء ونقلهم إلى المحجر عبر طريق بعيد عن المناطق المأهولة بالسكان. يُقال إنهم يدخلون إلى المحجر لعلاجهم ومنع تفشي العدوى، لكن يعرف الكل مدى صعوبة الخروج من هناك. لم ينجح أحد في هذا الأمر تقريبًا. ربما ما يقوله الرجل حقيقي. ربما الأمر وما فيه أنهم يُسرِّعون موتهم أكثر من علاجهم. يحصل الأطباء الذين يعملون في المحجر على راتب جيد، أربعون ريالًا يوميًّا. لكنهم يتعرضون إلى أكبر خطر ممكن، العدوى من المرضى. علاوة على ذلك قد يقرر «المجلس الصحي» بين الحين

والآخر أن يفرض إغلاقًا صحيًا، فيجب عليهم أن يظلوا طيلة ساعات، وفي بعض الأحيان أيامًا، وهم محبوسون. هذا أكثر ما يخشاه دييجو رويث، ألا يتمكن من الخروج بعد دخول الدير.

يقرع الباب. بينما ينتظر أن يفتحوا له يوشك على الندم والتراجع والعودة عبر طريق «فرنسا»، ومن ثم إلى الجريدة، في شارع «خاكوميتريثو»، حيث عالمه، لينسى «الوحش» وبيرتا وخينارو. ربما ينبغي له أن يكتب مقال سرقة بيوت الموتى الذي كلفه به مورينتين حين التقيا آخر مرة.

- مَن هناك؟

يفتح الحارس الباب. يُغطي فمه وأنفه بمنديل قذر. يُبرز دييجو الوثائق التي حصل عليها دونوسو جوال من أجله في الصباح ذاته، وثائق الطبيب الذي توفي منذ بضعة أيام. يفحصها الحارس ثم يتوجه ليتفقد شيئًا لا يعرف دييجو ماهيته داخل كُشك الحراسة. يعود بعدئذٍ ببضع دقائق.

- يُمكنك أن تمر. أمسك. من الأفضل أن تغطي فمك.

يُسلمه منديلًا أبيض مثل ذلك الذي يرتديه ويعلمه كيفية ارتدائه لتغطية الفم والأنف.

- لا نعرف هل له فائدة أم لا، لكن أحد الأطباء يقول إنه يمنع العدوى وأمرنا جميعًا بارتدائه. لو اكتشفوا أحدًا من دونه، يخصمون من راتبه.
- وهل له فائدة فعلًا في رأيك؟
- سأقول إنه غير مفيد، فالموتى يخرجون من هنا يوميًا بين مرضى وأطباء وممرضين، ما الذي تبحث عنه؟
- مريض. اسمه خينارو وكان يعيش في «إل ثيرّيبو ديل راسترو». لا أعرف ما إذا كان حيًّا.
- لا بُد أن خينارو هذا مهم جدًّا كي تأتي بنفسك إلى هنا. أخشى أننا لا نملك قوائم موثوقة. سيجب عليك أن تبحث عنه بنفسك.

يتوغل دييجو داخل المحجر. لا يزال الدير يحتفظ ببعض التفاصيل الرائعة، على الرغم من أنه صار موطنًا للموبوئين. أسقفه المجوفة، وأعمدته ذات التيجان، وزجاجه المعشق، ونوافذه ذات العِماد. يقابل في طريقه الطاقم

الصحي المكمم بالكامل، فيسأل هؤلاء وغيرهم، إلى أن يعثر على أحد يقدم له مؤشرًا.

- خينارو؟ الذي كان يبيع الـ «جوانو»؟
- بالضبط. هل لا يزال حيًا؟
- لا يزال حيًّا، لكن لا أظنه سيعيش لفترة طويلة. ستجده في المقصف القديم.

المقصف القديم عبارة عن قاعة واسعة وبسيطة. لا بد أنه ضم فيما سبق طاولات طويلة كي يجلس إليها الرهبان الدومينيكيون لتناول الطعام. لا يزال يمكن رؤية المنبر الذي لا بد أن أحدهم كان يقرأ وهو فوقه النصوص المقدسة، فيما يأكل الآخرون غداءهم أو عشاءهم. باتت مساحته الآن مشغولة بعشرين فراشًا عليها مرضى يحتضرون. يحتل خينارو فراشًا يقع عند أحد الجوانب، بالقرب من نافذة كبيرة تطل على فناء الدير. على الأقل، يحصل على الضوء والهواء المنعش.

- خينارو؟

يبدو وجه الرجل كوجه جثة. إنه منهك، لكنه لا يزال حيًّا.

- عثرنا على ابنتك بيرتا.
- هل هي بخير؟

يُوجه سؤاله بترقب كبير، فيشعر دييجو بالخجل ويتبدد من ذهنه كل ما خطط أن يقوله له. ما معنى أن يحكي لرجل أن ابنته ماتت بتقطيع أوصالها؟ لأي سبب سيقدم له تفاصيل العذاب الذي يُفترض أن ابنته قد تعرضت له طوال أسرها الذي استمر لأسابيع؟ تحول فضوله وطموحه للارتقاء الصحفي الذي انتحل بسببه هوية شخص آخر ليدخل المحجر إلى شيء يشبه حساءً نتن الرائحة لا يطيقه.

- إنها بخير.

عاقبت الكوليرا جسد خينارو بصورة أصبح معها استمرار قلبه في ضخ دمائه معجزة، وبالمثل ارتسام ابتسامة خفيفة على قسمات وجهه حين يُفكر في صغيرته بيرتا.

- أحمد الرب. ظننت أن «الوحش» قد اصطادها.

قصص الوحش مجهولة في المدينة بقدر ما هي شائعة خارج أسوارها، حيث صار أول خوف يلاحق أي أب حين يفتقد ابنته. يجلس دييجو إلى جوار خينارو، فيمسك يده. تبدو خفيفة جدًّا إلى درجة أن ما فعله يبدو للصحفي كمجرد مداعبة. يغمس منديلًا في طست ويبلل جبهة المريض، فيما يتذكر الثاني موهبة ابنته في الغناء.

- أحيانًا أغلق عينيَّ وأشعر أنني أسمعها.

يحكي له أن بيرتا خالطت عازفي جيتار وراقصات من الضواحي. امتدت هذه الحفلات أحيانًا إلى وقت متأخر جدًّا. اكتسبوا شهرة نوعية، حتى في داخل المدينة، لأنه ذات مرة جاء ناس من مدريد للبحث عن هؤلاء العازفين كي يقدموا عرضًا في أحد البيوت الفارهة. غنوا حتى الفجر، وبينما هم في طريق العودة، فقدت الفتاة أثر زملائها وبقيت وحدها قبل أن تصل إلى الحي، وكما حكت لوالدها، فإن أحدًا، أو على الأرجح شيئًا، ظل يُلاحقها. فزعت ولم تتوقف عن الركض حتى وصلت إلى «إل ثيرِّييو»، حيث بيتها.

- أعرف أن «الوحش» سار خلفها. احتفظ هذا الحيوان برائحتها، لهذا رفضت أن تستمر في الذهاب إلى حفلات الغناء والرقص هذه وأن تعود مع حلول الليل، لكن من كان سيوقفها؟ عاشت بيرتا لتغني، إلى أن جاء اليوم الذي لم تعد فيه.

- يمكنك أن تطمئن. عادت. كان مجرد فعل طفولي. ظلت بضعة أيام مع هؤلاء العازفين.

يضيِّق خينارو عينيه، كأن ثمة تهويدة مهدِّئة تُهدهده. يبدو أنه لم يعد يشعر بضرورة التشبث بالحياة، حين تخيل أن ابنته في مأمن.

- هل قالت لك بيرتا كيف بدا هذا «الوحش» الذي طاردها في تلك الليلة؟

- تمكنت من رؤيته بمشقة، إذ حل الليل وشعرت بالرعب، لكنها قالت إن جلده بدا كالعظاءة، وأن وزنه بدا أكثر من مائة كيلو بناء على دوي خطواته.

عظاءات ودببة وأيائل وخنازير برية. يُشوه الخوف الواقع ويبدو استخراج معلومة واحدة حقيقية من كل هذه التوصيفات أمرًا مستحيلًا. ربما يرتبط الأمر بالحجم. لا بد أن الرجل الذي يختفي وراء «الوحش» ضخم إلى درجة أن ظله وحده قد يُولد كل هذا الخوف.

- هل تعرف ابنتي أنني في المحجر؟
- تعرف وستحب أن تأتي لتعانقك.
- لا تتركها تأتي إلى هنا. لا أريد أن تُصاب بالعدوى. أنا لن أخرج أصلًا، ولن أتمكن من رؤية ابتسامتها أو تذوق النبيذ.

يحاول خينارو أن يرسم إيماءة تشبه الابتسامة:

- لا يُدرك المرء فعلًا قيمة ما يستمتع به إلا حين يخسره.
- ليس آمنًا لبيرتا أن تأتي إلى مستشفى الحجر، لكن أنا يُمكنني فعلًا أن أجلب لك قنينة نبيذ.
- أنت أيضًا يجب ألا تقضي وقتًا طويلًا في هذه المقبرة.

تتشبع عينا خينارو بالعاطفة:

- قل لابنتي إنني أباركها وإنني آسف لأنني لا يمكنني الاعتناء بها أكثر من ذلك.
- لا تقلق. سأخبرها.
- وألا تتوقف عن الغناء. صوتها هبة من الرب وتجعل هذا العالم يستحق العناء.

يلاحظ دييجو أن عقدة قد تشكلت داخل حنجرته فلا يقوى إلا على الإيماء بالموافقة أمام خينارو. ينهض ويخرج برأس مطأطئ من المقصف. لم يعد ما يفعله يرتبط بنجاحه الشخصي، وإنما من أجل ذكرى بيرتا، لأن هذه المدينة المريضة لا يزال بإمكانها أن تتوق إلى العدل. تمكن من الوصول إلى خيط ليتتبعه. هذا الحفل الذي احتضنه بيتُ فاره، والغجر الذين رافقوا الفتاة. ربما اختار «الوحش» بيرتا كضحية، حتى وإن لم يتمكن من اصطيادها في تلك الليلة.

بينما يبحث عن مخرج من مستشفى الحجر، يسمع صوتًا أنثويًا من وراء ظهره:

- سيد رويث، لم أتخيل قط أن أعثر عليك هنا.

صحيح أن فمها مكمم، لكن عينيها لا يُمكن نسيانهما. رآهما دييجو منذ فترة قصيرة جدًّا في «مسرح التخييل بالأوهام». إنها آنا كاستيلار.

- أنا الآخر فعلًا لم أتخيل قط أن أعثر عليكِ هنا.

- أتعاون مع «المجلس الخيري». آتي مرتين أسبوعيًا، لكن وجود صحفي داخل هذه الجدران أمر يصعب تبريره.

يود أن يستأنف لعبة الإغواء التي بدأها في المسرح، لكن ألم خينارو يسكن قلبه كآثار عكرة لما بعد الثمل، وحتى ابتسامة آنا التي يُمكن التكهن بها من تحت المنديل الذي يغطي فمها عاجزة عن تنقية هذا الإحساس.

يحاول دييجو أن يُنهي الموضوع:

- جئت في زيارة.
- الزيارات ممنوعة. لا بد أنك دخلت بشكل ما.
- حسنًا. أرى أن خداعك ليس سهلًا. لقد استعرت بطاقة هوية طبيب كي أتمكن من التحدث مع مريض.
- هل أنت قادر على الوصول إلى هذا الحد من أجل نبأ؟ أتمنى أن يدفعوا لك على قدر مخاطرتك.
- في الواقع، أنا مجرد سامري صالح. سيروقني أن أدردش معكِ. ربما سنحظى بالفرصة في لحظة أخرى. الآن يجب عليَّ أن أرحل.
- أغلقوا أبواب المحجر للتو. حاول أحد المرضى الفرار وهذا شيء لا يُمكن السماح به، لأنه قد يجعل المرض يتفشى بشكل أكبر. يعرف المرء متى سيدخل هنا، لكنه لا يعرف موعد خروجه.

يكتسي صوت آنا بنبرة جهلَ دييجو حتى تلك اللحظة وجودها فيه، إنه الحزن، أو ربما الأنسب تسميته بـ «الهزيمة». حدث هذا حين قالت: «يعرف المرء متى سيدخل هنا، لكنه لا يعرف موعد خروجه». بدت كل كلمة جسيمة وأمينة، ومصحوبة برعشة مردها الاستسلام إلى الموت الذي يتنفسه المرء بين جدران المحجر. بعدئذٍ تبتسم مجددًا، كأنها شعرت بانكشافها، بأنها قد صارت عارية بشكل ما:

- هل أفسدت إحدى خططك؟ كنت أظن أن صُحبتي تروقك، أو أن هذا الانطباع الذي استشعرته من تلك الليلة في «مسرح التخييل بالأوهام».
- صُحبتك تعوض أي مكروه.
- سعيدة بسماع هذا. بخلاف هذا، تنقصني أيدٍ متمرسة.
- أنا لست طبيبًا. أنت تعرفين هذا.

- بل أنت طبيب بالطبع. معك بطاقة تقول هذا. إنه دوري في إجراء الجولة على بعض المرضى وأنت ستكون طبيبي، أم تفضل أن أبلغ عنك بتهمة انتحال الهوية؟

ينظر إليها دييجو بحيرة، من دون أن يعرف هل تهديدها حقيقي أم أنها مجرد حجة كي تقضي فترة إغلاق المستشفى إلى جواره. لم تعد المرأة المستهترة التي تعرَّف عليها في «مسرح التخييل بالأوهام» تبدو كامرأة مستهترة. من هي آنا كاستيلار الأصلية؟ تلك التي تضحك إلى جوار الغندور؟ أم تلك التي يعتقد أنه لمح مكنونها الآن؟

10

دلفينا أم خوانا امرأة سمراء مكتنزة، فتحة صدر فستانها غير مألوفة في شوارع مدريد. يتعارض مظهرها العدائي مع صوتها وسلوكياتها العذبة.

- قالت لي ابنتي إنكِ تريدين مقابلة «اللبؤة». هل أنت متأكدة مما ستفعلينه؟

- أحتاج إلى المال لي أنا وأختي.

تعرف لوثيا أنه يجب عليها أن تُخفي شكوكها. تنظر دلفينا إليها وتدرس ما إذا كانت ستقول لها شيئًا آخر، لكنها تتراجع. ليست الشخص المناسب أصلًا لنصح هذه الفتاة بالرحيل، فقد وضعت على عاتقها مسؤولية أن يصبح هذا العمل مهنة ابنتها خوانا في المستقبل.

- إنه أفضل من أن تصبحي خادمة، فيغتصبك سيدك، ومن أن تُصبحي غسالة، فتُصابي بالشرث، ومن أن تكوني شحاذة فيزدريكِ الجميع، ومن أن تصيري زوجة لشخص يضربك ويملأ بطنك بالأبناء. توجد حيوات كثيرة أسوأ من هذه، حتى وإن كان عدد الزبائن قد تراجع الآن بسبب الكوليرا، انتظري هنا حتى تستدعيك خوسيفا.

تركتها في المطبخ وهو مكان مؤثث ونظيف أكثر من أي شيء آخر رأته لوثيا في حياتها. لم يحظين في بيت «لاس بينيولاس» سوى بمجرد ركن لإشعال النيران ووضع قدر فوقه. لديهم هنا ما يدعونه بـ «الموقد الاقتصادي». لا تكف لوثيا عن النظر إليه دون التجرؤ على لمسه، فهو مصنوع من الحديد ومطلي بالأسود وملآن بأدراج مزودة بحدائد مذهبة، أكبرها الخاص بالفرن. ثمة مجرور لوضع وقود تشغيله -إما الفحم وإما الحطب- فيما ينزل رماده في مجرور آخر ليُستخدم بعدئذٍ في صناعة الصابون، أما الجزء العلوي فمزود بحلقات توضع عليها الآنية والمقالي. إنه مطفأ الآن، لكن يفترض أن يظل مشتعلًا في الشتاء طوال اليوم، لأنه يوفر الماء الساخن دائمًا ويحول المطبخ إلى أدفأ مكان في البيت.

مع ذلك فأكثر ما أثار حسد لوثيا الصحن الكبير الذي يحتوي على بصل وطماطم وفلفل وقرع. لو أن لديها كل هذا لتُطعم أختها، لما جاءت إلى هنا وانتظرت أن تتحدث إلى «اللبؤة». تُفكر في سرقة كل هذا الطعام، لكن وعيها يُخبرها بأنه خطأ، لأنه سيكفيها ليومين فقط. تستشعر أنها لو بقيت يُمكنها أن تجمع المال الكافي للفرار من مدريد.

المطبخ عبارة عن مفترق للطرق، تدخل وتخرج النساء عبره. يلقي بعضهن التحية عليها، لكن أيًا منهن لا تُحييها بفضول كبير، في حين أن أخريات يتجاهلنها تمامًا. تسود ضوضاء مكتومة المكان. إنها طقطقة رتيبة كعكاز يعكس إيقاع خطوات رجل عجوز. تتخيل لوثيا شكل «اللبؤة» وهي تتقدم بحذائها ذي الكعب فوق الأرض الخشبية وأنها تسير ببطء للقائها، ربما وهي تدخن سيجارة مزودة بمبسم. مع ذلك، من يدخل رجل معاق تنقصه ساقه اليمنى يرتدي ملابس عفنة. يبدو البتر، الموجود فوق الركبة، ظاهرًا تحت ساق السروال المرفوعة. يبدو عكازاه اللذان يستخدمهما للمشي عاجزين عن تحمل وزنه. اسمه ماوريثيو، وتمكن مجددًا من الفرار من ملجأ الشحاذين في شارع «القديس برناردينو». تتركه خوسيفا ينام في بيتها أحيانًا مقابل أن يتولى بعض الأعمال المنزلية وإصلاح أي عيوب. يدا ماوريثيو ماهرتان. ربما هذه صفته الحميدة الوحيدة.

- ما الذي تفعلينه هنا؟

- أنتظر «اللبؤة».

- هل ستعملين لصالحها؟

- لا أعرف.

- لو عملتِ هنا، أريد أن أصبح زبونك الأول.

ينظر إلى لوثيا بطريقة شهوانية، فتستقبلها باشمئزاز. تعود دلفينا، فيما تدرس الفتاة خيار الانطلاق راكضة.

- خوسيفا تنتظرك في «الصالون الأخضر».

حوائط الصالون الأخضر مبطنة بحرير بهذا اللون وينطبق الأمر نفسه، لكن بدرجة مختلفة، على قماش مقاعده ذات السيقان المذهبة. ثمة طاولة صغيرة أمام خوسيفا اللبؤة وعليها طعامها الذي توشك على إنهائه. لا يزال فوقها قدح وقطعة خبز وطبق زبدة صغير.

- من أنتِ؟

- اسمي لوثيا.

- ما الذي تبحثين عنه في بيتي؟

تحدق لوثيا إليها بحيرة. يقترب عمر خوسيفا من أربعين عامًا، لكنها تعتني بنفسها جيدًا. شعرها الأسود، المصبوغ غالبًا، معقوص في ضفيره ووجهها مغسول. ترتدي روبًا خفيفًا ويُمكن للمرء تخمين أنها عارية من تحته.

- كم عمرك؟

- ستة عشر عامًا.

- كذب. هل أنتِ عذراء؟

- أربعة عشر عامًا. لم أرافق رجلًا قط.

- حسنًا. تعري.

تخلع لوثيا تنورتها وقميصها. ترتدي في الأسفل شيئًا متسخًا يُشبه التنورة التحتية.

- بالكامل؟

- أجل، بالكامل.

تشعر بالخجل حين تتفقد السيدة جسدها بالتفصيل وتدفعها إلى الدوران. عليها أن تنفض شبح كانديدا من رأسها وما كانت لتقوله لو رأت ما تفعله الآن.

- لديكِ جسد جميل، وشعر أحمر طبيعي. لا يوجد كثيرون مثلك.

- هل يُمكنني أن أرتدي ملابسي؟

- لا. الآن سيلبسونك ملابس نظيفة، فتلك التي ترتدينها يجب أن تُلقى في النار. تبدين كشحاذة. لماذا تريدين أن تعملي هنا؟

- أنا في حاجة إلى المال. ماتت أمي وهدموا منزلنا. أنا وأختي ليس لدينا مكان نذهب إليه. عمرها أحد عشر عامًا فقط.

- الحياة بين هذه الجدران ليست سهلة.

- ستكون أفضل من حياتي الحالية. لديَّ فقط طلب واحد، لا تتركي الأبتر يفعل لي شيئًا.

تضحك خوسيفا وهي ترن الجرس:

- ماوريثيو؟ حتى وإن جمع كل المال الذي كسبه في حياته فلن يمكنه دفع الثمن الذي سأبيع به عذريتك. يُمكنك أن ترحلي الآن. أريدك غدًا هنا في الساعة نفسها.

تدخل دلفينا.

- دلفينا، ناولي هذه الفتاة بعض الملابس. ملابس محترمة ونظيفة. سنبدأ غدًا في العمل. ناوليها ريالين أيضًا لتأكل، إذ تبدو عظمًا على لحم.

تمسك خوسيفا طرف ذقن لوثيا وترفع رأسها. تحدق إليها بعينيها السوداوين اللتين تكتسبان فجأة طابعًا أموميًا وتقول:

- لن أبحث عنكِ لو لم تعودي. لا تزال أمامك فرصة للتراجع، لكن إن دخلتِ من هذا الباب غدًا، فلا أريد أن أسمع بكاء، فأنا لا أطيق الدموع.

11

تستغرق جولة تفقد المرضى ثلاث ساعات وتُجبر دييجو على النظر مباشرة إلى واقع ظل يتفاداه حتى تلك اللحظة. تلتهم جائحة الكوليرا أكثر المعوزين الذين ليس لديهم طبيب يعتني بهم أو مال لدفع العلاج، أو حتى ملابس نظيفة أو شيء يملؤون به معداتهم. هكذا تراجع هوسه بـ «الوحش» ونشر أخبار ترفع من شأنه في جلسات سمر المقاهي الصغيرة إلى المقام الثاني في أولوياته. صارت لديه مهمة أخرى الآن، أن يثبت أمام هؤلاء القوم المنسيين أن أحدًا يصارع من أجلهم، كما تفعل آنا كاستيلار وهي تُخاطر بحياتها بوقوفها إلى جوار المرضى. على الرغم من أنها تنتمي إلى أعلى درجات طبقة النبلاء، وكونها زوجة أحد وزراء الملكة الوصية، وأنها قادرة على قضاء أمسيات طويلة بين وسائد وثيرة وهي تأكل البسكويت الإنجليزي وتمزح في صحبة رفيق تافه مثل أمبروز، فإنها الآن موجودة داخل هذا المحجر، من دون أن تنتظر تعويضًا أكثر من ابتسامة شخص يحتضر.

من ترعى أولًا المرضى المحتوم موتهم –وكلهم عجائز ميؤوس من حالاتهم ولا يحتاجون إلا إلى شرب قليل من الماء أو ترطيب أجسادهم المشتعلة بإسفنجة – هي آنا كاستيلار الحقيقية. تُوجه دييجو بعدئذٍ للاعتناء

بالحالات الموجودة بين هذا وذاك، أو أولئك الذين يتشبثون بذلك الخيط الرفيع بين الحياة والموت، ولا تنقصهم سوى ليلة من الحمى الصعبة كي يدخلوا في مرحلة اللاعودة. تعرف البروتوكولات الصحية جيدًا وتشرحها له، لا بد من دفع هؤلاء المرضى إلى التقيؤ عبر شم الخل ورشفات من الماء الساخن جدًا.

يُرافقها دييجو في هذه الجولة بين الميؤوس من حالاتهم، بشعرها غير المصفف بعد أن اتسخت من لطخات القيء، ومع ذلك لا تفقد ابتسامتها أبدًا، وتُداعب كل مريض بمودة حقيقية بعد غسل معدته. تُساعدهم على الرقود كما قد تفعل أم مع ابنها المصاب بالحمى، وتنظف شفاههم بخرقة. لا تتوقف أبدًا، تغسل الطست في حوض ثم تتوجه لاحقًا للاعتناء بالمريض الآخر. تتعكر عيناها، بين كل مريض والآخر، بطيف خفيف من الحزن. هذا هو الانكسار الذي استشفه دييجو من كلماتها. تظن أن أحدًا لا يُمكنه أن يراه، لكن دييجو يلاحظ كيف توقفت برهة لتأخذ نفسًا عميقًا، ربما لتحبس الدموع التي تُشوش نظرتها، قبل أن تستأنف مهمتها من دون أثر لهذا الحزن الذي يعرف أنه يكتنفها. من يقدر على أن يشهد موت كل هؤلاء الرجال والنساء من دون أن ينكسر من الداخل؟ لا أحد! لكن ثمة قلة مستعدة للمعاناة من أجلهم.

بينما يعمل دييجو مساعدًا لآنا، يلاحظ أن الانبهار الذي يشعر به تجاهها ليس الانجذاب نفسه الذي أحس به في «مسرح التخييل بالأوهام»، وأنه لا يُشبه ما أثارته فيه نساء أخريات. غلب الهوس على مغامراته العاطفية ومعه هياجه للظفر بالغنائم، كمن يستولي على جوهرة ثمينة. دفعته الرغبة نفسها إلى مخاطبة آنا في المسرح، إذ جذبه هذا الجمال الأخاذ كمغناطيس، وهي أحاسيس لا تربطها صلة بما بدأ يشتعل داخله الآن، وهما يسيران عبر جناح الأطفال، تجاه هذه النسخة من آنا كاستيلار التي تجردت من كل سطحيتها. يحاول ألا يُفكر كثيرًا في الأمر وألا يُسمي هذه الطريقة الجديدة للنظر إليها، فهو ليس مستعدًا بعد لفعل الأمر، لكنه يعجز عن إنكار يقينه من أن شيئًا ما قد تحول داخله. تجلس آنا إلى جوار طفل أشقر. اسمه تيموتيو ويبدو أنه طفلها المفضل.

- إنه في حالة سيئة جدًّا. لا بد من أن ينزف.

لا يُخفي دييجو خوفه.

- كيف؟

- لا بد أن نقطع شريانه الصدغي كي يفقد دمًا. هل أعصابك قوية؟

- لكنه مجرد طفل.

- مجرد طفل لن ينجو إن لم نفعل هذا الأمر. سأتوجه إلى خزانة الأدوية لجلب المطهِّر.

تبتعد بخطوات حاسمة، فيما يتأمل دييجو وجه تيموتيو المتعرق وشفتيه الجافتين وعينيه الشاحبتين اللتين تحدقان إلى عينيه فجأة وتستجديان المساعدة. تعود آنا ومعها قنينة شبه فارغة.

- أمسك المِدية.

كان دييجو ينتظر أن تقدم له أداة أدق، قاطعًا أو شيئًا من هذا القبيل، لكنه سيضطر إلى التعامل بالمدية. ترتعش يده حين تناوله آنا إياها.

تقول له:

- انتظر.

تمسك آنا الشمعدان، بعد ُن انصهرت الشمعة تقريبًا، فيفهم مقصدها ويسخن النصل بالشعلة. تُشير إلى مكان الشريان عند رقبته، تحت أذنه اليسرى. يُقرب دييجو حد المدية من جلد الطفل. يوشك أن يلقيها أرضًا وأن ينطلق فارًّا من المحجر، لكنه يشعر بيد آنا فوق يده. بعدئذٍ تتلاقى نظرته معها، فيفهم أنها تثق به، وأنها واثقة من قدرته على القيام بالأمر. لا حاجة إلى الكلمات، يكفي البؤبؤان الأسودان لهذه المرأة كي يبثا فيه شجاعة ظن أنه لا يمتلكها. يفتح دييجو شقًا صغيرًا، فينبع الدم فورًا في مسار نظيف ثم يتدفق فجأة كتيار يصطدم بحجر.

تطلب آنا منه:

- افتحه قليلًا فقط.

يُوسِّع دييجو الجرح، فيختلج تيموتيو من الألم. تمسك رأسه بيديها، وتترك الدم يتدفق لدقيقة تبدو أبدية لدييجو. بعدئذٍ تضع المطهِّر فوق الجرح وتكتمه بمنشفة.

- تحقق من نبضه.

يبحث دييجو عن معصم الطفل.

- إنه متسارع، كنبضي.

تستمر آنا في الضغط بالمنشفة لإيقاف النزيف.

- وكنبضي أنا الأخرى.

بعد بعض الوقت، يستنشقان الهواء في رواق الدير، وهما يستندان إلى عمودين من عصر النهضة. لقد انفكت ضفيرة آنا وسقطت بعض خصلاتها على وجهها.

يشير دييجو إلى خدها، قرب زاوية شفتيها:

- لديك لطخة.

ترفع آنا أصابعها عند نقاط الدم التي تُلطخ وجهها، وتنظفها وتبتسم.

- أؤكد لك أنني في العادة أكثر أناقة من الآن.

- وأنا في العادة أكثر طلاقة.

تفلت من آنا ضحكة رائقة.

- لن أخدعك. ليس لديك مستقبل كطبيب.

- هل ستسمحين لي أن أثبت لكِ أنني يمكنني أن أغدو أمهر في أوجه أخرى؟

ترفع السيدة كاستيلار إحدى خصلات شعرها وتتأمل وجه دييجو. الإرهاق أيضًا يليق بها. راقت نظرتها بعد الخوف الذي مرت به، ويبدو تعبير وجهها أهدأ مع ضوء الشفق، كأنها قد انبثقت من الماء. بعدئذٍ ترتدي مجددًا قناع الحيوية وتُسارع بتغطية الأجزاء الأكثر حميمية في شخصيتها، تلك التي يبدأ دييجو يظن أنها تخجل من إظهارها.

- ما رأيك، الأسبوع المقبل، يوم الجمعة ليلًا في بيتي؟

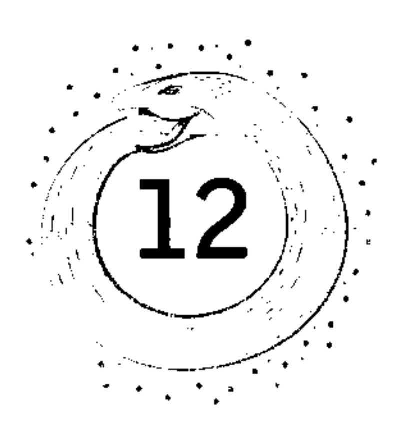
- أين هو؟

- ليس لديَّ أدنى شك في أنك قادر على الوصول من دون أن أخبرك.

تتقدم آنا بضع خطوات وهي تبتعد عبر رواق الدير، وحين تتوقف تلتفت في اتجاه دييجو:

- قد لا تكون طبيبًا، لكنك وقفت إلى جوار هؤلاء القوم الذين ليس لديهم شيء، وهذا هو ما يحتاجون إليه، شخص ما إلى جوارهم. ثمة رجال ونساء قلائل مستعدون لمرافقتهم في هذه المعاناة.

يشعر دييجو بصدق كلماتها ويعتبرها دعوة أكبر من دعوة الذهاب إلى منزلها. إنها تفتح له الأبواب كي يتعرف على آنا الحقيقية. بعدئذٍ تختفي بين أعمدة رواق الدير. تغرب الشمس وتنفتح أخيرًا أبواب المحجر. يمضي دييجو في طريق العودة إلى بيته، وعقله غائب في مكان آخر وهو يتذكر كل ما عاشه، وإذا بإحدى القناعات تزداد قوة داخل أعمق أعماق كينونته، تتحلى آنا بموهبة عجيبة في جعله رجلًا أفضل.



حل الليل ولوثيا تجتاز مرة أخرى حي «لاس بينيولاس» للعودة إلى الكهف. لطالما كان حيَّها، ومكانًا عرفت كيف تتحرك عبره، لكنه يبدو لها اليوم مختلفًا كأنه بات أقذر من المعتاد، ربما بسبب الملابس المختلفة التي أعطتها إياها دلفينا لترتديها. كلفت أختها كلارا بشراء مساريق خروف لتتناولاها على العشاء ليلًا، لكنها لا تعرف هل نفذت ما طلبته منها أم أنهما ستنامان مجددًا بمعدة خاوية.

تترك خلفها السياج الذي يحمي مخزن خشب مصنع الأسرَّة، حيث ثمة أكشاك بائسة أفلتت لسبب ما من الهدم. بعده بقليل تظهر حظيرة «الأحدب»، الذي يربي خنازير تعيش وسط جبل من القمامة. تصل أخيرًا عند منطقة الجرف، حيث يوجد «بيت العم ريلو»، وهو مكان قذر حتى بالنسبة إلى معايير الحي، فهناك يعيش ثلاثمائة شخص متكدسين في أسوأ الظروف في قاعة واحدة. لطالما حذرتها أمها كانديدا بخصوص هذا المكان وأصرت على أن تتحلى هي وأختها بالحذر الشديد لو اضطرتا إلى السير هناك. حينئذٍ يساورها الشك في أن شيئًا ما ليس على ما يرام، ثمة امرأة تشيح ببصرها

حين تراها، فيما ينظر إليها على النقيض بعض الفتية بتبجح. فجأة يتكاثف الهواء ويشق عليها التنفس!

ترى في الأسفل، وهي على مشارف الوصول إلى الكهف، أحد الآنية العفنة التي تستخدمانها للطهي. تأخذها وتبدأ في تسلق المنحدر.

- كلارا! كلارا!

تتعثر بالقدر بمجرد دخولها، فيتدحرج على الأرضية. ترى الأغطية وهي متكومة وأدوات المائدة القديمة التي صارت غير قابلة للاستخدام تقريبًا ومع ذلك لا يزال ينبعث منها بريق ضئيل وسط الظلام. ما من أثر لأختها.

- كلارا!

تبدأ الآن فعلًا في سماع أنين طفيف عند نهاية الكهف، فتركض في اتجاهه، من دون أن ترى شيئًا، لأن ضوء القمر يدخل الكهف بصعوبة شديدة.

تقول لها كلارا وسط نحيبها:

- ذهبت لشراء المساريق. أقسم لك.

- لا تقلقي بخصوص هذا الأمر. قولي لي ما الذي حدث.

ينبغي لها أن تنتظر حتى تهدأ قليلًا، وأن تعانقها حتى تسمح لها أنفاسها المتهدجة بالتحدث، فكلارا ليست مثلها، ويقع الذنب جزئيًا على أمها التي لطالما خافت من العنف الذي قد يمارسه العالم ضد ابنتيها. حولت القصص التي اعتادت أن تحكيها لهما عن حوادث قتل من أجل كسرة خبز واغتصاب لنساء يسرن بمفردهن كلارا إلى فتاة مرعوبة، فصارت تعتمد دائمًا على حمايتها، وبما أنها ليست موجودة الآن، فصار الأمر منوطًا بلوثيا.

- جاؤوا من أجل التميمة. أنتِ خدعتِني. إنها لا تحمي من أي شيء.

تبدأ لوثيا تدريجيًا، على الرغم من غضب كلارا، في تفهم ما حدث. ذهبت أختها لشراء مساريق الخروف كما كلفتها. يبيع البائع المتجول بضاعته دائمًا في منطقة مصنع الطحين، لكنهم قالوا لكلارا إنه انتقل قرب «بيت العم ريلو».

- كان يجب عليكِ عدم الذهاب إلى هناك. هل كنتِ ترتدين الخاتم؟

- أجل. شعرت بالخوف. قلتِ لي إنه كدرع.

تأخذ لوثيا نفسًا. سيروقها أن تحتضن أختها بحنان وأن تحكي لها قصة أخرى تحافظ على قوة الخاتم، وأنه يفقد قوته أحيانًا، لكنها تود أن تعرف مزيدًا من التفاصيل.

- ما الذي حدث أيضًا؟

- رأوه وسار أحد خلفي.

- من؟

- لا أعرف. أشخاص من الحي.

لما عادت كلارا إلى الكهف، ظهر بضعة رجال.

- ضربوني وركلوني وجذبوني من شعري. قالوا لي أن أعطيهم الخاتم، وهم يفتشون كل الأنحاء. أخذوا معطف أمي والبطاطين.

- هل أعطيتهم إياه؟ كلارا، من فضلك، إنه أمر مهم. هل أعطيتهم الخاتم؟

- لا. حين سمعتهم يصلون خلعته، إنه هنا.

يظهر الخاتم مدفونًا بين أرمدة النيران التي أشعلتها لوثيا في اليوم السابق لتطهو البطاطس.

- هل فقد قوته؟

- ألا تدركين أنكِ بخير؟ لولاه من يدري ما الذي كانوا سيفعلونه بكِ.

تضع لوثيا الخاتم في سبابة كلارا. تداعبه أختها كأن حياتها كلها تتوقف عليه. تترك لوثيا بصعوبة كي تغسل لها وجهها وجرحًا صغيرًا أصابوها به في جبينها، عند منبت فروة رأسها بالضبط.

يجب عليهما عدم البقاء هنا. سيعود المجرمون أنفسهم بالتأكيد من أجل الخاتم، ولا يمكن أن تبقى لوثيا لحمايتها. تُجبر أختها على جمع ممتلكاتهما القليلة وتسيران وسط الليل المظلم نحو مدريد. ستختبئان في المكان الذي أظهره لها إيلوي وهما يتمشيان، وهو مصنع ثقاب قديم مغلق بالأختام بسبب الكوليرا. إنه مكان لن يقترب منه أحد. تعتقد لوثيا أنهما لن تصابا بالعدوى أبدًا، ما دام أنهما لم تلتقطاها من أمهما.

سبق أن دخلت إلى مدريد وخرجت منها أكثر من مرة عبر المجارير الموجودة أسفل «الجدار»، والصعوبة الوحيدة القائمة هي النجاح في دفع كلارا إلى التقدم عبرها.

13

لا تعرف الفتيات اسمه، لكنهن يدعينه «الوحش» كما يحدث في الأحياء الواقعة وراء «الجدار» حيث يمارس أفعاله. سمعت فرناندا -التي لم تعد معهن الآن ووصل شعرها إلى خصرها- أحاديث عن شيء مثل الحيوان في حيها، لكن أحدًا آنذاك لم يعرف مصير الفتيات المختفيات. «سيجركن الوحش إلى وكره». «أحسني التصرف وإلا فسيقتلع الوحش لحمك بأسنانه، كخنزير جبلي». لطالما قيلت أمور مثل هذه لفرناندا، كأنه فعلًا مخلوق خيالي يترصد ضحاياه ليلًا.

بخلاف أنه ليس حيوانًا على الإطلاق، تبينت الفتيات أمورًا قليلة عنه: أنه يتشح بالسواد، وأنه عملاق يتخطى طوله المترين، وأن وجهه المحترق يجعل ضوء القناديل المعلقة فوق الجدران يسطع فوق جلده المتورد، وأنه يتعرى في كل مساء ليجلد نفسه بسوط قبل أن يسقط مستسلمًا فوق بركة من دمائه. بعدئذٍ يُخرِج واحدة من الفتيات من زنزانتها ويُجبرها على مداواة جراحه، لم يعد خوف البدايات من تعرضهن إلى الاغتصاب أو الضرب يساورهن بعد أن اعتدن هذا الطقس.

يختار أي فتاة عشوائيًا، ويشير إلى الإسفنجة والطست الملآن بالماء، فتعرف ما يجب عليها فعله. لا يلمسها، بل ولا يتحدث معها أصلًا، لكنه قد يُزمجر أحيانًا لو تسبب خجلها في إبطاء مداواته. يُطالبها فقط بأن تُسَكِّن ألم ظهره المجلود. تنظر بقية الفتيات إلى المشهد، وهن منومات مغناطيسيًا من جلاء وعتمة الديماس[1] وصوت الماء حين تسقط إحدى دفقاته من الإسفنجة فوق الطست. لا يخشين شيئًا وسط هذه اللحظة من السلام والعذوبة، لكن أيضًا لا تنخدع أي منهن بهذه اللحظة الغريبة، فكلهن يعرفن ما يقدر «الوحش» على فعله.

حاولت كريستينا أن تهرب حين بدا «الوحش» نائمًا بعد أن غسلت له ندباته. لحق بها الرجل -«الوحش»- على الدرجات الحجرية التي تُفضي إلى مخرج الديماس. وضع فم كريستينا المفتوح بقوة عند طرف إحدى الدرجات، وهو يجذبها من شعرها. لم يدع مجالًا للخطابات أو للتحذيرات، وإنما وجَّه ركلة مفاجئة لرأسها طقطق معها فمها وهو ينكسر لدى اصطدامه بالحجر. انساب دمها في مجرى رفيع حتى التقى بالدم الذي تركه «الوحش» فوق سوطه، ثم ارتدى ملابسه واختفى وهو يجر وراءه جثمان كريستينا، صاعدًا الدرج. في الصباح التالي، صارت زنزانتها مشغولة مجددًا. قالت الفتاة الجديدة وهي ترتعش، كحالهن جميعًا حين وصلن، إنها تُدعى بيرتا.

قد يُخرِج الوحش أحيانًا إحداهن من زنزانتها ويأخذها معه، فلا يرينها بعدئذٍ أبدًا. يعتقد بعضهن أنه أفرج عن هؤلاء وأنهن تمكنَّ من العودة إلى منازلهن. لدى البعض الآخر رأي معاكس تمامًا يقول إنه يقتلهن، مثلما شاهدوه يقتل كريستينا. يفتقدن جميعًا آخر فتاة اختارها، ألا وهي بيرتا، لأنها خلال الشهر الذي قضته معهن، خففت من شعورهن بالحبس بأغانيها، التي لم تكن حزينة تقريبًا قط. نسين معها واقعهن لبضع دقائق داخل هذه الزنازين، بل إنهن تشجعن أحيانًا على التصفيق على إيقاعها. زنزانتها واحدة من الزنزانتين الخاويتين حتى الآن، وقريبًا ستأتي فتاتان أخريان لتشغلاهما.

يعتقدن جميعًا أنهن قد ارتكبن خطأ، إذ خرجن ليلًا حيث يجب ألا يخرجن، بمفردهن، من دون صحبة أحد من عائلاتهن، بل وأنهن اخترن طُرقًا خاطئة. كُن يعشن في أكثر مناطق مدريد بؤسًا: في «لاس إنخورياس» و«لاس

---

(1) كل مكان عميق لا يدخله الضوء. (المترجم).

بينيولاس» و«بينتاس ديل إسبيريتو سانتو»، إلى جوار جدول «أبرونييجال». هناك اثنتان منهن عرفتا بعضهما قبل أن تلتقيا هنا، وإن كانت كل واحدة منهما قد جاءت في تاريخ مختلف.

لا يعرفن أين هن. كل ما يعرفنه أن هنالك ثماني زنازين تأتي في شكل ثُماني الأضلاع، بصورة تسمح لهن جميعًا برؤية مركز الديماس، حيث يجلد «الوحش» نفسه، وعلى الرغم من أنهن يواجهن بعضهن، يرين بعضهن بصعوبة، إذ إن «الوحش» لا يشعل القناديل إلا حين ينزل، ولهذا يعشن وسط الظلال المشعشعة. مع ذلك اعتدن تدريجيًّا قلة الضوء.

يقضين النهار بمفردهن، فتمر ساعاته بين كوابيس متقطعة وبكاء وألعاب طفولية ونوبات إحباط دفعت أكثر من واحدة منهن إلى محاولة فتح القضبان حتى انجرحت أيديهن. يزورهن «الوحش» في كل مساء ويجلب لهن الطعام والماء ويأخذ مباولهن الملأى ويجلب لهن غيرها، من دون أن تكون نظيفة دائمًا. بعدئذٍ بينما يأكلن، يتعرى ويخرج سوطه، يضعه أمام ركبتيه بالضبط، لا يأخذه أبدًا قبل أن يستمني. تشاهد الفتيات كيف يفعلها بغضب. لم تر أي منهن شيئًا كهذا من قبل. بعدئذٍ على الفور يبدأ في الصلاة باللاتينية كأنه يَسُبهُن، ثم يمسك سوطه. يُعاقب نفسه ويسقط منهكًا على الأرض. حينئذٍ فقط يختار واحدة منهن كي تغسل جراحه ويتكرر هذا الطقس في كل مساء.

تستأنف الفنيات حديثهن حين يرحل «الوحش». تتساءل أقدم واحدة فيهن، واسمها فاتيما، لماذا لا يختارها، ولماذا تأتي فتيات أخريات أكثر وأكثر في عملية إحلال وتبديل مستمرة فيما تبقى هي في زنزانتها لترى وصولهن ورحيلهن. ظنت في البداية أنها محظوظة، لكنها الآن بدأت تعتقد أن هذا الانتظار الطويل جدًّا نوع من العقوبة.

سيروقها أن ينظر «الوحش» إليها بإمعان وأن يختارها كي تخرج إلى الشارع وترى الشمس وتركض نحو الحرية لملاقاة عائلتها، لكن تتلطخ رغبتها بالخوف. ما الذي حدث لبيرتا؟ هل هي مع عائلتها أم أنها ماتت مثل كريستينا؟ ترتفع الدرجات الحجرية في شكل حلزوني وتختفي وسط الظلام. لا تعرف أي واحدة منهن ما يحدث بعد أن يأخذ «الوحش» الفتيات إلى الخارج، ولا ما الذي يجعلهن مُختارات أصلًا. تشغل فاتيما ساعاتها بهذا الأمر، بالتفكير نيما يجعلها مختلفة عن البقية، ولماذا تصبح دائمًا الفتاة المُستبعَدة.

14

يُلقي دونوسو نظرة حوله.

- هل جئت إلى هنا من قبل؟

- لم آت قط. عرفت المكان بالاسم فقط.

- لحسن الحظ أنني جئت معك. أنت لا تعرف ما تورط نفسك فيه.

يُعد سكن «القديسة كاسيلدا»، الواقع بالقرب من «بوابة طليطلة»، أحد أسوأ الأماكن سُمعة في مدريد، لكن يبدو أن دييجو لا يشغل باله بالأمر. يتكون من مجموعة من الأكشاك التي يجمعها فناء واحد يتكدس داخله في بعض فترات السنة نحو خمسمائة شخص. إنهم قوم لا يعرفون شيئًا عن مشكلات الكارليِّين وتغييرات الحكومة وانتخابات الثلاثين من يونيو التي صعدت بـ «الحزب المعتدل» وزعيمه مارتينيث دي لا روسا. يعيشون بعيدًا عن إيقاع حياة من لديهم أي مشاغل أخرى غير كسب قوت يومهم. ينتهي المطاف بالعمال المؤقتين الذين يأتون من الشمال لامتهان الحرف الزراعية في وسط البلاد في سكن «القديسة كاسيلدا»، ومعهم جانب كبير من شحاذي العاصمة والمتسولين ومن يعيشون على الصدقات، وأيضًا الغجر الذين ذهبت

معهم بيرتا إلى الحفل في آخر ليلة قضتها وهي حرة. قيل لدييجو إنهم جميعًا من أفراد عشيرة واحدة اسمها آل كابريروس.

يراقبهما الكل بمزيج من الريبة والعداء وهما يتمشيان عبر منشآت السكن البائسة. ربما يتساءل أحدهم عن سبب مجيئهما إلى هنا، أو كم من مال معهما في جيوبهما، أو هل أن قتلهما وسرقتهما سيغدو ضربة جيدة. يتفحص دونوسو الأهالي الذين يحيطون بهما عن بُعد كآكلات الجيف. يود أن يُفكر في أن زيه يفرض الاحترام، على الرغم من أنه ليس مسلحًا. مع ذلك لديه قناعة بأن العين التي فقدها في نزاله مع عشيق زوجته تُثير داخلهم مخاوف خرافية.

يقرر رجل ما في النهاية الاقتراب منهما.

- ما الذي تبحثان عنه في هذه المنطقة النائية؟

- نبحث عن آل كابريروس.

يهدأ الرجل حين يسمع اسمًا معروفًا، ويعاملهما بلطف مفاجئ.

- البيت المجصص.

يقع البيت المجصص على بعد بضعة أمتار عن البقية. يلفت الانتباه لأنه ليس بائسًا كبقية البيوت، بل يبدو جميلًا ومعتنى به، كبيوت القرى الأندلسية. ليس مجصصًا فحسب، بل ثمة أصص لزهور إبرة الراعي فوق أرفف النوافذ.

يخلص دييجو:

- أثرياء الحي.

يلعب بعض الأطفال الذين تتراوح أعمارهم من ثلاثة إلى أربعة أعوام أمام الباب. اثنان منهم عاريان. يحدق دونوسو إليهما بعينه السليمة بازدراء.

- لا يترك الأثرياء أبناءهم عراة.

تخرج امرأة كبيرة جدًّا في السن من البيت ومعها دلو ملآن بالماء لتسقي النباتات.

يقول لها الصحفي:

- أبحث عن آل كابريروس. قالوا لي إنهم يعيشون في هذا البيت.

- هنا كلنا من آل كابريروس. قل لي ما تريده وسأخبرك عمن تبحث.

- على من أجّروهم منذ نحو شهر للعزف والغناء في حفل. أخذوا معهم طفلة اسمها بيرتا.

- تلك التي قتلها «الوحش»؟ يعرفها ابني بالتاسار. يقول إنها كانت تغني كأنها غجرية.

تدخل المرأة البيت من دون أن تدعوهما لمرافقتها، أو أن توضح ما الذي ستفعله. يجدان نفسيهما مجبرين على الانتظار، تحسبًا لأن تكون تلك المرأة المسنة واحدة من هؤلاء الأشخاص الذين يخفون لطفهم تحت طبقة من الجفاء. بعد مرور عشر دقائق، يخرج بالتاسار، وهو شاب غجري طويل يتخطى عمره عشرين عامًا بقليل، وينقص أذنه أحد أجزائها. على الرغم من هذا، فهو جذاب. لا بد أن أُجرته مرتفعة في الحفلات وبعض المقاهي الغنائية.

- من يبحث عني؟

- اسمي دييجو رويث. أنا صحفي. أعمل في «إل إيكو ديل كوميرثيو».

- وصديقك الشرطي؟

- أنا لست أحدًا. تعامل كأنني لست موجودًا. هو من يريد أن يتحدث معك.

يحكي بالتاسار لهما أن بيرتا بدأت تقترب من حفلات الفلامينكو التي اعتادوا أن يحيوها وتشجعت على الغناء، فاندهشوا جميعًا من قدرة فتاة غير غجرية على إجادة الأمر بهذه الصورة. كانت جميلة ومنطلقة، ولهذا رافقتهم أكثر من مرة.

- عرفت كيف تُشجع أبناء الذوات الأوساخ على تقديم إكراميات جيدة. لتحل اللعنة على أموات من اختطفها.

- يقولون إنه «الوحش».

- إذن لتحل اللعنة عليهم. يُقال إن رأسها اقتُلع من مكانه كما قد ينزع ذئب رأس نعجة.

يبدو دييجو مستاء من الاستمرار في تعريف هذا السفاح على أنه حيوان ويجيب بحسم مفرط:

- هذه ليست طريقة الحيوانات في إلحاق الأذى. تقتل بدافع الجوع لا التسلية، وهذا هو ما حدث مع بيرتا والفتيات الأخريات.

لو أن رغبته هي اكتساب ثقة بالتاسار، فهذه ليست أفضل نبرة، لهذا يقول:

- اعذرني. إنه مشهد يؤلم بمجرد تذكره. تمكنت من التعرف على والد الفتاة، خينارو. قالت له ابنته إن أحدًا ما لاحقها بعد حفلة في مدريد في أحد البيوت الفارهة.

- لطالما رافقناها حتى «إل ثيرّبيو ديل راسترو» وتركناها بين أهلها لكيلا تمشي وحدها هناك ليلًا. لا أعرف ما حدث بعد هذا الحفل، إذ تاهت و... أقلقتنا، لكن في الصباح التالي كانت مع أبيها في «إل ثيرّبيو». حكت لي أيضًا أنها فزعت وظنت أن شيئًا ما لاحقها.

- من المحتمل أن يكون «الوحش» قد اختارها في تلك الليلة. أين كان الحفل؟

- في شارع «التركي»، لكن بعد الحفل دعونا لمواصلة الغناء في بيت يقع في شارع «طريق القديس جيروم»، قرب متجر للنبيذ. أتذكر هذا لأننا اشترينا جرتين قبل الصعود. لم يكن من نوعية البيوت التي اعتدنا الذهاب إليها، إذ امتلأ بالكتب. يعيش فيه رجلان، أحدهما صغير والآخر شاب. بدا الأمر كأنهما كاهنان، لكنهما دفعا ما طلبناه. لا أظن أن الموسيقى رفهت عنهما، لكن أعطى الأمر انطباعًا بأنهما أرادا أن نبقى هناك لفترة من الزمن.

- بخلاف هذين الرجلين، هل كان ثمة شخص آخر في البيت؟

فجأة يتغير سلوك بالتاسار المتعاون. ينظر الغجري إلى دونوسو وديبجو بازدراء، كأنه اكتشف السبب الحقيقي وراء زيارتهما.

- هل ستلقيان بالذنب على الغجر في مسألة بيرتا؟ هل هذا هو الأمر؟ هل لهذا السبب جاء إلى مؤخرة العالم صحفي وشرطي؟

- هذا أبعد شيء عن نياتي في هذا العالم.

يسعى ديبجو إلى ألا ينغلق بالتاسار على نفسه. يحدس أنه لا يزال قادرًا على تقديم معلومات ذات قيمة له، لكن الرجل لم يعد مستعدًا للحديث أكثر من هذا ويرحل قائلًا:

- ما الذي ينقصني سماعه أيضًا؟ سمعت أننا معشر الفجر نسمم المياه بالكوليرا. لماذا يُعتبر أي كاهن قديسًا بمجرد خروجه إلى العلن؟ لا يوجد أبناء عاهرة أكثر من الكهنة في المدينة. المرض ذنبهم، ولن أتعجب إن كانوا هم أيضًا من يقفون وراء موت بيرتا.

تسري هذه الشائعة منذ عدة أيام وتقول إن الكهنة والرهبان، المناصرين لكارلوس ماريا إيسيدرو دي بوربون والمعارضين لإيسابيل الثانية والملكة الوصية ماريا كريستينا -وهم أطراف ما يسمونه منذ عام بالحرب الكارليَّة- مُصرون على تقويض مقاومة مدريد وقرروا تحقيق مرادهم بتسميم مياه المدينة لإصابة سكانها بعدوى الكوليرا. إنها شائعة سخيفة لا تشتعل إلا في المجتمعات غير المثقفة. لا قيمة للمنهجية هنا ولا أن يشرح المرء ألف مرة أن الكوليرا جاءت من دول أخرى وأنها كانت تقتل الناس في كل أنحاء العالم قبل وصولها إلى المدينة، فشعب مدريد مستعد لتصديق كل الأنباء المعادية لرجال الكهنوت، ربما كنتيجة لرفض ظل يتشكل منذ قرون كثيرة.

يجر دييجو دونوسو معه إلى شارع «طريق القديس جيروم» لتفقد بيت الكاهنين. يريد أن يتحدث معهما بخصوص شيء يراه مُستهجنًا. صحيح أنه يعتبر نفسه متسامحًا ووسطيًا، لكن حفلًا لعازفين غجر في بيت مقدس لا يبدو له شيئًا لائقًا. ثمة عربة بحصان تقف أمام باب العقار، ينعس السائق فوق مقعد الحوذي. يصفر دييجو، فيستيقظ الرجل منتفضًا.

- هل هذا بيت الكاهنين؟

يُجيبه بتراخٍ:

- كل الناس كهنة في هذا الشارع.

يجتاز دونوسو الشارع وصولًا إلى متجر النبيذ الذي أتى الغجري على ذكره. يحكي له المالك أن الكثير من رجال الدين يشترون نبيذه، وأنه لا يخطر على باله مكان أفضل لمتجره من شارع ملآن بالأديرة.

- ثنائي الكهنة هذا ليس غريبًا عليَّ. كانا من ضمن القلائل الذين لا ينفقون أموالهم. أظن أنهما يعيشان في هذا العقار. شقة صاحبه في الدور الأرضي. اسألاه هو.

حين يطرقان الباب بمقرعته، يسمعان صوتًا يصرخ:

- أنا قاااادم.

يفتح الباب رجل أحدب وأصلع، ثمة بقايا للشعر عند صدغيه. يتفحصهما من وراء نظارة تتوازن فوق أنفه. على الرغم من أنه حي لرجال الدين، فصاحب البيت علماني.

يصحح لهما كلامهما وهو يرفع سبابة يده اليمنى:

- لا يعيشان، وإنما عاشا هنا. ماتا منذ أسبوعين. الرجل العجوز والشاب. الكوليرا تلتهم الكل من دون تمييز. انظر، حتى الأب إجناثيو جارثيا نفسه لم يفلت منها.

يلفت الاسم انتباه دييجو:

- إجناثيو جارثيا؟ عالم النباتات؟
- وعالم اللاهوت. لطالما وصل إليه يوميًّا أحد المجلدات عن النباتات، حتى تلك المكتوبة باللاتينية. كان علَّامة فعلًا، لكن مؤخرًا صارت له عادات غير تقليدية. أقاموا حفلًا فيه غجر ومُصفقون. لو أن ثمة شخصين لم أتخيل أن يتسببا في ضوضاء مثل هذه، فهما دون إجناثيو وزميله الأب أدولفو. ربما تُصيب الكوليرا الناس بالجنون.

يحاول دييجو جمع القطع، لكن الأمر يشق عليه، غنت مجموعة الغجر في شقة إجناثيو جارثيا، عالم اللاهوت المتخصص في علوم النباتات الذي أتى مورينتين على ذكره، أي إنه ساكن الشقة التي تعرضت للنهب بعد وفاة ساكنيها! لكنه يعجز عن تفهم كيف يرتبط موت الكاهن ومساعده، الأب أدولفو، بقصة بيرتا.

- هل ستنزعج لو ألقينا نظرة على الشقة؟

لا يُخفي دييجو اندهاشه من مبادرة دونوسو. لا يُعارض المالك ويُسلمهما مفاتيح بيت الأب إجناثيو بسبب زي الشرطي. يعترف لهما بأنه يتمنى أن يمر بعض الوقت حتى يتجرأ الفتية على الدخول من دون خوف من المرض لإفراغ البيت كي يتمكن من تأجيره مجددًا.

يمزح دييجو بينما يضع دونوسو المفتاح في القفل:

- ظننت أنك تقف إلى جواري كمجرد كومبارس.
- لا تحسب أنني أفعل ما أفعله لأن هذا التحقيق له أي معنى. كلما انتهينا منه في وقت أسرع، سنتمكن من إراحة عظامنا في إحدى الحانات.

سينبغي لك أن تدفع لي ثمن عدة جولات من الشراب مقابل الخدمات التي قدمتها لك.

تمتلئ الشقة بالكتب، كلها تقريبًا دينية أو عن علوم النباتات القروسطية. ثمة مجموعة صغيرة من النباتات فوق إفريز. تتكون الشقة من غرفتين، عاش الكاهن الشاب، الأب أدولفو، في أقربهما إلى الصالون، وفي الثانية الكاهن الأكبر، الأب إجناثيو. لا تزال الفوضى الناجمة عن عملية السلب ظاهرة، بوجود فرشاة ملقاة على الأرض ومقعد مقلوب وأدراج مفتوحة.

- ما الذي تمكنوا من أخذه؟ هل كان مجرد لص أم شخص جاء لسرقة شيء محدد؟

يُمسك دونوسو بمجلد قديم عن علوم النباتات، مغلف بالجلد.

- أفترض أن هذه الكتب لها قيمتها، لو عرف المرء أين يعثر على مشترٍ لها.

- إذن هو لص غير مثقف. هذه المكتبة ليست رخيصة. على الأرجح حدث النهب بالمصادفة البحتة. كثيرة هي شقق موتى الكوليرا التي تُسرَق.

يتفقد دونوسو ودييجو كل الأنحاء من دون أن يعثرا على شيء. الأمر أصلًا صعب لأنهما لا يعرفان ما يبحثان عنه، إلى أن يمعن الشرطي نظره في قارورة زجاجية فيها مادة حمراء داخلها.

- ما هذا؟ نوع من أسمدة النباتات؟

يفتح دييجو القارورة ويبلل إصبعه فيها. حين يُقربها من أنفه تترك رائحة حديد فيها.

- يبدو كدم متجلط.

- هل أنت متأكد؟

يُمسك دونوسو القارورة ليشم الرائحة ويتحقق مما يقوله صديقه:

- من أي حيوان يا ترى؟ لماذا يحتفظ كاهن بقارورة دم؟

يبقى دييجو صامتًا، وهو يفكر في احتمالية واحدة: وماذا إن وجد دليلًا علميًا يسمح له بتحديد أصل هذا الدم؟ يحتفظ بالقارورة في سترته ويفكر في أنه ينبغي له أن يزور الطبيب الشاب آلبان لسؤاله، لكنه يستبعد الأمر سريعًا. ربما يرى مؤشرات لا وجود لها على الأرجح. عالم اللاهوت إجناثيو

جارثيا خبير في علوم النباتات. ربما ما في القارورة ليس دمًا، وإنما دهان معين لأبحاثه مع النباتات. ربما سيؤكد هذا الأمر خبير في البستنة. على الرغم من أنه يؤلمه الاعتراف بالأمر، يشعر أنه قد وصل إلى حارة مسدودة. ربما عليه أن يغير مسار تحقيقاته ويجذب خيط الشارة التي عثروا عليها في لُهاة بيرتا. هذا الرمز العجيب المكون من مطرقتين متقاطعتين. على أي حال سيبدأ التفكير في هذه المسألة في اليوم التالي. لا يوجد وقت لهذا اليوم. إنه الجمعة وينبغي له أن يتوجه إلى الموعد الذي لم ينم بسببه تقريبًا خلال الأسبوع الأخير.





15

تظن لوثيا أن الملابس التي ألبسوها إياها سخيفة، لكنها لا تتجرأ على الاحتجاج، إذ إن «اللبؤة» من اختارتها لها، وهي عبارة عن مخصر من حرير مدينة بوردو الفرنسية مزود بزينة سوداء ومشد صدر لا يغطي نهديها، بل يبدو كشرفة تعرضهما أكثر من كونه قطعة ملابس. أما الجزء الخلفي، ففيه شيء يشبه الذيل العريض من نوعية القماش نفسها. ترقد وهي عارية، على هذه الحال، على فراش قصير. يجلس أمامها ماوريثيو الأبتر ليرسمها. أمرها بأن تظل ساكنة وألا تُحرك عضلة واحدة في جسدها. يشق عليها الأمر، كأنها حيوان صغير مشلول أمام وميض، في ظل فزعها مما قد يحدث.

- في مقابل رسمها يا «لبؤة»، هلا جعلتِني أول من ينام معها؟

- حتى لو كنت بيلاثكيث[1] بنفسه، فلن تصل لوحتك إلى هذه القيمة. لو أن الأمر لا يعجبك، فلترحل وانتهينا.

---

(1) المقصود هو الرسام الإسباني دييجو رودريجث دي سيلبا إي بلاثكيث، وهو أحد أهم رسامي إسبانيا والعالم على مر التاريخ. (المترجم).

مر أسبوع بالفعل على عودة لوثيا إلى بيت «اللبؤة». التزمت بكلمتها، فبدأت الأخيرة إجراءات المزاد الذي سيؤتي ثمره اليوم. قالت لها القوادة إن ثلاثة رجال مهتمون بعذريتها وسيدفعون جيدًا من أجلها. سيصلون في الثالثة مساء لرؤيتها. سيتنافسون فيما بينهم وسيأخذها الفائز إلى إحدى الغرف.

- ستكونين في الغرفة الصينية، الأفضل في البيت. سأدفع لكِ نصف ما سيقدمونه إليَّ من أجلك، مع خصم النفقات بالطبع.

- هل سيكون مالًا كثيرًا؟

- أكثر من أي مال حصلتِ عليه في حياتك، على الرغم من أن هذه المسألة لا تبدو صعبة، بناء على الملابس التي جئتِ بها.

بينما يرسمها الأبتر، يحاول خيال لوثيا أن يهرب مما قد يحدث في الغرفة الصينية. تلوذ بفكرها في المال الذي ستكسبه. ستشتري الطعام لكلارا، اللحم والفواكه وبعض الملابس. يبيعون في منطقة المغاسل ملابس لبست في حالة سيئة تخلت عنها صاحباتها بسبب وجود بقع لا تزول. سينبغي لها أن تتفاوض بمهارة وأن تحتفظ بجزء من المال لشراء تذكرتين في عربة أحصنة تُبعدهما عن مدريد، ربما نحو الجنوب، حيث البحر. ستبدآن هناك، بعيدًا عن مدريد، والكوليرا والعملاق الذي يلاحقها، حياة جديدة.

يُظهِر لها الأبتر اللوحة بعد الانتهاء منها، فلا تجد بُدًّا من الإعجاب بها. خرجت من تحت يدَي هذا الرجل المشوه لوحة غاية في الجمال. إنها هي فعلًا، لكن بصورة أجمل بكثير مما هي عليه في الواقع، وأقل فزعًا مما تشعر به حقًّا في أعماقها.

في النهاية وصل عدد من سيتنافسون على عذرية لوثيا إلى خمسة رجال. يبدو على خمستهم الثراء. أمرتها «اللبؤة» ودلفينا أم خوانا بأن تتمشى بين الطاولات، وأن تبتسم لهم، وألا تعترض لو امتدت يد أحدهم رغبةً في تجربة البضاعة قبل عرض أموالهم.

- اتركيهم يلمسونك، لكن اللمس وحده. لو أرادو شيئًا آخر فعليهم أن يدفعوا.

ترتدي لوثيا الملابس نفسها التي رسم بها الأبتر صورتها. تتمشى وهي عارية تقريبًا حول الرجال الخمسة كما نصحتها «اللبؤة» ولا تتجنب نظراتهم.

تعكس هذه الأعين الرغبة والجزع، وأيضًا الخزي وشعور الذنب. ثمة رجاء فيها بالمثل كي يصيروا أصحاب الحظوة في لمسها ومعاشرتها. تشعر مع كل خطوة بأن الخوف الذي يحرقها يتبدد. إنها مرغوب فيها وأكثر ما يتوق إليه هؤلاء الأثرياء الخمسة الآن هو جسدها. لديهم كل شيء، باستثنائها هي. تزداد ثقتها وسلطتها مع كل خطوة داخل القاعة. تتذكر نصيحة امرأة الشارع التي ساعدتها قرب الميدان: «كل ما لدينا نحن معشر الفقيرات، هي أجسادنا». ربما سيستمتع أحد هؤلاء الرجال هذه الليلة به، لكنها بعدئذٍ ستظل الشخص نفسه، لن يقدر أحد أبدًا على حرمانها من هذه القوة.

مع ذلك فالمسألة برمتها سخيفة، إذ إنهم جميعًا يحاولون إغواءها، بأن يطلبوا منها أن تجلس معهم، وأن تجرب كأسًا من الشمبانيا في رفقتهم، على الرغم من أن الأمر يتعلق فقط بالمال، وبأنها ستذهب مع أكثر من يدفع. بينما يزداد سُخف هؤلاء الرجال، تكبر لوثيا وهي واثقة من نفسها، وتزداد قناعتها بأن ما تفعله هو الصواب. لم يعد صوت أمها يأتي لها من وراء القبر ليؤنبها على هذا القرار.

في النهاية، تقفز «اللبؤة» فوق منصة صغيرة، وتطلب من لوثيا أن تصعد معها.

- يُمكن العثور على عذراء بمثل هذا الجمال في مرات قليلة، شعرها ناري في الأعلى والأسفل. وعدتها بأن أكرم رجال مدريد سيكونون هنا. أفضل من يدفعون لكيلا تنسى أبدًا مهما عاشت من السنين.

يظهر سريعًا أن اثنين من الرجال الخمسة مهتمان فعلًا بها، ويستمران في المزايدة بعد توقف الثلاثة الآخرين. يرتدي أحدهما سترة رسمية داكنة وقميصًا أبيض من دون زينة وربطة عنق صغيرة سوداء. أطلقت لوثيا عليه فورًا لقبًا داخل رأسها: «حفار القبور». إنه طويل ونحيف وشاحب وفقد أغلب شعره. قد يُقال إنه مريض. ربما يبدو استعداده لدفع كل هذا المال من أجل التسلية ضربًا من الخيال بسبب هيئته التي لا تعكس تمتعه بقدر كبير من الصحة. الآخر شاب، ونوعًا ما جذاب. ربما عمره ثلاثون عامًا. يتأنق في ملبسه بسترة مطبوعة بالأحمر والأسود وبنطلون بني، وبزة «فراك» سوداء وربطة عنق واسعة. يُذكّرها بأولئك الطلاب من فرائس إيلوي.

تطلب «اللبؤة» من لوثيا أن تجلس فوق ساقَي الرجلين لتجربة البضاعة عن قرب وإحماء المزاد. شمت خوسيفا رائحة فوران الدم. تعرف متى يمكن لمزاد أن يتجاوز كل الحدود. في النهاية يرسو العطاء على «حفار القبور» الذي سيدفع مبلغًا لا يُصدَّق بقيمة خمسمائة ريال ليأخذ لوثيا إلى الغرفة الصينية.

تتحدث معها دلفينا قبل أن تدخل.

- لا تقلقي، سيكون الأمر سريعًا. إنه مجرد رجل. سيأتي آخرون غيره ولن يدفعوا كل هذا المال ولن يكونوا مختارين بمثل هذه الصورة.

- من هو؟ هل تعرفينه؟

- إنه زبون دائم. يقولون إنه رئيس أحد الأديرة، لكنني لست متأكدة. لا يتحدثون عنه بالسوء. حظك كان جيدًا.

جدران الغرفة الصينية مبطنة بحرير طُبعت فوقه مشاهد جبلية وصور لمعابد الـ «باجودا». تبرز في أحد أركانها نافورة صغيرة لا يتوقف الماء عن التدفق منها فوق بعض الأحجار. ينتصب الفراش فوق سيقان تتخذ شكل تنانين، وأمامه تلمع مزهرية من البورسلين الأبيض المزين بزهور صغيرة زرقاء. يكاد طولها أن يقارب طول لوثيا. يحيط بها من كلا الجانبين مزهريتان أصغر كأنهما تحرسانها.

تنتظر لوثيا «حفار القبور» بهدوء. حين يصل يجلس على مُتكأ أخضر مُذهب كبير.

- أتمنى أن تكوني فعلًا عذراء، وألا أكون قد تعرضت إلى الخداع.

- أنا عذراء يا سيدي.

- حظيت بعذراوات كثيرات، أكثر من خمسين، وأنتِ من أغلاهن. لو أنك تكذبين عليَّ، فسأكتشف الأمر وسأجعل «اللبؤة» تعيد المال.

- لا تخف يا سيدي.

يتعرى «حفار القبور». جلده شاحب ومجعد، كحقل مُجدب. يطلب من لوثيا أن تتعرى هي الأخرى وأن ترقد. تنفذ تعليماته. يقف «حفار القبور» عند طرف الفراش وهو يراقبها لبضع لحظات، يُستثار، تُغلق لوثيا عينيها. لا تريد أن تفقد الجسارة التي اكتسبتها قبلئذٍ بلحظات. لا تريد أن تبكي حين

يهم الرجل بها. كم تشعر بأنها حمقاء حين تتذكر أنها فكرت وهي تتمشى بين هؤلاء الرجال أن لها سلطة ما عليهم. في الواقع ليس لديها أي سلطات.

يُمسكها الدفَّان من كاحليها ويُحرك ساقيها. بعدئذٍ يتسلل كثعبان فوقها ويلعق رقبتها. يبدو وزن جسده فوق لوثيا خانقًا. تؤلمها فعلته لكنها تكتم ألمها. تُفكر في طائر أمها الملون وهو يُحلق فوق رأسها، وفي النافورة السحرية التي تحوِّل الحجارة إلى عملات وفي آلاف الرحلات التي خاضتها عبر العالم.

تنتهي اللحظة الحرجة سريعًا. تدمي لوثيا بصورة كافية كي يرحل زبونها الأول راضيًا. بينما ترتدي ملابسها تدخل «اللبؤة» إلى الغرفة. تُهدي إليها نصف ابتسامة وهي تقف عند حلق الباب وتضع يديها فوق جانبي خصرها بذراعين مثنيتين.

- كنتِ جيدة جدًّا. قال لي الزبون إنه قد يعود. ها هو ذا مالك.

تعده لوثيا بنهم.

- مائة ريال؟

- عليكِ أن تكوني سعيدة. قلت لكِ إنكِ ستكسبين مالًا أكثر مما كسبتِه طيلة حياتك.

- وصل المزاد إلى خمسمائة ريال.

- هل تحسبين أن التكاليف تدفع نفسها بنفسها؟ الشمبانيا التي قدمناها والغرفة الصينية والملابس. أخذتِ نصف ما تبقى، مائة ريال.

تعجز عن النقاش. تشعر أنها تعرضت إلى الاحتيال، لكن القوادة محقة، مائة ريال أكثر مال حصلت عليه في حياتها. ستتعشى كلارا الليلة كل ما تتمناه إلى حد التخمة، وبعد بضع ليالٍ، ستجمع لوثيا المال الكافي للفرار من مدريد.

استقرت إحدى العائلات في فناء مصنع الثقاب المهجور حيث لاذت كلارا ولوثيا منذ بضعة أيام. تتكون العائلة من بدرو وماريا، المتواضعين جدًّا، وابنهما الصغير، لويس. هدموا بيتهم في حي «كريستو دي لاس إنخورياس» كما حدث معهما. إنهم أيضًا غرقى يبحثون عن بَر يأويهم.

حين ترى كلارا لوثيا تدخل وهي تحمل أطعمة العشاء، تقترب منها وهي تتواثب وتحكي لها مستجدات رفقائهما في السكن.

- الطفل مريض جدًا. يكادون أن يموتوا من الجوع. حسنًا، وأنا أيضًا؛ لم آكل شيئًا طوال اليوم.

- إذن جميعكم محظوظون. أنا معي الطعام.

- من أين أتيتِ به؟

تحكي لها لوثيا أنها بدأت تعمل خادمة في أحد البيوت وأن هذا اللحم وهذه الفاكهة وهذا الخبز الطري الذي يبرز من حقيبتها هدية من سادتها.

- هل يمكننا أن نتشارك الطعام معهم؟

تبتسم لوثيا لأختها وهي منهَكة. هبطت إلى الجحيم نفسه لتحصل على هذا الطعام، لكن لا يمكنها أن تحكي لها. أيضًا يروقها أن تكون أختها بهذا الكرم، على الرغم من أنه ليس زمنًا مناسبًا لهذا النوع من الخصال.

بينما تقترب العائلة التي احتمت تحت أروقة المصنع المسقوفة، شرعت الأم تقدم للطفل بعض رشفات الماء الساخن كي يقيء. شاهدت لوثيا ما يكفي من مرضى الكوليرا، لتدرك أنه واحد منهم.

- لا بد من استنزافه[1]، لكن لم يعد لدينا علقيات. بدأت تنفد من مدريد وسعرها يرتفع كلما مر الوقت.

سمع الجميع عن الحل الخارجي في غياب العلقيات، النزف عبر الشريان الصدغي. لا بد أن يفعلها طبيب، لكن العثور على طبيب مستعد لفعلها ليس أمرًا سهلًا، وبخاصة إن لم يملك المرء مالًا. شهدت لوثيا ذات مرة استنزافًا متوحشًا، إذ فتح والد إحدى جاراتها الشريان الصدغي لابنته، لكنه فشل في إغلاقه. شاهدوا وهم عاجزون وصامتون كيف نزفت بين ذراعيه. لا يثق الناس بعمل العلقيات بسبب فعاليتها وكونها مُثبتة، وإنما لأنها الأمل الوحيد لإنقاذ الحياة الذي يُمكنهم أن يتشبثوا به.

---

(1) أسلوب علاجي قديم يعتمد على إجبار المريض على فقدان دمائه، إما عن طريق فتح أوردة معينة في جسده وإغلاقها، وإما بجعل بعض العلقيات تلتصق بجسده لمص دمائه، ظنًا أن هذا الأمر سيجعل المرض يغادر جسده. (المترجم).

في هذه الليلة، تجلس لوثيا بعد عشاء أضخم من المعتاد، لتراجع كل ما مرت به منذ بداية اليوم. تتلألأ اللقطات في عقلها كأن ثمة كشافًا سحريًا يضيئها، الأبتر، المخصر، المزاد، الغرفة الصينية، «حفار القبور»، عائلة فقراء مصنع الثقاب، النهم الذي تناولوا به الخبز واللحم والفاكهة، امتنان أعينهم، وألم الطفل المحتضر الذي تمكن فقط من ابتلاع القليل من فتات الخبز، ولم يقدر حتى على رفع قطعة السفرجل إلى فمه.

ناولت لوثيا بعض العملات إلى المرأة كي يحاولا شراء العلقيات لتمص دم الصغير.

تتعجب كلارا:

- من أين أتيتِ بكل هذا المال؟!

- قلت لكِ بالفعل إنني أخدم في أحد البيوت.

- هل يدفعون لكِ كثيرًا إلى هذا الحد؟

- هل نسيت أنني أحوِّل الأحجار إلى عملات؟

تنظر إليها كلارا بتشكك.

ترقد إلى جوار أختها وتنامان وهما متعانقتان، مع أنها فعلت هذا الأمر وظهرها لها لكيلا تراها وهي تبكي. إنها قوية، لكن أحداث هذا اليوم تخطت قشرتها الخارجية ووصلت إلى نواتها، قلبها، وروحها، ووعيها. حاولت الفرار من الغرفة الصينية عبر خيالاتها، وها هي ذي في ساعة النوم يتراءى لها مشهد «حفار القبور» مجددًا بتعرقه ووجهه الممتقع وهو مستمتع بها فوق الفراش، قبل أن ينهي تلك الفعلة الذي اختبرت أجواءها لأول مرة، بطريقة بدت كأنه أراد أن تسبب لها أكبر قدر من الألم.

تكافح لوثيا كي يظل بكاؤها صامتًا وتطلب الغفران من أمها عما فعلته، بل وتلعن نصيبها في الحياة وتكز على أسنانها وتقسم إنهما ستتخطيان هذا، وإنها ستتحلى بالشجاعة الكافية للوصول إلى هدفها، أربعمائة ريال. هذا هو الرقم الذي حددته.

تظل كلارا الصغيرة مستيقظة إلى جوارها، تلاحظ تنفس أختها المتقطع. تسمع بكاءها وتتساءل عن السبب وراء انهيارها في هذه اللحظة، تحديدًا في اليوم الذي عثرت فيه على عمل جيد، وجلبت فيه إلى البيت مالًا وطعامًا.



كما توقعت آنا كاستيلار، لم يشق على دييجو كثيرًا التحقق من محل سكنها، فهو أحد قصور شارع «لا أورتاليثا» الذي سبق أن مر من أمامه عشرات المرات. يُبهر قصر دوق ألتويانو المرء بأشكاله المتناسقة وطابع مبناه الوديع، فيبدو كملاذ في وسط المدينة التي اجتاحتها الكوليرا. يقف دييجو أمام بوابة المدخل الضخمة المكونة من أحجار منحوتة من الجرانيت، ويتأمل نوافذ الطابق العلوي الضخمة المزودة بشرفات ذات أطر حديدية. لا يعرف ما إذا كان يجب عليه أن يدق الباب أم أن ينطلق راكضًا، إذ إن التفكير في أن امرأة شابة وثرية وجمالها لا يُضاهى، بل وزوجة لأحد وزراء الملكة، قد تشعر بالانجذاب نحوه أمرٌ سخيف. لكنه يعرف أيضًا أنه سيغدو ساذجًا لو ترك الفرصة تفلت من بين يديه.

تخرج خادمة لا يتعدى عمرها ثمانية عشر عامًا لفتح الباب. تستقبله بسلوك خانع، من دون أن تنظر إلى عينيه مباشرة.

- طلبت مني السيدة أن أرافقكم إلى الحديقة.

لم يحظ دييجو بفرصة الدخول إلى قصر فخم مثل هذا إلا في مرات قليلة. قد لا يصدق المرء أن قصرًا داخل «جدار مدريد» يضم حديقة معتنى بها بمثل

هذه الصورة. ثمة طاولة مُجهزة لشخصين، إلى جوار نافورة تضفي انتعاشًا لطيفًا جدًا، على أجواء هذه الجمعة الحارة جدًا في أوائل شهر يوليو. عند المدخل المسقوف ذي الطابع البلاتيريسكي الذي يؤطر الفناء، توجد أقفاص كبيرة تحلق فيها طيور غريبة ألوانها لافتة للنظر، بداية من الببغاوات وطيور آرا حتى طيور الخضير والحسون والعلعلة. يتمشى أحد الطواويس بإباء عبر المكان، وهو غير مبال بتشابك تغريد ونعيق وصياح الطيور المحبوسة. يقف ديك بري من الفصيلة الآسيوية أمام المدخل الذي وصل منه دييجو وينظر إليه بالشك المميز لمن يتعرف على دخيل. قد لا يتخيل المرء أصلًا وهو في بديل الفردوس هذا، أن آلافًا من الجثث تتراكم على بعد عدة أمتار وراء هذه الجدران الطوبية بسبب الوباء.

- هل أقدم لكم نبيذ خيريث[1]، أم أنكم تفضلون الشمبانيا؟
- الشمبانيا من فضلك.

تدخل الوصيفة إلى البيت بحذر وتحفظ. تعود بعد بضع دقائق ومعها زجاجة باردة جدًا من أفضل أنواع الشمبانيا الفرنسية.

- تعتذر سيدتي لكم. ستتأخر بضع دقائق في الاجتماع مع سيادتكم.

تمر نصف ساعة قبل أن يراها تظهر وهي أجمل مما كانت عليه في ذاكرته. ربما يقول قائل إن ملابسها لا تتماشى مع الموضة الرائجة، لكن دييجو يعتقد أن آنا كاستيلار تسبقها وأن نساء كثيرات سيقلدن أسلوبها قريبًا. ترتدي فستان رقص من الحرير الوردي الخفيف جدًا، بفتحة صدره واسعة. قليلات من قد يتجرأن على ارتداء شيء مثله في إسبانيا، وإن فعلنها فسيُقدمن على تغطيته بوشاح. بالنسبة إلى كُميه فهما قصيران، أما الفستان نفسه فينتهي متسعًا من الأسفل، وكل ما يُزينه هي مجرد عقدة بيضاء في ظهره.

- اعذرني إن جعلتك تنتظر. اضطررت إلى حل بعض شؤون «المجلس الخيري» التي تتطلب تدخلي.
- أتفهم كونك امرأة ذات مشغوليات.

---

(1) أحد أفضل أنواع النبيذ الإسباني ويسمى هكذا نسبة إلى المدينة التي يُصنع فيها ولها الاسم نفسه. (المترجم).

- خصصت هذه الليلة لك، بل إنني منحت الخدم عطلة. بلانكا فقط من ستبقى معنا. ثقتي بها كاملة. ليس الأمر أنني أقلق من وصول المسألة إلى مسامع زوجي، لكنني سأكره أن أقدم تفسيرًا له. إنه موجود في «قصر المزرعة» مع الملكة الوصية. لا أدري ما إذا كنت تعرف أنهم تحت الحجر. يقولون إن ثمة عدوى نجمت عن الجليد الذي يهبط من الجبل.

يأخذ دييجو رشفة أخيرة من كأس الشمبانيا. يتعرف في نبرة آنا على الخفة نفسها التي رصدها في «مسرح التخييل بالأوهام». لن يكون هذا سببًا للاستياء في ظروف أخرى، لكنه يعجز عن تفادي اشتياقه نوعًا ما إلى آنا الأخرى، تلك التي تعمل في المحجر، وهي متحررة من كل أشكال الخداع.

- الموقف سيئ جدًا في المدينة.

يخشى دييجو أن يكون اليأس قد تسلل إلى كلماته. تستغرق آنا وقتًا قبل أن تُجيبه. ربما لأنها لاحظت الأمر.

- أنا سعيدة لأن المرض لا يفهم ماهية طبقة النبلاء ولا يفرق بين الأغنياء والفقراء. ليس الأمر أنني أسعد بوجود مرضى في البلاط، لكنني لا أحب ما رأيناه في «محجر بالبيردي» يا دييجو.

إنها لعبة غريبة، وكأن ثمة شخصيتين تتبادلان الأدوار داخل جسد واحد، تتصرف آنا بمهارة في عالم الابتذال، ثم تتعامل فجأة بصورة مباشرة وصريحة وبعيدة تمامًا عن القناعات التي يفرضها عليها وضعها في المجتمع. غير أنها تقرر ألا تتخلى بالكامل عن تكلفها، كأنها تخشى من قضاء وقت طويل وهي مكشوفة.

- هيا لنتناول العشاء. فكرت في أن أفضل شيء هو طلب عشاء بسيط وأن تكون الخدمة على الطريقة الروسية. هل يبدو لك الأمر جيدًا؟

لحسن الحظ ظهر منذ أسبوع في «إل إيكو ديل كوميرثيو» مقال يشرح «الخدمة على الطريقة الروسية»، لهذا فإن دييجو يعلم ما تتحدث عنه. لطالما قُدم الطعام في إسبانيا على الطريقة الفرنسية، أو بمعنى آخر بوضع الصواني فوق الطاولة وفيها كل الأطعمة كي يختار الضيوف ما يريدونه، لكن في السنوات الأخيرة بدأت الخدمة على الطريقة الروسية تلقى رواجًا وفيها تأتي الحصص الغذائية من المطبخ مقدمة في الأطباق مباشرة، بل

ومقطعة إن استدعى الأمر. يتكون العشاء البسيط، الذي سيعد وليمة خارج هذه الأسوار، من حساء الـ «فيشيسواز» البارد، مع نبيذ خيريث، وسمك يظن دييجو أنه سلمون لكنه ليس متأكدًا لأنه لم يجربه قط، مع نبيذ بوردو الأبيض، وطائر الحجل، مع نبيذ بورجونيا. بالنسبة إلى الحلويات، فتضمنت كعكتين بالفراولة والكريمة المخفوقة، مع النبيذ المعزز.

يلاحظ دييجو كيف يبدو صوت الطيور وهو يخفت كما يحدث حين تتوقف الأمطار عن السقوط. غطت بلانكا الأقفاص بقطع ملونة من القماش الغليظ. يعجز دييجو عن تحديد ما إذا كانت ثمة درجة معينة لكل طائر. تنام هذه الطيور الآن في مأمن من طل الليل. تختفي الخادمة من الفناء، بالتكتم نفسه الذي غطت به الأقفاص، كي تتمكن سيدتها ودييجو من استئناف محادثاتهما الخاصة. لا تزال آنا حائرة بخصوص الأسباب التي دفعته لانتحال هوية طبيب في المحجر، فيقص عليها دييجو السبب الحقيقي الذي دفعه للتحدث مع خينارو.

- وحش يقتل الفتيات ويقطعهن؟ تبدو لي قصة بعيدة عن المعقول، وجديرة بـ «مسرح التخييل بالأوهام» حيث التقينا للمرة الأولى.
- نُفضل أن نسمي ما لا نفهمه وحشًا، بالصورة ذاتها التي نُحمِّل فيها الشيطان وحيله ذنب أفعال البشر القاسية، لكننا إن نزعنا ثوب الميثولوجيا، فسنجد الواقع. هذا الوحش مجرد إنسان.
- إنسان يقطع أوصال البنات! تصيبني القشعريرة بمجرد التفكير في الأمر. لدينا الكوليرا والحرب الكارليَّة والآن تأتي حوادث القتل هذه، كأن نهاية العالم قد بدأت بصورة مختلفة عما ظنناها، من دون وجود لعربات نارية أو ملائكة، وإنما البشر وهم يؤذون بعضهم بعضًا.
- من المحتمل أن نكون مُكبلي الأيدي والأقدام أمام الكوليرا، لكننا لسنا هكذا مع الحرب الكارليَّة أو قضية «الوحش». يُمكننا أن نوقف الأمر.
- ليت هناك رجالًا كثيرين مثلك.
- من فضلك، لا تسخري مني.
- لا أسخر. أنا معتادة جدًا ارتداء ثوب اللؤم والعبث، فهذه هي الأمور المنتظَرة مني يا دييجو، لكنني أعتقد أنه لا يوجد شيء أكرهه أكثر من

هذا العبث. إنها أسخف الطرق كي يُشيح المرء ببصره عما يحدث في هذه المدينة.

- أنتِ تعرفين أنكِ لست في حاجة إلى التظاهر أمامي بأي شيء.

تبلل آنا شفتيها بكأس النبيذ، وتترك عينيها الداكنتين تطفوان فوق زجاجها، كأنها تُقيِّم مدى صدق كلمات دييجو.

- ليس من المعتاد أن يرغب أحد في الإنصات إلى آراء امرأة.

- يُدهشني خوفك من التعبير عنها.

- الآراء الأنثوية مثل الرغبات الأنثوية، أمر لا نتحدث عنه وأفضل شيء هو التخلي عنها وسط ظلام غرف مخادعنا.

- هل هذا ما ينصحك به أصدقاء مثل أمبروز؟

- لم آخذ بنصائحه قط. هل تعرف أنه قد رحل إلى لندن؟ قال لي إنه صار يرى العيش في مدينة غير صحية مثل مدريد أمرًا مستحيلًا. أفترض أننا لسنا جميعًا مستعدين للنظر مباشرة إلى ما يحدث في شوارعنا.

- يفضِّل البعض مغادرة السفينة قبل أن تغرق، وعلى ما يبدو فإن هذا هو ما سيحدث.

- ستغدو مدريد وهذا البلد مكانًا أفضل حين نُدرك أن قيمة حياة أي بائع ملابس قديمة أو مومس توازي قيمة حياة الملكة ولا بد أن يصل هذا التغيير بأيدي أشخاص مثلك يا دييجو.

يتضرج خجلًا من قناعة آنا. إنه الوخز نفسه الذي شعر به في المحجر. إنها ذات المزية التي تتحلى بها آنا وتجعله يشعر بأنه شخص أفضل.

يمضي العشاء بحميمية مدهشة بين شخصين لا يعرفان بعضهما تقريبًا. تنساب المحادثة، كأنها آلة تلف وتعمل بيد القدر من دون أدنى احتكاك، بل إن وجود بلانكا لجلب الأطباق لا يكسر الرابط الموجود بينهما. خلقا فقاعة لهما داخل هذا الفناء لا تضرب فيها دييجو ذكرى بيرتا أو سلبية السلطات التي لا تُقدِّر حياة بانسي الضواحي بطريقة تقديرها لحياة عائلات مدريد الميسورة. إنها فقاعة من السلام والجمال في قلب مدينة تلتهم نفسها بنفسها، كأنها تعيش وليمة في آخر أيام الزمان، أو نهاية العالم التي استحضرتها آنا، وعلى الرغم من شعوره بذنب نسيان الواقع، لا يريد دييجو، الأناني، أن يخرج من

هذه الفقاعة. ربما يود أن يتخلص إلى الأبد من رائحة البؤس والحزن التي يتشبع بها كل ركن في مدريد، مدريد التي يشق عليه بمرور الوقت أن ينظر إليها بمودة، كأن الجمال قد انمحى منها وتحولت إلى لوحة سوداء كبيرة لجويا[1] من تلك اللوحات التي يُقال إنه رسمها في «مزرعة الأصم»[2]، وأوصى القلائل الذين رأوها بألا تُعرض علنًا على الإطلاق. أي لوحة قد تكون أفظع من مدريد وهي على هذه الحال؟

تقول آنا في الوقت الذي يتجرأ فيه دييجو على إظهار التحرر الذي يشعر به في هذا الفناء وهو إلى جوارها:

- لا يُمكننا أن نترك هذا البلد لعبة في يد الحظ.
- لكن علينا أن نجد لحظة من أجل الجمال، كي نتذكر الأمور الجيدة في هذه الحياة ولماذا نكافح أصلًا.

يسود الصمت لأول مرة في هذه الليلة. لا وجود لصوت الطيور أو كلمات بينهما وإنما نظرة مفعمة بالرغبة.

- هل سيضايقك أن تبقى وحدك؟ يمكن أن تصب لنفسك كأسًا. ينبغي أن ترافقني بلانكا إلى غرفتي لمساعدتي في خلع الفستان. حين أغدو مستعدة، سأستقبلك هناك. أعتقد أنه لم يعد ثمة معنى لمواصلة لعبة الإغواء بيننا، وبخاصة أن كلًّا منا يعرف ما يريده.

أوشك دييجو على التنحنح قبل قول إن هذه الفكرة تبدو له رائعة. يحلم بأن يشعر ببشرة آنا وأن يلامسها بجلده وأن يُقبلها وأن يسمع بأذنه أنفاس رغبتها.

تتحول دقائق الانتظار الخمس عشرة التي توقعها إلى نصف ساعة، فيصل الأمر بدييجو إلى التفكير في أن مضيفته قد ندمت، لكن تأتي الوصيفة في النهاية من أجله وتطلب منه أن يرافقها.

---

(1) فرانثيسكو جويا (1746-1808): أحد أشهر رسامي إسبانيا وأوروبا. عكس فنه الاضطرابات السياسية والاجتماعية في زمانه. (المترجم).

(2) اسم مزرعة وبيت ريفي كبير في ضواحي مدريد عاش فيها جويا خلال سنواته الأخيرة قبل المنفى. (المترجم).

يتكون الدرج الذي يصعد إلى الطابق العلوي من مسارين، كما أنه مزود بدرابزين من الرخام. لو أن الأمر بيد دييجو لصعده راكضًا وهو يثب فوقه درجتين تلو درجتين، لكنه يحافظ على إيقاع الخادمة. تفتح بلانكا له الباب قبل أن تستدير وتنزل الدرج وتتركه بمفرده أمام غرفة سيدتها. تنتظره آنا كاستيلار هناك وهي عارية.

بشعرها السائب ومن دون الطابع المخادع لفستانها، تغدو آنا جميلة بالصورة نفسها التي كانت عليها وهي في المحجر. سمحت له آنا بالنفاذ إلى خصوصيتها، لكن دييجو يشعر بشيء يكبحه، ويفكر لحظة في أن هذه المرأة على الأرجح حزينة داخل قصرها في «لا أورتاليثا» وسط أعراف المجتمع المدريدي. لم يعرف مثيلًا لها قط، فهي حرة ومنطلقة وتعتز بقناعاتها ونقاط ضعفها بالطريقة ذاتها.

يتقدم بخجل بضع خطوات إلى الأمام إلى أن يجلس إلى جوارها على الفراش. يفتح شفتيه فيسحب بعض الهواء، وهو يبحث عن الكلمات التي قد تصف جمال جسدها، لكن سبابة آنا تتموضع فوقهما وتهمس: «صه»، وإذا بثغرها يُخمد رغبته في الحديث. تُرطب شفتاها شفتَي دييجو، فيشعر كأن جسده فقد ثقله وانهار أرضًا تحت قدميه. يجد نفسه فجأة مُحاطًا بجلد آنا، بعد أن تعرى هو الآخر، وعبر إيقاع تنفسها الحاد والمستثار، يعثر على عينيها. تبدو له هاتان العينان مدهوشتين، بل ومفزوعتين، كأن العري الذي استقبلته به ليس شيئًا مقارنة بما يحدث في تلك اللحظة، حيث لا وجود للأقنعة وهما يمارسان الغرام ويسلم كل منهما نفسه إلى الآخر من دون أي خداع. تنغرز أصابع آنا في ظهره، في الوقت نفسه الذي يقرّب فيه فمه من فمها، فيسحب أنفاسها المتسارعة وحرارتها داخله.

يُوقظ صوت الطيور دييجو. يفتح عينيه قليلًا وهو ناعس، لكن حرير ملاءات الفراش وهذه النعومة التي لم يعتدها يردانه إلى الواقع في نهاية المطاف. تراقبه آنا وهي جالسة إلى جوار النافذة في معطف نومها الرقيق. يرسم جلاء الصباح ضوءًا معاكسًا يُظلل وجهها.

- هل أنتِ مستيقظة منذ فترة؟

- في الواقع لم أتمكن من النوم تقريبًا.

تدفعه نبرة صوتها، الجشاء نوعًا ما، إلى الشعور بالخوف من أن يكون قد فعل شيئًا أثار استياءها. لربما كان من المنطقي أن يغادر القصر مع انتصاف الليل، لا صباحًا، إذ قد يتمكن أحد الجيران من رؤيته ويُشعل الشائعات حول حياة آنا الخليعة.

حين يبدأ في الاعتذار، تُجيبه:

- ليس هذا ما يقلقني.

- إذن لماذا لم تتمكني من النوم؟

تبدو آنا لغزًا يحتمي بالظلال. سيروق دييجو أن يرى عينيها ليتكهن بما يضايقها، لكنه حين ينهض من فوق الفراش ليقترب منها، تنهض هي الأخرى من فوق مقعدها عديم الظهر وتتقدم بخطوات سريعة ليصبح ظهرها له وتصل عند منضدة الزينة. تُحرك قوارير العطور من دون تمييز، كأنها شعرت فجأة بضرورة مُلحة لترتيبها.

يُدمدم دييجو وهو يبدأ في ارتداء ملابسه:

- لو أنني قلت أو فعلت شيئًا أثار استياءك، فمن فضلك، اعذريني.

لا يود دييجو، مقابل أي شيء في العالم، أن تنتهي القصة التي بدأها في الليلة الماضية بمثل هذه السرعة.

- ستخبرك بلانكا أين هو باب الخدم، فكما قلت، من الأفضل ألا نستحث الشائعات.

يتفهم دييجو أنه وداع. ربما سيأتي وقت لإصلاح ما اكتشف انكساره صباح اليوم، ولكتابة خطاب يصف فيه كل ما شعر به، مع بعض الزهور، وبضعة أيام كي يتبدد خوف آنا من اكتشاف زوجها لهذا التقارب. ينبغي له التعامل مع هذه العلاقة، كأنها بناء هش، لأنها قد تنهار إما بسبب التعجل وإما باتخاذ قرار واحد خاطئ.

- كانت أكثر ليالي حياتي تميزًا.

يتجرأ دييجو على أن يقول لها هذه العبارة قبل مغادرة الغرفة، لكن كلماته لا تجد ردًا سوى صمت آنا.

يصل صوت الطيور إلى رواق الطابق الأول متضخمًا بسبب صدى تجويف الدرج. يتمكن من رؤية بلانكا وهي تنتظره في الأسفل، فيستعد لمغادرة

المنزل بتكتم. حين يوشك على ملامسة درجة السلم الأولى، يسمع صوت باب غرفة آنا. تقترب منه وهي حافية، وحين تصبح إلى جواره، يشعر دييجو مجددًا بتنفسها، بالتنفس ذاته الذي أصابه بالجنون قبل شروق الشمس. ترفع آنا طرف ذقنها ويتمكن من رؤية عينيها. فيهما رطوبة، كأنها بكت، لكن ترتسم ابتسامة فوق شفتيها.

تتمكن آنا من قول:

- اعذرني. أفترض أنك لم تنتظر شيئًا مثل هذا. أنا معتادة ارتداء ثوب العبث. هل تتذكر؟ ما شعرت به بالأمس يخيفني.

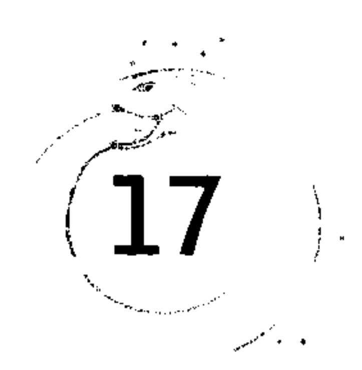
تقف آنا على أطراف أصابعها لتقبّله، فيمسكها دييجو من خصرها ويهمس بعدئذٍ في أذنها:

- أحيانًا قد تحتفظ لك الحياة بهدية في مكان لا يُمكنك توقعه. أنا أيضًا أشعر بالخوف، لكنكِ قلتِ بنفسك إنني «رجل شجاع». أصبتِ. ربما لست ممن يذهبون إلى الجبهة للدفاع عن راية ما، لكنني لا أخشى مما قد يحدث لنا. لا أريد أصلًا أن أفكر في هذا الأمر. كل ما يهمني الآن فحسب، أن أراك مجددًا.

- قد يكون هذا خطأ كبيرًا. نحن في وقت...

- أنا خبير في اتخاذ القرارات الخاطئة يا آنا، لكنني لم أرغب في ارتكاب خطأ قط بقدر رغبتي في ارتكاب خطأ مثل هذا.

يضع دييجو يده برقة فوق رقبة آنا من الخلف ويشبك أصابعه في شعرها ويجذبها ليقبّلها، وبعينين مغمضتين، يحتفظ بطعم إكسيرها الذي سيقتات عليه في الفترة التي يجب أن تمر حتى يحظى بها إلى جواره من جديد.



وُلدت خوسيفا، «اللبؤة»، في قُرطبة، لكنها وصلت إلى مدريد وهي في الخامسة عشرة. فرت من طفولتها البائسة ومن أبيها الذي اغتصبها كلما ظهر ثملًا في المنزل. لطالما تكرر الأمر أكثر من مرة أسبوعيًّا، لأنها تحولت منذ وفاة أمها إلى ملهاته الوحيدة. هكذا كانت الحال منذ بدأت ذاكرتها تتشكل. ذات ليلة عجزت عن تحمل المزيد، فصعدت على متن عربة تنقل الزيت إلى العاصمة، في مقابل أن تقدم خدماتها إلى الحوذي. لم تعد قط إلى مسقط رأسها، ولا حتى الآن، بعد أن صارت امرأة ثرية. في البداية لم تتمتع بحظ تلميذتها نفسه، إذ إنها قبل أن تعمل في ماخور فخم، اضطرت إلى العمل في الشارع. مارست البغاء هناك مقابل خمسة سنتيمات فقط، وهي خائفة دائمًا من تعرضها للأذى. لم تتمكن أيضًا من بيع عذريتها مثل لوثيا لأن والدها سرقها منها، بل إنها لتجمع مائة ريال مثل التي أعطتها للفتاة الصهباء، كانت تضطر إلى إرضاء ما لا يقل عن خمسين رجلًا.

تغير حظها حين تعرفت على سابرينا، المالكة السابقة لماخور شارع «القرنفل» التي أطلقوا عليها «اللبؤة» وورثت لقبها منها. أبعدتها سابرينا عن الشارع وسمحت لها بالعمل بين الوسائد الوثيرة والعطور الشرقية وأضواء

الخيال. جعلتها هذه المرأة، التي تقترب ذكرى وفاتها العاشرة، رفيقتها، ولما ماتت تركت لها إرثها. صحيح أن خوسيفا اعتزلت العمل، لكنها تحتفظ بزبون واحد فقط، وهو قاضٍ يزورها كل أسبوع منذ خمسة عشر عامًا. اسمه خوليو جامونيدا. لا يُطالبها في أغلب المرات بأمور جنسية، إذ يقتصر اللقاء على أن يجلسا معًا ليتحدثا ويضحكا وهما يتناولان إفطارًا من الشوكولاتة وقطع الخبز المحمص، لأنه يأتي في الصباح دائمًا، حين تظن زوجته أنه في المحكمة.

- لو أنك تحبني جدًّا، لكنت قد انفصلت عن زوجتك فعلًا.
- لا تقولي هذا. تعرفين أنها صاحبة كل ما لدينا. لو تركتها فسأجد نفسي في الشارع. هل الأمر وما فيه أنكِ تريدين الإنفاق عليَّ؟
- لا أعرف لماذا أستمر في استقبالك. سأكسب مالًا أكثر وأنا عشيقة لأي تاجر نبيذ.
- لكنكِ لن تصلي معه إلى نصف استمتاعك وأنتِ معي.

بغض النظر عن ألعاب التأنيب، ثمة مودة حقيقية بين جامونيدا وخوسيفا، وربما هي مودة أكبر من تلك الموجودة في زواج القاضي. إنها علاقة مستقرة قوامها سنوات كثيرة بين هذا الثنائي المميز. مع ذلك لا تهتم «اللبؤة» اليوم كثيرًا بعشيقها بقدر اهتمامها بفتاتها الجديدة، لوثيا.

أمرت دلفينا بألا تُفرط في عرضها وألا يتخطى عملها يوميًّا زبونين أو ثلاثة منتقين بعناية من رجال الماخور الموثوقين. صحيح أنها ستكسب مالًا أقل، لكن «اللبؤة» تسعى هكذا إلى ألا تترك الفتاة العمل بمجرد أن تبدأ. من الأفضل أن تتأقلم تدريجيًّا، وأن تعتاد هذه الحياة ومكاسبها المعقولة من الريالات التي لن ترغب في التنازل عنها لأنها ستفتقدها. تقول في نفسها إن هذه المسألة ليست تعاطفًا، وإنما رؤية تجارية. تسعيرة الصهباوات دائمًا هي الأعلى. لوثيا أيضًا جميلة وينبعث منها شيء يصعب العثور عليه. يبدو غضبًا في بعض المرات وفي مرات أخرى عزة نفس. لا يخلو سلوكها ونظرتها من الفخامة، على الرغم من أنها نشأت في أسوأ الأحياء. مع ذلك تشعر «اللبؤة» فعلًا برابط غريب مع لوثيا. ترى فيها قوة تُذكِّرها بنفسها في شبابها، حينما آمنت بأنها ستنهض دائمًا وهي أقوى كطائر العنقاء، مهما نغص الرجال حياتها.

- سمعت أن ثمة فتاة جديدة في البيت.

يُفاجئها خوليو جامونيدا أحيانًا بأشياء مثل هذه. يعرف كثيرًا مثلها عما يحدث وراء الأبواب.

- من الذي حكى لك الأمر؟

- أحد الذين عجزوا عن مواصلة المزايدة. قال لي إنكِ حصلتِ على ألف ريال.

- ألف ريال؟ حتى عذرية الملكة الوصية لم تكن لتباع بمثل هذا المبلغ. إنه نصفه فقط وشكرًا.

- هل ستسمحين لي بتجربتها؟

- لو جربتَها هي أو أيًا من النساء اللاتي يعملن هنا، فودِّع ميزة أن تأتي لمقابلتي. أنت أدرى بما تفضِّله.

لم تجرِ العادة أن يقاطع أحد ما «اللبؤة» وهي في صحبة خوليو، لكن تتجرأ دلفينا اليوم على دق بابها. لا تُحيي القاضي من فرط توترها.

- هل رأيتِ خوانا؟

تُجيبها خوسيفا بإيماءة تدل على نفاد الصبر.

- كما ترين، ابنتك ليست في غرفتي.

- أرسلتها لشراء إبريق من الحليب ولم تعد. دميتها القماشية مُلقاة فوق السلالم. لا تذهب إلى أي مكان من دونها. لا بد أن شيئًا ما قد حدث لها.

- لا تفكري في الأسوأ. اسألي الفتيات، لا بد أنهن قد رأينها. هل انتهت لوثيا؟

تجيبها دلفينا وهي تحاول أن تهدأ:

- إنها مع دون بينانثيو.

دون بينانثيو. هكذا ينطقن اسمه هنا لكيلا يكشفن في الحقيقة عن أنه القس بينانثيو، وهو رجل يقارب حد الثمانين. لم يعد قادرًا أصلًا على فعل أي شيء للفتيات، لكنه ينفرد بهن بضع ساعات ويجعلهن يتنكرن، أو يقص لهن قصصًا، أو يُهدهدن.

- ما كان يجب عليكِ أن تتركيها تدخل معه. إنه رجل مضطرب جدًّا. قد يفزعها.

- هذا رجل قد أأتمنه على حبيبتي خوانا.

- ارحلي. اتركيني وحدي. لا تقلقي على ابنتك، ستظهر بالتأكيد.

ليست كلمات قادرة على إخماد قلق أم. تجتاز دلفينا الماخور وهي تقبض على دمية ابنتها القماشية كأنها تميمة. تنظر إلى دواخل كل الغرف، على الرغم من أنها تعرف أن الأمر ممنوع. تخرج إلى الشارع وتنظر هنا وهناك. يتوقف نظرها عند طفلة تختبئ وراء عربة. إلى جوارها رجل يُنزِل بعض أشولة البرسيم.

تسألها دلفينا قبل أن تصل أصلًا إليها:

- أبحث عن ابنتي، إنها في مثل عمرك. هل رأيتِها؟

تشير الفتاة إلى الباب الذي خرجت منه دلفينا:

- هل تعملين في هذا البيت؟

- هل رأيتِ ابنتي أم لم تريها؟ لديها نمش وشعرها أسود وطويل ومجعد. اسمها خوانا.

- سأخبرك لو قلتِ لي ما الذي يحدث في الداخل.

تنظر دلفينا إلى هذه الفتاة الساذجة باندهاش. تنزِل مشدها إلى أن يظهر نهداها وتقول:

- هذا هو ما يحدث في هذا البيت.

تفهم الفتاة الأمر فورًا بعد هذه الإيماءة المعبرة جدًّا، ثم تجذبها دلفينا من ذراعها:

- الآن قولي لي، هل رأيتِ خوانا حبيبتي؟

- رأيت طفلة معها إبريق حليب. اقترب رجل منها لمساعدتها وأمسكها من يدها.

- رجل؟ كيف يبدو؟

- طويل جدًّا ويتشح بالسواد.

- إلى أين أخذها؟

تشير الفتاة إلى مدخل أحد الشوارع، فتنطلق دلفينا راكضة بيأس، من دون أن تعرف أن هذه الفتاة الصغيرة التي تركتها خلفها هي كلارا، أخت لوثيا.

سارت كلارا في هذا المساء وراء أختها، إذ عزمت على التحقق من محل عملها، لأنها لم تصدق أنهم أجروها لتعمل خادمة في أحد البيوت. شاهدتها تبكي عدة ليال، والألم يمزقها. تعرف أن لوثيا ليست في خير حال. ثمة شيء مثير للشبهات، والآن تأكدت ظنونها.

هل يجب عليها أن تدخل هذا البيت وتُخرج لوثيا من هناك؟ لو أن أمها موجودة، لفعلت هذا الأمر طبعًا، وهي تصرخ وتشدها من شعرها وتشتمها لأنها أضاعت نفسها في بيت للدعارة، وتركت رجالًا يستغلون جسدها. لكنها لن تحقق شيئًا عبر الاقتحام المفاجئ. ثمة خيار آخر، يُمكنها أن تنتظر عودة لوثيا ليلًا إلى مصنع الثقاب لتطلب منها أن تتوقف عن البغاء، لأنها ستحصل على المال لكيلا تضطر إلى بيع نفسها. لديها خاتم ذهبي وتعرف أين يمكنها بيعه. أخبرها بدرو، جارها في مصنع الثقاب، عن المكان.

ها هي ذي تمضي إلى هناك، بعد أن ألقت نظرة أخيرة على البيت.

حذروا كلارا من أنها لا يُمكن أن تذهب بمفردها إلى «جبل الرحمة» الموجود أمام دير «الحافيات». ذهبت إلى هناك عدة مرات مع أمها. اعتادت كانديدا أن ترهن حلية أهداها إليها زوجها قبل وفاته، حينما لم تملك مالًا لتأتي إليهما بالطعام، وأن تفك الرهن كلما تحسنت الأحوال، قبل أن يبدأ الأمر من جديد. لم تريا الحلية بعد وفاة أمهما، ولهذا افترضتا أنها مرهونة ولن تستعيداها. يهتمون في «جبل الرحمة» بمصدر الجواهر القيِّمة، لا بأخذ الأغراض المسروقة، لأنهم يقدمون سعرًا عادلًا. لا يتماشى الخاتم الذهبي بمطرقتيه المتقاطعتين على شكل علامة الضرب مع هذه المعايير.

بالقرب من شارع «المُرملة»، ثمة مكان آخر يذهب إليه من يعجزون عن إثبات مصدر جواهرهم. باب البناية قذر وتشعر كلارا بالخوف ينخزها، مع ذلك تصعد إلى الطابق الأول وتدخل إلى قاعة كبيرة ينتظر فيها عدة أشخاص وجوههم قذرة وملابسهم مهملة، ويتجذر فيهم حزن تعرفه جيدًا. لا تشعر بالخوف من هذه الوجوه الممتقعة من فرط اليأس والفقر لأنها تعرفها وتشكل

جزءًا من مُحيطها الطبيعي. تنتظر أن ينادوها وتقترب من شيء يبدو كنافذة صغيرة.

- أرغب في بيع هذا.

يقف مالك المتجر إيسيدورو سانتاماريا في الجانب الآخر. يدير عدة متاجر من ضمنها واحد في «الشارع الأكبر». يفحص الخاتم باهتمام، بمساعدة نظارة مكبرة.

- من أين أتيتِ به؟

- عثرت عليه.

- إنه قيِّم جدًّا، وأنتِ صغيرة جدًّا على أن تكوني لصة.

- لم أسرقه، وإنما عثرت عليه في الشارع، على الأرض.

ينظر إليها إيسيدورو بطريقة لزجة.

- سأعطيكِ خمسين ريالًا في مقابله، وكوني ممتنة أنني لن أنادي الحرس.

لا تعرف كلارا ما يجب عليها فعله. تعي أنها تتعرض إلى الاحتيال، لكن الطريقة الوحيدة لإقناع لوثيا بمغادرة البيت هي الدخول ومعها شيء من المال. توشك على قبول العرض، حينما تسمع من وراء ظهرها صوت امرأة.

- لن تبيعه الفتاة بهذا المبلغ البائس.

حينما تلتفت تجد أمامها السيدة دي بيافرانكا، من «المجلس الخيري»، التي اعتادت أحيانًا أن تزور أمها.

- قيمة هذا الخاتم كبيرة يا كلارا. لن أسألكِ من أين أتيتِ به، لكنني سأحصل لكِ على قدر أكبر من المال في مقابله. هيا بنا.

تلمع عينا المرأة بالحنان والعزم. ترحل كلارا معها وهي واثقة من أن ملاكًا حارسًا جاء لمساعدتها. لا تدرك أيًّا منهما أن سانتاماريا قد أرسل في أثرهما أحد رجاله بعد أن دمدم بلعنتين عقب هذه الصفقة الضائعة.



18

اضطر دييجو خلال السنوات الثماني التي قضاها في مدريد إلى تأجيل الكثير من أحلامه، لم يغد صحفيًّا شهيرًا، لم يقدم عملًا مسرحيًّا في إحدى صالات العرض الكبيرة في المدينة ولم يكسب المال الكافي ليعيش برحابة تجعله يُؤمن بأن قراره بتجربة حظه في العاصمة كان صحيحًا. بينما يسير، في هذه الليلة، عائدًا إلى بيته، لا تبدو له كل هذه الأحلام المتعثرة مهمة، وبالمثل خوفه من الاعتراف بفشله أمام عائلته. يشعر بسعادة غير تقليدية منذ استيقظ صباحًا مع آنا كاستيلار، وانتشاء صار درعًا أمام هذه الحِراب التي جرحته قبلئذٍ، بل إن رفض مورينتين الجديد لنشر مقال حول «الوحش» لم يؤثر في معنوياته. لم يتوقف عن التحقيق في القضية، على الرغم من أن النجاح لم يُحالفه. يبدو أن شارة المطرقتين المتقاطعتين فريدة، إذ إنها لا تشبه أي شعار معروف. لم تُلق تحركات بيرتا الأخيرة أو شهادات أقارب فتيات ظهرن في ظروف مشابهة -مثل اثنين من المهربين فقدا ابنتهما التي تدعى فرناندا- الضوء حول هيئة «الوحش» المبهمة. لو أن أحدًا غيره تابع القضية لتركها، سواء ارتبط الأمر بغياب الأدلة أم بالحاجة إلى المال، لكن دييجو لا يهتم بجيوبه الفارغة.

ربما لأنه يسير وهو يفكر في هذه الموضوعات، ينسى اتخاذ احتياطاته اليومية للتملص من باسيليا، صاحبة البيت، التي تتمكن هذه المرة من اعتراض طريقه:

- سيد رويث. أنت مدين لي بإيجار ثلاثة أشهر.
- لا تقلقي، سأدفع الإيجار المتأخر في أقل من أسبوع.
- قلت لي الأمر نفسه الأسبوع الماضي.
- أعرف، لكن طرأ أمر ما. سأسدد لكِ المال. أنتِ تعرفين أنني أدفع دائمًا في النهاية.
- هذا آخر إنذار، إما أن تُسدد دينك وإما ستضطر إلى ترك غرفتك، هذا ليس بيتًا خيريًا.

توقف عن إحصاء المرات التي وجهت فيها صاحبة بيته هذا التهديد له منذ بدأ معيشته هناك. يدين هذه المرة بإيجار ثلاثة أشهر، لكن منذ عامين وصل دينه إلى خمسة أشهر وأوشك على العودة إلى مدينته، سالامانكا، والتخلي عن أحلامه الصحفية ليعمل في متجر قماش العائلة الذي يديره حاليًا أخوه رودريجو.

على الرغم من أن سكن دييجو متواضع، فإنه يشعر بالراحة فيه. لن يروقه أن يضطر إلى البحث عن سكن غيره. يقع في شارع «الأثرياء»، إلى جوار حوش «زقاق المهجورين» الذي يتحول إلى سوق غير رسمية في بعض الأيام. عرف في زيارته الأولى إلى ما أصبح بعدئذٍ بيته أن رواية «دون كيخوتي» قد طُبعت أول مرة على بعد عدة أمتار منه، وحلم حلمًا لم يتحقق بأن تُصيبه عدوى النجاح. يضم البيت غرفًا للإيجار ويدخل إليه المرء عبر باب عريض، لكنه ليس مرتفعًا للغاية، وعتبته العليا عبارة عن عارضة أفقية تحدبت بفعل مرور السنين وقسوة الطقس، والنمل الأبيض. بمجرد أن يتخطى المرء هذا الباب، يجد أمامه زقاقًا طويلًا يفضي إلى فناء متهالك تحيطه ممرات خشبية لها أبواب مُرقمة. تحتوي غرفته على صندوق من الجلد المتآكل وطاولة عليها أدوات كتابة، ريشة كتابة، ومحبرة، ومجفف، وورق. أيضًا ثمة كوز ماء وطست استحمام ومرآة قديمة مزودة بحامل وزجاجها مُلطخ ببقع تبدو كأنها جِراح، وبعض أغراض العناية الشخصية، أدوات حلاقة، ومشط، وأكثر

من غسول، الزينة الوحيدة الموجودة في الغرفة هي باقة أزهار أوراقها جافة داخل سلة لحفظ المظلات.

يرقد دييجو فوق الفراش من دون أن يخلع ملابسه. إنه منهك جدًّا ليُقدم على هذا الأمر. تسقط ظلال الحلم الأول عموديًا فوق رأسه، لكنها تتبدد سريعًا ببضع ضربات مُلحة فوق الباب الذي قد لا يقوى أصلًا على تحملها. لا يُمكن أن تكون دونيا باسيليا لأنه تحدث معها فعلًا، لهذا ينهض ليفتح الباب بفضول. يجد على عتبة الباب امرأة عمرها أربعون عامًا. لا تزال جميلة، لكنها شاحبة. تنظر إليه بجزعٍ عيناها الكبيرتان الداكنتان اللتان تحيطهما هالات تكشف عن أنها عانت أمرًا لا تطيقه.

- هل حضرتك دييجو رويث؟ «القط المستخف»؟ توقِّع مقالاتك بهذا الاسم، أليس كذلك؟

- من حضرتك؟

- اعذرني لأنني جئت إلى بيتك، الأمر يتعلق بما كتبته. هل يُمكنني أن أدخل؟

لا تنتظر المرأة إذنه وتدخل. تمد قصاصة قديمة من «إل إيكو ديل كوميرثيو» فوق الطاولة. إنه مقاله الأخير عن «الوحش»، حين تعامل معه بناء على الشهادات، كوحش أسطوري.

- اسمعي، كنت نائمًا. ما رأيك أن تأتي لرؤيتي غدًا؟

- لقد قتل «الوحش» ابنتي.

ثمة بقايا من رائحة «الأجواردييتي» في أنفاسها ولمحة من التيه في نظرتها، لكن عبارتها جاءت حاسمة. يُغلق دييجو باب بيته، فتترك نفسها تسقط فوق الفراش وتملأ صدرها بالهواء قبل أن تحكي قصتها.

تقول إن اسمها جريسي، وإنها ممثلة. تؤكد أنها ستعرض عملًا لأول مرة في «مسرح الصليب»، على الرغم من أن دييجو لا يصدق الأمر، فممثلات هذا المسرح أو «مسرح الأمير»، هن الأشهر في إسبانيا.

- ليست أول مرة يهاجم فيها «الوحش». لقد قتل ابنتي، ليس في مدريد، وإنما في باريس.

- أعتقد أنكِ يجب أن تشرحي لي الأمر بهدوء.

تتحدث المرأة بطريقة تائهة، كأنها ثملة. ربما هي مجرد أم مسها الجنون من وفاة ابنتها. يتمكن دييجو تدريجيًا من تفسير النقاط الرئيسية في خطابها. سافرت جريسي إلى باريس منذ عام في رفقة ابنتها ذات الاثني عشر عامًا لتمثل دور سيدة إسبانية في أحد مسارح هذه المدينة.

- يفترض أن الأمر كان سيستمر لشهرين. بدا لي وجودها معي، لا مع جديها اللذين عاشت معهما دائمًا منذ ولادتها، أمرًا جيدًا. أنا أمها.

تحكي جريسي أن الأمور مضت معهما بشكل جيد، وأنها بدأت تجد لها مكانًا في المسارح الباريسية ولفتت انتباه أشخاص مهمين ووعدوها بدور في عمل كبير، لكنها ذات ليلة وهي تعود بعد العرض إلى البيت الصغير الذي استقرت فيه، وجدت أن ابنتها ليونور قد اختفت.

- لم يكترث حرس الدرك لي. بالنسبة إليهم أنا مجرد إسبانية مخبولة تبلغ عن اختفاء فتاة لم يتيقنوا ما إذا كان لها وجود أصلًا أم لا. لم يُعرف أي شيء عنها طيلة شهر، وفجأة ظهر جسدها، ممزقًا.

- هل مر شهر منذ اختفائها حتى العثور على جسدها؟

- خمسة أسابيع. تمكنت من التعرف عليها فقط بسبب وحمة ولادة في فخذها. قطعوا رأسها. لم يعثروا عليه إلا بعدها بأسبوع، على ضفاف نهر السين. وجدوا أيضًا قطعة ذهبية مغروزة داخل فمها.

- ماذا؟ هل رأيتِها؟

- إنها عبارة عن مطرقتين متقاطعتين.

يمشي دييجو في الغرفة. لو أن لديه زجاجة «أجوارديينتي»، فهذه هي اللحظة المناسبة ليأخذ منها كأسًا ويعرض مثلها على هذه السيدة، إذ تبدو في حاجة إليها أكثر منه. كان سيروقه أن يحتفظ بالشارة التي اكتشفها الدكتور آلبان ليعرضها على جريسي، لكن لأنها ليست معه، يرسم المطرقتين المتقاطعتين فوق ورقة ويظهرهما لها.

- هل كانت هكذا؟

تهز الممثلة رأسها لتأكيد الأمر.

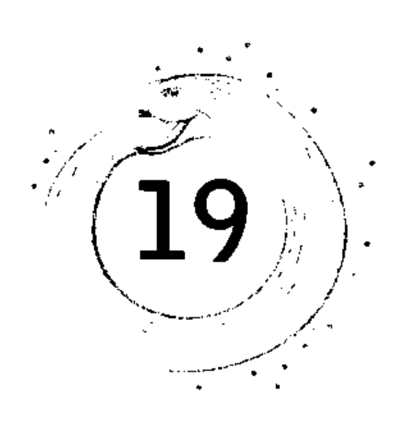
- هل يُمكنك أن تأتي معي إلى مكتب تحرير الصحيفة وأن تحكي ما قلتِه بالضبط للمدير؟

تنكمش جريسي خوفًا. تنهض وتقترب وهي تترنح من نافذة غرفة دييجو. يتمدد الليل في الخارج.

- أريد أن يُمسكوا بـ «الوحش» لكنني لست واثقة. لم يُنصت إليَّ أحد في باريس. لماذا سينصت إليَّ أحد في مدريد؟

- لأننا سنجعلك على الغلاف الرئيسي لكل الصحف. لن تتمكن السلطات من مواصلة قول إنه مجرد حيوان تائه خارج «الجدار». إنه إنسان، إنه سفاح قتل في باريس، قبل أن يقتل أربع فتيات في مدريد، ومن يدري في أي مكان آخر. لن نتوقف عن الإلحاح حتى يوقفوه.

يفور رأس دييجو دائخًا من فرط الحماس. أوجوستو مورينتين مستيقظ على الأرجح، إذ إن من عادته الاستمرار في القراءة حتى الفجر. لن يجد الآن أي أعذار لكيلا ينشر قصة ينبغي ألا تظل خفية.



يروق مارثيال أن يراقب الفتيات من دون أن يعرفن أنه يراقبهن ويدرس الكيفية التي يتصرفن بها حين يعتقدن أنهن بمفردهن. يروقه أن يسمع محادثاتهن وشكوكهن وغضبهن. لا يتدخل أبدًا، حتى حين يرسمن خططًا سخيفة للفرار، لأنه لا مهرب ممكن لهن وهو يستمتع بالاعتناء بحديقته هناك، في الأعلى. زهوره المفضلة هي الداليا. بدأت تنمو وتتخذ شكل كرات زينة لونها أصفر زعفراني. تتطلب زهور الداليا ماء كثيرًا، كفتيات الديماس، لكنها أبرأ منهن، فلا صلة بين رائحتها الرقيقة الحلوة الخفيفة ورائحة العفن التي تطفو في الزنازين. أجسادهن الشبيهة بأجساد حوريات الغابة لا يمكنها أن تخفي عفنهن الداخلي الذي يرتفع ليسمم هواء الديماس.

ينام من حين إلى آخر في غرفة صغيرة إلى جوار الدرج الذي يمتد نازلًا بصورة حلزونية حتى القبو. يترك الباب مفتوحًا، فيتمكن هكذا من سماع محادثاتهن. يسود الاضطراب بينهن الآن. يحدث هذا دائمًا كلما جاء بواحدة جديدة.

اسمها خوانا وهي ابنة عاهرة تُدعى دلفينا. تلاشت طلاقة اللسان التي تعاملت بها حين اقترب منها وسألته: «يا ترى كيف يبدو العالم من مثل هذا

العلو؟». حل محلها الذعر الذي يبقيها الآن صامتة. لا تُجيب عن أسئلة بقية زميلاتها، كأن الكلام سيُحطم الفرصة الأخيرة في أن يغدو كل هذا كابوسًا. تُحذرها فاتيما المحبوسة منذ فترة: ليس حلمًا. لن تستيقظي سريعًا لتجدي نفسك إلى جوار أمك. يحاول بعضهن أن يُحمسن خوانا بخيالهن: سيرسلونهن إلى سكن للحريم ليتزوجن من شيخ أو ملك أو شحاذ هو في الأصل أمير، تطلب فاتيما منهن أن يصمتن. لا فائدة من الآمال الزائفة، فحقيقتهن الوحيدة هي هذه الزنازين وأنهن لا يعرفن ما الذي يحدث لبقية الفتيات اللاتي يأخذهن «الوحش» أحيانًا. تسألها فتيات أخريات بجزع بحثًا عن أي أنباء من الخارج: «هل تلاحقه ميليشيات الأهالي؟ ما الذي يحدث في الخارج؟».

تعترف لهن خوانا أخيرًا:

- كل ما يهم في الخارج هي الكوليرا.
- ألا يبحث أحد عن «الوحش»؟

فشل صوت فاتيما في إخفاء إحباطها. ألا يوجد أحد قد يهتم بهن؟ على الرغم من استمرارهن في الضغط على خوانا بأسئلتهن، فإنها تفضل العودة إلى صمتها.

تُلفت التحالفات التي تنشأ بين الفتيات انتباه مارثيال، إذ تتشكل مجموعات وصداقات وخصومات بين الزنازين. يراقبهن كما يراقب المرء نملًا في جحره، بفضول ورغبة، وهذه الرغبة هي الشيطان الداخلي الذي أثار اضطرابه منذ بدأ وعيه يتشكل، إذ تُشعل البشرة الصافية، والتضاريس الجسدية الطفولية، والجنسانية المستجدة للفتيات داخله نارًا لا يقدر على كبحها. دفعته هذه النيران إلى الاعتداء على ابنة اثنين من المسافرين عمرها اثنا عشر عامًا تقريبًا. أفرغ ما فيه داخلها، وشعر بعدئذٍ بالاشمئزاز والغضب، فضربها حتى قتلها. لم يتمكنوا قط من ربطه بمقتلها، فأقسم ألا يترك هذا الاندفاع يتغلب عليه بعدئذٍ أبدًا. اتجه إلى العبادة. بحث عن معبوده، حتى تفهم أن الأمر غير مُجدٍ، فمعبوده نفسه هو من زرع هذه البذرة المريضة داخله. لم يخمد هذا الاندفاع، وإنما أحرقه كلما رأى أي فتاة، وقاده إلى كوابيس محمومة أيقظته في حالة جنونية خارجة عن السيطرة، تحول فيها إلى حيوان يشتهي الأطفال. لقد زرع معبوده الملعون هذا المرض فيه. ساهم الجيش في تهدئة رغبته في الانتقام من هذا الكيان الذي لا يُمكن فهمه، وصار كل رجل يقتله بمنزلة طعنة

في بطن هذا «الكيان العليّ». شعر فترةً طويلة أنه بائس، إلى درجة تفكيره في الانتحار، رغم أن الذنب الوحيد هو ذنب «الأب». يجب عليه أن يكرهه هو، لا أن يكره نفسه.

تعلم أن يخنق الحيوان الموجود داخله. بدا له أمرًا مُسليًا حين بدؤوا يطلقون عليه لقب «الوحش» في ضواحي مدريد. هكذا كلما شعر بأن الانتصاب حاد ويؤلمه، نزل إلى الديماس ثُماني الزوايا واستمنى بغضب. يبصق هكذا على «معبوده» ويجلد نفسه كي يُخمد الألم هذه الرغبة المريضة، وكلما فعل هذا الأمر، شعر بأنه قد حقق انتصارًا عليه.

يُغلق مارثيال بُوَيب القبو. يعرف أنه لا يُمكنه أن ينزل الآن، إذ تحوم سارقة الخاتم داخل عقله، كحشرة مزعجة. أوشك مرتين على الإمساك بها، لكنها فرت منه في كلتيهما. حين يُمسك بها، قد يضعها في الزنزانة الخاوية، على الرغم من أنها أكبر من اللازم. سيعثر عليها، لكنه حين يفعلها، لن يمنحها فرصة أخرى. لن تحظى بأي وقت إضافي في حياتها.

على الرغم من أن عدد سكان مدريد تخطى مائتي ألف، فإن «الجدار» الذي أمر فيليبي الرابع ببنائه منذ قرنين حوَّلها إلى حيز صغير. يقولون إنه سيُهدم، كما هدموا الأسوار السابقة التي رسمت حدود المدينة. ربما حينذاك سيزداد عدد سكانها وقبل أي شيء آخر حجمها. لا حاجة في الوقت الحالي إلى خدمة نقل عام حكومية كبقية العواصم الأوروبية. يتنقل المدريديون -باستثناء الأثرياء الذين يتحركون بعرباتهم الخاصة أو تلك المؤجرة- سيرًا على الأقدام. ينبغي لمارثيال أن يصل بهذه الصورة إلى شارع «المرملة»، حيث تقع دار رهونات إيسيدورو سانتاماريا. كان أول من أبلغه بالأمر بعد الطلب الذي تركه عند أشهر تجار الأغراض المسروقة.

على الرغم من طوله الهائل وهيئته المميزة، أو ربما بسبب هذا الأمر تحديدًا، تعلم مارثيال أن يتحرك وأن يتنصت من دون أن يلفت انتباه أحد سواء كان الأمر في الأسواق أو المقاهي أو الميادين، تشير كل المحادثات إلى الشيء نفسه. يقولون إن الرهبان يسممون مياه مدريد لقتل المواطنين. وصل الأمر ببعض الأهالي أصلًا إلى التحدث عن كيفية تنفيذهم الأمر من دون أن يراهم أحد: يستخدمون أبناء مآوي اللقطاء، فالمدينة ملأى بصبية وفتيات أعمارهم اثنا عشر عامًا أو ثلاثة عشر عامًا يُسممون الآبار والنوافير وقِرَب السقائين، لا يعتبر مارثيال الأمر جنونًا، فقد عاش بنفسه بين الرهبان

ويعرف الكثير عن خسة أولئك الذين لا يزالون يمتدحون الرب. لو أن الأمر ملائم سياسيًا ولمساعدة الكارليّين، فسيفعلونها من دون شك.

لدى وصوله إلى بيت الرهونات، لا ينتظر كبقية المعوزين والنشالين الذين ذهبوا لبيع الحلي والأغراض التافهة. يستقبله إيسيدورو في مكتبه الفارغ في تلك الساعة من الليل.

- رأيت خاتم المطرقتين المتقاطعتين على شكل علامة ضرب.
- هل أنت واثق مما تقوله؟
- إنه الرسم نفسه الذي أظهرته لي.

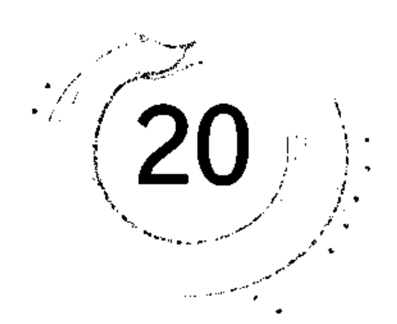
من غير الممكن أن يرتبط الأمر بخاتم غير الذي سرقته الفتاة ذات الشعر الأحمر من بيت الأب إجناثيو جارثيا.

- هل هو معك؟
- لا، لكن أعرف أين يُمكن العثور عليه.
- أين؟
- لا. هذه ليست الطريقة المناسبة لفعل الأمر. قلت لي إنك ستدفع لي في مقابل المعلومات، ونحن لم نتحدث بعد عن المال.

لن يحتاج مارثيال إلا إلى بعض الدقائق ليعرف كل شيء من دون حاجة إلى دفع أي شيء، لكن الأسهل أن يلقي بريال لتاجر البضائع المسروقة.

- أرسلت شخصًا في أثر الفتاة التي جاءت به. أتت من مصنع الثقاب المهجور إلى جوار «الجدار»، تحت شارع «البساتين».
- أعرفه.
- لكن الخاتم ليس معها. صار مع سيدة جاءت لفك رهن غرض تافه يخص سجينة. إنها السيدة دي بيافرانكا.
- هل حاولت أيضًا أن ترهن معطفًا مسروقًا؟ إنه معطف بني.
- لا. الخاتم فقط.

يعرف مارثيال أن العثور على خيط يدله على خاتم ذهبي سرقته نشالة سوقية أسهل من العثور على دليل يقوده إلى معطف، لكنه مهتم بهذا وذاك، ولهذا ينبغي له أن يزور مصنع الثقاب القديم.



ثمة أطباء يقولون إن الكوليرا تنتقل عبر الماء، ويقول آخرون إنها تنتقل عبر الهواء، ولا يغيب من يقولون إنها عقوبة ربانية، الأمر الوحيد المؤكد أن من يمرض بها يعاني إسهالًا حادًّا ونوبات قيء قوية، مع حمى مرتفعة يُتوفى على إثرها بعد أيام قليلة من العدوى. لا يصل عدد الناجين من كل عشرة مصابين إلى ثلاثة. يتركز العلاج، في ظل غياب البروتوكول، على توفير ميتة كريمة وغير مؤلمة للمصاب التعيس. جرت تجربة لَبَخَات من كل الأنواع. ينصح البعض بشرب ماء الثلج للتحسن، فيما يقترح آخرون مسحوق الزراوند علاجًا، وهو مستخرج من نبات شائع في جبال البرانس يدعونه «الأفعوانية»، لكنه باهظ الثمن ويصعب العثور عليه في مدريد.

يوجد أطباء آخرون يؤكدون أن الكوليرا مرض في الدم وأنه يجب إخراجه من الجسد، بمعنى أن استخراج دم المصاب يُقلل من السم الموجود داخله. على الرغم من التخلي مؤخرًا عن طريقة «الاستنزاف» -أسلوب العلاج التقليدي منذ قديم الزمان- فقد عاد شيوعه الآن بقوة بسبب الجائحة. أكثر الطرق أمانًا تلك التي تُستخدم فيها العلقيات. تكمن المشكلة في أن تلك الكائنات باتت نادرة. وصل سعر قارورة العلقيات إلى سعر فلكي، ولم تعد تُباع عند تُجار

الأدوية، وإنما في سوق سوداء ازدهرت عند «بوابة أتوتشا»، حيث اضطر بدرو إلى أن يذهب بالمال الذي قدمته له لوثيا.

لا يزال لويس -أو لويسين- كما يدعوه أبوه مريضًا منذ عدة أيام. لا تريد أمه، ماريا، أن تأخذه إلى المستشفى لأنها تعرف أنه سيموت هناك من دون علاج. إنه ابنها الوحيد. أخبرهما الطبيب الذي أنقذ حياة ماريا في أثناء الولادة أنهما لن يحظيا بابن آخر بعدئذٍ أبدًا. هكذا فإن خيار النجاة الوحيد، يكمن في أن تُخرِج العلقيات السم من جسده.

تمكن بدرو من العثور على أربع منها فقط، بعد عدة أيام من المحاولة. لم يكفه المال لأكثر من هذا العدد. ها هو ذا يأتي بها في قارورة. إنها نوع من الديدان لونه برتقالي مخضر، وثمة خط أحمر على امتداد جسدها.

تبدي ماريا خوفها:

- لا أعرف ما إذا كان أربعة عددًا كافيًا.

- لويسين مجرد طفل. سيكون كافيًا. يقولون إن حجم العلقيات يتضاعف عشر مرات عبر الدم.

يثق بدرو بنجاح الأمر عن زوجته. تؤلمها رؤية وضع بعض الديدان فوق جسد صغيرها ذي السنوات الثلاث كي تمتص دمه. من فرط وهنه لا يشكو لويسين أصلًا حين يضع أبوه فوقه العلقيات واحدة تلو الأخرى. من خضعوا لعلاج الاستنزاف يقولون إن هذا النوع من الديدان يعض أكثر من مرة إلى أن يعثر على المكان المناسب لاستخراج الدم، فتبدأ حينئذ في الانتفاخ واكتساب الحجم، ويتحسن المريض، الأمر وما فيه أن لويسين بدلًا من التحسن، يبدو كأنه ينطفئ بمرور الوقت، كشمعة على وشك الانتهاء.

يُطمئن بدرو زوجته، على الرغم من أن آماله بدأت تخبو.

- إنها مسألة طبيعية. لن يكون تأثير الأمر لحظيًا.

على بعد بضعة أمتار من العائلة، تلاحظ كلارا نظرة أختها الكئيبة وتتكهن بما تفكر فيه، أن هذا الطفل لن يعيش ليلة أخرى سواء بالعلقيات أو من دونها. لا يليق هذا التشاؤم بلوثيا، إذ إنها طوال حياتها تسعى لتجميل طفولة أختها الصغيرة بالخيالات والقصص والأساطير التي تهمس بها لها ليلًا قبل النوم أو حين تلاحظ انخفاض معنوياتها. مع ذلك لم تعد لديها

قوة أو رغبة الآن لمراوغة الواقع بخيالها. لوثيا لم تعد لوثيا، وتظن كلارا أنها تعرف السبب. هكذا تقرر مواجهتها.

- ´عرف أين تعملين.

تستغرق لوثيا بضع ثوانٍ لهضم النبأ.

- تتبعتك. أرادت أمنا أن تغسلي الملابس في النهر.

- أمنا ماتت وعليَّ أن أجلب المال لكلتينا يا كلارا.

- إن حصلتُ على المال، فهل ستتوقفين عن العمل في ذلك المكان؟

- أنتِ؟ قولي لي كيف!

- ذهبت لرهن الخاتم.

- رهن؟ هل أنتِ مجنونة؟ إنه مسروق.

- لم أنجح في النهاية. كانت السيدة دي بيافرانكا هناك وأعطيتها إياه. ستساعدني في بيعه بريالات كثيرة.

- لماذا أعطيتِها إياه؟ ستحتفظ به لنفسها. أنتِ بلهاء.

- إنها ثرية. ليست في حاجة إلى المال.

- وما الذي كانت تفعله في بيت الرهونات؟ هل تظنين أن الأثرياء يذهبون إلى مثل هذه الأماكن؟ أرادت أن تسرق الخاتم وأنت قدمتِه إليها بكل سهولة.

- هذا غير صحيح!

تجذبها لوثيا من ذراعيها وترفع صوتها وتهزها.

- لا يُمكنكِ أن تثقي بأي أحد. هل تسمعينني؟ لا تثقي بأحد!

تقول لها كلارا ودموعها في عينيها:

- أنتِ تؤذينني.

- لا تقولي لي مرة أخرى ألا أذهب إلى هذا البيت. أنا أعرف ما هو الأفضل لنا. ليس لديكِ أي فكرة عما قد يحدث لنا إذا ما ظللنا في هذه المدينة من دون مال.

تُفلتها بعدئذٍ. تفرك كلارا الجزء الذي يؤلمها. سيترك الأمر رضوضًا في ذراعيها.

- أفعل كل هذا من أجلكِ وأنتِ تنتقدينني يا جاحدة! تملؤني رغبة في أن آخذ الباب في يدي وأرحل.

تنهض كلارا بعزة نفس:

- لا داعي لهذا، سأرحل أنا.

- إلى أين ستذهبين؟

- لا أفكر حتى في أن أخبرك!

تجتاز فناء المصنع نحو المخرج، فتناديها لوثيا:

- كلارا!

لكنها لا تلتفت. تخرج وسط الظلام. يُضيء عمود إنارة يعمل بالغاز لافتة مخزن نارِيات السيد ألكسندر. تتوجه كلارا إلى هناك بعد أن جذبتها دائرة الضوء. تفترش الأرض بعض البِرك الناجمة عن الأمطار الأخيرة. عليها أن تتوخى الحذر وهي تخطو. لا تعرف إلى أين قد تذهب. ستتمشى في وسط المكان وستدخل أي فناء خاوٍ لتنام فيه قليلًا، أو ربما في دهليز أي كنيسة. تمضي عبر الشارع الكئيب. ينكسر الصمت مع ضوضاء خطواتها ونباح بعيد. قريبًا ستدق الأجراس التي تحدد ساعات مدريد منذ عهود قديمة.

تمر من أمام محل آلات وترية صغير، تدرك أنه فارغ منذ يومين، أصيب مالكه على الأرجح بالكوليرا. ليس مكانًا سيئًا لتقضي فيه هذه الليلة وسط آلات العود والكمان. تنظر إلى الواجهة الزجاجية حيث ثمة كمان ساق أوسط وجيتار إسباني. تُميز في الداخل، وسط ظلام الغرفة المشعشع، حقيبة جلدية إلى جوار خرقة ملطخة بطلاء الأحذية. يعبر ظلٌّ نهاية الغرفة، أو أن هذا ما تحسب كلارا أنها رأته. بعدئذٍ تتساءل ما إذا كان هذا الظل ليس انعكاسًا، وأن ثمة شخصًا يقف وراء ظهرها، ليترصدها. تلتفت فجأة. تحسب أنها لمحت رفرفة لعباءة سوداء قبل أن تنعطف عند الناصية. كان الأمر سريعًا، مجرد وهم بصري، ربما هو مجرد غراب يرفرف، لكن الأمر يكفي كي تمتلئ عينا الفتاة بالفزع.

تنطلق في طريق العودة إلى مصنع الثقاب من دون أن تنظر خلفها. تثق في أن أحدًا ما يلاحقها، لكنها لا تريد أن تتأكد، إذ إنه ليس لديها ثانية واحدة لتخسرها. تمضي وهي تخطو فوق البرك. لا تتذكر أنها كانت كثيرة هكذا. تسمع بين لهاثها احتكاك عباءة ملاحقها بفخذيه.

حين تلمح سور المصنع، تتفهم أنها ستضطر إلى القفز فوقه لأن الوقت لن يسمح لها بالوصول إلى الباب. ثمة حجر يبرز في الجدار، فتستخدمه كدرجة لترفع نفسها فوقه وتسقط إلى الجانب الآخر، فوق صفوف من لحاء الأشجار. يصيبها السقوط بكدمات، لكنها تشعر بأنها باتت في مأمن. تجتاز الرواق المجوف المزين بزخارف موريسكية. تصل إلى الفناء، حيث الممرات المسقوفة التي رقدت لوثيا تحتها في محاولة للنوم. يسهر بدرو وماريا إلى جوار البئر على حُمى ابنهما. تتكور كلارا إلى جوار أختها بقلب مثلوم، كأنه سيخرج من صدرها.

- أنا خائفة.

تلتفت لوثيا نحوها وتغطي وجهها بقبلاتها.

- تعالي إلى هنا.

- لا أود أن ننفصل أبدًا.

تستمر لوثيا في تقبيلها، في خديها وشعرها وعينها وأنفها.

تسألها كلارا:

- هل ستتركينني وحدي؟

- أبدًا.

تعانقان بعضهما بقوة، كأنهما تودان أن تصيرا جسدًا واحدًا. يغلبهما النوم رويدًا رويدًا. بعدئذٍ ببضع ساعات تستيقظان على نحيب ماريا.

- ابني!

تُهدهده بين ذراعيها، لكن مثل هذا الأمر لن يعيده إلى الحياة. ينزع بدرو بغضب العلقيات من فوق جسد لويسين ويدهسها. يتبعثر الدم الموجود داخلها -دم ابنه- فوق الأرض.

تهمس كلارا للوثيا وهي تغلق عينيها قدر استطاعتها:

- احكي لي قصة من فضلك.

مع ذلك، لا تقدر جفونها على كبح الدموع.



إنها أول مرة في عمر جريدة «إل إيكو ديل كوميرثيو» الذي لا يتخطى ثلاثة أشهر يصل فيها نبأ من هذا النوع -أي عن جرائم القتل- إلى صفحتها الرئيسية. حدث هذا في نسختها الصادرة اليوم في عيد «عذراء جبل الكرمل». يُردد باعة الصحف -أولئك الأطفال المأجورون الذين يطوفون مدريد من مقهى إلى مقهى ومن ساحة إلى ساحة- فحواه في هتافاتهم:

- جرائم «الوحش»! جرائم «الوحش»! سفاح يقتل أربع فتيات في مدريد، جرائم «الوحش»!

تغلب دييجو على ممانعة أوجوستو مورينتين لنشر الخبر عبر زيارته هو وجريسي إلى مكتب التحرير والقصة التي حكتها الأخيرة أمامه بالتفصيل حول مقتل ابنتها في باريس. انهارت دفاعات مدير الجريدة أمام الشارة التي عُثر عليها داخل بيرتا ووجود جريمة إضافية مشابهة حدثت في العاصمة الفرنسية. اعترف بخطئه في عدم نشر مقال دييجو في وقت سابق. لا مجال للشك، ثمة سفاح في مدريد. يرتبط عمل الصحافة بتحذير المواطنين من هذه المخاطر، لكن يتعلق أصعب شيء بوضع اللمسات الأخيرة فوق الخبر،

لا بسبب النص الذي كتبه ‹ديجو وخضع إلى تعديلات قليلة، وإنما بسبب عنوانه.

اعتبر المدير كل المقترحات فاضحة أكثر من اللازم، وحين غادرت جريسي عبر شوارع المدينة الخاوية، استمر نقاش الصحفيِّين في مكتب مورينتين. رأى دييجو من نافذته كيف تاهت وسط الليل وهي تمضي بظهرٍ محدب وخُطى غير مستقيمة. كررت كل الكلمات التي قالتها تقريبًا في غرفته الواقعة في شارع «الأثرياء»، لكن دييجو حين رآها في تلك اللحظة وهي تذوب وسط الظلمات، تذكر وجود بعض إيماءات التردد فيها، بل وبعض الجمل غير المكتملة التي ظلت عالقة في الهواء وأرجعها في البداية إلى وضعيتها التي تتمازج فيها الهستيريا مع الكحول، لكنها فجأة بدأت تكتسب معنى آخر، ماذا لو أن جريسي تعرف أكثر مما حكته لهما؟ ماذا لو أن سبب هذا الصمت الذي اختبأ صوتها خلفه أكثر من مرة هو الخوف؟ الخوف من أن تكشف الكثير.

- فتيات مقطوعات الأوصال؟ بنات مدريد يمتن مقطوعات الأوصال؟ هذا ليس منشورًا هجائيًّا يا دييجو. نحن صحيفة حقيقية.

سمح مورينتين لدييجو بأن يوقِّع المقال باسمه المستعار التقليدي، «القط المستخف». لا يسعى إلى أن يصبح شهيرًا كلارًّا[1] باسميه المستعارين «فيجارو» و«المتحدث المسكين»، وإنما يسعى فقط إلى ألا يسقط موت بيرتا وبقية الفتيات في طي النسيان. أيضًا ثمة منفعة تافهة، سيساعده هذا المقال في دفع إيجار غرفته المتأخر في شارع «الأثرياء»، وإذا ما تمكن من إقناع مورينتين بنشر أنباء عن الأمر لعدة أيام متتالية، فسيصفي كل ديونه في ظرف أسبوع. ينبغي له أن يقدم المعلومات تدريجيًّا. لا يود أن يتعثر وينشر معلومات غير مؤكدة. لا يرتبط الأمر بالمال الذي يمكنه أن يتحصل عليه عبر «تنقيط» المعلومات، وإنما لكيلا تجد السلطات عذرًا وتتخذه ذريعة لعدم تنفيذ عملها في القبض على هذا السفاح.

لهذا السبب ضرب دييجو في اليوم التالي لنشر هذا المقال الأول موعدًا مع دونوسو جوال في «حانة العم ماكاكو» في شارع «غاسل الأقدام» الذي يُسمى الحي باسمه. يريد من صديقه أن يمده بمعلومات الشرطة، وما إذا كانت قد

(1) المقصود هو الصحفي والكاتب والسياسي الإسباني الشهير ماريانو خوسيه دي لارًّا (1809-1837). (المترجم).

اكتشفت شيئًا لا يعرفه. على الرغم من أن الوقت لا يزال مبكرًا، إذ لم تدق أجراس صلاة التبشير، فقد شرب دونوسو عدة كؤوس من «الأجواردييتني»، ولهذا يتلعثم في كلامه.

- لا يحكي لي أحد شيئًا، أنا منبوذ. أيضًا انس هؤلاء الفتيات و«الوحش»، لقد جمعت بعض الريالات. قد تأتي معي في هذه الليلة إلى شارع «إل باركِيّو» أو إلى بيت «اللبؤة».

تُعد «حانة العم ماكاكو» من ضمن الحانات التي يواظب لويس كانديلاس على زيارتها، وفي ذلك المكان سمع دييجو رجل العصابات الشهير ذات ليلة وهو يحكي قصة غرامه بلولا «بائعة البرتقال»، وهي إحدى محظيات الملك الراحل فرناندو السابع. لم يره منذ فترة. يقولون إنه ذهب ليعيش في بالنثيا مع زوجته الجديدة. ليس لدى دييجو شك في أن أنباءه ستصل إليه، إذ إن لويس كانديلاس قد تحول إلى شخصية أسطورية بين صعاليك مدريد، ووصل الأمر إلى درجة تأليف أغانٍ شعبية صغيرة عنه.

- هل سألت ما إذا عثروا على شارات ذهبية في حناجر بقية الفتيات؟
- ما الذي تريده؟ أن يثيروا شائعة حول كوني القاتل؟ أو الأسوأ من هذا وهو أنني أريد أن أتهم زميلًا آخر بالسرقة؟ لا أفكر في السؤال عن الأمر، بل لو تحدث معي أحد عن مقالك فسأقول إنه كله كذب وإن «الوحش» دب، أو أيل له وجه رجل متأنق.
- حسنًا. لا تسأل عن أي شيء. سيكفيني فقط أن تُطقطق أذنيك وأن تسمع محادثاتهم. ربما توجد نظرية حول كيفية قتله للفتيات أو حول معنى شعار الشارة. أقصد المطرقتين المتقاطعتين.
- قرأت وصفك في الصحيفة. أنت تتوهم، كحال تلك المرأة التي تهذي وأشعلتما بها الأمر، أقصد أُم الطفلة الميتة في باريس أو «صاحبة البلاغ التي طلبت عدم الكشف عن اسمها بسبب الخوف». اللعنة على مورينتين لأنه وافق على نشر شيء كهذا!

يشعر دييجو بالإنهاك من انغلاق دونوسو. أي أم ستكذب بخصوص موت ابنتها؟ يجتهد في وصف جريسي له، وهو يضيف تفاصيل لم تظهر في المقال. يتحدث معه عن طابع الجمال القديم النادر الذي يشبه التماثيل الرومانية التي سقطت في طي النسيان منذ قرون ولا تزال تحتفظ برونقها،

مع أن الخضرة كستها. لا يريد أن يكذب على صديقه ولهذا يحكي له أيضًا رائحة «الأجواردييتني» المنبعثة من أنفاس الممثلة، وحديثها المضطرب وغير المكتمل أحيانًا.

- إذن ترتكز في مقالك على امرأة ثملة.
- لو عرفتها، فلن تتحدث عنها هكذا. عانت جريسي الأمرَّين.
- عرفني إليها إذن. لو أن الحياة علمتني شيئًا، فهي معرفة متى تكذب أي امرأة، وقد علمتني إياه بالنار.

يغرز دونوسو بخفة سبابته في العصابة التي تغطي عينه التي فقدها في النزال وينطلق في سفسفته التي نطقها ألف مرة عن مدى خيانة النساء. توقف دييجو عن الإنصات إليه، فهو يحفظ البغضاء التي يحتفظ بها صديقه ضد جنس النساء عن ظهر قلب منذ خدعته زوجته ووجد نفسه بعد أن تلطخ شرفه مضطرًا إلى الدخول في نزال سخيف. كيف قد يحكي له الآن أي تفاصيل عن موعده منذ جمعتين مع آنا كاستيلار؟ سيجأر دونوسو بنبوءات مشؤومة عن هذه العلاقة، وعن النهاية المأسَوية التي تنتظر دييجو من دون شك. إنه مجروح جدًا إلى درجة العجز عن الإيمان بإمكانية وجود حب شديد النقاء كالموجود في بعض الروايات المسلسَلة، وبأن اقتراب دييجو من امرأة، بل وأحيانًا مجرد التفكير فيها، قد يحول مجرى دمه ويدفعه إلى الارتعاش، بل واكتشاف أنه يرتعش من فرط شيء شديد التملص كالسعادة.

- ألا تدرك يا دييجو؟ كل ما أحاول فعله هو حمايتك وتلافي أن تزج بنفسك في المشكلات.

يأخذ دونوسو رشفة من كأس «الأجواردييتني». يعرف أن فتح ذكرى زوجته يعني الضياع في بئر البغضاء التي لا تهم أحدًا، ولهذا يبذل ما في وسعه لتنحية الأمر والعودة إلى مسألة الممثلة، جريسي، وما نشره دييجو.

يتذكر دييجو:

- قالت لي إن لديها دورًا في مسرحية تُعرَض في «مسرح الصليب». هيا بنا لنراها ونتحدث معها، وإذا ظللت بعدئذٍ تظن أن هذه المرأة تكذب، فربما سأفكر في التخلي عن موضوع «الوحش».

يقبل دونوسو مقترح دييجو. إنه مستعد لأي شيء لاستعادة رفيقه في العربدة الليلية في أقرب وقت ممكن.



أفضل ما يُمكن للوثيا أن تفعله وهي تعمل، ألا تفكر. مر أسبوعان عليها في ماخور شارع «القرنفل»، لكنها تعلمت بالفعل كيف تجعل زبونًا يهتم بها ويدعوها للصعود إلى إحدى الغرف، فإلى جوار الغرفة الصينية التي شهدت مرتها الأولى، ثمة غرفتان رومانيتان وواحدة مغربية وثلاث غرف عادية. تعلمت أيضًا كيف تدفع أيًا من هؤلاء الرجال -إن اعتبرته كريهًا على وجه الخصوص- إلى الاهتمام بواحدة أخرى. ترسل خوسيفا أحيانًا في طلبها، فتحضر إلى الصالون الأخضر، حيث تعرفت عليها لأول مرة، وتتناولان الشاي. لا يروقها هذا المشروب، لكن القوادة تصر على ضرورة أن تتناوله. تقول مرارًا وتكرارًا إنه يجب عليها أن تتعلم السلوكيات وأن تُقوِّمها. لا تجلسي هكذا. افردي جسدك. أمسكي القدح جيدًا. لا تندفعي نحو المعجنات كأنكِ لم تأكلي واحدة منها في حياتك.

- الأمر وما فيه أنني لم آكل واحدة قبلئذٍ قط.
- لا يهمني. المهم هو ألا يظهر عليكِ الأمر.

حين تنظر «اللبؤة» إلى لوثيا، تعجز عن تفادي التفكير في نفسها، في هذا الحيوان الصغير الذي وصل إلى المدينة ولم يشغله العيش، بل النجاة.

تعرف أن لوثيا ظروفها مشابهة، فهي يتيمة ومسؤولة عن طفلة صغيرة. يُشبه الأمر وجود شخص لا يعرف السباحة في وسط البحر وتحريكه ذراعيه بيأس لكيلا يغرق. تدرك «اللبؤة» المسعى الذي يتشكل في عقلها، ستعلمها السباحة وستساعدها على الوصول إلى وضعية لا تضطر فيها إلى المعاناة من الكوابيس بسبب الجوع أو الخوف.

تعي أن كثيرًا من الأشخاص يزدرون عملها. يقولون إنها تبيع النساء كمن يبيعون الخراف. تشتعل غضبًا كلما استمعت إلى هذه الانتقادات من أفواه المتدينين أو الزوجات ذات الحسب والنسب بسبب طابعها المنافق، فما الذي يمكن للفقيرات فعله سوى هذا كي يكسبن قوت يومهن ويجدن سقفًا يأويهن؟ إن الكهنة والعائلات الميسورة هم من يتجاهلون فتيات مثل لوثيا، بل ويلقونهن خارج «الجدار» حين يزعجن راحتهم. مع ذلك نجحت في العثور على طريقة لكسب المال عبر استغلال أكبر صدع في جدران هذا المهرجان السخيف: الحاجة إلى الجنس، وحاجة المرء إلى الشعور بأنه مرغوب فيه، ولهذا يصطف يوميًا المزيد من الرجال عند بيتها في شارع «القرنفل»، لأنهم يريدون دفع المال لتصديق أنهم مهمون. تحاول أن تقنع نفسها أحيانًا بأنها تقدم السُلطة إلى فتياتها، وأنهن في الحقيقة من يسيطرن على الموقف. صحيح أنها لا تسمح للزبائن بإذلالهن أو معاملتهن بشكل سيئ لأنهن العنصر الأهم في عملها، لكنها تعرف أنها مجرد خدعة. إنها مهنة صعبة ومراتها الأولى صادمة، كما أنها ليست بعيدة عن المخاطر، بل إن أي حياة تقريبًا أفضل من حياة النساء اللاتي يسلمن أجسادهن في المواخير، سواء كانت هذه الحياة زواجًا يُعيلهن أم عملًا شريفًا يوفر لهن المال الكافي للعيش من دون منغصات. مع ذلك، فهذان الاحتمالان بعيدان مثل سواحل القارة الأمريكية. ثمة حقيقة قاسية، نساء شارع «القرنفل» هن أدنى درجة في المجتمع، حتى وإن كن جميلات بل وفي بعض الحالات متكلفات. لو أن ثمة درجة أدنى منهن، فهن النساء اللاتي لا يجدن بدًا من ممارسة هذه المهنة في الشارع. إنهن كالماشية، مجرد غذاء للأغنياء. تنظر «اللبؤة» إلى لوثيا، التي لا تزال جامحة بشعرها الأحمر الهائج الذي يغشي وجهها، وتفكر في أن الحياة ستروضها في نهاية المطاف.

- اعقصي شعرك وأغلقي روبك. لا داعي لأن يرى الزبائن ما ينتظرونه قبل الأوان.

تقترب «اللبؤة» من خزانة مكتبها وتفتح درجًا صغيرًا. تُخرِج منه دبوسًا فضيًا رأسه من البورسلين. تسلمه إلى لوثيا، فتستخدمه لإغلاق الروب. لا تحكي لها أن هذا الدبوس جاءها هدية من «اللبؤة» القديمة، سابرينا، تلك المرأة التي علمتها ألا تزدري نفسها وأن تصبح ما صارت عليه اليوم، وهو الشيء نفسه الذي تنوي أن تفعله مع لوثيا. ستحظى بفرصة مستقبلًا لتحدِّثها عن سابرينا وقيمة هذا الدبوس بالنسبة إليها، أما الآن فعلى لوثيا أن تترك الصالون الأخضر لتعود إلى عملها.

لا يروق بقية النساء أن تصبح لوثيا المفضلة لدى «اللبؤة». أقل من يروقها الأمر هي دلفينا، التي يُمكن وصفها بأنها حاكمة البيت. مع ذلك ليس لديها وقت ولا رغبة للدخول في عداوات مع «الحمراء»، كما بدأ الزبائن يدعونها. مر يومان من دون أن تعرف دلفينا شيئًا عن ابنتها، ولهذا يأكلها الغم. تقضي ساعاتها وهي تحتضن دمية خوانا القماشية، فيما تقطع شوارع مدريد لتسأل عنها هنا وهناك، أملًا في أن يخبرها أحد بأنه رآها. وسط كل هذا، عاملتها «اللبؤة» بطيبة وأعفتها من مهام كثيرة.

تتعلم لوثيا سريعًا. لم يعد الأمر كريهًا بقدر ما حدث في المرة الأولى مع «حفار القبور». تعرف كيف تترك خيالها يعتلي جدران الماخور ليحلِّق فوق بحار مجهولة في رحلات خيالية تصاحبها فيها أحيانًا كلارا وفي مرات أخرى إيلوي، كأنهم ربابنة سفينة تجتاز المحيطات للسفر إلى قارة الذهب حيث سيحكمون الفقراء برحمة. قد تكون بعيدة جدًّا عن الفراش والزبون الذي يتصبب عرقًا فوقها، في الوقت نفسه الذي يكتسي وجهها فيه بقناع المتعة الذي يريد الرجال أن يروه. اكتشفت حيلًا لإرضاء الزبائن بشكل أسرع، وتعلمت كيف تغتسل لكيلا تصيبها العدوى بأي شيء، على الرغم من أنه ما من طريقة للاغتسال لتلافي الكوليرا، إذ أصيبت فتاتان بالعدوى وصارتا في «محجر بالبيردي». تعلمت بالمثل طرق منع الحمل، فهي مأساة في هذه المهنة، وبمجرد وقوعها لا يُمكن علاجها إلا بأساليب خطيرة.

لدى انتهائها من الزبون الأخير –وهو شاب خجول قرر تكرار زيارته الأولى لها– يأتي ماوريثيو، الأبتر، بأنباء مقلقة:

- وقع شجار في «حمامات النجمة». اتهمت بعض النساء ولدًا بتسميم الماء. يقولون إنه طالب من اليسوعيين في المدرسة الإمبراطورية. لقد أفلت بمعجزة.

لا تقع «حمامات النجمة» بعيدًا عن هنا، وإنما في شارع «القديسة كلارا». تزداد غرابة الأجواء في المدينة بمرور الوقت. تود لوثيا أن تنهي عملها لتتوجه إلى مصنع الثقاب لإعداد عشاء لذيذ لها ولكلارا لتعزيز مصالحتهما. تمكنت من جمع نحو مائتي ريال تقريبًا واقتربت أكثر من مبلغ الأربعمائة ريال الذي تعتقد أنه سيكفيها هي وأختها لبدء رحلتهما بعيدًا عن هذه المدينة التي تقتل نفسها بنفسها، مدريد، لكن لا يزال يتبقى لها زبون وها هي ذي تنتظره.

أحيانًا قد لا يمر الزبون عبر الصالة لرؤية الفتيات الموجودات، إذ يذهب مباشرة إلى الغرفة، إن كان يعرفهن جميعًا وتفضيلاته محددة، ويطلب أن يصعد طلبه إليه. حين يُبلغن لوثيا، لا تعرف من ينتظرها في الغرفة الصينية، هل هو «حفار القبور» أم «الطالب» أم «الكامن»، لكنها لا تسأل أيضًا.

تعرف أنها قد تجد الزبون عاريًا وراقدًا فوق الفراش بنظرة شهوانية، ولهذا فهي مستعدة لأي مشهد، لكنها حين تدفع الباب لا تجد أحدًا في الداخل. تُفكر: «حسنًا. ربما تكون لعبة». تنظر إلى الحمام الصغير الذي يشكّل مرفقًا منفصلًا عن الغرفة وتحميه ستارة من الحرير. لا وجود لأحد. تفهم من تكة المزلاج أن الزبون قد دخل للتو. تعود إلى الغرفة وتأسف لأنها لم تتخيل هذا السيناريو، على الرغم من خيالها الفائض الذي تتباهى به.

لا وجود لألعاب الإغراء أو الخيالات البالية أو الطقوس الشاذة، فالرجل الموجود في الغرفة هو العملاق ذو الجلد المحروق.

- ما الذي ظننتِه؟ أنني لن أعثر عليكِ؟



يركل شخصان بغضب فتى ملقى على الأرض. تمكن دييجو من سماع طقطقة عظام أنفه في الركلة الأخيرة. حاول النشال الصغير، وفقًا للدلائل، أن يسرق رجلًا من الاثنين، فقررا تطبيق العدالة بأيديهما بعد أن استعادا أغراضه. يسير أهالي مدريد بعيدًا عن هذا المشهد عبر ساحة «الملاك». يبدو كأنه ما من أحد يرى الموقف، حتى دونوسو الذي تفرض عليه وظيفته كشرطي أن يفعل شيئًا. يوشك الصحفي على التدخل لإيقاف هذا الضرب المبرح، لكن دونوسو يوقفه بذراعه ويُذكِّره: «لا داعي لأن تتورط في كل شؤون الآخرين». حين يبصق الرجلان على النشال بعدئذٍ بدقيقة ويرحلان، يحتبي دييجو الأرض إلى جواره ويمد له يده كي ينهض. ينساب الدم فوق وجه الفتى، الذي لا بد أن عمره لا يتخطى خمسة عشر عامًا، فيتسخ ما يتبقى من أسنانه. يأبى الفتى بحركة متوترة أن يقبل مساعدة دييجو، ويبتعد مترنحًا وهو يستند إلى واجهة أحد المباني من دون أن ينطق كلمة واحدة. تصطبغ الأرض بذكرى حمراء. مدريد ملأى بلطخات مثلها. لم يعد أحد مدهوشًا من تفجر العنف، ووجود جثة في كل ساحة.

ينفض دييجو بنطلونه ويحاول أن يركز فيما جاء ليفعله. ينتصب خلفه «مسرح الصليب»، الساحة القديمة التي شهدت العرض الأول لأغلب أعمال مسرح «القرن الذهبي الإسباني». هناك يقع مكتب جوان جريمالدي، وإليه يتوجه دييجو رويث ودونوسو جوال للسؤال عن جريسي.

- اللعنة على اليوم الذي تعرفت فيه على هذه المرأة وخطر على بالي أن أمنحها دورًا في فرقتي.

وصل جريمالدي، وهو منتِج فرنسي شهير، إلى إسبانيا من دون نية للاستقرار وانتهى به المطاف وهو يشتغل في الفنون المسرحية بنجاح كبير. عرفت إسبانيا بفضله آخر تيارات علوم المسرح الأوروبي، وصار يدير أهم مسرحين في العاصمة: «مسرح الأمير» و«مسرح الصليب». يتمكن دييجو من دفع جريمالدي إلى الإجابة عن كل أسئلته بخصوص جريسي، عقب أن أقنعه بأنه سيهتم بعروضه الجديدة في صحيفة «إل إيكو ديل كوميرثيو».

- تعرفت على جريسي منذ بضعة أعوام. أتعرفان شيئًا؟ إنها ممثلة عظيمة. كان من الممكن أن تصبح من أفضل الممثلات، مثل تيودورا لا مدريد، لو أن أحوالها لم تنقلب. حين جاءت لرؤيتي وقالت إنها في المدينة تعاقدت معها. فكرت فيها كي تصبح بطلة مسرحيتي المقبلة «كلوتيلدي». ستأخذ مكانها ماتيلدي دييث، واحفظا هذا الاسم لأنها ستصبح أهم ممثلة إسبانية في هذا القرن.

- أرى أنك توقفت عن الثقة بجريسي.

- لديَّ ثقة عمياء في موهبتها، لكن ليس لديَّ ثقة بها كإنسانة. إنها جاحدة وأفعى ومريضة. فقدت هذه المرأة عقلها. لا تعرف سوى الكذب. كان يجب عليها أن تحضر منذ أربع ساعات من أجل التجارب ولا أثر لها، وكأنني ليس لديَّ مشكلات تكفيني في ظل أوامر الإغلاق التي تصل إلينا بسبب الكوليرا، لا بد أنها تسير هنا وهناك لتصيب بالجنون كل من يريد أن يسمع تلك القصة المشؤومة عن ابنتها المقتولة التي بُتر رأسها في باريس.

يوجه دونوسو نظرة بعينه السليمة إلى دييجو مع إيماءة «لقد قلت لك» التي لا لبس فيها. لا يستسلم الصحفي، على الرغم من أنه يخشى للحظة أن يكون قد ترك نفسه ينقاد وراء وهم.

- هل تعرف أين تقيم؟
- في نزل في «أتوتشا»، لكنكما ستضيعان وقتكما. أرسلت بحثًا عنها، والأمر الوحيد الذي تركته خلفها دين منذ عدة أسابيع. يبدو أنها لم تعد تبيت هناك.
- هل لديك أي فكرة إلى أين ربما تكون قد ذهبت؟
- إلى أي وكر للأفيون. ابحثا هناك.

يتفهم دييجو أنه لن يتمكن من أن يستخرج مزيدًا من المعلومات من جريمالدي، هذا إن كانت موجودة لديه أصلًا. صار هذا المنتِج المسرحي يعتبر جريسي خطأ لن يكرره مجددًا. حين يخرجان إلى الشارع، يبدو الأمر محسومًا بالنسبة إلى دونوسو:

- انتهت جريسي ومعها مسألة وجود «الوحش» في باريس.

يرفض دييجو الاستسلام بسرعة، لكن الدليل الرئيسي الذي بنى عليه مقاله انهار سريعًا كقلعة رملية. يُفكر الآن في كل هذه الخطابات العاجلة التي كتبها طلبًا لمعلومات من مراسلين في باريس ولندن، وكيف أنها ستبدو سخيفة حين يجيبونه بأنه لم تقع أي ميتة مأسَوية بهذه الصورة خارج حدود إسبانيا. يبدو أن كلام الممثلة -الأم المفترَضة لقتيلة مزعومة والمدمنة على الأفيون وفقًا لجريمالدي- يفتقر إلى الثقة.

- لا أعرف لِمَ قد تكذب عليَّ هذه المرأة، فهي من جاءت إلى بيتي بحثًا عني. بدت يائسة.
- تخلَّ عن الأمر يا دييجو. لا تُعقِّد الأمور على نفسك. تحسب أنك مختلف عن البقية، لكننا في نهاية المطاف، نسقط جميعًا في الخطأ نفسه، ألا وهو عينا أي امرأة.
- وما تفسيرك للشارة التي عثرنا عليها داخل بيرتا؟ أليست مصادفة كبيرة أن تأتي جريسي على ذكرها؟
- أتفق معك في مسألة أنه لم يكن وحشًا، بل إنسانًا، اختفت تلك الفتاة، بيرتا، بعد أن ذهبت لتغني في بيت عالم اللاهوت الميت، إجناثيو جارثيا، وهناك كان ثمة قارورة فيها شيء يشبه الدم. لا بد أن هذا الرجل هو القاتل، لكن الكوليرا وفرت على الشرطة عملها.

- لا يمكننا تأكيد أنه دم بيرتا، بل لا يمكننا أصلًا تأكيد أنه دم بشري.
- أحيانًا يعجز المرء عن معرفة كل تفاصيل القصة، لكن لو أن ثمة شيئًا واحدًا أثق به، فهو أن قصة «الوحش» وصلت إلى نهايتها.

وهما لا يزالان بقرب المسرح، تخرج امرأة بغتة منه وهي ترتدي ملابس قروسطية. تنطق كل ملامحها بأنها ممثلة غادرت غرفة الملابس في أثناء تجربة زي أو في أثناء راحة من البروفات.

- لم تأتِ جريسي لأن شيئًا ما حدث لها، وليس لأنها ترفض الاستمرار في المسرحية.
- ما الذي تقصدينه بأن شيئًا ما قد حدث لها؟
- رأس جريسي ليس في محله. هذا شأن لم يُخطئ فيه جريمالدي. رأيتها وهي تتحدث معه. تغيب عن التجارب ولا تحفظ النص وتأتي وفوقها غيمة من الأفيون أو ثملة، ولا يعرف المرء أبدًا لماذا تفعل ما تفعله.

يسألها دييجو:

- هل حكت لكِ شيئًا عن ابنتها المقتولة؟
- جريسي لم تحكِ، وإنما كانت تهذي. ثمة شيء أعتقد أنها لم تكذب فيه، إنها فعلًا خائفة. لطالما قالت إنه سيحين يوم يأتون فيه من أجلها.
- هل قالت في أي لحظة مَن يلاحقها؟

تنفي الممثلة برأسها، وقبل أن تستأنف حكايتها، تُبعِدهما عدة أمتار عن مدخل المسرح. يبدو أنها لا تريد أن يراها جريمالدي وهي تتحدث معهما. تحكي لهما بعدئذٍ أنها حين خرجت في الليلة الماضية بعد البروفة لتستنشق بعض الهواء المنعش -لأن الحر شديد جدًّا في هذه الأيام فيغدو المسرح بسببه فرنًا- رأت جريسي تتناقش عند ناصية شارع «البئر» مع رجل ما، وظل كل منهما يشد ويجذب الآخر، قبل أن يُجبرها على صعود عربته. لم تتمكن من سماع شيء سوى صرخات جريسي غير المترابطة وهي ترجوه أن يُفلتها.

- هل تمكنتِ من رؤية من أكرهها على الركوب؟
- كنا ليلًا وأحاطت الظلال بهما. سقط عكاز الرجل في وسط الشجار. كان حسن الملبس ويرتدي سترة رسمية. على الرغم من الظلام وأن

الرؤية شقت عليَّ، لفت مقبض العكاز انتباهي، بدا أبيض اللون، ربما من العاج، وعلى شكل يد.

يجذب دونوسو صديقه من ذراعه. يظن أن كل ما تفعله هذه التفاصيل هو التشويش على شيء واضح جدًّا، لقد كذبت هذه الممثلة على دييجو ربما لتكتسب قدرًا من الشهرة أو لأنها ببساطة مجنونة. ما وصفته صديقتها قد يكون نقاشًا مع معجب أو خلافًا مع أحد تدين له بالمال.

- هل ستحاولان أن تعثرا عليها؟ ربما تُخطئ جريسي في أمور كثيرة، لكنها امرأة طيبة. لا تستحق النسيان هكذا.

يتعهد دييجو بأنهما سيعثران عليها وبأنهما سيبلغانها حين يتأكدان من أنها في حال جيدة. يبتعد مغمومًا عن المسرح وصمت دونوسو يرافقه، لأنه بمجرد اقترابه من أي إجابة، يجدها تبتعد عنه كأن قوى غريبة تقطع طريقها. بينما يحدث هذا الأمر، يمر الوقت. إنه السابع عشر من يوليو. مر شهر تقريبًا على رؤيته جسد بيرتا مقطوع الأوصال وسط وحل «إل ثيرِّيبو». ثمة قناعة تتبرعم داخله كأنها حمى ناجمة عن عدوى، سيقتل «الوحش» مجددًا، عاجلًا وليس آجلًا.



يُلقي المصباح الأحمر بضوئه البركاني فوق وجه العملاق المحروق فيتحول إلى حقل من الحِمم وتغدو عيناه جمرتين.

تُحصي لوثيا فرصها. يقف الرجل أمام الباب. الفرار مستحيل من هناك. تخلو الغرفة من النوافذ ولا يفصلهما سوى الفراش الذي يحيطه من الجانبين المزهريتان المصنوعتان من البورسلين.

- أنتِ لديكِ شيء يهمني وأنا لديّ شيء يهمك.

لا تُجيبه. لا تنصت إليه أصلًا. تبحث فقط عن مخرج. تركّز كل قواها على إبعاد الخوف عنها لكيلا يصيبها الشلل في اللحظة الحاسمة.

- ألا تودين أن تعرفي ماهية هذا الشيء؟ إنه شخص مهم جدًا بالنسبة إليك، وقال لي أين يُمكنني أن أعثر عليك، لكن لا داعي للضغائن، فأنا أعرف كيف أرعِب الفتيات، وهي لم تكن استثناء.

تزداد لمعة السادية في بؤبؤَي عينيه اللتين تحدقان إليها بتوتر حيوان ضارٍ. لا يُعد الهرب من مفترس وهو على وشك الانقضاض أمرًا سهلًا، لكن لوثيا ستستغل فرصتها الأخيرة، حتى إن لم تنجح في تشتيت انتباهه وإن لم

تخرج حية من هذا المكان. تجثو على ركبتيها فوق الفراش بحركات خليعة وتزيل الدبوس الذي يغلِق معطف النوم. يظهر نهداها، وهو المشهد الذي لا تعرف ما إذا كان سيغري المفترس.

- هذا الجسد ملكك، افعل به ما يحلو لك.

تعلمت كيف تصبغ صوتها بالإثارة. ينفتح فم العملاق قليلًا وتكسو الغواية نظرته. لم يستغرق تفكيره في الرقود فوقها أكثر من هنيهة أو جزء من الثانية، قبل أن يُغلق غضبه كل الأبواب. لن يرضخ أمام جسد لوثيا. لكنها أصلًا ليست في حاجة إلى رضوخه، إذ كفاها هذا الإلهاء البسيط كي تصل بسرعة إلى إحدى المزهريتين الموجودتين إلى جوار الفراش وتحطمها فوق رأس «الوحش».

يتحطم البورسلين مع الماء والزهور ويسقط الرجل أرضًا. يُمكنها أن تعبر الباب، لكنها تعرف أن هذا سيجعل الملاحقة تمتد فحسب. ينبغي لها أن تُنهيها الآن وإلى الأبد.

بينما ينهض الرجل، يضع يده فوق جبهته، حيث شجت المزهرية رأسه. تتموضع لوثيا فوق ظهره بساقين منفرجتين. تأخذ الدبوس الذي أهدته لها «اللبؤة» وأبقته مخفيًا في يدها اليسرى، وتغرزه بضربة مفاجئة وحاسمة في قفاه، بالصورة نفسها التي يطعن بها مصارعو الثيران البهيمة التي تقاتلهم. ينهار العملاق فجأة. تتشنج أطرافه، لكن لوثيا تظل جالسة فوق ظهره، فيتلطخ معطف النوم وشعرها الأحمر بالدم الذي ينبثق من قفاه، وكحال الأجراس التي تعلن عن موعد القداس، يعلن صوت حلقومه وأنينه المحتضر عن موته.

تنهض لوثيا وهي حافية. تشعر باضطرام قلبها، وبموجات الخوف تتنازع في أثناء تراجعها، وكل الأدرينالين الذي احتاجت إليه لتقدم على فعل ما فعلته، هزيمة العملاق. بعدئذٍ وكأنها تعود من الأحلام إلى الواقع، إذا ببعض من كلماته تصل إلى رأسها: «أنتِ لديكِ شيء يهمني وأنا لديَّ شيء يهمك». «أعرف كيف أرعب الفتيات الصغيرات وهي لم تكن استثناء».

كلارا.

تخرج لوثيا من الغرفة وهي تركض. تهبط درج الماخور وتصل إلى الشارع من دون أن تتوقف، على الرغم من أنها تتقدم بقدمين حافيتين ومن دون شيء يحميها سوى معطف النوم الذي يكشف عن جسدها أمام الكل وهي تركض. كل هذا لا يهمها، نظرات الناس، أو ما قد تقوله «اللبؤة» حين تعثر على جثة هذا الرجل، فما يهشم عقلها وقلبها هي صورة أختها.

كلارا.

تطير نحو مصنع الثقاب وهي تخطو فوق البلاط ومسارات مياه الصرف الصحي التي تتسخ بها شوارع مدريد. ليس عليها أن تدخر المزيد. يجب أن يكفيهما المال الموجود معها، ستأخذ أختها وستغادر مدريد، ستغادر هذا الجحيم إلى الأبد.

حين تصل إلى ما صار بيتها في الأيام الأخيرة تكتشف المجزرة، ترقد ماريا، أم الصغير لويس، وهي مطعونة فوق بركة من الدماء. تتسرب الحياة من جسد زوجها المستند إلى جدار الفناء في دمائه المنبثقة من الشق المفتوح في حنجرته، لأن كل محاولات كبس الجرح تذهب هباء.

أين كلارا؟

تبحث لوثيا عن إي إشارة قد تخبرها أين تختبئ أختها. تعثر على الصرة التي تضم ممتلكاتها القليلة وهي مفكوكة فوق الأرض، سلك المواعين على بعد عدة خطوات، وواحدة من أدوات المائدة إلى جوار صف لحاء الأشجار الذي تغطيه قطعة من القماش، أما العلبة التي تضع فيها مدخراتها، الريالات المائتين، فلا أثر لها. لكن ما أهمية المال؟ تصرخ باسمها.

- كلارا!

لا يأتيها رد سوى قرقرة بدرو وهو ينزف، تقرفص لوثيا إلى جواره، يبدو جرح عنقه كفم مفتوح يقيء دمًا، ولا فائدة من محاولة كبسه بيديه. يحدق إليها، إلى أن تتيه عيناه وراء جفونه وتكتسيان بالبياض. بعدئذ بلحظة يتوقف عن التنفس.

يخبرها حدسها أن الرجل حاول أن يقول لها شيئًا ما. لم ينجح، لكنها أيضًا ليست في حاجة إلى سؤاله عن هوية المسؤول عن هذه المذبحة. إنه «الوحش». تعرفه جيدًا. إنه عملاق يرتدي ملابس سوداء ووجهه محروق. إنه الرجل نفسه الذي قتلته في إحدى غرف ماخور «اللبؤة»، لتحرم أختها كلارا من فرصة للنجاة من دون أن تعرف.

تسمح لوثيا لألمها بأن يفلت منها في صورة صرخة لم يسمعها أحد في هذه المدينة، لأنها تعرف ما فعلته، لقد قضت على حياة الشخص الوحيد القادر على إخبارها بمكان أختها.

الجزء الثاني



مدريد، 17 يوليو 1834

نهر الدماء، وسلك المواعين، والصمت. لم تعد يدا بدرو تتشبثان بعنقه المفتوح بعد أن وهنت ذراعاه. لا مكان للحياة سوى في مسار الدم الذي يلطخ صدره ويرسم مجرى أحمر فوق أرضية مصنع الثقاب غير المستوية. يبدو الأمر كأنها محاولة بائسة كي يتلاقى مع دم زوجته ماريا ويتمازج معه. تتحجب الشمس وراء سماء رصاصية. «لديَّ شيء يهمك». هذا هو ما قاله لها العملاق. ينقبض صدرها. ثمة رغبة لديها، أن تموت مثل بدرو وماريا ولويسين وأمها، أن تتوقف عن الإحساس لأنها تدرك أنها لن تتحمل العثور على جثة أختها مقتولة بحد السيف، كحال الزوجين، لن تتحمل رؤية دمائها.

يتردد صدى طلقات من بعيد.

لا تسعفها قواها للنهوض، إنها عاجزة عن التفكير بوضوح بعد أن استوطن الخوف دواخلها. كل ما أراده هذا الرجل هو الخاتم الذي سرقته من بيت الكاهن منذ فترة لم تتخطَ أربعة أسابيع.

تتنامى ضوضاء مكتومة، تبدو كأنها صرخات. إنها جلبة لا تزال لوثيا عاجزة عن تحديد مصدرها وكسر فقاعة الألم التي تحيطها.

هل بقاء كلارا على قيد الحياة أمر ممكن؟ تُكرر هذه العبارة أكثر من مرة: «ينبغي أن تكون حية». إنها ورقة المبادلة للحصول على الخاتم. لكن أين أخذها العملاق؟

يعبر سرب من الطيور السماء، فتستفيق من رفرفته ذات الصوت المعدني.

لو أن كلارا قد ماتت، لشعرت بالأمر. هذا هو ما تفكر فيه، ستشعر بانقباض ما داخلها، لكن هذا ليس شعورها، فالحرارة التي تتصاعد من داخل معدتها هي الجزع. تجتاز فناء مصنع الثقاب، وفجأة إذا بكل الأصوات التي بدت كأنها تنبثق من داخل حلم ترعد على أرض الواقع، صرخات وضربات وطلقات جديدة. من المحتمَل أن تكون ثمة ثورة جديدة عند بوابات مدريد يطالب فيها الفقراء بأن يُسمح لهم بدخول العاصمة، بأي شيء قد يقتل جوعهم.

لماذا لم ترحلا عن مدريد والفرصة لا تزال سانحة؟ خسرت الآن كل المال الذي جمعته لهذه الرحلة، وخسرت أختها. لا تمثل المدينة الحرية في عينَي لوثيا وإنما تراها قفصًا علقت داخله هي وكلارا. لا تعرف أن كل من هاجروا بحثًا عن مستقبل أفضل في أي قرية في كوينكا أو سيجوبيا أو طليطلة قد تعرضوا للطرد. لا يريد أحد أن تخرج الكوليرا من مدريد لتصيب حياته بعدواها. في تلك الأثناء يظل البائسون عالقين في أرض لا تخص أحدًا، كالغرقى.

ربما يأتي يوم سينجح فيه من يعيشون على الجانب الآخر من «الجدار» في هدمه. ستنتهي الأنفاق الموحلة والمجارير التي اضطرت أكثر من مرة إلى الزحف داخلها. سيقتحمون مدريد ليحصلوا لأنفسهم على نصيب من ولائمها، أو أنهم ببساطة سيحيلون هذه المدينة التي تقتلهم إلى مجرد رماد.

توشك الفوضى على التفجر. أم أن الأمر مجرد إسقاط لما تشعر به لوثيا؟ تأتي الأفكار وتذهب كما الصواعق، لقد ارتكبت جريمة قتل. يرقد جسد العملاق في ماخور «اللبؤة». ستبحث الشرطة عنها، عن الساقطة ذات الشعر الأحمر. أين كلارا؟ ماذا لو أنها قد تمكنت من الهرب من العملاق؟ تعرف أنها مسألة سخيفة، وأن كلارا تجمدت على الأرجح من الفزع، فيما يقتل هذا

الرجل بدرو وماريا. تعرفها. لا بد أنها عالقة في مكان ما في هذه المتاهة التي تسمى مدريد. إنها حية وتنتظر منها أن تنقذها. تصر على قول هذه العبارة لنفسها. هل هذه هي الحقيقة أم مجرد رغبة؟ على أي حال عليها أن تبدأ بحثها. لن تتوقف إلى أن تعانقها. لكن ما الذي تعرفه عن هذا الرجل الذي اقتحم غرفتها؟ الوجه المحروق الذي يشبه العظاءة وطوله الذي يتخطى سبعة أقدام. «الوحش». كان «الوحش». لا يمكن أن يكون مجرد شبح داخل مدريد. لا بد أن أحدًا ما يعرفه. لكن من هو؟

تُخرِج من الصُّرة فستانًا قذرًا وحذاءً نعله مهترئ؛ يُمكن للمرء أن يرى عبره أصلًا. ترتديه بحزن. تترك خلفها مصنع الثقاب وتتيه في الأزقة التي تحيطه. ماذا لو قادها هذا الطريق الذي بدأته إلى العثور على جثة كلارا؟ كل خطوة تقطعها هي درجة تصعدها نحو الخطر. هل أبلغت «اللبؤة» الشرطة؟ إن كان الوقت قد تأخر على أختها، إن كانت قد قادتها بنفسها إلى هذه النهاية، فما أهمية أن ينتهي بها المطاف في السجن أو بإعدامها في ساحة «الشعير»، كما حكى لها إيلوي أنهم يفعلون؟

تنتصب فكرة واحدة بثبات وسط العاصفة التي تضربها، الذنب. إنها من سرقت الخاتم وسلمته إلى أختها. لو أنها ماتت، فهي من قتلتها. الأمر كأنها قد أحاطت رقبة كلارا بيديها واستمرت في خنقها إلى أن توقفت عن التنفس.

تقودها خطواتها نحو منطقة «القلعة». ينتصب إلى جوارها متجر «السيدة ماريكيتا» لمنتجات الشوكولاتة. يُحلق عدد من النشالين الصغار الذين يعتمرون قبعات تغطي أعينهم حول سيدة تخرج من المتجر. يرجونها أن تدعوهم لتناول الشوكولاتة مع بسكويت «الموخيكون»، لكن لوثيا تعرف أنهم يلهونها كي يتمكن أحدهم بسرعة من وضع يده في حقيبتها لإفراغها. يسود التوتر الشوارع. يبدو الأمر كحال الحيوانات التي تبحث عن ملاذ حين تحدس قرب وقوع العاصفة. في الأعلى تكتسي السماء بصبغة رصاصية. تتساءل لوثيا: «أين الطائر الأحمر؟». أين أمها؟ لماذا لم تأتِ لتساعدها؟ لكن كانديدا لم تكن أصلًا لتعرف أين قد تبدأ عملية البحث عن كلارا، لأنها لطالما عاشت وهي تجهل المدينة.

تجد نفسها فجأة تفكر في إيلوي. إنه الشخص الوحيد الذي يُمكنها أن تثق به. يعرف عالم المدينة السفلي وربما يعرف أيضًا كيف يمشط الأماكن التي قد تُحتجَز فيها طفلة مخطوفة. ربما سمع شيئًا عن مخبأ العملاق. تعرف

أيضًا أنه لن يشي بها. هذا الصبي ذو العينين الزرقاوين الذي قال لها ذات يوم بخجل إنها تذكِّره بطائر طنان أحمر.

تُسارع خطاها وتترك خلفها متجر الشوكولاتة و«مقهى الأمير»، بعيدًا عن هذه السيدة التي تُبعد الصغار من حولها قبل أن تصعد إلى عربة يجرها حصان. يبدو هذان المكانان خاويين تقريبًا. ينطبق الأمر نفسه على «حانة بومبو»، عند مستهل شارع «كاريتاس». تقتنع بأن شيئًا غريبًا يحدث حين ترى مدرجات دير «القديس فيليبي الملكي»، ملتقى أهالي مدريد الذي يعرفون فيه آخر الأنباء ويتباهون بنجاحاتهم ويبرمون صفقاتهم، وهي خاوية.

تتحرك بتعرج كما الأفعى وتُخفي وجهها كلما رأت حارسًا إلى أن تصل إلى ساحة «الحطب». لا تجد إيلوي، وإنما بعض النشالين الصغار الذين يعتادون مرافقته.

- ذهب إلى «ساحة الملك». لا أعرف ما العمل الذي لديه هناك.

يبتعد صوت النشال الصغير وهو يتحدث معها. يجذبه زميله من ذراعه بإلحاح. هل يهربان من لوثيا؟ لا. ليس منها، إذ تدخل مجموعة من عشرين رجلًا وامرأة إلى الساحة بأسمالهم المتسخة كأنهم قد انبثقوا من مجرور. يقف أمام هذا الموكب رجل ملتحٍ يرتدي صدرية كتلك التي يستخدمها الفلاحون أو بائعو حلوى «أروبيا» المتجولون من بيت إلى بيت. يهتف:

- لا تهتموا بالمحاذير! يريدون أن يحبسونا فحسب. يقولون الآن إنه لا يُمكن أن يجتمع أكثر من عشرة أشخاص! ألن نصاب لو كنا تسعة؟ نعرف كلنا من أين يأتي الطاعون. من الماء! ومن الذي يسمِّمه؟

لا تُعير لوثيا انتباهها لمذيع يوم الهلاك هذا وتعود أدراجها وصولًا إلى «ساحة الملك». تجد المشهد نفسه يتكرر، إذ إن جماعات كثيرة تطوف الشوارع ولا يقودها سوى غضبها ورغبتها في عصيان المرسوم الذي يمنع تجمع أكثر من عشرة أشخاص وخلت بسببه المقاهي وحلقات الثرثرة.

- لسنا نحن معشر الفقراء من نجلب المرض، بل الرهبان الذين يسمِّمون المياه كي ينتصر الكارليُّون في الحرب.

تعثرت لوثيا بامرأة عجوز تقول هذه العبارة لفتى. تستقر عينا العجوز فوق شعر لوثيا الأحمر، فيتملكها الخوف للحظة من أنها قد تتهمها بقتل

العملاق. مع ذلك تمضي العجوز في طريقها وتواصل خطبتها المسهبة مع الفتى الذي تمسكه من ذراعه.

- يدفعون للأطفال كي يفعلوا الأمر. رأيتهم عند نوافير كثيرة.

من أين يأتي صوت الطلقات البعيدة المتقطعة؟ هل ثمة احتمال أن تكون حركة ذهاب وإياب هؤلاء المواطنين المستائين من المرض والذنب قد تفجرت في أحد أركان المدينة؟

- لا أحد يراقب الأطفال، والرهبان ليسوا حمقى. يعرفون أن بإمكانهم أن يأمروهم بفعل أي شيء مقابل أربعة ريالات. إنهم يقفون دائمًا حول النوافير.
- يقولون إننا أعطينا ظهرنا للرب وإنها عقوبة ربانية.
- يحملون أكياسًا ملأى بمساحيق. يعطونها لهم في الأديرة.
- إنه انتقام من الكهنة. هذا هو الأمر فعلًا، لأنه ما من أحد يريد أن ينصت إلى هرائهم.
- إنهم يسمّموننا.

تتمازج أصوات الرجال والنساء والعجائز والشباب الذين يمضون عبر المدينة وتتسلل لوثيا بينهم. لا يهمها كثيرًا ما يحدث في مدريد. ينطبق الأمر نفسه على الكوليرا. تود فقط أن تجد إيلوي كي يساعدها في العثور على أختها.



- كُسرت مزهرية فوق رأسه وطُعن بعدئذٍ في قفاه بسن دبوس.

يجلس دونوسو فوق الفراش وسط الملاءات غير المرتبة. يوجه ركلة خفيفة إلى الجثة التي ترقد عند قدميه، بعد أن ينفث دخان سيجارته، ثم ينفض رمادها فوق سجادة الغرفة.

- لم تسمح له الساقطة أصلًا أن يخلع ملابسه.

يجلس دييجو القرفصاء ويتمكن بعد جهد كبير من قلب الجثة التي تبدو له كأنها تزن طنًا. ينظر وجهها الذي يقطعه حرق أحمر نحو سقف الغرفة.

- أين العاهرة التي قتلته؟

- تتناول الشاي مع «اللبؤة» في الصالون. ما الذي تفكر فيه يا دييجو؟ لقد قتلته وانطلقت فارة. لم تكن لتنتظرنا. تقول «اللبؤة» إنها فتاة جديدة. لا تتذكر اسمها أصلًا ولن نجعلها تتذكره. أعرفها جيدًا.

- القتيل ضخم الجثة.

يتحداه ساخرًا:

- يا لقوة ملاحظتك! ألم تفكر في الانضمام إلى الشرطة؟ أنت لا تتحدث هنا عن الأمور المهمة. انظر إلى وجهه يا دييجو بحق الربّ وبعدئذٍ اشكرني على اصطياد سفاحك!

- هل تعتقد أنه «الوحش»؟

- قال شهود كثيرون لك إن جلده يشبه العظاءة وإنه ضخم الجثة. اقرأ مقالاتك باهتمام، حتى لو لم يبدُ الأمر كذلك. لو أن «الوحش» فعلًا رجل، فقد يكون هذا العملاق ذا الوجه الأحمر. أليس هذا ما تبحث عنه؟ ها هو ذا أمامك، وإن كنت أظن أنه لا يرغب في الإدلاء بأي تصريحات. لن تأخذ منه أي شيء لجريدتك الصغيرة.

يفتش دييجو جيوب القتيل. يبحث عن أي تعريف أو شيء يسمح له بإعادة بناء حياة هذا الرجل الذي قد يكون مسؤولًا عن كل هذه الجرائم، لكن كل ما يجده هي قارورة صغيرة.

- انظر إلى هذا.

- إنه مطابق لما رأيناه في بيت عالم اللاهوت، هل هو دم؟

- قارورة إجناثيو في البيت. سأطلب من الدكتور آلبان، من المستشفى العام، أن يحللهما، وسنرى إن كان سيبيِّن لنا شكوكنا.

- لا يمكنك أخذها. لا يُمكن لمس الجثة.

- لا تقُل حماقات يا دونوسو، هل ستحقق الشرطة في الأمر أصلًا؟ هل أخذت أنت شيئًا من الجثة؟ مالًا أو شارة أو أي شيء؟

- من تظنني؟ لست لصًّا! ما من أحد قد أخذ شيئًا من هذا الرجل، إلا الساقطة لو أنها سرقته. أنا أول من وصل.

- كيف اكتشفت الأمر؟ من طلب مجيئك؟

- كنت مع واحدة من الفتيات في الغرفة المجاورة. سمعت ضربًا وركضًا، فخرجت لرؤية ما حدث. لم يدخل أحد آخر ولم يلمسه أحد. هل تريد أن تتحدث مع «اللبؤة»؟

يخلع دييجو قميص الجثة، ربما يجد علامة تُساعد في الكشف عن هوية القتيل بينما يفعلها، يكتشف أن ظهره ملآن بالندبات. بعضها حديثة ولا تزال دامية، والبعض الآخر قد التأم.

- أراهن على أي شيء تريده أن هذا الرجل اعتاد أن يجلد نفسه. إن خلعت بنطاله بالطبع، فستجد على فخذه علامات للباس من الجنفاص[1]. مات «الوحش» يا دييجو. انتهى الأمر. يتبقى فقط أن تتحدث مع القوادة وستصبح بعدئذ مستعدًّا لتتويج مقالاتك بالذهب.
- قلت الشيء نفسه عن عالم اللاهوت إجناثيو جارثيا. قلت إنه «الوحش» وإن كل شيء سينتهي معه. يبدو أن ما تريده هو إغلاق الموضوع، لا تبيُّن الحقيقة.
- ربما كان الأمر هكذا مع عالم اللاهوت، لكن الأمور مختلفة الآن. تعرف أنني محق هذه المرة.

يُلقي دونوسو السيجارة. يُطفئها بسحقها فوق السجادة ويغادر الغرفة. يعجز دييجو عن التحرك. هل يقف حقًّا أمام «الوحش»؟ لو أن الأمر صحيح، فلماذا لا يشعر بأي نوع من الراحة؟ يعني موته نظريًّا توقُّف عمليات خطف الفتيات وحوادث القتل الفتاكة. تُخرجه بعض الضربات فوق إطار الباب من تقوقعه الذاتي.

- هيا! لن تنتظرنا «اللبؤة» إلى الأبد.

تستقبلهما «اللبؤة» خوسيفا في الصالون الأخضر الذي تدير منه أعمالها وتعتني فيه بزبائنها المعدودين. لم يدخل دونوسو إلى هذا المكان المقدس نوعًا ما قبلئذٍ قط، على الرغم من أنه زار المكان أكثر من مرة.

- لا أريد مشكلات. أريد أن تأخذا هذه الجثة من هنا وألا يمتلئ البيت بالحرس.
- لا يمكننا أن نفعل هذا.
- كل الأمور ممكنة. قولا لي كم سيكلفني الأمر.
- قبل أي شيء، نريد أن نعرف ما حدث.

تُخاطبه «اللبؤة»:

---

(1) الجنفاص هو نوع من الخيش الرديء اعتاد أن يرتديه بعض الكهنة كأحد أشكال التقشف والتوبة. (المترجم).

- دونوسو، أنت صديق لهذا البيت وتعرف أننا هنا نهرب من الفضائح. عليك أن تساعدني.
- سأفعل هذا الأمر فعلًا، لكن قبئذٍ علينا أن نتحدث قليلًا يا «لبؤة».

يظل دييجو صامتًا بينما يستجوب دونوسو القوادة الشهيرة. تهدد بالاتصال بواحد من أصدقائها النافذين الكثيرين القادرين على إنهاء مسيرته بجرَّة قلم. يفكر دونوسو ساخرًا: «مسيرتي!». لو أن هذه المرأة تعرف مدى تفاهة حياته، فلن تزعج نفسها بتوجيه هذه التهديدات. لكنها لا تعرف، ولهذا يضغط عليها قدر استطاعته، كطريقة لتذكر الشرطي الذي كانه ذات يوم، وللتظاهر ببعض الأهمية.

- ما الذي تحسبانه؟ أن هذا البيت لا يأتي إليه وزراء من المجلس؟
- نعرف أنهم يأتون يا «لبؤة»، واحترامنا لكِ ولبيتك كبير. لكننا أيضًا مجبَران على التحقق من هوية هذا الرجل ومَن قتله.
- من هو أمر لا أعرفه، وكذلك من قتله. ربما انتحر أصلًا.
- بضرب نفسه بمزهرية وغرز دبوس في قفاه؟!
- رأيت أمورًا أغرب من هذه.

يتحلى دونوسو في أثناء الاستجواب بصبر لا يُظهِره في الحياة العادية. ربما ليس شرطيًّا سيئًا كما يظن الجميع. هذا هو ما يفكر فيه دييجو، ربما من دون الشراب وحِداده على عينه الضائعة لأصبح شرطيًّا مهنيًّا جيدًا.

- كيف وصل هذا الرجل إلى هنا؟
- بحق الرب! هذا أحد أشهر بيوت مدريد. يأتي إليه الرجال حين يمتلكون المال ويدفعونه كي تذهب إحدى الفتيات معهم إلى الغرفة. هم زبائن وهن ساقطات، مومسات. يُفترَض أن هذا هو ما يحدث في أماكن مثل هذه الأماكن. اسمها مواخير. حسنًا، لا أعرف لِمَ أحكي لك كل هذا، فسعادتك زبون منتظم.

يتقبل الشرطي سخرية المرأة بثبات ويمضي عبر الطريق ذاته بأسئلته:

- يا «لبؤة»، من فضلك ساعدينا. من هي هذه الفتاة التي كانت معه؟
- واحدة جديدة. فزعت المسكينة وفرت.
- واسمها؟
- في بعض المرات ماديلايني وفي مرات أخرى أسونثيون. ما من أحد هنا يقدم اسمه الحقيقي، وإن كنتما ستسألانني أين تسكن، فأنا لا أعرف ولست مهتمة. ربما في أحد هذه الأحياء المتروكة بين يدي الرب بين النهر و«الجدار».

يتدخل دييجو في النهاية:

- هل سمعتِ عن «الوحش»؟
- هل هو موجود حقًا؟ لا تقولا لي إنكما مؤمنان بهذه الأشياء. اختفت منذ يومين ابنة إحدى النساء اللاتي يعملن في هذا البيت، وبدلًا من التفكير في أنها ذهبت مع رجل ما هنا، وهو ما رأت هذه الطفلة أمها تفعله منذ ولادتها، يظن الجميع أن «الوحش» قد أخذها. أتعرفان ما أفكر فيه؟ الوحش ليس موجودًا. كلها محض ترهات.
- سأقول إنكِ محقة في شيء، الحكايات التي تُقال عن أن «الوحش» حيوان ترهات. «الوحش» إنسان، وربما هو القتيل الموجود في الغرفة.
- إذن ممتاز. لن يؤذي أي فتيات أخريات. هيا بنا إلى الأمور المهمة، خذا الجثة. اتركاها في أي أرض عراء وسأدفع لكما مائة ريال.

لا يفكر دييجو في القبول، لكن صوت دونوسو يتردد إلى جواره:

- مائتا ريال.

تقبل القوادة على الفوار:

- جيد جدًا، ولا أريد أن أسمع حديثًا آخر عن هذا الرجل أو «الوحش» أو أي شيء آخر. أود أن أستمر في عملي بسلام.
- انسَي! هذا القتيل لن يخرج من هنا إلا مع السلطات.

يُمسكه دونوسو من ذراعه ويجذبه باستياء خارج الصالون الأخضر، يتناقش معه. يحتاج الاثنان إلى المال. قد يأخذ كل منهما مائة ريال.

- مدريد ملأى بالجثث. ما أهمية وجود جثة أخرى؟
- وأنت من يجب عليه أن يفرِض احترام القانون؟
- وأنت من عليه إيجار عدة أسابيع متأخرة؟ اتركني أدخل لتدفع لي ونرتب أمور الجثة كي تظهر خارج البيت.
- لا أريد هذا المال.
- لكن صاحبة بيتك تريده. لو أردت فسأقترب أنا من شارع «الأثرياء» وأسدد دينك.

يتجاهله دييجو. لا يعرف ما الذي سيفعله دونوسو ولا يرغب في معرفته. مع ذلك يعي أن السلطات لن تحقق في موت هذا العملاق كما يجب. لن يصنع المكان الذي سيعثرون عليه فيه فارقًا، إلا إن اتضح أنه يحمل لقبًا نبيلًا. يعي أيضًا أنه سيكون ممتنًا لو تخلص من مشكلة الإيجار.

- سأرحل. افعل ما يحلو لك. سآخذ قارورة الدم. أنا ذاهب إلى المستشفى لمقابلة الدكتور آلبان.

يعثر دييجو قبل خروجه على دلفينا، أم الطفلة المختفية، وهي عند مدخل بيت شارع «القرنفل». تجلس على مقعد من القش ومعها دمية قماشية في حجرها. يبدو وجهها الملآن بالنمش شاحبًا وعيناها كأنهما تهيمان وهما مسرنمتان داخل كابوس أكثر من كونهما تبحثان عن ابنتها بين الناس.

- لا تتأخر أبدًا في العودة، فما بالنا بيومين اثنين؟ ربما ذهبت حبيبتي خوانا لجلب الحليب وتوقفت لشرب الماء، قالت لي طفلة إنها رأتها مع رجل يتشح بالسواد وإنها ذهبت معه. أعرف أن ثمة جلبة حول النوافير وأن أشخاصًا يتهمون الرهبان بتسميمها، فيما يُلقي آخرون بالذنب على الفتية الذين يعيشون في الشوارع. كيف سأجد خوانا حبيبتي؟ سمعت أن القتيل الموجود في الداخل قد يكون «الوحش»، لكنني لا

أعرف أين هي الفتاة التي قالت لي إنها رأت خوانا حبيبتي. قد تؤكد أنه الشخص نفسه.

لا يعرف دييجو كيف قد يواسي هذه المرأة، هل عليه أن يعود حين يعثرون على جثة ابنتها وهي مقطوعة الأوصال؟ لقد تحولت مدريد، المدينة التي لا تسأل أحدًا من أين قد جاء، إلى جنون صرف.



لا تحتاج لوثيا إلى الوصول إلى «ساحة الملك» لأنها تجد نفسها أمام إيلوي في منطقة «القلعة». لا يتوقف الجرح الذي انفتح في حاجبه عن النزف ويلطخ جلده بحُمرة صارخة.

- ما الذي حدث لك؟
- إنه حجر ألقاه عليَّ سقَّاء حين اقتربت من نافورة. يظنون أننا نسمِّم الماء.
- سمعتهم. تعال. سأنظف دماءك.
- لماذا لستِ في بيت «اللبؤة» يا طائر الطنان؟ ستكونين آمنة هناك أكثر من وأنتِ في الشوارع.

يبتعدان عن نهر البشر الذي يزداد حجمه بمرور الوقت وينتهي عند «بوابة الشمس». يحتبيان الأرض في أحد الأزقة. تُبلل لوثيا بلعابها طرف فستانها وتفرك جلد إيلوي إلى أن ينمحي أثر الدم، وهو ما فعلته أمها كلما انجرحت هي أو كلارا. تحكي له كل شيء، مقتل العملاق، وفرارها من الماخور، واختفاء أختها، وجثتا بدرو وماريا المتروكتان في مصنع الثقاب.

- لا أعرف ما ينبغي لي فعله. لا أعرف أين أبحث عنها. إنه الرجل ذاته الذي لاحقنا. لا بد أن أحدًا ما قد رآه. إنه ضخم جدًا على أن يختبئ.

يشك صديقها:

- هل تظنين أنه «الوحش» الذي يتحدثون عنه؟ قالوا إن حيوانًا هو ما يخطف الفتيات من الضواحي. لكن الأمر ليس كذلك على الأرجح. ربما يرتبط الأمر به.

تجلس لوثيا على الأرض بعد أن خارت قواها فجأة.

يُضيف:

- أو ربما لا يرتبط الأمر بهذه المسألة.

يُلاحظ النشال الصغير اضطراب لوثيا. لا يرغب في أن يُفزِعها أكثر من هذا. حين يُمسكها من يدها، يلاحظ أنها ترتعش.

- قال لكِ هذا الرجل إن لديه شيئًا يهمك. من الواضح أنه قصد أختك. ربما فكر في قتلها، لكنه لم يكن ليقتلها، إلا بعد حصوله على الخاتم.
- إلى أين أخذها؟ لقد قتلتُه! ربما كلارا مصابة. يعرف الرب وحده في أي بيت حقير هي. ألا يمكنني فعل أي شيء؟
- يمكنك أن تبحثي عنها. سأساعدك. سندخل كل الجحور، بما فيها أصغرها إلى أن نعثر عليها.

يساعد إيلوي لوثيا على النهوض. يغدو وعده وحماسه منبعًا للأمل. يعرف أن العثور على كلارا ليس سهلًا وأنهما ربما يعثران عليها بعد تأخر الوقت، هذا إن لم توقِف الشرطة صديقته قبل كل هذا، لكنه يود أن يخوض هذه الرحلة إلى جوارها. يود أن يكون إلى جوارها حين يصل النبأ السيئ. لم يشعر قبلئذٍ بشيء مثل هذا. لم يهتم منذ بدأت ذاكرته تتشكل سوى بالإفلات بجلده وبتوفير مكان يمكنه أن ينام فيه عند نهاية يومه. لقد أشعلت هذه الفتاة ذات الشعر الأحمر شيئًا جديدًا داخله.

تسود منطقة «بوابة الشمس» حالة من الغليان. تتشابك حلقات الثرثارين في نقاشات يرفعون فيها اتهاماتهم ضد الكهنة. بينما يجتازها وهو يسحب لوثيا من يدها، يحدق فجأة إلى رجل يتحدث مع بعض الأشخاص مستندًا إلى حائط، وتحت قدميه دلاء ماء.

- إنه من ألقى عليَّ الحجر. ابن العاهرة!

تكتسي نظرة اللص الصغير بلمعة الغضب، وهي اللمعة التي تعرف لوثيا أنها لا تروقها.

- ما الذي ستفعله؟

يُفلت إيلوي يد لوثيا ويقترب من السقاء بُخطى سريعة. تنطلق خلفه وتحاول إيقافه، لكن الفتى مصر على الثأر. لا يمكن أن يسمح المرء في الشارع لأحد بأن يدهسه.

- دعينا نلتقي بعد عشرين دقيقة في ساحة «إل ثيلينكي».

يذوب إيلوي بين الناس. يأخذ حفنة من تراب الأرض غير المبلَّطة كأغلب المدينة ويقترب من الرجال.

يقول للسقَّاء بصفاقة وهو يلقي التراب داخل الدلاء:

- ألم تقل إنني قد سمَّمت الماء؟ انظر! هأنذا أسمِّمه!

يعرف إيلوي، المتمرس جدًّا في ثقافة الشارع، ما يعنيه إفساد مجهود السقَّائين. ما يجب عليه فعله الآن هو الركض وإنقاذ نفسه في أقرب وقت ممكن.

- لاحقوه! انطلقوا خلفه!

ترى لوثيا كيف تبدأ المطاردة. تعرف أنه لا يُمكن لشخص مقارعة صديقها في نزال مثل هذا، لكنها تلاحظ أيضًا بقلق كيف يعترض الرجل الملتحي طريق اللص الصغير. إنه الرجل ذاته الذي رأته يتزعم إحدى الجماعات ويصرخ: «الطاعون في الماء». يعجز إيلوي عن النهوض بالسرعة الكافية، فينقض السقَّاؤون عليه ويضربونه. يبدون كمجموعة من آكلات الجيف تنقض على فريسة وتتنازع فيما بينها لاقتلاع قطعة إضافية من اللحم.

تتمكن بمشقة من رؤية ما يحدث وسط كل هذا الهرج والمرج. ترى الملتحي وهو يصرخ لمطالبة بقية الحشد بالابتعاد عن الزمرة التي تركل إيلوي. يمسك السقاؤون الفتى من ذراعيه وساقيه كأنهم يؤدون رقصة تدربوا عليها. يصرخ إيلوي وهو يطالبهم بأن يتركوه، لكن ما من أحد يُنصت إليه. تشق لوثيا طريقها بين دفعات هنا وهناك لمحاولة تخليصه في الوقت الذي يُشهِر فيه الملتحي ببطء مفزِع مِدية بين يديه، كأن لحظة تقديم الأضحية

قد حانت. تبدو عيناه كإبرتين لامعتين. تُشجع عدة أصوات وضحكات الرجل على إنهاء ما بدأه. يدفع فتى ذو ملابس قذرة لوثيا في أثناء محاولتها الوصول إلى إيلوي، فتسقط. ترى ووجهها ملتصق بالأرض الرعب في عينَي الفتى الزرقاوين. لا يُمكن لأحد أن يفعل شيئًا لإيقاف ما هو قادم. ما من أحد قادر على منعه.

- لم يفعل شيئًا! اتركوه لحاله!

ترسم مِدية الرجل الملتحي قوسًا في بطن إيلوي، بل تشقه بدقة، فيفور بطنه وفمه بدماء لزجة. يرتفع النصل بعدئذٍ وسط الهواء بحُمرة لامعة، فتتلطخ بها وجوه هذه الذئاب السعيدة التي لا تتوقف عن الإمساك بالفتى. بعدئذٍ يغرز الملتحي النصل مرة، ثم مرتين، فثلاث فأربع، في جسده إلى أن يغدو وجه إيلوي مجرد لطخة من الدماء والألم، قبل أن تنطفئ عيناه الزرقاوان إلى الأبد.

تنهض لوثيا في الوقت نفسه الذي يفلِت فيه السقاؤون الجثة وتسارع لتحتويها في حضنها. يهتف الرجال ويطلقون تهديداتهم وقبضاتهم مرفوعة نحو السماء، وهم بعيدون كل البعد عن الندم. يتسلحون بالعِصي وبكل ما قد تمسك بيه أياديهم في الساحة، لكنها تعجز عن سماعهم. يدوي صوت قلبها داخل رأسها، وتزداد قوته كأنه سينفجر.

يفقد الحشد صوابه ويركض من دون وجهة محددة، فيوشك بعضهم على دهسهما. كانت لوثيا لا تزال جامدة في مكانها عند منتصف «بوابة الشمس» حين أدركت أنها لا تبكي. ربما جفت دموعها إلى الأبد. ربما لم تعد قادرة على الإحساس. هذا هو ما تحوّلها إليه مدريد، إلى امرأة متحجرة القلب.

تنظر فيما حولها. يبدو الحشد كأنه قد عثر على تفسير للجحيم الذي يعيشه، يستخدم الرهبان الأطفال لتسميم المياه ولإجبارهم على العودة إلى الكنيسة كي تهلك المدينة ويغدو إيقاف تقدم الكارليِّين مستحيلًا. إنهم حمقى. يتحدثون عن شجاعة الفقراء وكرامة الطبقات الدنيا، لكن ما المتبقي من كل هذه الأمور الآن؟ الغضب الأعمى فحسب. الحماقة، القسوة، القسوة نفسها التي أنهت حياة إيلوي، وتركته ملقى على أرضية «بوابة الشمس» كحيوان مذبوح. لن يُعلِّمها أسرار المدينة ولن يدعوها أحد مجددًا بـ «طائر الطنان».

- كان من أتباع الرهبان! لقد رأيته مع كهنة «كنيسة القديس فرانسيس العظيم».

يهتف الملتحي بهذه العبارة أمام الناس، فتلاحظ لوثيا سريعًا وهي جاثية على ركبتيها أن كل النظرات تنصب فوقها. تبدو كأنها تقول إن هذا اللص الصغير لا يستحق التعاطف، وإنها هي الأخرى متواطئة معه لبقائها مع جثته ومطالبتها بأن يساعدها أحد في نقلها إلى المقبرة، لأنها تنحني فوق شفتيه المتيبستين وتطبع فوقهما قبلة وداع. يقدر الحشد الهائج على ارتكاب أي شيء. تتكهن بأنها تخاطر بنفسها بتوديعه بهذه الصورة. حين تترك إيلوي، تُغريها للحظة فكرة مواجهة قاتله لإغضابه والتعرض للضرب، العقوبة التي تعتبر أنها تستحقها. «وكلارا؟ من سيساعدها لو متّ هنا؟» يكبح هذا السؤال هوجتها الانتحارية.

يعبر قسٌ الساحة ركضًا نحو شارع «المرملة» ويمثل هذا الحدث خلاصها لأن كل النظرات تنصب هذه المرة فوقه.

- الكهنة من يسمّموننا ومن يجلبون الكوليرا ومن يقتلون أبناءنا وآباءنا.

يعرف الملتحي أن كلماته مثل القذيفة. يسرِّع القس خطاه أكثر، لكن يُحاصره عدة رجال في ظرف ثوانٍ. ما من أحد يحترم الزنار البنفسجي الذي يحيط رداءه الكنسي. يدفعونه ويبصقون عليه ويفتشون جيوبه وهم مقتنعون بأنهم سيجدون فيها المساحيق السامة التي تلوث النوافير. لا يحتاجون إلى أدلة لتأكيد الجريمة. صحيح أنه لا وجود لسم أو مساحيق، لكن خاتمًا ذهبيًا يسقط منه. تمسكه امرأة سمينة وترفعه نحو السماء:

- يتظاهرون بالفقر، لكنهم يكتسون على أرض الواقع بالذهب. يريدون أن يقتلونا ليستمروا في مراكمته.

تعجز لوثيا عن تصديق ما تراه. تسير كأن مغناطيسًا يجذبها نحو الشجار وتتسلل بين هذا وذاك إلى أن تغدو على بعد شبر من هذا الخاتم الذي تُظهِره المرأة للجميع. إنه خاتم ذهبي عليه مطرقتان متقاطعتان. هل هو الخاتم نفسه الذي سرقته من بيت الكاهن؟ كيف وصل إلى يدَي هذا الكاهن الذي تكور على الأرض ويتلقى ضربًا مبرحًا؟ أم أن الأمر وما فيه أن المدينة بها خواتم متطابقة؟

- لقد سرقته من الشعب!

تُوجه المرأة اتهامها قبل أن تبتسم بصورة غريبة ومعها الغنيمة التي تحاول أن ترتديها في إحدى أصابعها السمينة جدًّا إلى درجة أنها لا تقدر.

تُخرِج سكينًا بنيَّات لا لبس فيها كأن الأمر أغضبها. يُبدي الكاهن رد فعله، فيوجه لها ركلة ينثني معها جسدها، ثم يُفسح طريقه بالدفع والضرب بكوعيه بعد استعادة الخاتم. يفعلها بعناد لم ينتظره أحد بناء على سلوكه الجبان والخاضع قبلئذٍ.

تهتف المرأة وهي تلملم شتاتها:

- لا تدعوه يهرب!

يلاحق الحشد الذي يتزعمه الملتحي الكاهن وهو ينطلق نحو شارع «القصر الجديد». لم يتوقعوا أن يركض بهذه السرعة بسبب ملابسه. يبدو في بعض اللحظات كأنهم سيمسكونه، لكنه يتفاداهم بمراوغات رشيقة، كأنه قد تدرب على الفرار عددًا لا نهائيًّا من المرات.

تمضي لوثيا خلف الحشد عبر خيط خفي يربطها به وبالخاتم. تنتصب عند نقطة التقاء الطريق مع شارع «القديس فرانسيس» دار العبادة المهيبة بقبتها التي يبلغ قطرها ثلاثة وثلاثين مترًا وارتفاعها الذي يبعد مسافة ستين مترًا عن الأرض. إنها ثالث أكبر قباب الكنائس المسيحية، والأكبر خارج إيطاليا. يلجأ الحِبر إلى هناك، فيتجمع ملاحقوه أمامها. رأت الفتاة كيف يتضاعف عددهم، إذ إن أكثر من مائة رجل وامرأة يضربون الآن باب الكنيسة بعنف بعد أن أغلقها الرهبان بمجرد أن عبره الكاهن. تسلح أغلبهم بعِصي وسكاكين ومطارق وأحجار، بل وحدائد إحماء المدافئ.

يتسلل الرجل الملتحي إلى أن يصل عند واجهة «كنيسة القديس فرانسيس العظيم». يكرر قدحه في حق رجال الدين. ينصت إليه الكل وسط صمت مفاجئ. إنهم مستثارون ومتعطشون للدماء.

- هل سنتركه يفلت بفعلته؟ هل سنمضي قرونًا أخرى ونحن نطأطئ رؤوسنا؟ الموت للكهنة!

ينتشر الشعار عبر المدينة كالنار في الهشيم. لم تمر فترة طويلة وإذا بحشد آخر يتشكل أمام «المدرسة الإمبراطورية». يتوجه آخرون نحو «دير القديس يوسف النجار لرهبان فداء الأسرى»، فيما يمضي عشرات غيرهم نحو «دير القديس توما».

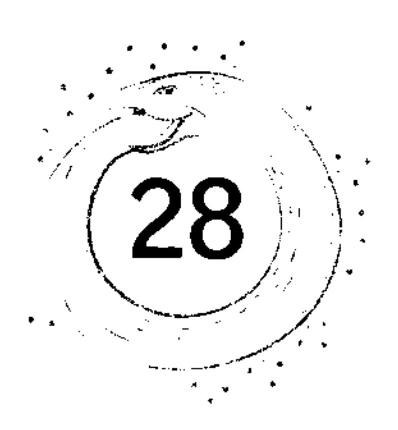
يحاولون إسقاط بوابة «القديس فرانسيس العظيم» لاقتحام الكنيسة. يبحث أحدهم عن لوح خشب سميك لاستخدامه كمدك، فيما يقسم آخر إنه سيعود بعد بضع دقائق ومعه مقص معادن كبير. تنكشف مدى ضخامة رغبتهم في إسقاط القضبان والأقفال حين يبدو عليهم جميعًا الإحباط بعد انفتاح الباب سلميًا وظهور راهب بسيط وراءه.

- هذا بيت الرب. ارحلوا.

لا يتوقف أحد للتفاوض معه. يدهسه الحشد الذي تتمازج لوثيا معه لتقتحم الكنيسة. يخرج راهب مسن لاحتواء الجمع، فإذا بمطرقة تنزل فوق جبهته فتطقطق لدى انكسارها. تطرحه الضربة أرضًا بلا عودة. يدعوهم أمين مكتبةٍ ظهره محدب إلى التحلي بالعقلانية لكن دستة من الرجال تنقض عليه فيخنقونه ويركلونه، إلى أن يكتشف أحدهم أنه مسلح بقطعة من النحاس الأصفر الصدئ فيغرزها في حنجرته. يمد راهب يقف عند المذبح الصليب نحو المنتفضين، كأنه سيفزعهم بهذه الصورة أو سيطرد الشيطان من أجسادهم. يرجمونه بالحجارة إلى أن يسقط، ويدهس عدد منهم جسده، فيما يكسر فتى مسه الجنون كعب حذائه على وجهه إلى أن يغدو مشوَّهًا. بعدئذٍ يواصل الجمع طريقه نحو صحن الكنيسة، ثم المُصليات، فالجناحين الجانبيين، ومن بعدهما الرواق، وصولًا إلى الطابق العلوي. يُسقِطون الصور ويحطِّمون المقاعد الخشبية إلى شظايا فيصنعون منها محارق. تتشابك الضحكات والهتافات وصرخات الألم مع قرقرة الرهبان المختنقين وسط دمائهم. تتعثر لوثيا في هذا وذاك. تتحمل الدفعات وتبحث وسط هذا الجحيم عن الراهب الذي هرب بالخاتم.

- لا تتركوا شيئًا للذكرى من هذا المعبد!

لقد تحول الملتحي إلى زعيم زمرة الفقراء التي تجتاح «كنيسة القديس فرانسيس العظيم».



- لنذهب إلى الحديقة. أنا في حاجة إلى أخذ استراحة.

لا يزال الوضع في المستشفى العام أسوأ من المرة الأولى التي حضر فيها دييجو رويث إليه عقب موت بيرتا. يبدو الدكتور آلبان كأنه قد كبر خمس سنوات مرة واحدة في ظرف بضعة أسابيع. لم تعد الحديقة التي أتى على ذكرها تُشبه في شيء المكان الوديع والهادئ الذي كانت عليه منذ بضعة أشهر. لم يعد أحد يعتني بنباتاتها التي بدأت تجف بسبب حرارة يوليو في مدريد، بل إن بعضًا من أجزائها تحول إلى مزابل تتراكم فيها خرقات من ملاءات غُسلت مرات كثيرة إلى أن باتت غير صالحة للاستخدام، وفضلات طبية من مواد تُستخدَم مع المرضى، وقوارير مطهِّرات فارغة، بل وبعض ملابس الموتى.

- لا تلمس شيئًا. صدِّق أو لا تصدِّق، ما زلنا لا نعرف كيف تنتقل الكوليرا.

- يقولون في الشارع إنها تنتقل عبر الماء.

- من المحتمَل أن يكونوا محقين، فهذا هو ما يقوله العلماء الذين يدرسون المرض. قطعوا بعض الخطوات في باريس ولندن وفيينا للقضاء عليها.

- وإسبانيا؟
- في إسبانيا نفضِّل أن نقول إنها عقوبة من الرب أو استراتيجية من الكارليِّين للفوز بالحرب. سافر بعض الأطباء الإسبان إلى العواصم الأوروبية بأوامر من الحكومة. يتخطى عددهم...
- إذن هل تعتقد أن ما يُثار بخصوص تسميم النوافير ليس صحيحًا؟
- ليس صحيحًا بالطبع. لا يُسمِّمها الفقراء كما يقول الكهنة ولا يُسمِّمها الكهنة كما يقول الفقراء. ربما يكون ثمة ماء ملوَّث، لكن ليس عبر التسميم، وإنما بطريقة لم يتمكن العلم من التحقق منها. يقولون الآن إن غلي الماء قبل استهلاكه سيقضي على الجائحة. ربما الأمر صحيح. إنه قيد التجربة. أتمنى أن يكتشفوا المسألة سريعًا، فكما ترى، على الرغم من افتتاح المستشفى الجديد في سجن «إل سالاديرو»، لم يتراجع الضغط على هذا المستشفى. ينصب تركيزنا كله على الكوليرا إلى درجة أن بعض الناس يموتون من أمراض كنا سنقدر على علاجها لو أننا في ظروف أخرى.

يستغل الدكتور ألبان استراحة العمل لتناول تفاحة وشرب كوب من النبيذ.

- إنها جميلة. هذه الثمار من شجرة إلى جوار بيتي. أعتقد أنها ليست ملكًا لأحد. أنا فقط من أقطف ثمارها، أما النبيذ فمن مزرعة والدي في «سانتا كروث دي موديلا». دعني أؤكد لك شيئًا واحدًا، تأتي بعض الليالي عليَّ حين أذهب إلى الفراش وأنا أفكر في شيء واحد، مغادرة المدينة والعودة إلى قريتي.
- ما الذي كنا لنفعله من دون الأطباء!
- ما يحدث نفسه ونحن موجودون، الموت بالعشرات! هل عرفت شيئًا آخر عن مقتل الفتيات؟
- هذا سبب مجيئي. أعتقد أننا بتنا نعرف هوية القاتل.
- إنه أمر رائع.
- لو أن هذا التخمين صائب، فهذا الرجل قد مات فعلًا ولن يرتكب فعلته مع فتيات أخريات. كان معه هذه القارورة في جيبه.

ينظر الطبيب بفضول إلى القارورة التي يناوله إياها دييجو.

- دم؟

- هذا ما ظننته. لا أعرف ما إذا كان بشريًا. هل ثمة طريقة للتحقق من الأمر؟

- لا أعرف. ليس لديَّ اطلاع كبير على علم الدم. ينبغي أن أبحث في الأمر، لكن دعني أتحدث معك بصراحة. حين أنهي ورديتي في المستشفى، فالشيء الوحيد الذي أوده هو الراحة، لا البحث في كتب الطب.

يُخرِج دييجو قارورة أخرى من جيبه، تشبه الأولى. انتظر هذه الإجابة من الطبيب ويعتقد أن هذه فرصته لإقناعه.

- يوجد دم في هذه القارورة أيضًا، وهو بشري على الأرجح، وعُثر عليها في بيت الأب إجنائيو جارثيا.

- عالم اللاهوت؟ قرأت خبر وفاته منذ فترة قليلة.

- غنت بيرتا، الطفلة التي أخرجتَ بنفسك الشارة من فمها هناك ذات ليلة، ثم أخذها «الوحش» في اليوم التالي.

- هل تلمِّح إلى أن عالمًا في اللاهوت وقامة في دراسات علوم النباتات ربما مرتبط بالأمر؟

- هذا هو ما أريد أن أتحقق منه. هل تتذكر كيف عثرنا عليها؟ من دون رأس ومقطوعة الأوصال، أنا الآخر أود أن أستريح، لكنني لن أنام باطمئنان إن لم أساعد في كشف سر مقتل هؤلاء الفتيات.

- أنت مبتز! اترك لي القارورتين وسأرى ما يمكنني فعله.

قبل أن يتمكن الطبيب من وضع القارورتين في جيوبه، إذا براهبة تأتي مسرعة.

- دكتور آلبان! لا نعرف ما الذي يحدث. يدخل مصابون بالعشرات، كأن ثمة معركة في مدريد.

يركض الدكتور آلبان نحو الباب ويمضي دييجو خلفه، إذ استشعر رائحة نبأ محتمَل.

تبدو بوابة «المستشفى العام» فوضوية دائمًا، لكنها الآن صارت بوابة للجحيم. تُسمَع أصوات ركض وصرخات وعويل، يوجد مصابون قد تُرِكوا هكذا في المدخل. منهم من تعرض إلى الطعن أو الضرب المبرح ومن ينزف

بعد إصابته بسلاح ناري. يرقد راهب على الأرض وهو أول من يقترب منه آلبان. يقرفص إلى جواره، لكنه ينهض فورًا.

- أخرِجوه من هنا ولا تجلبوا الموتى، وإنما من يُمكن علاجهم. لا تضعوا الآخرين في المنتصف؛ كل ما يفعلونه هو عرقلة الأمور.

يبتعد دييجو عنه ويدنو من أحد المعاونين الذين يحملون الجرحى فوق محفات.

- أصيب الناس بالجنون، إنهم يهاجمون الأديرة، الشغب في كل الأنحاء، لكن أسوأ وضع في «كنيسة القديس فرانسيس العظيم». يتحصن بعض الرهبان هناك ويقاتلون المعتدين.

ما إن وصل دييجو إلى «ساحة الشعير» أمام «مستشفى اللاتينية»، حتى رأى مجموعة من الرجال يحاصرون صبيًّا لا يتعدى عمره خمسة عشر عامًا عند نافورة «الرحابة». لم يتوقفوا عن هزه ولكمه، وبمجرد أن استقرت إحدى اللكمات في معدته، إذا بالمتسكِّع الصغير ينثني ويسقط على ركبتيه فوق الأرض، ويصبح في ظل عجزه عن الدفاع عن نفسه، غير قادر على تجنب ركلاتهم. يركض دييجو ناحيتهم.

- ما الذي تفعلونه؟ اتركوه.

- نتركه كي يستمروا في قتلنا؟ رأيناه يلقي السم في النافورة. المسحوق الذي يقدمه له الكهنة.

- لا أحد يُسمِّم الماء!

لم يفد صراخ دييجو بشيء. فرت رجاحة العقل من هذه المدينة!

يبتعد عن المجموعة. لو استمر في مناقشة أفرادها، فسينال نصيب المتسكع الصغير نفسه. يتركز الغضب على رجال الدين والفتية الذين يعيشون في الشارع في أسوأ الظروف، لكن في أي لحظة قد ينصب على من لا يلتحق بركب هذا الجنون.

تمضي إلى جواره مجموعة قوامها أربعون شخصًا كأنهم يسيرون في موكب لتدنيس المقدَّسات وهم يمزحون ويسبون الكهنة. إنهم رجال ونساء تنكروا بملابس طقوسية سرقوها بعد أن داهموا «دير القديس توما» للدومينيكيين في شارع «أتوتشا». سيُعرَف لاحقًا أنهم قتلوا سبعة رهبان

هناك. مات سبعة عشر شخصًا آخرون في «مدرسة القديس إيسيدرو الإمبراطورية» بواقع خمسة قساوسة وتسعة مدرسين وثلاثة إخوة. يستمر الموكب في رقصته المخيفة وصولًا إلى المكان الذي يشهد أكبر قدر من الدمار، «كنيسة القديس فرانسيس العظيم».

29

تتيه نظرة لوثيا للحظة في القبة. هنالك مجزرة تُرتكَب تحتها، تحت حُلي المذبح والنقوش، والمشغولات الذهبية التي تزيِّن المصليات والزجاج الملون. تكسو دماء الرهبان أرضية دار العبادة المبلَّطة بالرخام. تشتعل بعض المقاعد الطويلة في جناح جانبي، فيما تفوح رائحة النيران والموت تحت نظرة القديسين الأبية. تقبَّل الرهبان القليلون المتبقون الحكم، فركعوا إلى جوار غرفة الاعتراف. يطلب أخ عمره عشرون عامًا الرحمة وهو يجثو فوق ركبتيه. يصلي إلى ربه، لكن أحدًا يمسك بمسعر مدفأة ويضربه في وجهه، ثم ينهال عليه بضربات سلاحه بعد أن سقط على الأرض فعلًا، كأنه لا يفكر في التوقف أبدًا.

– انقضوا عليهم. لا تنخدعوا بأمارات خضوعهم الزائفة. إنهم يقتلوننا.

تشع نظرة الملتحي حقدًا وغضبًا، بعد أن تبعثر شعره وصار مكسوًّا بالحُمرة من دماء الكهنة. لولا أن لوثيا رأته يهتف ورأت البقية يطيعونه، لما صدقت أنه قائد قادر على تحريك الحشود. أين اختبأ رجل الدين الذي شاهدته يهرب مع الخاتم عند «بوابة الشمس»؟

يلفت انتباه لوثيا صراخ سقَّاء يطلب المساعدة. يتحرك كثيرون، كالنحل الذي ينطلق لإنقاذ ملكته، في اتجاه الجانب المفضي إلى مدخل كنيسة «مسيح الآلام» التابعة لـ «الرهبانية الثالثة الموقرة للقديس فرانسيس»، والموجودة ضمن البنايات المحيطة بالكنيسة الكبيرة. ترى راهبًا يتسلح بهراوة ويقاوم بمفرده كتيبة من رثِّي الثياب. جسده مصقول ورأسه محلوق ويرتدي ثوبًا رهبانيًا بنيًا من النسيج الخشن. لو أنه قد ارتدى قبلئذٍ حرملة أو كتفية، فلا بد أنه فقدهما وسط صخب الصراع. لا يرتدي أي زينة سوى زنار غِفارة بسيط مكون من حبل سميك مربوط حول وسطه. سيكون ثمن روحه غاليًا، إذ إن ضربات هراوته تصطدم بكل الوجوه التي تحاول عبور باب الكنيسة الصغيرة. لأول مرة صارت دماء الغزاة، لا دماء الإخوة فقط، ما يلطخ دار العبادة. تحصن عدد من الإخوة وراء الراهب الذي يبدو أنه ليس في حاجة إلى أي مساعدة لكبح تقدم عشرات الرجال والنساء الذين يحاولون إسقاطه. يختبئ الكاهن الذي هرب بالخاتم هناك وراء الراهب الذي يضرب المعتدين بهراوته من دون رحمة. كيف يُمكنها أن تلحق به. تشعر لوثيا لأول مرة بأنها جزء من الجمع الذي اقتحم الكنيسة. تود أن ينتصروا على هذا الراهب الذي يحمي الحِبر، كحيوان خارج عن السيطرة. إنها في حاجة إلى الوصول إليه.

يقترب الملتحي من الكنيسة الصغيرة بعينين محمومتين، وهو يتسلح بالمدية نفسها التي قتل بها إيلوي، ويُفسِح لنفسه طريقًا بين الناس لمواجهة الراهب، الذي لمح لمعة النصل، فاستخدم يده اليسرى لإمساك رقبة الزعيم وكأنها غصن، من دون أن يتوقف عن كبح البقية بهراوته. يغرز أصابعه بعظامها الناتئة في حنجرة مُهيِّج الحشود، إلى أن يبدأ وجهه في الشحوب، لكن الأخير يتمكن قبل أن يفقد وعيه من إصابة الراهب في بطنه بمديته وطعنه بها. يلفها داخل لحمه سعيًا لإسقاطه. على الرغم من أن الراهب أطلق صرخة ألم، فإنه يتمكن من التحلي بالقوة الكافية للإطاحة بالمعتدي فوق السياج الذي يحمي منحوتة لـ «سيدة الحبل بلا دنس»، فتسقط فوق الأرض مُحدِثة جلبة، فيما يقيء الملتحي الذي ازرق لونه وهو يحاول أن يتنفس.

- اخرجوا من هنا! ارحلوا!

انتزع الراهب المِدية من بطنه وصار يستخدمها الآن ضد من يمضون في محاولاتهم لاقتحام الكنيسة الصغيرة. يعلم أن مقاومته لن تكون أبدية، لهذا يهرب رجال الدين المختبئون خلفه عبر كنيسة «مسيح الآلام». يتمكن

الراهب بعدئذ -بعد خطوتين تقريبًا- من الأخذ بثأره من الطعنة التي وجهها له الزعيم، إذ يحطم جمجمته قبل أن يتمكن الآخر أصلًا من النهوض.

- أخ براوليو، اخرج من هنا.

تشعر لوثيا بالعجز حين ترى الراهب صاحب الخاتم وهو يختفي داخل الكنيسة الصغيرة. يتيه زناره البنفسجي وسط عتمة أحد الأروقة. لقد أمعنت لوثيا النظر إلى عينيه الزرقاوين الجليديتين، والعرق الذي تلألأ فوق شعر خديه وتنفسه كحيوان محاصر. سيفلت هذا الرجل منها. ها هو ذا الرجل الوحيد الذي قد يخبرها لماذا بحث العملاق بكل ما أوتي من قوة عن الخاتم وهو يتيه وسط معركة نهاية الزمان. كيف ستصل الآن إلى كلارا؟

الشخص الوحيد الذي لم يتراجع هو ذلك الراهب. ناداه زملاؤه الأخ براوليو، وهو اسم لن تنساه. يبدو كأنه سيستمر في الصراع إلى أن تنتهي حياته. يحمي الأعمال الفنية التي لم تدمَّر بعد وربما معها فكرته عن الرب. يتخلص، وهو في ثوبه الكنسي الملطَّخ بالدماء، ممن حاولوا كسر منحوتة «سيدة الحبل بلا دنس».

يسقط مشعل مسنون جلبه معه بائع دجاج إلى جوار قدمَي لوثيا فتتراجع إلى أن تتعثر في جثة الملتحي، برأسه الذي انفتح كإناء خزفي مكسور. تفزع لوثيا مع دخول قطيع آخر من الرجال المسلحين بِعصي وفؤوس وعكاكيز، وأي شيء يُمكن أن يُسبب الأذى، وبخاصة أن بعضهم قد تنكروا كرهبان مدنسين للقدسيات. لن ينتهي هذا الدمار أبدًا. تنطلق لتركض عبر أحد الأجنحة الجانبية، وتختبئ وراء مقاعد الجوقة الشرفية.

يمضي دييجو وراء الحشد نحو «كنيسة القديس فرانسيس العظيم» رأى جثتَي فتيين تفترشان الأرض عقب أن تعرضا لغضب المواطنين، وامرأة غربلوا جسدها بعد أن حاولت الدفاع عنهما، وشجوا أيضًا رأسها. يلتقي بامرأة أخرى يعرفها من «نساء الشوارع». تحكي له أن أغلب نوافير المدينة شهدت مطاردات للفتية الصغار.

- من أين جاءت فكرة أنهم يسمِّمون الماء؟ إنها سخيفة.

- رأوهم. يمرض الكثيرون بعد شرب ماء النوافير.

يموت أكثر من خمسمائة شخص يوميًا في المدينة منذ عدة أسابيع بسبب الكوليرا. هكذا صار الناس مستعدين لتصديق أي شيء ليقضوا على هذا النزيف المستمر.

ظل دييجو عاجزًا عن دخول الكنيسة، إلى أن تمكنت القوات الحكومية في النهاية من السيطرة على الوضع داخلها، على الرغم من أن عدة نقاط أخرى في المدينة لا تزال على صفيح ساخن. تفترش الجثث الأرض، وإن أحصاها المرء، فسيكتشف أن خمسين شخصًا قد ماتوا. ليس كلهم رهبانًا، فمن ضمنهم عازف الأرغن، وعدد من أعضاء الجوقة، وقرَّاء، وكهنة، وطلاب، والخادم الذي يرعى مخزن الدير الذي تعرض للنهب. يتعرف حارس ملكي من ضمن التعزيزات التي أُرسلت لنقل المرضى إلى محجر بالبيردي على دييجو.

- دكتور، ساعدني هنا، رجاء. نحن في حاجة إلى كل الأيدي الممكنة.

لا يُمكن لدييجو أن يسمح لنفسه بالتظاهر بأنه طبيب، لكن الحارس الملكي لا يسمح له بالتردد أصلًا ويجذبه من ذراعه نحو مجموعة من الرهبان المصابين بشدة تنتظر المساعدة. يعاني الأخ براوليو جرحًا في منطقة البطن يظهر من تحت ثوبه الكنسي، لكنه ليس أخطر المصابين، فعلى الأرض يتألم راهب آخر بوهن من جرح في فخذه.

- أخيرًا طبيب! يجب أن نصنع مِرقأة[1] لهذا الأخ.

ينظر دييجو إلى الراهب الذي ينزف إلى جوار الأخ براوليو. تكشف نظرته التائهة عن أنه بعيد بالفعل عن البقاء على قيد الحياة. لا يعرف الصحفي جيدًا ما يجب عليه فعله، أو كيفية التعامل مع هذا الجرح الذي يبصق دمًا وكأنه نافورة، وهي بلادة تتجلى أمام عينَي الراهب.

- سينزف حتى الموت!

- لا أعرف كيف أوقفه. اعذرني؛ لست طبيبًا.

يعجز الحارس الملكي عن فهم أي شيء:

- لكنني رأيتك تعالج المرضى في المحجر!

(1) نوع من الضمادات الضاغطة لوقف النزيف. (المترجم).

ينفخ الأخ براوليو بنفاد صبر. ينتزع قطعة من ثوبه الكنسي ويضطلع بصناعة المرقأة للراهب. لا يُبعِد عينيه عن عمله إلا للتحديق إلى دييجو.

- اخرج من هنا! كنت لأقتلع رأسك لولا أن الرجل الموجود هنا يحتاج إليَّ. اخرج!

يبتعد دييجو بضع خطوات. يكتسي المشهد من حوله بالدمار. لا تزال شعلات اللهب ترتفع وسط محارق كأنها قادمة من الجحيم ذاتها، ثمة أجساد قد فارقتها الحياة، وعويل ملآن بغم، يتمازج مع ألم من لا يزالون على قيد الحياة، وسط الدماء والصور المدمرة. إلى أي مصير ستؤول هذه المدينة؟ لماذا تتحلى بهذه القدرة على جرح نفسها؟ في أي لحظة ضاع عقل الشعب؟

يجب أن يرحل. من الأفضل له أن يحتمي هذه الليلة في بيته إلى أن تنقطع أمطار الرعب. يمضي وهو مسرنَم نحو المخرج. بينما يعبر منطقة الجوقة، يتوقف حين يسمع تنفسًا خفيفًا. يفترض أن شخصًا يحتضر يختبئ وراء المقاعد. مع ذلك، حين ينحني أمام أحدها يعثر على فتاة شعرها أحمر طويل. ترتعش على الرغم من أن عينيها تودان أن تعكسا الصلابة.

- ما الذي تفعلينه هنا؟

يمد يده إلى الفتاة الصغيرة. إنها إيماءة يبدو أنها صارت منسية في مدريد، تقديم العون للمحتاجين، بغض النظر عما إذا كانوا رهبانًا أم برجوازيين أم أرستقراطيين أم فقراء. محت كل هذه التصنيفات الهوية الحقيقية لمن يختبئ تحتها، سواء ارتبط الأمر برجل أم امرأة أم طفلة مفزوعة ترتجف أسفل مقاعد جوقة الكنيسة.

- اسمي دييجو. لا تخافي.

30

- ضربًا مُبرحًا بطيش، فلتضربوهم! طعنًا طائشًا بالسيف، فلتطعنوهم! الموت للكارليِّين، من يدافعون عن كارلوس بطيش، اقتلوهم! عبر الحواري، عبر الأزقة، ادخلوا بيوتهم، وإلا فسيسود مُلك كارلوس مع محكمة التفتيش.

حل الليل، لكن الوضع لم يهدأ. ينصت دييجو إلى الهتاف الذي يردده المدريديون عبر نافذة بيته. يفوح الهواء برائحة دخان المحارق. تتأجج بعض الكنائس بالنيران وتستمر بعض الاشتباكات في الشوارع. يقولون إن أكثر من مائة راهب لقوا حتفهم وإن المصابين كثيرون. يحاول تذكر كل ما عاشه، وبالمثل أن يبحث عن كلمات لكتابة مقال عن موت «الوحش» المحتمَل، لكن المسألة ليست سهلة. ما فائدة العثور على سفاح، فيما تنهار المدينة كأنها نسخة أخرى من بابل؟ أيضًا يجب أن يعتني بالطفلة المفزوعة قبل أن يُمارس عمله.

- أختك؟ لا أفهم شيئًا مما تقولينه. يجب أن تبدئي القصة من البداية ومن دون توتر.

قالت له إن اسمها لوثيا وحكت له أن أختها اختفت وأن رجلًا اختطفها من مكان كانتا تلوذان فيه، وهو مصنع ثقاب قديم مهجور.

- ما الذي كنتما تفعلانه هناك؟

- هدم الجنود «لاس بينيولاس»، حيَّنا، وماتت أمنا من الكوليرا.

يقول له حدسه الصحفي إن هذه مآسٍ كثيرة معًا، لكن خبرته كأحد سكان هذه المدينة تقول له إن المآسي لا تكتفي أبدًا، وإن عام 1834 سيغدو فهرسًا لتعاسات لا نهاية لها.

- والرجل الذي أخذها، هل تعرفين ما هو اسمه؟

- لا. لا أعرف. لكن ربما هو من يسمونه «الوحش». كانوا يتحدثون في الحي عن عملاق أحمر الوجه.

يبدو كل هذا لدييجو مصادفة زائدة على الحد، لقد رأى جثة «الوحش» في اليوم نفسه، والآن ها هي ذي فتاة تقول له إنه اختطف أختها، لكنه لا يعرف أين تكمن الخدعة. ما مسعى هذه الشابة الصهباء من حكاية هذه القصة له وبخاصة أن همومها تبدو حقيقية جدًّا؟

- يجب أن أعثر على كلارا، لا أريد أن تظهر مقتولة مثل الأخريات.

تتناول لوثيا بشهية الشيء الوحيد الذي تمكن دييجو من تقديمه إليها، قطعة من سجق الـ «شوريثو» أرسلها له أخوه منذ عدة أسابيع، من دون خبز أصلًا، ومعها كوب نبيذ تعمد أن يخففه بالماء بسبب عمر ضيفته، فعلى الرغم من أن شرب فتاة مثلها للخمر كأي شخص أمر طبيعي، فإن دييجو لا يعتبره أمرًا جيدًا.

- لماذا تظنين أن «الوحش» قد اختطف أختك؟

- هذا هو ما يقولونه عن كل الفتيات اللاتي اختفين، أليس كذلك؟ أنه يختطفهن ويقتلهن. لكنه ليس حيوانًا.

يحاول دييجو ترتيب أفكاره. يحتاج إلى كتابة كل ما رآه هذا المساء ليأخذه إلى مورينتين في الصحيفة. ربما يحتفظ له بمساحة في الصفحة الأولى بقصته عن مداهمة «كنيسة القديس فرانسيس العظيم»، بل إنه لو تمكن من إثارة اهتمامه، فقد يدفعه إلى دعمه بشكل أكبر في تحقيقه حول «الوحش». بينما يكتب بعض الملاحظات المتسرعة، يغلب النعاس لوثيا.

صارت نائمة حينما دق الباب. إنها ضربات خجولة ودية، وليست مثل ضربات صاحبة البيت حين تطالبه بالإيجار المتأخر.

يتوقف دييجو عما يفعله ويفتح الباب.

- لم تزرني مرة أخرى. ربما كان من الأجدر بي أن أبقى في المنزل لأبكي على الأمر، لكن أظن أنني أُفضِّل أن تقول لي في وجهي إنك لا تريد رؤيتي ثانية.

في يوم ملآن بمفاجآت مثل جثة العملاق ومجزرة الرهبان ولقاء الفتاة الصهباء لا تبدو زيارة آنا كاستيلار المفاجأة الأصغر بينها. يُفسح دييجو لها الطريق، وهو يتمتم باعتذار. لقد انجرف مع الأحداث كما قد ينجرف المرء مع انهيار ثلجي، ولم يجد وقتًا للذهاب إلى القصر أو لكتابة رسالة لها على الأقل.

- من هذه الفتاة؟ لم تقل لي إنك أب.

- إنها بمفردها في هذا العالم. عثرت عليها في الكنيسة، وسط الفوضى.

تُداعب خدها:

- وجئت بها إلى البيت. أنت رجل طيب يا دييجو.

تقترب آنا من الفراش وتجلس عند حافته. تتأمل الطفلة وهي نائمة وشعرها الأحمر المنفوش كإسفنجة بحرية.

تقول وهي تنظر إلى دييجو:

- أنت على الأرجح تريدني أن أرحل.

- أريدك أن تبقي معي. لو أن الأمر بيدي، لوددت أن نلتقي في ظروف أخرى، لكن...

تُطالبه آنا بأن يصمت بإشارة بسيطة من يدها.

- الليلة التي تمكنَّا من قضائها معًا شيء غريب يا دييجو، فالعثور على لحظة سلام في هذه المدينة ليس أمرًا معتادًا. وأنا في المحجر اليوم مات خينارو، الرجل الذي ذهبت لتبحث عنه.

يفتح صندوقًا ويخرِج زجاجة من نبيذ «بالديبينياس»:

- وعدته بزجاجة نبيذ. اشتريتها أمس. كانت نيتي أن آخذها معي صباح اليوم إلى مستشفى الحجر، لكن الوقت تأخر.

تبتسم له آنا.

- هل نشربها في صحة خينارو؟

- هيا بنا. كان يومًا مجنونًا.

تهمس آنا وهي تداعب شعر لوثيا الأحمر:

- لا أريد أن أوقظها.

- تعالي.

يمد دييجو يده لها ويقودها خارج الغرفة. يصعدان الدرج وصولًا إلى سقف البيت. يجلس دييجو وآنا على الأرضية فوق البطانية بينما تحيطهما -بل وتحميهما- ملاءات تركتها بعض الجارات لتجف. لا تزال هناك بعض أعمدة الدخان التي تشير إلى الأماكن التي أحرق فيها المدريديون الغاضبون الكنائس والأديرة.

- هل جابهتك مشكلات كي تصلي إلى هنا؟

- شق عليَّ المرور أمام «كنيسة القديس إيسيدرو الجامعة». أشعلوا محرقة بالمقاعد الخشبية في وسط شارع «طليطلة».

- فقد الناس عقولهم.

- إن زاد الضغط على الحد، فلا بد له أن ينبثق من مكان ما. يضغط علينا الكارليُّون إلى أقصى حد. قلت هذا الأمر لزوجي كثيرًا. ينبغي له هو وبقية أعضاء الحكومة أن يُظهِروا للناس أن الذنب ذنبهم. أنت لست كارليًّا، أليس كذلك؟

- لست كارليًّا، لكنني أيضًا لست كريستينيًّا أو إيسابيلِّيًّا[1]. في الحقيقة، كنت سأود أن نتخلص من الملوك بعد الفرنسيين.

- هل تقصد أن نكون جمهورية؟ أنا أرستقراطية، لكن سيروقني أن أرى هذا اليوم. أتمنى أن تأتي اللحظة التي يُصبح فيها مواطنو هذا البلد مؤهلين بصورة كافية لتولي مقاليد السلطة.

ترفع النبيذ، فيقرعان كأسيهما وهما ينظران إلى بعضهما. يشق على دييجو نسيان كل ما حدث في ذلك اليوم. إن الاستسلام هكذا أمام ليلة

(1) أي من أنصار الملكة الوصية كريستينا وابنتها إيسابيل. (المترجم).

غرامية واحدة لأمر صعب. يتحدثان عن مرورها على المستشفى والمرض الذي يقضي على حياة الكثير من المدريديين، وعن عمل آنا في المحجر، وعن ظهور الجثة التي يعتقد دييجو أن صاحبها هو «الوحش».

- إذن هل انتهت حوادث قتل الفتيات؟

- أتمنى! لكن لا تزال ثمة فتيات مختفيات. لا أعرف. المسألة غريبة جدًّا. لماذا يقتلهن بهذه الطريقة؟ لماذا ظهرت بعض الجثث فورًا وظهرت جثث أخرى بعد عدة أسابيع؟ بل وشهور. لا منطق في كل هذا.

تستمر في النظر إليه، وهي مستغرقة في التفكير، كأنها تحاول حل اللغز.

- أتعرف ما الذي يخلو من المنطق أيضًا يا دييجو؟ أن تروقني بهذه الطريقة وأن أحلم بقبلاتك منذ التقينا.

يقبلان بعضهما، هناك، في هذا المكان المختلف تمامًا عن غرفة آنا وحدائق قصر دوق ودوقة ألتويانو، بنباتاتها العجيبة وطيورها المنتمية إلى ألف فصيلة. هناك فوق سطح أحد البيوت الشعبية، وفوق أرضيته تحديدًا، يمارس دييجو وآنا الغرام مرة ثانية، وسماء مدريد فوقهما كسقف. يتفهم دييجو، وهما يتعانقان أسفل النجوم وكأس النبيذ في متناول أياديهما ورائحة الهواء تفوح بالنار والخراب، أنه لا مجال للتراجع، إنه مغرم بهذه المرأة، بسيدة من الطبقة العليا وزوجة أحد وزراء الملكة، أي بأقل امرأة تُلائمه في هذا العالم.

- أتمنى ألا يتأخر لقاؤنا القادم كثيرًا. لا يزال زوجي محبوسًا في قصر «المزرعة». يُمكنك أن تأتي إلى بيتي وقتما يحلو لك.

- وإذا ما علم المسألة؟

- لن يشغل باله بالأمر. ثمة زيجات عبارة عن عقد فقط. لا تشغل بالك. لم أخَف من رد فعله قط.

- لكنك تخافين مما قد تشعرين به تجاهي.

تتوه نظرة آنا في سماء مدريد عند أعمدة الدخان التي ترتفع من الأديرة قبل أن تجيبه:

- قد تقدم لك الحياة أحيانًا هدية.

تستقر عينا آنا السوداوان الآن فوقه:

- هذا ما قلته لي سابقًا. أنت محق. لم أرد قط...

يعرف دييجو أنها تتحدث معه عن الحب، وإن كانت تتفادى ذكر هذه الكلمة، ربما لأنه من المبكر جدًّا نطقها بصوت مرتفع، كأنها تخشى، مُتطيرة، من أن تختفي بمجرد استحضارها.

- أفترض أن المرء لا يبحث عن هذه الأمور، وأنها تحدث ببساطة. الآن لا أريد لهذا الشعور أن يتوقف، رغم أنه يُخيفني.

تترك رأسها يسقط فوق كتفه ويعانقان بعضهما في صمتٍ بضع دقائق إلى أن تقرر آنا الرحيل مع وعد بألا يتأخر لقاؤهما المقبل أيامًا كثيرة. يرافقها دييجو إلى الشارع، حيث تنتظرها عربتها. يستمر في النظر إلى الكيفية التي تبتعد بها العربة وهي ترتج فوق الطمي. حين تغيب عن نظره، يشعر بأنه حزين وبائس. لدى عودته إلى غرفته، يجد فراشه خاويًا. لم تعد لوثيا، الفتاة الصهباء، موجودة هناك. أخذت معها إطارًا فضيًّا أحاط بصورة لأم دييجو، لكنها على الأقل تحلت بالكياسة اللازمة لترك الصورة. حين يدرك دونوسو، سيسخر منه، فهذا ما يحدث حين تأتي بفتاة مجهولة إلى بيتك.



تبدأ الفتيات في الشعور بالقلق. حصلن صباح أمس على وجبتهن الأخيرة، كما أنها آخر مرة استُبدلت فيها مباولهن. منذ ذلك الحين لم يعرفن شيئًا عن العملاق، إذ لم يأتِ لهن بطعام أو ماء، بل ولم ينزل لأداء طقس الاستمناء والجَلد المريض.

تتحدث فاتيما -وهي أقدمهن- في أثناء جلوسها إلى جوار القضبان مع إيسابيل التي اختُطفت بالقرب من «بوابة طليطلة». مر أسبوعان عليها في هذا الديماس، ووحده الجوع ما تمكن من خفض طاقتها. تنعس الآن وجبهتها مستندة إلى جدار الزنزانة الحديدي.

تقول إيسابيل:

- وماذا إن لم يعد؟
- الأمر ليس طبيعيًّا. لم يمر كل هذا الوقت قبلئذٍ قط من دون أن ينزل.
- سنموت من الجوع.
- يقولون إن العطش يقتل أولًا.
- لا يمكنني أن أفتح عيني. لو أنني في المرة الأخيرة، حين جعلني أغسل ظهره، لو أنني انطلقت راكضة.

- هل تظنين أنكِ كنت ستصلين إلى الأعلى؟ كان سيأخذك ويفعل بكِ ما فعله مع كريستينا. الموت من العطش أفضل.

- أنتِ لا تعرفين شيئًا. لا نعرف ما هو الموجود في الأعلى، من أخذهن، هؤلاء، ربما يكن في بيوتهن، أو ربما يرعاهن أحد ما، كان عليه أن يختارني أنا.

- لم أعد أتذكر عدد الأيام التي أمضيتها هنا، ولم يخترني قط.

تستمع خوانا في صمت وهي متكورة في زنزانتها إلى بكاء فاتيما وخيالات إيسابيل حول ما ينتظرهن حين يصعدن الدرج الحلزوني. لم تقل سوى جملة واحدة تقريبًا منذ حبسها «الوحش» في زنزانتها. اسمه: «الوحش»، لا العملاق، على الرغم من أن بقية الفتيات يصررن على تسميته هكذا كأنه شخصية من قصة. «كيف ترى العالم من عندك في الأعلى؟». وجهت له هذا السؤال حينما رأته يقترب من باب بيت شارع «القرنفل». استخدمت النبرة اللعوبة والموحية نفسها، التي شاهدت أمها ألف مرة تستخدمها وهي تُخاطب الرجال. تعرف دلفينا كيف تُسيِّرهم لتجعلهم كدُمى بين يديها، ولهذا فكرت خوانا في أنها قد تقدر على التلاعب بالطريقة ذاتها بهذا الرجل ذي الوجه المحروق الذي يصل طوله إلى سبعة أقدام، أجابها بابتسامة تحاول أن تبدو لطيفة، لكنها في الواقع لمفترس: «هل تودين أن أدعوكِ لتناول بسكويت «الموخيكون» في متجر «السيدة ماريكيتا»؟». تركت دميتها القماشية «ثيليستي» فوق سلم بيت «اللبؤة» ومضت وهي تُمسك بيد هذا الرجل، يد «الوحش». ظنت أنها امرأة تمكنت من اصطياد رجل، لكنها كانت مجرد حشرة تافهة علقت في شباك العنكبوت. كيف سقطت في حيلة تافهة بمثل هذه الصورة؟ وعد بالشوكولاتة وبسكويت «الموخيكون» من رجل غريب. ربما ودت أن تثبت لأمها أنها لم تعد طفلة. بينما تبتعد تخيلت كيف ستكون حكاية مغامرتها، والريالات التي ستنتزعها من هذا الرجل بحيلها كعاهرة مجتمع راقٍ. قالت له وهما ينعطفان عند ناصية الشارع: «أنت تؤلمني»، إذ تحولت يد «الوحش» إلى قبضة حيوانية تقطع دوران الدم في معصمها. لم يجبها، وإنما دفعها عند جدار وصفعها. نظرت حولها وهي متشتتة وأدركت أنهما دخلا زقاقًا خاويًا. ثمة عربة تجرها جياد هناك. أمسكها «الوحش» من رقبتها وجرها حتى هناك، ثم أمسك جوالًا من القماش ووضعها داخله. لم تر النور إلى أن وصلت إلى الشكل ثماني الزوايا الذي ترسمه زنازين الديماس، قبل أن يلقيها ويحبسها داخل إحدى

زنازينه. لم تتحرك من ركنها البعيد منذ وصلت، ولا حتى لأخذ المبولة. لا تزال جالسة في صمت فوق فضلاتها، بل إنها لم تُغير وضعيتها حتى حين عاد «الوحش» بعدئذٍ ومعه فتاة أخرى.

أصابها الفزع بالشلل. تعرف ما سيحدث لو أن «الوحش» نزل إلى الديماس واختارها، بناء على ما سمعت بقية السجينات يقلنه. تتذكر محادثة دارت بين أمها و«اللبؤة» وسمعت بعضًا منها. تحدثتا عن مقال ظهر في الصحيفة، بخصوص فتاة في «ميدان آبار الثلج» عثروا عليها مقطوعة الأوصال. قالت أمها قبل لحظات من اكتشاف وقوفها عند عضادة الباب إن اسم هذا الشيطان هو «الوحش». وبَّختها لأنها تتنصت على محادثات الكبار وأمرتها بأن تذهب إلى الخارج مع دميتها القماشية «ثيليستي».

سمعت أمها وبقية نساء الماخور يحكين كيف يقطع أوصال ضحاياه. لن تقول للفتيات اللاتي تراهن من بين ظلال الديماس إن نهاية من خرجن من هنا ليست العيش في سكن للحريم، بل الموت، أسوأ أنواع الموت.

تفقد الفتيات رغبتهن في الحديث مع تقدم النهار، ويزداد حضور الجوع والعطش. يفرض الخوف من عدم ظهور العملاق نفسه. تبدأ إيسابيل في البكاء، بنحيب متقطع لا يساعد في الحفاظ على الهدوء.

تجأر إحدى الفتيات بصوت أجش:

- اخرسي تمامًا!

جربن الأمر أكثر من مرة، لكنهن يشاركن جميعًا في فكرة فانيما.

- لو أحدثنا جلبة، فربما سيسمعنا أحد.

- لم يفدنا هذا الأمر قط.

- إما جاء العملاق وضربنا وإما عاقبنا بحرماننا من الطعام.

- أُفضِّل أن يضربوني حتى الموت على أن أفارق الحياة من دون أن يعرف أحد أنني مت!

ينظمن أنفسهن جميعًا كأنه حفل له إيقاعه ويقرعن فوق قضبان الزنازين بتلك الأوعية، بمباول القصدير التي يقضين فيها حاجتهن. يضحك بعضهن بعد مرور بضع دقائق، بل إن فيهن من بذلت قصارى جهدها لمحاكاة ألحان بعض الأغنيات العاطفية، مثل أغنية «لدى مرور القارب، قال لي البحار»،

وإذا بتفاؤل طفولي يسيطر تدريجيًا عليهن. تتوقف إيسابيل عن البكاء وتقول -ربما وهي تهذي من توترها ونقص الطعام- إن «الوحش» سينزل وسيصحبهن إلى قصر، وتشرع مجددًا في حكاية قصة أنهم اختاروهن من الشوارع لتزويجهن بأمير. تتكهن أخريات، لا ينجرفن كثيرًا وراء الخيال مثلها، بأن الشرطة ألقت القبض على سجّانهن، وبأن الحرس سيقتحمون المكان في أي لحظة لتحريرهن.

- تتمتع أمي بقوى. يمكنها التنبؤ بالمستقبل. ستعثر علينا.

تنفجر خوانا مع اعتراف فاتيما، الذي لم يقل سخافة عن بقية الاعترافات التي سمعتها، على الرغم من أنها غطت أذنيها:

- لن يُخرجنا أحد من هنا، وحين يأتي هذا الرجل، هل تعرفن ما الذي سيفعله؟ سيقطع أوصالنا. سينتزع أذرعنا وسيقاننا، بل رؤوسنا، فهذا الرجل هو «الوحش». في الواقع نحن ميتات بالفعل، على الرغم من أننا هنا نصرخ ونتفوه بالحماقات. نحن جميعًا ميتات.

يغرق الديماس في صمت بعد صراخ خوانا. تتجرأ إيسابيل بمفردها على أن تسأل باستحياء:

- كيف تعرفين أنه «الوحش»؟

لا تتحلى خوانا بالقوة اللازمة للرد. في أعماقهن يعرفن جميعًا أنه هو. الأمر الوحيد الذي فعلته هذه الفتاة التي ظلت صامتة منذ وصولها هو كسر الفقاعة التي تحميهن من إدراك مصير لا مناص منه. ظللن لفترة هكذا وهن صامتات. ربما نحو ساعة. فجأة إذا بضوضاء سائلة تنبثق من إحدى الزنازين الواقعة في نهاية الديماس، وبالهواء يصطبغ بطابع مختلف. تنتبه فاتيما إلى ما يحدث:

- إنها مملوءة بالدماء، الأرض.

لا يتأخرن في إدراك مصدره. لقد سنَّت إيسابيل في الحائط جزءًا من حواف المبولة المصنوعة من القصدير بعد أن انكسر من القرع فوق القضبان وقطعت أوردة معصمها. فعلتها في صمت، ولم يسمعها أحد، إذ لم يصدر منها سوى بكاء خافت كتعبير بسيط عن الألم. يصل الدم إلى أرضية الزنزانة المجاورة التي تحتلها فاتيما.

- إيسابيل، إيسابيل! ما الذي فعلتِه؟ لقد قتلت نفسها! إيسابيل انتحرت! النجدة! ساعدونا!

يتحول صراخ فاتيما إلى جلبة تنضم إليها بقية الفتيات، كجوقة ذات صوت حاد ملأى بالرجاء البائس واللعنات وعواء يليق بالحيوانات، لا البشر. تعجز خوانا عن التحمل أكثر من هذا، فتنفجر باكية. هل إعلانها الهستيري هو ما دفع هذه الفتاة إلى الانتحار؟ أليس هذا هو ما يجب أن تفعله هي الأخرى؟ ما جدوى إطالة سُكرة الموت هذه؟

- لا تفعليها. علينا أن نتحمل حتى النهاية.

تلتفت خوانا إلى مصدر هذا الصوت الدافئ الذي لم تسمعه من قبل.

- لا نعرف ما الذي قد يحدث بعد برهة، بالصورة نفسها التي لم نعرف بها أن المطاف قد ينتهي بنا إلى هنا. هل أحكي لكِ شيئًا؟ لو أننا نعرف كيف نقرأ السماء، لتمكنَّا من التكهن بالمستقبل. تعرفت أختي على رجل عجوز يبيع الخردوات عند «بوابة طليطلة»، وكان قادرًا على قراءة السحب والنجوم. حين تتعلمين الأمر، يصبح كقراءة حروف الصحف. تحكي لكِ قصصًا عما سيحدث. قال لأختي إنها ستمتلك قصرًا في الشمال، في سان سباستيان، وإنني سأعيش معها وسأتزوج برجل فرنسي. لم أتعرف على أي فرنسي قط، لكنني أعرف أنني سأغرم به حين أراه، ولهذا علينا أن نخرج من هنا.

- هل تؤمنين بهذه الحماقات؟

- تصديق هذه القصص ليس سيئًا، وبخاصة إن جعلتكِ تنامين جيدًا، أو كانت من تلك التي تسليك أو تدفعك إلى الضحك.

يعود الصمت تدريجيًا إلى الديماس، ولا تكسره سوى مناجاة فاتيما الهاذية لنفسها لأنها لم تتقبل بعدُ إقدام إيسابيل على الانتحار. تبحث خوانا بعينيها عن هذه الفتاة التي تمكنت من إراحتها. وصلت بالأمس تحديدًا، في زيارة «الوحش» الأخيرة، ولم تنتبه إليها تقريبًا. حين تتراءى لها من بين الظلال، يبدو لها وجهها مألوفًا.

- هل أعرفك؟

- رأيت كيف ذهبتِ مع «الوحش» في شارع «القرنفل». كوني واثقة من أن أمك لن يهدأ لها بال حتى تجدك.

تكتم خوانا نحيبها حين تسمعها تتحدث عن دلفينا، فيما تقول لها الأخرى:

- اسمي كلارا.

32

تبدو المدينة هادئة ولا يوجد أثر تقريبًا لمعركة اليوم السابق. لا يشم المرء رائحة المحارق أو يرى مقاعد دور العبادة المهشمة أو تلك التي صارت رمادًا أو تمثال أحد القديسين ساقطًا في وسط الطريق، إلا إن اقترب من الكنائس. قضت لوثيا الليل وهي تتجول عبر الشوارع الخاوية، وداخلها أمل سخيف بأن كلارا قد تظهر لها وهي تنعطف عند أي ناصية. حل الصباح وتراجعت الظلال، فإذا بالمواطنين المبكرين يسارعون من هنا إلى هناك. تقاطع طريقها مع موكبين جنائزيين. تصعب معرفة ما إذا ارتبط الأمر بالرهبان قتلى الهجمات، أم بوفيات الكوليرا المعتادة. لديها يقين واحد، ما من موكب واحد سيُكرم إيلوي. لا بد أنهم في وسط الفوضى قد رفعوا جثته على متن عربة تجرها الخيول، وألقوها في أي مقبرة جماعية. يجلدها شعور الذنب كسوط حين تفكر في أنها وجب عليها أن تظل إلى جوار صديقها. كان ليفعل هذا الأمر من أجلها. يبرر لها شبح إيلوي ما فعلته في حوار صامت، هو في الأصل خيالها عن العفو: «الموتى لا يحتاجون إلى الصحبة، وإنما أختك. ابحثي عن هذا الراهب ذي الزنار البنفسجي الذي يرتدي الخاتم».

تشعر بأنها سيغشى عليها. لم تأكل شيئًا منذ الأمس باستثناء قطعة سجق «الشوريثو» التي قدمها لها ذلك الرجل الذي أخذها إلى بيته. تحتاج إلى تناول الطعام، ولتفعل هذا عليها أن تحصل على المال، وبما أنها صارت عاجزة عن العودة إلى الماخور، فقد لجأت إلى السرقات الصغيرة. ستذهب لبيع الإطار الفضي الذي سرقته من دييجو عند دكان «الأكتع»، ذلك المكان الذي عرفته بفضل إيلوي، لكن هذا سيأتي لاحقًا، لأنها عليها قبل ذلك أن تعثر على الكاهن ذي الخاتم، فهذه الحلية هي الخيط الوحيد الذي قد يقودها إلى كلارا.

لا تزال بعض جمرات العنف باقية في «كنيسة القديس فرانسيس العظيم». يبدو الأمر كأن صرخات ذات صدى مرعب لا تزال تطفو تحت قبتها، فيما تحلق جزيئات من الغبار في الهواء كأنها لا تود أن تستقر فوق بقع الدم التي تلطخ الأرض والأعمدة والقضبان والمذبح. يهيَّأ للوثيا أن تعبير الرعب الظاهر في منحوتة القديس فرانسيس، والمسيح، وسيدة الحبل بلا دنس، يُلائم ما اختبرته عشيتئذٍ، أكثر من ملاءمته للتأريخ الديني.

يكنس راهب منطقة ما وراء الجوقة بمقشة.

- أبحث عن الأخ براوليو.

- ستجدينه يصلي أمام المذبح الكبير.

يشق على لوثيا أن تتعرف في هذا الرجل الذي يجثو فوق ركبتيه ويصلي حافيًا بهدوء على المحارب ذي الرأس الحليق الذي رأته سلفًا، على الرغم من أنه يرتدي الثوب الكنسي وزنار الغفارة نفسيهما. يظهر من مزق في ردائه ضمادة فوق بطنه تُغطي الجرح الذي أصيب به في المعركة.

يقاطعها صوته قبل أن تتحدث:

- انتظري، أم هل تفضلين أن ينتظر الرب بنفسه؟

على الرغم من أنه يتمتم في صلاته، لا يزال صوته يبدو حادًا ومتسلطًا كما سمعته يلعن في أثناء الشجار. يبدو كصوت جنرال أكثر من صوت رجل دين. بينما يُنهي الراهب صلواته، تتفقد لوثيا الكنيسة. انشغلت في اليوم السابق بالهجوم والصراع فحسب، إلى درجة أنها لم تركز فيها. إنها ملأى بثروات كثيرة إلى درجة يشق معها تصديق أنه على بعد مربعين سكنيين فقط من هذا المعبد يُمكن للمرء أن يتحسس البؤس بعينه. تجد أمامها لوحة تمثّل ظهور يسوع والعذراء لفرنسيس الأسيزي، لكن لوثيا تنظر بانبهار إلى القبة،

التي تبدو أروع مما هي عليه في الخارج. تبدو مرتفعة جدًا، كأنها قد تتسع للعالم بأكمله.

- هل تروقك؟

أنهى الراهب صلاته من دون أن تدرك لوثيا وبات الآن أمامها. إنه رجل قوي وطويل، لكن ليس بطول العملاق نفسه الذي قتلته بالأمس. تبدو نظرته كمستقر للسلام، ولا صلة تجمعها بالعينين الملأنتين بالنار اللتين رأتهما في وقت المعركة.

- لم أر قبلئذ قط شيئًا عظيمًا مثل هذا.
- العظمة ليست في القبة، وإنما مجد الرب. هل تريدين أن تتحدثي معي؟
- أجل.
- تعالي معي، فأنا جائع؛ لم أتناول إفطاري.

يأكل الأخ براوليو من قصعة ملأى بالعصيدة ومعها قطعة حجمها معقول من الخبز وإبريق من النبيذ. لم يدعُ لوثيا أن تنضم إليه، فتنظر إليه فحسب، لكنه حين يعثر على قطعة لحم في العصيدة، يقدمها لها بالملعقة.

- كُلي!

تُطيعه وهي تفكر في أنها لن تفعل شيئًا مثل هذا أبدًا، لن تقدِّم إلى أحد أبدًا قطعة لحم وقعت من طبقها. يستمر في تناول طعامه إلى أن ينظر إليها فجأة.

- ما الذي تريدينه؟
- رأيتك بالأمس وأنت تقاتل.
- لا يجب أن يجد أي أخ نفسه مجبرًا على القتال، لكن هذا ما حدث. مات خمسون شخصًا هنا وكثيرون غيرهم في بقية الكنائس، وعددها كبير. لو لم نقاتل، لزاد العدد على هذا جدًا.
- ثمة راهب يرتدي زنارًا بنفسجيًا وقف إلى جوارك. عيناه زرقاوان.
- رئيس الدير برناردو. حاول هو وبعض الإخوة الآخرون الفرار عبر «كنيسة مسيح الآلام»، لكن الحشد لحق بهم.
- هل مات؟

ينظر الأخ براوليو لأول مرة إلى الفتاة.

- أخشى أن ما تقولينه صحيح. ما سر اهتمامك برئيس الدير؟

تُخفي لوثيا نظرتها. لم تستعد للإجابة عن هذا السؤال، لكن لحسن حظها لا ينتظرها الراهب الشرس، إذ يستمر في الحديث:

- على الرغم من انتهاء أحداث الشغب، فإن هذه المدينة لم تعد مكانًا آمنًا لرجال الدين. تحولنا إلى هاربين، كأوائل المسيحيين، وسيظل الوضع هكذا، ما دام الشعب مقتنعًا بهذا الجنون الذي يقول إننا نتحمل ذنب الكوليرا. أعني... من الذي نشر شائعة أننا نرسل الصِّبية لتسميم الماء؟!

- أعرف أن هذا الأمر ليس حقيقيًا.

يعرض الأخ براوليو إبريق النبيذ على لوثيا، فتشرب منه، على الرغم من أنها تبتلعه بصعوبة.

- سلِّكي حلقومك هذا واحكي لي فعلًا لماذا تبحثين عن رئيس الدير.

تخترع الفتاة قصة عن إرث عائلي تناقل من جيل إلى جيل، خاتم ذهبي عليه مطرقتان متقاطعتان. كان مع أمها قبل الموت وضاع منها. تعتقد أن الراهب ذا الزنار البنفسجي ربما يكون قريبًا لأمها أو لديه معلومات بخصوص عائلتها. تحتاج إلى أن تتحدث معه لأنها بمفردها في هذا العالم، وبفضل هذا الخاتم يمكنها أن تعثر على قريب يأويها. لدى انتهائها من قصتها، تنظر إلى الأخ براوليو وهي تأمل أن تكون نبرتها النائحة قد أكسبت قصتها طابعًا قابلًا للتصديق.

- هل تقولين لي إن رئيس هذا الدير قد يكون قريبك؟

تبتلع لوثيا لعابها.

- لا أعرف. لكن هذا الرجل لديه خاتم مثل خاتم أمي. لم أر مثيلًا له. أردت أن أتحدث معه لسؤاله فحسب.

يعود الأخ براوليو إلى قصعته الملأى بالعصيدة، كأنه يفكر في أثناء تناول طعامه. يُشير إلى راهب آخر، فيأتي إليه بإبريق نبيذ جديد، يشرب نصفه تقريبًا في جرعة واحدة.

يمسح الطبق بالخبز.

- إن نبيذ هذا الدير جيد، جيد جدًا.

ثم يتحدث في النهاية:

- ظهرت جثة رئيس الدير وإصبعها مقطوعة. سرق أحد ما الخاتم. سأسأل عنه. قولي لي أين قد أجدك.

- سآتي أنا إلى الدير. لا أعرف أين سأكون موجودة.

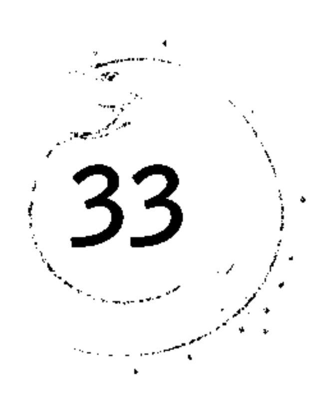
- حسنًا. عودي غدًا. سنرى إن كنت سأتمكن من التحقق من شيء ما. ما هو اسم أمك؟

يُفسر الأخ براوليو سبب سؤاله أمام نظرة لوثيا الحائرة:

- يجب أن أعرف هوية من يفترض أنها قريبة رئيس الدير الراحل.

- كانديدا.

حين يبقى الراهب بمفرده، يفلت منه تجشؤ رهيب. لطالما حدث له هذا بعد تناول عصائد اللحم. يتذوق النبيذ. يُبقيه في فمه كأنه يتغرغر به أو كأنه في حاجة إلى هضم المعلومات التي تلقاها توًا. في تلك الأثناء تجتاز لوثيا بوابات «كنيسة القديس فرانسيس العظيم» وداخلها شعور بأن هذا الراهب لم يصدق كلمة واحدة مما قالته له.



قبل مائة عام بقليل، احتوت متاجر الأدوية على كل أنواع الخلطات سواء لعلاج الصحة أو للقضاء على الحسد. لم يُستبعَد أي شيء. ارتبطت الأدوية بالإيمان أكثر من الفاعلية، لكن في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر، بدأ الوضع يتغير، ومع أن الصراع لا يزال مستمرًا بين الصيادلة الذين درسوا في الجامعات وأسلافهم من تجار الأدوية الذين تعلموا صنعتهم وهم مجرد صبية، فإن الصيدليات صارت مكانًا موثوقًا به. تراجعت التركيبات المرتبطة بالسحر أكثر من العلم، ووسط مئات العبوات الرخامية التي تحفظ المواد الضرورية لتحضير التركيبات، لم يعد ثمة جناح مخصص للبعوض المفروم أو مساحيق فضلات الدجاج أو أعين الوطاويط، أو أي أشياء أخرى كانت عادية فيما سبق.

تغيرت قيمة أن تكون صيدلانيًا، ولهذا صار من يمتهنون هذه الصنعة يحظون بالاحترام الضروري كمعشر الجراحين، بل إن ثمة قرى بدأت تدفع مخصصات معينة كي يصبح لدى أحد الصيادلة مقر إقامة ثابت فيها. هكذا صارت هناك سيدات يفكرن في أن الحصول على زوج يمتهن صنعة الأدوية أمر جيد، لتصبح كل العقارات والصبغات والمنقوعات والضمادات

والمستخلصات التي قد يحتجن إليها في متناولهن، كما أوصى موراتين[1] ذات مرة.

يقع متجر أدوية تيودوميرو جارثيس في مستهل شارع «طليطلة»، على بعد مرمى حجر من «الساحة الكبرى»، ويعد من أفضل متاجر أدوية مدريد. يدخل الأخ براوليو هناك وينتظر دوره بهدوء، وهو يوزع وزن جسده بين هذه الساق وتلك الأخرى. يجلس مرهَقًا. لاحظ وجود وخزات مزعجة في فخذه، حين خرج من الدير. إنها تبعات الطعنة التي نالها في الهجوم على دار العبادة. تيودوميرو رجل طويل تقدمت به السن، ويرتدي معطفا طبيًا باهتًا بني اللون، مقاسه صغير عليه نوعًا ما، وتخرج من كُميه ذراعاه العظميتان. تستقر كل دهون جسده في بطنه، فيبدو من شدة انتفاخه كأنه على وشك النوم فوق طاولة البيع. في النهاية يرسم صدغاه الفضيان ونظارته، التي تستقر في وضعية اتزان حرج فوق أنفه المعقوف، هيئته كأحد بخلاء الرسوم الهزلية الذين يظهرون في الصحف ويطاردون المستدينين كالغربان. على الرغم من مظهره هذا، يعرف الأخ براوليو أن تيودوميرو متزوج بفتاة جميلة جدًا، إلى درجة أن الثناء على جمالها قد وصل إلى خطوط الحرب شمالًا.

يعمل في متجر الأدوية نصف دستة من الصبية. يتقدم أحدهم للاهتمام بالأخ براوليو.

- كيف يمكنني خدمتك؟

- لديَّ كلب سلوقي، يعاني في عينه اليسرى عدوى.

يأخذ تيودوميرو الحساب من سيدة تشتري دهانًا للرشح. إن أي ألم في الرأس أو بعض التمخط قد يؤدي إلى الذعر في زمن الكوليرا. لو أن ثمة مراقبًا حريصًا، للاحظ رعشة عصبية في الابتسامة المتأدبة لتاجر الأدوية الذي ينظر إلى الراهب من فوق نظارته ويقترب ليُبعد الصبي بهدوء.

يُجيبه:

---

(1) المقصود هو لياندرو فرناندث دي موراتين وهو شاعر وكاتب مسرحي إسباني من مواليد 1760 وتوفي في 1828. (المترجم).

- لديَّ ما يصلح له كعلاج وفدوى.[1]

أُرسي الاتصال بعد هاتين الجملتين المقفيتين لتعزيز الذاكرة. يجر تيودوميرو ستارة ويدعو الراهب للدخول إلى الغرفة الخلفية للمتجر، حيث يغلي المعمل الملآن بدوارق ومواقد ومدقات وقوارير فيها كل أنواع المنتجات. يتزين أحد الجدران بمكتبة كبيرة ملأى بكتب عن الصيدلة وعلوم النباتات. يركز عدد من الصيادلة، بمساعدة طلاب، في تحضير تركيبات مُحكمة، بل وتأتي إليهم معلومات من باريس ولندن وفيينا، ويجري البحث عن طريقة القضاء على الكوليرا وإنقاذ حياة المرضى.

يمضي تيودوميرو والأخ براوليو إلى نهاية الغرفة حيث يظهر درج صاعد نحو طابق خفي. يجلس هناك المحاسبون الذين يديرون العمل. هنالك أيضًا قاعة كبيرة لا يُسمح إلا لقلة قليلة بدخولها بإذن من تيودوميرو جارثيس بنفسه. لا يعرف أحد تقريبًا أن هذه القاعة، التي تضم طاولة بلياردو فرنسية فاخرة، تُحاك فيها بعض عمليات الكارليِّين في مدريد. يسميها تيودوميرو «الحَرَم»، بمزيج من السخرية والتوقير.

يسأل تاجر الأدوية بمجرد أن يغلق الباب:

- الاسم.

- توماس أجيرّي، لكنني أسمي نفسي الأخ براوليو. وصلت منذ خمسة أيام. أرسلوني من الجبهة للتحقيق في موت عالم اللاهوت إجناثيو جارثيا.

- يبدو أنه كان ضحية للكوليرا.

- كان عميلًا كارليًّا، بل من أفضل العملاء. جهز قائمة تضم أسماء أعداء القضية. قوم لامعون ومهمون جدًّا. كان لا بد أن تصل إلى الجبهة، لكنه لم يوصلها قط. حين وصلتُ، تحققت من أن الأب إجناثيو مات في نهاية يونيو. أليست مصادفة كبيرة؟

---

(1) وردت الجملة في النص الأصلي بشكل مغاير نوعًا ما، دون وجود كلمة «فدوى» بالإسبانية، لكنني أضفتها في الترجمة العربية لتقفيتها مع الجملة الحوارية التي تنتهي بكلمة «عدوى»، كما حدث بالإسبانية، وهذا للإبقاء على روح النص الأصلي الذي تضمن تقفية بين العبارتين اللتين سيعرف القارئ أنهما تُعَدان كلمة سر في السطور التالية. (المترجم).

- تقتل الكوليرا آلاف الأشخاص في العالم كله. يجب عكس مفهوم المصادفة في هذه الأزمنة.

يفرك تيودوميرو ذقنه وهو مستغرق في تفكيره:

- ومع ذلك كانت أحوال إجناثيو غريبة. قلِق دومًا على صحته. حين بدأ الوباء، طلب مني تركيبات من كل الأصناف. في نهاية المطاف كان عالم نباتات، بخلاف كونه رجل دين.

- قامة كبيرة في علوم النباتات القروسطية. أدرك الأمر.

- وزبون عظيم بالنسبة إليَّ. لطالما كانت التركيبات التي طلبها مني تحديًا مستمرًّا، إلى أن توقف ذات يوم عن هذه المسألة.

- لماذا؟ ألم تعد تقلقه مسألة أن يمرض؟

- لا أعرف، لكن الأمر الوحيد المؤكد أنه توقف عن طلب أي علاج للكوليرا مني منذ عدة أسابيع.

- ألم يترك أي رسالة؟ قالوا لي إنني قد أحصل هنا على معلومات.

- يُستخدَم متجر الأدوية هذا في حالات الطوارئ. لا أريد اجتماعات مرتجلة هنا، فأي خطوة خاطئة، ستضع حياتي في خطر. إنهم يعتقلون الكارليّين يوميًا، ويعود قليلون منهم على قيد الحياة من الزنازين.

- التحرك عبر المدينة من دون إيقاظ الشبهات أمر صعب، لأن الشوارع صارت شبه خاوية بسبب الجائحة.

- يمكنني فقط أن أقول لك إنك لست أول عميل كارليٍّ يأتي لسؤالي عن إجناثيو جارثيا. جاء منذ بضعة أيام شخص آخر مهتم بمعرفة ما إذا كان عالم اللاهوت قد ترك خاتمًا.

- خاتم عليه مطرقتان متقاطعتان؟

- بالضبط. هل سمعت عنه؟

- صباح اليوم تحديدًا. هل يمكنني أن أعرف من هو هذا العميل؟

- ليس مصرحًا لي أن أكشف عن أسماء. السرية ضرورية، لو أننا نود الحفاظ على حياتنا، فالجهل أفضل دفاع ضد تعذيب الشرطة.

- مفهوم. هل قال لك شيئًا آخر أم جاء للبحث عن الخاتم فحسب؟

- قال لي إن إجناثيو فقد عقله، وإنه تسلل إلى جماعة سرية ليتوغل بين أعداء الكارليِّين، وإنه بشكل ما انقاد وراء أفكارهم.

- ما تقوله غير ممكن، إذ إنه استمر في إرسال تقاريره حتى النهاية.

- لا أقول إنه ارتد عن الكارليَّة، بل إنه توغل أكثر وأكثر داخل هذه الجماعة.

- ثمة جماعة سرية في كل مقهى في مدريد. إلى أي جماعة قد انتسب؟

- لم يخبرني. تفرض بعض الجماعات قسمًا بالصمت، وحياة من يحنث به هي الثمن، لكن بما أن هذا الرجل جاء للبحث عن الخاتم، فأظن أنه قد يكون مرتبطًا.

يُخمن الراهب:

- ربما هذا الخاتم طريقة للتعرف على أعضاء هذه الجماعة السرية.

- ربما.

لا يكشف الأخ براوليو -أو المحارب الكارليُّ توماس أجيرّي لتسميته باسمه وصنعته الحقيقيين- عن أن هذا الخاتم ارتداه أيضًا رئيس الدير في «كنيسة القديس فرانسيس العظيم»، المأمون على اعترافات الملكة الوصية، احترامًا لشروط السرية المطلوبة. لا يكشف أيضًا عن أن تسلله إلى هذا الدير لم يأتِ مصادفة، فالاستخبارات الكارليَّة عدت رئيسه الذي تردد دائمًا على اجتماعات المتآمرين إيسابيليًّا متطرفًا ومن مخبري البلاط الرئيسيين عن كل ما يُحاك في جبهة الشمال. كان أيضًا من ضمن المشتبَه بهم في قتل الأب إجناثيو جارثيا، لكن لتزداد صعوبة مهمة توماس أجيرّي، مات رئيس الدير برناردو بعد تفجر غضب الشعب، الذي ربما أشعله بنفسه.



34

- مقتل العملاق! مقتل العملاق! ظهور عملاق مقتول في مدريد!

ليس بائع جريدة دييجو، «إل إيكو ديل كوميرثيو»، من يحاول لفت انتباه المشترين إلى المقال الذي يتناول العثور على هذا الرجل الضخم مقتولًا، وإنما أحد باعة جريدة «إل أوبسيربادور»، الوحيدة التي لم تصب تركيزها بالكامل على مذبحة الكهنة.

مع ذلك لا تهتم لوثيا أصلًا بمعرفة الجريدة التي نشرت الخبر، إذ تتوجه نظرتها بإمعان إلى صفحة مفتوحة في الجريدة التي يهزها البائع، حيث تتراكم فوق صورة بالطباعة الحجرية بعض الأحرف التي لا يُمكنها قراءتها كأنها كُتبت بالهيروغليفية. هل تقول الصحيفة شيئًا عنها؟ لا تقدر سوى على قراءة اسمها، ولتفعلها تضطر إلى بذل مجهود يُضاهي محاولة البحث عن أثر مطموس.

- هل يمكنك أن تقرأ لي ما هو مكتوب هنا؟

- يُمكنني أن أبيعها لكِ.

- لا أعرف القراءة.

- تعالي، إلى أين تذهبين؟ تبدين مثل الفتاة الموجودة في الصورة.

يجذبها الفتى من كُم قميصها فتستدير لوثيا. لا لبس في الطباعة الحجرية الموجودة في الصفحة الثانية، إنها صورة من اللوحة التي رسمها لها ماوريثيو، ذلك الرجل الأبتر من ماخور «اللبؤة». طبعوا وجهها فقط، وقصوا باقي جسدها لأنها ظهرت شبه عارية.

- رجاء اقرأ لي المكتوب.

- أنا أيضًا لا أعرف القراءة. قالوا لي فقط أن أعلن عن مقتل العملاق. هل قتلتِه أنتِ؟

تبتكر لوثيا قصتها كي تشق طريقها:

- لا. لقد حاول اختطافي، مثل فتيات الضواحي.

- هل العملاق هو «الوحش»؟

يحاول الصبي، بحاجبيه الكثين ونحافته الشبيهة بكلاب الشوارع، أن يربط بين الأمرين، هل يمكن أن يكون العملاق هو هذا الحيوان الذي يقولون إنه يقطع أوصال الفتيات؟ يُمكنه في أي لحظة أن يُوقف أحد المارة ليثرثر بخصوص الأمر معه. هل ينبغي له تغيير الطريقة التي يبيع بها الجريدة؟ هل يجب أن يعلن عن مقتل سفاح الفتيات في الوقت الذي صار فيه الكهنة فريسة لغضب الشعب؟ تعرف لوثيا أن البقاء في الشارع ليس آمنًا، وبخاصة إلى جوار هذا الصبي. تُبرم صفقة بائسة لمبادلة الصحيفة بالإطار الفضي، وهذا لأنها يجب أن تعرف ماهية المخاطر التي تواجهها قبل التحرك عبر المدينة.

حاولت فك شفرة النبأ، لكن الأمر بلا جدوى. لماذا تظهر اللوحة التي رسمها لها الأبتر؟ هل يعرفون أنها من قتلت هذا الحيوان؟ هل لديهم اسمها؟ تعرف أشخاصًا قليلين يُمكنهم القراءة، ولا أحد منهم تقريبًا يمكنها أن تثق به. مع ذلك تعرف أين تحديدًا يمكنها أن تجد ما تحتاج إليه. هكذا تمضي والصحيفة في يدها نحو بيت «القرنفل»، وهي مستعدة للدخول إلى فم الذئب نفسه لو أنهم فعلًا يبحثون عنها.

- لو أن «الوحش» قد مات، فأين ابنتي؟ ما الذي فعله بها؟

وصل خبر الصحيفة إلى الماخور، وأدخل دلفينا في نوبة عصبية. تُعد لها إحدى الفتيات شراب الزيزفون، فيما تعرض أخرى أن تمضي معها

عبر المدينة بحثًا عن خوانا، لكن لا عزاء ممكن لأم التهمها الغم. يقفن في المطبخ، حيث يحصلن على الراحة بين كل زبون والذي يليه، ويأكلن القليل من أي شيء. تسمعهن لوثيا وهن يتحدثن من الطرقة، لكنها لا تريد أن تدخل لرؤيتهن. تتفادى المطبخ وتبحث عن «اللبؤة» في الصالون الأخضر، حيث ترتاح عادة في هذا التوقيت.

- أنتِ شجاعة. يظهر وجهك في الصحيفة وأول مكان يخطر على بالك أن تأتي إليه هو هنا. أما زلتِ لا تدركين المشكلة التي ورطتِني فيها؟

تضع خوسيفا باقة من زهور وصلتها مؤخرًا كهدية من خوليو جامونيدا في إحدى المزهريات. وعلى الرغم من أنها لا تزال تسميه «زبونًا» أمام بقية الفتيات، فإنها توقفت عن معاملته كزبون منذ فترة طويلة.

تمد لها لوثيا الصحيفة وهي مفتوحة على الصفحة التي تظهر فيها صورتها.

- قولي لي ما يقولونه.

تنظر خوسيفا إلى إيماءتها الجادة.

- يقولون إنكِ ساقطة وقاتلة. هذا ما يقولونه.

لا تستسلم لوثيا، على الرغم من قسوة «اللبؤة» وتُبقي على يدها الممدودة بالصحيفة، أملًا في أن تتخلى خوسيفا عن توبيخها وتضطلع بمساعدتها. تجذبها خوسيفا من ذراعيها وتهزها، إذ يبدو لها أن الفتاة لا تعي فعلًا ماهية الوضع:

- هل تريدين أن يلقوا القبض عليكِ؟ غادري مسرعة كروح سيأخذها الشيطان يا فتاة. تعلم الشرطة أنكِ تعملين هنا وأنك قتلتِ رجلًا تبين أنه عسكري صاحب مكانة، حاصل على أوسمة وميداليات من قمة رأسه حتى فتحة مؤخرته!

- لا أعرف إلى أين قد أذهب. أنت ساعدتِني. لا يمكنك أن تتركيني الآن. أنا وحدي.

لا تقدم خوسيفا تنازلات للفتيات اللاتي يعملن لصالحها. تعرف أنهن لسن شريرات كما قد تظن نساء أخريات، لكنهن أيضًا لسن عاجزات عن

الدفاع عن أنفسهن. مع ذلك لا تعرف لماذا تشعر بهذا القدر من المودة تجاه هذه الصهباء التي لم تتعامل معها إلا لمدة أسبوعين فقط.

- هذا أول مكان سيبحثون فيه عنك. ربما سيأتون في التو واللحظة. لو أنكِ جئت بحثًا عن ملاذ، فهذا ليس ممكنًا.

- لا تهمني مسألة الاختباء. ما أريده هو قراءة هذه الحروف، هذا الرجل اختطف أختي كلارا. ربما يقولون شيئًا عنه قد يُساعدني في العثور عليها.

- أختك أيضًا؟ مثل ابنة دلفينا؟

- لا أعرف. هل يقولون في المقال إن هذا الرجل هو «الوحش»؟

أخذت خوسيفا الصحيفة للتو. تجلس الآن فوق المقعد وتقرأ الخبر. لا يقدمون معلومات كثيرة حول الميت، بخلاف اسمه، مارثيال جارِّيجيس، وموجز عن حياته وماضيه العسكري البطولي في خدمة إسبانيا، وسفره لاحقًا عبر فرنسا وإنجلترا. «يُشتبه في أن مومسًا صهباء يُقال لها لوثيا هي من قتلته». يُشير المقال إلى وجود صلة محتمَلة بين مارثيال وجرائم «الوحش»، لكن الصحفي يصفها بأنها مؤامرة للتشهير برجل لا غبار على سمعته، ويقول إن الشرطة حين تسبر أغوار الموضوع ستصل إلى الحقيقة وهي أن ساقطة حرمت رجلًا طيبًا من حياته.

- لِم فعلتِها؟

تركت لوثيا جسدها يسقط فوق إحدى الأرائك ووضعت يديها على وجهها. الخبر أسوأ مما تخيلتْه. ستطاردها الشرطة كلها. من سيصدق ساقطة تتهم عسكريًّا له كل هذا الباع؟ من سيهتم باختطاف كلارا؟ لو استمر وجودها في الشوارع، فسيُلقى القبض عليها. لو اختبأت حتى نسيانها، فسيكون الوقت قد تأخر جدًّا على أختها.

- في ساعة منحوسة، دخلتُ بيت هذا الكاهن.

لا تندب لوثيا حظها، وإنما تجلد نفسها بإحساس الذنب. تعترف لـ «اللبؤة» بالطريقة التي سرقت بها هذا الخاتم الملعون بمطرقتيه المتقاطعتين. لا تعرف ما هي أهميته المميزة، وإنما أنه كان بمنزلة حكم بالإعدام على كلارا.

- كيف كنتِ ستعرفين أن كل هذه الأمور ستحدث؟

لا عزاء في عناق خوسيفا لها، إذ إن المسؤولية التي تشعر بها لوثيا حريق لن يخمد إلى أن تعثر على أختها.

- ليتني أقدر على مساعدتك، لكن عليَّ أن أسهر على عملي. نحن لم نقل كلمة عنك. ثمة لائحة شرف بين العاهرات وتساعد كل منا الأخرى. تقول النساء إن ماوريثيو هو من اتصل بـ «إل أوبسيربادور». إن هذا الأبتر مستعد لبيع أمه، هذا لو أنه قد تعرف عليها أصلًا، في مقابل ريالين. لا بد أنه حصل على ما هو أكثر من هذا ببيع الصورة والقصة إلى هذا الصحفي. حين أُمسك به، سيندم على إفلات لسانه. لو أنكِ ذات يوم صار لك بيت، فستعرفين أن أهم شيء هو البعد عن الفضائح.

تتمتم الفتاة:

- آسفة.

تأسف خوسيفا من أعماق روحها هي الأخرى على أنها لا تقدر على مساعدة هذه الفتاة أكثر من هذا. لو أن العملاق لم يمت في ماخورها، لسمحت لها بالاختباء من دون أن تهتم بأنها قد قتلته، وبخاصة لو أنه «الوحش» الشهير فعلًا كما قال دونوسو وصديقه الصحفي بالأمس. ليست أول مرة يموت فيها زبون هنا. اضطرت سابقًا إلى التعامل مع أربع ميتات، ثلاث منها لأسباب طبيعية، وأخرى تتعلق بالقتل. لطالما فعلت الشيء نفسه، الدفع لتغطية الفضيحة وإبعاد الجثث، بل إنها تثق في أن الموتى وعائلاتهم امتنوا لفعلتها هذه. ما من أحد قد يمانع زيارة ماخورها، لكن ما من أحد أيضًا يود معرفة ما قد يفعله فيه، أو أن ترتبط حياته -ومماته- بمكان مثله.

أقنعت الشرطي الأعور في هذه المرة بمجرد رحيل صديقه. لم يكلفها الأمر أكثر من مائتي ريال، لكن ظهرَ ماوريثيو. ستأتي فرصتها للانتقام. عض الأبتر اليد التي تطعمه، ومثل هذه الأمور لها ثمن يجب أن يُدفَع. لو تركت أحدًا يهزأ بها هكذا، فسيتكرر الأمر، ولا يمكنها أن تقبل شيئًا مثل هذا. لقد اضطرت إلى رشوة رجال الشرطة الذين جاؤوا لاستجوابها عن موت العملاق لتتجنب أن يغلقوا بيتها، وعليها أن تنفق مزيدًا من المال كي يدفع الأبتر ثمن فعلته. مهما بلغت قيمة المبلغ الذي تحصلت عليه من بيع عذرية لوثيا، تبدو هذه الصفقة كارثية حتى تلك اللحظة. مع ذلك لا تشغل نفسها كثيرًا باستعادة استثمارها.

- توخي الحذر جدًا وعودي بعد أن ينتهي كل شيء. أنت تعرفين أن في هذا البيت مكانًا لكِ. هل ذهبتِ إلى مأوى اللقطاء؟
- مأوى اللقطاء؟
- أختك مجرد طفلة. يأخذون أحيانًا من يجدونهم في الشوارع إلى هناك. ربما سيحالفك التوفيق وتجدينها هناك.

تعود لوثيا أدراجها نحو المخرج. ينبثق نحيب دلفينا من المطبخ وهي تسأل السماء أين ابنتها. تخرج إلى الشارع وتشعر بأن نظرة أي مدريدي إليها قد تغدو اتهامًا. يُمكن لأي منهم في أي لحظة أن يستدعي الحرس ويُشير إليها بإصبعه. عليها أن تختبئ، لكن ماذا عن كلارا؟ في أي ركن في المدينة ستعثر على أختها؟ ما الذي تفعله الآن؟ هل لديها طعام وماء؟ ماذا لو أنها مصابة؟ كم من الوقت ستبقى على قيد الحياة؟

35

يتمتع دييجو رويث بشخصية بشوشة، إذ يصر دائمًا على العثور على الجانب الجيد في الحياة، حتى حين لا يكفيه القليل الذي يكسبه لدفع إيجار مسكنه أصلًا. إنها أوقات عصيبة، ومع ذلك يحاول أن ينتزع من كل يوم قدرًا قليلًا من الجمال، سواء بالوقت الطيب الذي يقضيه مع دونوسو، أو بتناول بعض كؤوس النبيذ في إحدى الحانات، أو بساعتين من القراءة على نور الشمعة، أو بالإيحاء بوجود علاقة غرامية مع امرأة جميلة. من الصعب أن يراه أحد مستاء، لكنه الآن في قمة الاستياء. قرأ في «إل أوبسيربادور» نبأ موت «الوحش»، ويشعر كأن أحدًا ما قد اجتث ذراعه من منبته. ما من صحفي يروقه أن يسبقه أحد في نبئه الحصري.

يعرف بايستيروس، صاحب المقال. التقيا ذات مرة في «مسرح التخييل بالأوهام». اعتاد أن ينشر في صفحات جريدته توقعات الكلب المُنجم كأنها أحداث مؤكدة. ربما حالفه الحظ هذه المرة وعثر على الشخص المناسب في وقت امتلأت فيه جيوبه بالريالات لدفعه إلى التحدث. مع ذلك، ومهما ازدرى بايستيروس، فثمة أمر مؤكد وهو أنه سبقه، سواء في مسألة اسم «الوحش» -ألا وهو مارثيال جارِّيجيس كما جاء في الخبر- أو في الصورة التي تأتي مع

الخبر. لا مجال للشك في أنها لوثيا، الشابة الصهباء التي لاذت ببيته وفرت منه وهو يمارس الغرام مع آنا كاستيلار.

إنها مسألة تقليدية جدًّا بالنسبة إليه، خسارة نبأ حصري ليمرح مع امرأة. يفكر بحزن في نصيبه المشؤوم، وفي أن عجلة الحظ لا تلف أبدًا في صالحه. مع ذلك لا يفقد الأمل. قدمت له جريسي، الممثلة، المعلومة ووثقت به وليس ببايستيروس. يجب أن يعثر عليها ويجعلها مركز خبره. أم تفقد ابنتها على يدَي «الوحش».

يذهب للبحث عن دونوسو. يحتاج إلى الترويح عن نفسه، وما من أحد كصديقه يمكنه أن يساعده في هذا الأمر. يعتاد أن يجلس في هذا الوقت في إحدى حانات شارع «خمَّارة الجدران». بمجرد أن يدفع بابها، تجتاحه من الداخل رائحة السيجار والنشارة المميزة للمكان، الذي يرتاده دائمًا العاملون في مجال مصارعة الثيران. تقول الأسطورة إن بعض الأهالي قتلوا جنديًّا فرنسيًّا في أثناء حرب الاستقلال داخل هذه الحانة، وخبؤوا جثته في واحد من براميل القبو الضخمة، البرميل رقم 6 تحديدًا. يقول مرتادو المكان إن أفضل مشروب يخرج منه، لهذا من تقاليد المكان أن يطلب المرء من بانكراثيو، النادل، نبيذًا من برميل «الرجل الفرنسي». يجلس دونوسو إلى مائدة تقع في نهاية المكان إلى جوار حارس ملكي ينهض حين يرى الصحفي. لا يعرفه دييجو لكن الرجل يُحييه بمودة قبل رحيله.

يستقبله دونوسو:

- خذ كأسًا من النبيذ. وصلت في الوقت المناسب. روفينو زميل قديم. أبلغني للتو ببعض الأمور عن العملاق المقتول.

- هل لدينا معلومات جديدة؟

- مارثيال جارِّيجيس، عسكري حاصل على أوسمة في الحرب ضد الفرنسيين. يقول روفينو إنه تقاعد، ولم يضطلع إلا بأعمال لصالح قلة مختارة، وأفترض أنها كانت أعمالًا مدفوعة جيدًا.

- أي نوع من الأعمال؟

- بشكل أساسي، خلق الظروف الملائمة كي يدفع بعض المماطلين الديون المتأخرة لدائنيهم.

- الضرب المبرح؟

- ضمن أمور أخرى. الأمر وما فيه أن وفاته مزعجة جدًّا بالنسبة إلى نِظارة الشرطة. يريدون إلقاء المذنب وراء القضبان. أفترض أنك رأيت صورة الفتاة الموجودة في الصحيفة.

- رأيتها بالطبع. لقد سبقوني في خبري.

- خمن من الذي كلفوه بإلقاء القبض عليها.

- صديقك روفينو.

- لا طبعًا، بل ذلك الماثل أمامك!

يبتسم دونوسو بعينه الوحيدة، وعلى الرغم من اعتياد دييجو الأمر، تبدو له هذه الإيماءة كنذير شؤم، إلى درجة أنه لا يُخبره أنه يعرفها وأنها كانت أمس تحديدًا في بيته وسرقت منه إطارًا فضيًّا.

- لكن ألست غير مكلَّف بهذه الأمور؟

- تضعهم مسألة الكوليرا في حاجة إلى الأيدي العاملة. تحدث مثل هذه الأمور لي لأنني أزج بأنفي حيث لا يجب. أدرك ناظر الشرطة أنني من عثرت على جثة مارثيال وقال لي أن أنهي عملية الصيد هذه بجر هذه الفتاة من شعرها إلى السجن. لو نفذت مراده، فسأصيب الهدف، وربما أحصل على وسام ويعيدونني إلى الخدمة بشكل نهائي.

- ظننت أنك قد فاض بك الكيل من الشرطة.

- فاض بي الكيل فعلًا، لكن يمكنني أن أنتزع منهم ميدالية، وهذا يعني معاشًا مستقبليًّا. سأبحث عن الفتاة ليومين، وإن لم أعثر عليها، فسأزج بأي ساقطة شعرها أحمر في الأمر.

- الأرجح أن هذه الفتاة قتلت العملاق دفاعًا عن نفسها. هذا الرجل هو «الوحش». من يدري إن كان قد حاول اختطافها أو اغتصابها.

- هل تدافع عنها؟ إنها قاتلة.

يصمت دييجو. يأخذ الإبريق ويصب كوبًا من النبيذ يشربه من رشفة واحدة.

- أنا في حاجة إلى العثور على جريسي، الممثلة.

- الثملة؟

- أجل، الثملة. سبقوني في خبري. أحتاج إلى خبر آخر.

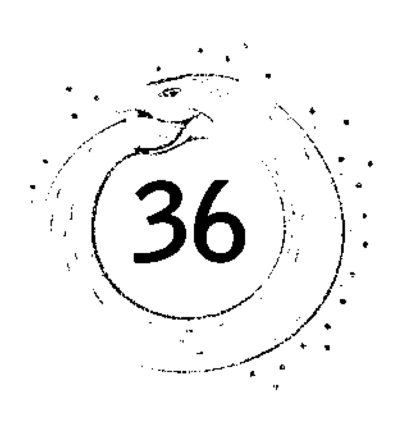
- لا يمكنني مساعدتك. أنا منوط بمهمة. أرى مستقبلًا أكبر في الفتاة ذات الشعر الأحمر، عن الممثلة الثملة.

- إذن ستتركني هكذا بمفردي؟

- الحياة قاسية يا زميلي.

يُفرغ دونوسو كأسه في فمه، فيُنهي محادثتهما بهذه الصورة.

يندهش دييجو حين يخرج من الحانة ويتوجه إلى منزله ويجد نفسه يفكر في لوثيا، في شعرها الأحمر. هذا صحيح. لكنه يُفكر أيضًا في نظرتها البائسة. إنها فتاة وحيدة في هذا العالم وتبحث عن أختها في مدينة تعتبرها قاتلة. تقيء هذه المدينة المآسي يومًا تلو الآخر وتفعل كل ما هو ممكن لطرد الفقراء عند الجانب الآخر من «الجدار».



وُلد مأوى لقطاء مدريد في القرن السادس عشر في دير «النصر» إلى جوار «بوابة الشمس»، ونُقل منذ فترة تتخطى الأعوام العشرين بقليل إلى شارع «خمَّارة الجدران»، وراء «مدرسة السلام» التي أسستها دوقة «لا فيريا» عام 1679 في شارع «السفراء». تقيم هناك نحو مائة طفلة، تُرك أغلبهن بعد ولادتهن حول بوابة المكان، وأيضًا عند صومعة «عذراء الميناء» أو في مستشفى «المستعصون». تعمل المؤسسة عبر ما تتحصل عليه من تبرعات النبلاء واليانصيب والمزادات التي يُنظمها المجلس الخيري. يستقبل المكان نظريًّا الفتيات المعوزات ويُعلمهن، لكن يؤكد الكثيرون أن الهدف منه هو تعيينهن بمرتبات بائسة للخدمة في بيوت الأثرياء، هذا إن لم يتعرضن للاستغلال بغرض التسلية في بعض الحفلات، أو إن لم يُطلَق سراحهن في الشوارع بمجرد أن يصبحن قادرات على كسب قوت يومهن كعاهرات.

تطرق لوثيا الباب بالمقرعة الكبيرة التي تتخذ شكل أسد. تفتح راهبة ذات وجه سمين وتعبير بشوش الباب بعد بضع لحظات. تتفقد الفتاة بنظرتها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها.

- أنا أبحث عن أختي.

- ومن هي أختك إذا سمحتِ؟
- اسمها كلارا. عمرها أحد عشر عامًا. شعرها أشقر طويل ومجعد بعض الشيء. اختفت أمس صباحًا. أعتقد أنها قد تكون موجودة هنا.
- لا يجلبون إلى هنا فتيات كبيرات في السن هكذا يا كنزي. آسفة جدًا.
- هل يمكنك السؤال رجاء؟
- آسفة.
- أنا من طرف السيدة دي بيافرانكا.

تُغير الراهبة من سلوكها بمجرد سماعها الاسم، على الرغم من أنها كادت أن تصيب يد الفتاة وهي تغلق الباب.

- انتظري هنا. ادخلي، لكن لا تتحركي.

تمضي الراهبة مبتعدة عبر رواق طويل. يصل بكاء طفل عبر مدخل المأوى. تسمع لوثيا بعض الخطوات. تدفع بابًا من الخشب عن يمينها إلى جوار سور المدخل. تسرع راهبتان قرب فتحة دائرية ترك أحد عندها للتو رضيعة حديثة الولادة. تمسكها إحداهما من كاحلها وتؤرجح جسدها بالمقلوب. بعدئذٍ ترفعها مجددًا وتهدهدها بضع ثوانٍ، إلى أن ينفتح باب القاعة المجاورة. تأتي إحدى الراهبات المبتدئات ومعها سلسلة تتدلى منها صفيحة من الرصاص. تعلقها في رقبة الرضيعة. ثمة شيء منوم مغناطيسيًّا في المشهد حين تحاول الطفلة أن تألف صدر الراهبة التي تحركها من دون حنان. لا تعرف لوثيا الأمر، لكنها شهدت للتو هجران طفلة وتسجيلها الفوري عبر عملية بيروقراطية جذورها ممتدة لسنين، في مكان يسمونه «قاعة السلاسل»، فهذه الصفيحة الرصاصية مُرقمة، وهكذا فإن هذه الطفلة ستظل مجرد رقم، إلى أن يختار لها أحد ما اسمًا.

لا يبدو أن أحدًا قد انتبه إلى لوثيا التي تتمشى عبر المدخل بقلق. تتساءل إلى متى سيطول انتظارها. تتوغل عبر الرواق الذي اجتازته الراهبة، ثم تتوقف فجأة. توجد صحيفة على الطاولة تظهر فيها صورتها. هل من المحتمل أن تكون الراهبة قد تعرفت عليها؟ لقد عثرت حين خرجت من الماخور عند ناصية شارع «الحدائق» على ملابس منشورة فوق حبل فارتدتها لتبدو كلصٍّ صغير، إذ عقصت شعرها المميز بمنديل لإخفائه. صارت تشبه أصدقاء إيلوي الذين يتسكعون عبر مدريد.

حين ترفع نظرتها تجد انعكاسها في مرآة لها إطار برونزي. يبدو تنكرها مقنعًا، لكن من تحت المنديل تظهر خصلة حمراء. يتردد صدى ضربة عنيفة بمقرعة الباب داخل المبنى، فيمتلئ عقل لوثيا بنذر الشؤم. تختبئ في قاعة الفتحة الدائرية بعد أن صارت خاوية. ثمة سلم حلزوني يصعد نحو الطابق العلوي. ترى لوثيا من مخبئها الراهبة وهي تركض نحو المدخل لتفتح الباب، وفي تلك اللحظة يدخل رجل أعور ومعه اثنان من الحرس الملكي. لا يُنبئ سلوكه ووجود الحارسين بأن لقاء وديًا سيحدث.

تقول الراهبة:

- كانت هنا منذ لحظة.

تصعد لوثيا السلم الحلزوني قبل اقتحام الشرطة لقاعة الفتحة الدائرية. لقد رأوها.

ينطلق الأعور، الذي ناداه أحدهما دونوسو، لملاحقتها. يتكون الطابق العلوي من ممر طويل ملآن بالغرف على كلا الجانبين. تدخل لوثيا واحدة منها وتجد ثلاث مرضعات يرضعن عدة أطفال. تُشع صالة الرضاعة بضوء أبيض وتتراص فيها عدة مقاعد لإرضاع الأطفال. تأتي المرضعات من القرى القريبة من مدريد ويأخذن في مرات كثيرة الأطفال بعد أن يكبروا إلى بيوتهن لتربيتهن، وإفساح المجال لمن يصلون.

- يجب أن أختبئ. تبحث الشرطة عني.

ثمة تدنيس للحرمات في مقاطعة ساعة الرضاعة بهذه الصورة المباغتة. تنظر المرضعات إلى بعضهن بحيرة. يبدو رجاء لوثيا ملحًا، فيما تقترب خطوات الحرس وهي تدوي، لكن الصوت الحاد الذي يصرخ آمرًا: «الشرطة» يحسم الأمر، إذ تقول أصغرهن سنًا:

- في غرفتي.

تُسمَع ضوضاء الأبواب، قبل أن يظهر دونوسو أخيرًا في الصالة البيضاء.

- هل رأيتن فتاة؟

ترفع المرضعة الشابة سبابتها فوق شفتها لمطالبته بالصمت. يأخذ دونوسو نفسه ويهز رأسه كأنه يعتذر ويرحل. تقيم المرضعات في المأوى ويرضعن الأطفال ست مرات يوميًا من السادسة صباحًا حتى العاشرة ليلًا.

إنه عمل منهِك وسيئ الأجر، لكن من يعشن وهن يحملن أوزار الحياة فوق كواهلهن، يُساعدن دائمًا بعضهن. تخرج لوثيا من مخبئها وتشكرهن.

- هل من مخرج آخر؟

- عبر المغسلة. ستجدين بابًا للخدمات. انزلي طابقين.

تتجاوز لوثيا في طريقها عدة راهبات عبر أروقة المأوى، لكن في هذا المبنى ثمة فتيات يرتدين أسمالًا مثلها، فلا تلفت انتباههن. تعثر على المغسلة من دون صعوبات والباب الخلفي الذي يفضي إلى زقاق ملآن بالقمامة. تقفز من فوق أحد الأسوار، وتصل إلى الشارع، لكنها تسمع فجأة صافرة. لقد رأوها.

تنطلق راكضة. يُحالفها الحظ حين تعثر على مجرور مفتوح. لن يتمكنوا من اصطيادها وهي هناك في الأسفل. اجتازت المجارير سابقًا في مرات عديدة لتدخل وتخرج إلى ومن مدريد، وتعرف كيف تُحدد طريقها تحت الأرض. تتمكن من العودة إلى الشارع على بعد عدة مربعات سكنية. تخرج بالقرب من قصر «دوقة سويكا»، على بعد عدة أمتار من ميدان «الشعير»، بعد أن اجتازت هذه الأنفاق العفنة زحفًا، وسط صراخ الجرذان. لا جدوى من مواصلة السير عبر مدريد، ففي كل مرة سيتعرف عليها أحد وستستمر في الهرب. لا بديل أمامها غير الاختباء، وربما تعرف أين تحديدًا.

حين يعود دييجو إلى غرفته في شارع «الأثرياء»، يجد أرضيتها ملأى بخصل شعر حمراء، لأن لوثيا تجز شعرها من جذوره بشفرة الحلاقة وهي جالسة على المقعد أمام المرآة. تلتفت حين تسمع ضوضاء الباب، فينظر إليها في صمت وهو يتساءل ما إذا كان تعبير الفتاة البائس حقيقيًا أم حيلة من لصة متمرسة.

- يا للكارثة التي ارتكبتِها!

تضع لوثيا الشفرة في غمدها. فقدت شعرها الغزير الذي تحول إلى مجرد انعكاس للغروب فوق جبهتها. تبدو كواحدة من هؤلاء الفتيات الفقيرات اللاتي تجز أمهاتهن شعورهن لكيلا يتغذى القمل عليها.

- لا أريد أن يتعرف أحد عليَّ في الشارع.

- هذا لأنك هربتِ من هنا. كيف دخلتِ؟

ترفع لوثيا كتفيها. يُخجلها الكشف عن حيلها كصعلوكة.

- ما المبلغ الذي تحصلتِ عليه من بيع الإطار الفضي؟
- آسفة. سأعيد لك القيمة التي يساويها. أحتاج إلى مساعدتك.
- قبل أن تطلبي مساعدتي، أحتاج إلى إجابة منكِ عن سؤال واحد، هل قتلتِ مارثيال جارِّيجيس عملاق الماخور؟
- أجل، لكن لأنه كان سيقتلني. الأمر وما فيه أنني سبقته. حاول أن يقتلني مرتين.
- احكي لي كل شيء، من دون أكاذيب. مجرد كذبة واحدة، وسألقي بك في الشارع.

تستشعر لوثيا غريزيًّا أنها ليست لحظة تزيين قصتها ولا مزج الحقائق بالاختراعات. تثق في هذا الرجل بالصورة المندفعة ذاتها التي وثقت بها في إيلوي. هكذا تصب كل تركيزها على ترتيب قصتها. تحكي له القصة منذ وفاة أمها حتى اختفاء كلارا، وتتمعن هذه المرة في التفاصيل التي أدت إلى مقتل العملاق.

- لاحقني بسبب الخاتم الموجود مع كلارا. حسنًا، الذي انبغى أن يكون موجودًا مع كلارا، لأنها أعطته للسيدة دي بيافرانكا لتبيعه بسعر جيد.

يُمسك دييجو ورقة، ويرسم بقلمه ما يتذكره من الشارة التي عثر عليها الدكتور آلبان في فم بيرتا. إنهما المطرقتان المتقاطعتان اللتان تشكلان علامة ضرب.

- هل ظهر هذا الرسم فوق الخاتم؟
- أجل. هل رأيته؟
- رأيته. ليس على خاتم، وإنما شارة.
- امتلك أحد كهنة «كنيسة القديس فرانسيس العظيم» خاتمًا مشابهًا.

ينظر إليها دييجو باهتمام.

- أي كاهن؟
- كاهن عيناه زرقاوان ويرتدي زنارًا بنفسجيًّا. قال لي الأخ براوليو إنه رئيس الدير وإنه قُتل بالأمس.

الأخ براوليو. الحيوان الذي صنع المرقأة للراهب الجريح وهدد دييجو باقتلاع رأسه؟

- ولماذا تعرفين الأخ براوليو؟

- قال لي إنه سيساعدني في العثور على الخاتم. هذا هو الخيط الوحيد الموجود لديَّ لاستعادة أختي. اتفقت على مقابلته في الدير.

- أنت لا يمكنكِ الخروج إلى الشارع. يبحث الحرس عنكِ. مهما حلقت شعرك، فسيظل رأسك كحقل خشخاش. لن تقطعي أكثر من أربع خطوات، وستجدينهم ينقضون عليكِ.

- لكن يجب أن أجتمع معه.

- سأجتمع أنا.

- لماذا؟ ما أهمية أن أعثر على أختي بالنسبة إليك؟

- أود أن أساعدك. انتهى الكلام.

- يبحث الكل عن شيء في المقابل.

ينظر دييجو بإمعان إلى هذه الفتاة المرتابة.

- حسنًا. أبحث عن شيء ما، عن خبر. سيجعلني العثور على أختك أشهر صحفي في مدريد. هل ستسمحين لي الآن بمساعدتك؟

تبدو لوثيا كأنها تفكر في الأمر لبعض ثوانٍ.

- هل يمكنني أن أنام هنا؟

- أجل. بالطبع. لم يعد يوجد شيء هنا يمكن سرقته.

- أعرف. الشيء الوحيد الذي استحق العناء هو الإطار الفضي. بقية الأشياء قديمة.

يُقوس دييجو حاجبيه في إيماءة مضحكة. يعرف تمامًا أن حياته متواضعة، لكن لا يروقه أن توضح هذه الفتاة التافهة العاجزة عن الاستقرار الأمر له بهذه الصورة.

- آسف لأن هذا ليس قصرًا.

- لا أعرف كم من الوقت يتبقى لأختي. اختفت منذ أكثر من يوم. لو أن العملاق أو «الوحش» أو أيًا كان اسمه، قد تركها محبوسة، فربما هي تحتضر الآن.

لم تسمح الفتاة بأن تنحرف المحادثة نحو المزاح. إنها بائسة. صار سواد عينيها بئرًا يخاف المرء أن ينظر إليها.



تبدو «كنيسة القديس فرانسيس العظيم» كساحة معركة مهجورة. تستقبل عوارض مكسورة ولوحات زيتية ممزقة، ورخام ومنحوتات محطمة متعددة الألوان، الزائرَ الذي يتجرأ على الاقتراب منها. لا يعرف أحد ما إذا كان تَجَبُّر الشعب سيستمر ليتفجر الجنون الجماعي في أي لحظة، أم أنه قد استسلم أمام مرور الساعات ومراقبة «الحرس الملكي» المتقطعة نوعًا ما.

يتوغل دييجو عبر أحد الأجنحة الجانبية ويتساءل متى سينتهي الخوف وستعود الأحوال إلى طبيعتها كي تبدأ كتيبة متخصصي الصيانة العمل الذي تحتاج إليه دار العبادة بصورة مُلحة. يُشعل كاهن مسن بعض الشمعات إلى جوار المذبح. يسأله دييجو أين يمكنه أن يجد الأخ براوليو.

يقول الرجل وهو يرشم الصليب:

- إنه يتأمل في صومعته.

يُطفئ تيار هواء الشمع الذي أشعله للتو. تقاوم واحدة، كأنها شعلة أمل، فيستخدمها لإشعال البقية مرة ثانية.

- أين هي الصومعة؟

يظل الرجل المنغمس في مهمته صامتًا بضع ثوان تبدو أبدية بالنسبة إلى دييجو. حين يتحدث، يبدو كأنه قد سأله سؤاله منذ زمن.

يهمس الرجل كأنه لا يود أن تنطفئ الشموع إن تحدث بصوت عالٍ:

- في ملحقات الدير، وراء الردهة.

يتوجه دييجو نحو الردهة. يصل إليه تحذير هامس، كأنه يأتيه زحفًا فوق الأرض الحجرية:

- لا يروق الأخ براوليو أن يقاطعه أحد وهو يتأمل.

يتخطى دييجو الردهة التي تظل محتفظة بهدوء غير طبيعي، كأنها بعيدة عن المذبحة الأخيرة. يقوده ممر ملآن بتجاويف القباب نحو الصوامع ويعثر سريعًا على الأخ براوليو. يجلس الراهب فوق مقعد من دون مسند، برأس محني. تخترق أشعة الشمس النافذة وتغمر جسده بضوئها. يراقب دييجو الراهب بضع لحظات، وهو في ردائه الكنسي البني وثابت كتمثال من الفخار. فجأة ينتصب رأسه، بحركة عضلية واحدة، كأنه قد تحرك بفعل زنبرك.

- ما الذي تفعله هنا؟

ينطلق السؤال من دون أي تكلف أو رسميات وبنبرة غير ودية.

- أتيت لأتحدث معك.

ينظر إليه الراهب من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، فيقطب وجهه حين يتعرف على المخادع الذي لم يعرف أصلًا كيفية صنع المِرقأة.

- أنت من تنتحل هوية طبيب. ألا تخجل من خداع الناس في ظل الوباء؟

- كان لديَّ أسبابي، لكن أيًا منها لا يخصك. في الواقع أنا صحفي.

- وهل من ضمنها إعطاء أمل شفاء زائف من دون أن تعرف ما الذي تتحدث عنه؟ لا أتخيل شيئًا أكثر بؤسًا من هذا.

- ربما الدين؟

يعرف دييجو أنه قد يدفع ثمن سخريته غاليًا.

ينهض الأخ براوليو ويقترب منه متوعدًا:

- هل أنت صحفي فعلًا أم أنها خدعة أخرى؟

- أنا صحفي. أجري تحقيقًا حول خاتم قد يكون مهمًا في إيضاح ظروف حادث قتل.

- إذن أنت تجري تحقيقًا حول خاتم.

ينهض الأخ براوليو ليتمشى عبر صومعته حائرًا، إلى أن يمسك فجأة ومن دون إنذار مسبق دييجو من رقبته ويدفعه عند الحائط لمحاصرته.

- ما الذي تعرفه عن الخاتم؟

- لا شيء.

يختنق دييجو. تبدو نظرة الراهب محتقنة بالدم، ويده المشعرة تقبض على قصبته لمنع مرور الهواء.

- إما أن تقول لي ما تعرفه عن الخاتم وإما أنك ستموت هنا.

تصدر من دييجو مجرد قرقرة. يسقط بعدئذٍ منهارًا وهو يسعل حين يُفلته الأخ براوليو، لكن الهجوم لم يكن قد انتهى بعد. يمسكه الآن من قميصه ويرفعه ويمضي به نحو الفراش.

- تحدث! تحدث وإلا قتلتك!

- لا أعرف شيئًا عن الخاتم. كل ما أعرفه أن شارة عليها المطرقتان المتقاطعتان نفساهما ظهرت مغروزة في منبت حنجرة بعض الفتيات الميتات.

على الرغم من قسوة الراهب، يتغير تعبيره حين يسمع الأمر.

- فتيات ميتات؟

- مقتولات، بيد «الوحش».

- ما الذي تقوله؟ ما علاقة هذا الخاتم بـ «الوحش»؟

- لا أعرف. انتظرت منك أن تساعدني.

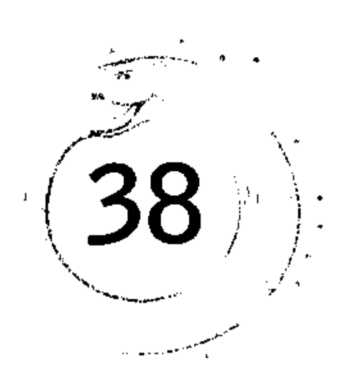
لا تهدأ غضبة الأخ براوليو، فيبتلع دييجو لعابه حين يرى حدقتيه تضطرمان وتشتعلان من فرط التفكير والارتباك. يفك نيبس أصابعه ويفتح ويغلق قبضته سرًا، تحسبًا لاضطراره إلى الشجار.

يزأر رجل الدين فجأة:

- ارحل. لا أريد أن أراك ثانية.

لا يستعيد دييجو إيقاع تنفسه الطبيعي إلا بعد ابتعاده عدة مربعات سكنية. بعيدًا عن العنف، ثمة شيء مظلم في هذا الراهب، شيء خطير. يلتفت عدة مرات توجسًا من أن يلاحقه. يفكر: «لوثيا ليست في مأمن». قد يذهب هذا الرجل بحثًا عنها لو عرف أين تسكن، بل والأسوأ من هذا، أن الفتاة قد تتوجه بنفسها للقاء الراهب من دون أن تدرك مدى إدارته الكارثية للأمر برمته. مع ذلك، إن نظر المرء إلى الأمر جيدًا، فإنها ليست كارثية جدًّا، فالراهب ككل الأشخاص الغضوبين، قدم له معلومات أكثر من التي حصل عليها في أثناء استجوابه الحاد، لا بد أن هذا الخاتم قطعة مهمة في حل اللغز.

يمضي دييجو بحثًا عن حانة لينسى تجربته الصعبة. بينما يفكر في أنه يجب ألا يترك لوثيا في بيته يومًا آخر، يجد نفسه يعرف من يُمكنه مساعدته في مراقبتها.



صار الإعجاب متبادلًا بين آنا كاستيلار ولوثيا بمجرد أن التقيا، كأن تجاذبًا خاصًا أو جسرًا قوامه الود المتبادل امتد بينهما ليمحو أي عراقيل بين السيدة الأرستقراطية، ساكنة القصر، زوجة وزير الملكة الوصية، وابنة غسالة نهر مانثاناريس، ذات الأعوام الأربعة عشر التي عملت عاهرة، ووُلدت في حي «لاس بينيولاس»، الذي لم تسمع عنه الدوقة أصلًا.

تحدثتا عن كلارا، و«الوحش»، والفرار، وبيت «اللبؤة»، وأيضًا عن أذواقهما، وعن الخوف الذي تشعر به لوثيا من انكشافها، وعمل آنا في «محجر بالبيردي» وزوجها، دوق ألتويانو.

- من غير الممكن أن تجهلي القراءة والكتابة. ما من أحد سيقدر على الوصول هكذا إلى أي مكان، سأعلمك بنفسي.

لم تنتظرا أكثر من هذا، إذ حظيتا بالوقت الكافي لبدء عملية التعلم إلى أن يفرغ دييجو من مساعيه. تدفع آنا لوثيا مرة تلو الأخرى لكتابة الحروف المتحركة بصبر لا نهائي باستخدام الأوراق، وريش الكتابة، والحبر الذي يحتفظ به الصحفي في منزله.

- حين تعرفين الحروف المتحركة، سنكون قد قطعنا جزءًا من الطريق.

تقضيان ساعات عديدة وهما تكرران الأمر نفسه. تتعلم لوثيا سريعًا. إنها ماهرة مع ريشة الكتابة. تقدر بعد ساعتين على خلق حروف تشبه جدًا تلك التي وضعتها آنا كمثال بل والتعرف عليها. تتسلى السيدة الأرستقراطية أيضًا وهي تعلمها، بل وبدأت تفكر كيف يُمكن أن تُدرِّس لها الأرقام والعمليات الحسابية الأربع، بل وفي تزويدها ببعض المفاهيم الأساسية عن الثقافة كي تتمكن من فهم العالم الذي تعيش فيه وتخرج من الجحيم التي سكنتها حتى الآن. تشعر بالسعادة لأنها لبت نداء الصحفي وسمحت لما بدأ كمجرد لقاء مع عشيق باكتساب مثل هذه الأهمية في حياتها. يختلف هذا السكن الصغير، الذي يتشارك حمامه مع بقية سكان الغرف الأخرى الموجودة في الطرقة، جدًا عن قصرها في شارع «لا أورتاليثا»، ومع ذلك تشعر بالراحة داخله.

يعود دييجو في الوقت المناسب، حين يبدأ صبر لوثيا في النفاد من الفروض التي تُكلفها بها معلمتها. مع ذلك لا يزال لديها بعض الحماس لتظهِر تطوراتها للصحفي، خمسة حروف متحركة يُمكن التعرف عليها بشكل كبير.

- دونيا آنا وعدتني بأنها ستعلِّمني القراءة والكتابة.

تبدو الفتاة سعيدة، رغم إرهاقها. تسمح للبالغَين الموجودَين معها أن يتحاورا كأنها ليست موجودة. تفضِّل أن تبقى صامتة وتسمع ما يقولانه. من يعرف، فربما تلتقط شيئًا يُساعدها في العثور على كلارا.

ما إن رأى دييجو آنا، حتى تذكر فجأة كيف تروقه هذه المرأة وكيف يحب صحبتها. يبدو جمالها كأنه يُضيء الغرفة كعشرة مصابيح زيت، والأكثر إثارة للدهشة أنها تشغل الغرفة كأنها قد وُلدت فيها، من دون أن تُبدي أدنى مؤشر على الانزعاج من جلوسها على فراش القش، كي تتمكن الفتاة من استخدام الكرسي الوحيد المتاح. توقفت آنا منذ تلك الليلة التي قضياها في سطح المبنى عن استخدام قناع اللامبالاة الذي يفرضه عليها وضعها الاجتماعي، فالآن هي على طبيعتها، طوال الوقت، من دون خوف من إظهار أفكارها وأحاسيسها. يشعر دييجو بالفخر نوعًا ما من تمكنه من خلق هذا المناخ من الثقة المشتركة، ولا يتأخر في إخبارها بالمستجدات التي جاء بها عن «الوحش»، إذ إن صاحبة البيت سلمته وهو يدخل الخطاب الذي انتظره جدًا من زميله الفرنسي.

- شهدت باريس ثلاث حوادث قتل لفتيات تتراوح أعمارهن بين أحد عشر وثلاثة عشر عامًا، كما هي الحال في مدريد. حدث هذا الأمر منذ عام ونصف، وبالصورة نفسها التي بدأت الجثث تظهر فيها، توقف الأمر فجأة. وفقًا لزميلي، حدث الأمر نفسه منذ عامين في لندن. تختفي الفتيات ويستغرق الأمر عدة أسابيع قبل العثور عليهن، وفي كل الحالات، بعد وقت قليل من موتهن.

- مثل مدريد؟

- أجل، كحال مدريد. يختطفهن أحد ما ويحتجزهن طيلة أسابيع أو شهور ويقتلهن. الأمر الغريب في باريس أن أيًّا منهن لم تتعرض للاستغلال الجنسي. ظللن عذراوات، إلى درجة أن الصحافة أطلقت عليهن لقب «العذراوات المستنزَفات».

- وهنا؟

- هنا لم تُفحَص الجثث تقريبًا. جثة بيرتا هي الوحيدة التي حصلت على بعض الاهتمام، وحدث هذا فقط بسبب إصراري وتعاون الدكتور آلبان. كانت بيرتا عذراء، كحال هؤلاء الفتيات.

يعرف دييجو أنه يفتح أسرار حياته وعمله وتحقيقه الذي استغرق منه أيامًا أمام هذه المرأة، وعلى الرغم من أن هذا هو الأنسب، لا يُمكنه أن يطلب منها أن تعتني بلوثيا من دون أن يشرح لها من هي وماهية المشكلات التي تورطت فيها، لكنه يشعر براحة بال من وجود شخص إلى جواره يُشاركه قلقه حول ما يحدث لأكثر فتيات مدريد افتقارًا إلى الحماية. لقد صار هو وآنا الضامنين الوحيدين لذكراهن.

يهذي كلاهما وهما يبتكران تفسيرات للأمر، ثمة سفاح -ربما هو مارثيال جارِّيجيس- سافر عبر العواصم الأوروبية لقتل الفتيات. لو أن الأمر صحيح، و«الوحش» قد مات، فمن الذي يعتني بهؤلاء الفتيات إذن؟ هل لديه شريك في الجريمة؟ هل هو عالم اللاهوت إجناثيو جارثيا؟ مع ذلك وصلا دائمًا إلى نقطة لم يتمكنا من تجاوزها، لماذا؟ لماذا يجب انتظار عدة أسابيع قبل قتلهن وبخاصة أنهن لم يتعرضن لأي انتهاكات؟ لماذا أسابيع في بعض المرات وشهر أحيانًا أخرى؟ تتعاون آنا كأنها تُشارك في صُنع حبكة لإحدى الروايات المتسلسلة، فتقدم نظريات، بعضها سخيف والآخر ممكن.

يسأل دييجو:

- ماذا لو أنها مؤامرة؟

- كل سكان مدريد يعرفون أن المدينة ملأى بها. تعرض الملك الآثم[1] لمؤامرات وهو حي، وتتعرض الملكة الوصية لها، أو ربما الكنيسة أو «الميثاق الملكي». ثمة تمرد أو فتنة تُطبَخ داخل كل سهرة سمر، أو أن هذا هو ما يقوله زوجي.

- هل عرف زوجك رئيس «دير القديس فرانسيس العظيم»؟ أعرف أنه كان المأمون على اعترافات الملكة الوصية.

- أنا لا أتحدث معه يا دييجو، لكن أفترض أنه يعرفه. يعرف زوجي الجميع.

ثمة شيء حزين في كلماتها، لكنه في الوقت نفسه مبشِّر، إذ تتضمن تصريحًا كي يستمر في اعتياد رفقتها.

يسألها:

- هل تظنين أن أحد هذه الاجتماعات قد شهد تشكُّل الكره ضد الكهنة؟

- ينبع هذا الكره من الجهل، أو من الخوف من المجهول. ما من أحد يفهم هذه الجائحة التي تخلِّف قتلى يوميًّا، لكن يحتاج الناس إلى الإيمان بشيء ما، إلى أن الأطفال أو الكهنة أو الكارليِّين يسمِّمون الماء. كلها حماقات. الكوليرا جاءت من مصر وقتلت كثيرين في أنحاء كثيرة قبل الوصول إلى مدينتنا. كل ما يُقال بخصوص المساحيق التي تُلقى في النوافير مرده إلى الانقياد وراء الخرافات. لقد حانت ساعة أن تثق إسبانيا في العلم أكثر من السحر.

على الرغم من تظاهرها باللامبالاة، لم تفقد لوثيا مقطعًا واحدًا قاله البالغان. يُبهرها حسم آنا، إذ إنها لم تسمع قبلئذ قط امرأة تتحدث بمثل هذه القناعة. تشعر بسبب جانبها الميال إلى الخيالات بأنها طفلة منشغلة في أمورها تسمع أبويها وهما يتحدثان. هكذا تتخيل المساء كله، سيتحدثان، فيما تُنهي هي فروضها المدرسية، وبعدئذٍ سيفكرون جميعًا في تجهيز شيء

(1) المقصود هو الملك فرناندو السابع وعُرف بهذا الاسم بسبب عدم إخلاصه للشعب الإسباني وطريقة حكمه الشائنة. (المترجم).

للعشاء. سيسألانها ما الذي قد يروقها. ستقول إنها تود أن تأكل البطاطس المهروسة بالثوم وبعض المساريق، وستبدو لهما فكرة رائعة. سيشرعان في تحضير العشاء وسيأكل ثلاثتهم معًا وهم يمزحون ويتحدثون بخفة دم، وسيستمر هذا المزاج الرائق حتى ساعة النوم، كعائلة طبيعية. لكن عائلتها لا يمكن أن تكون طبيعية، لأنها لا تتذكر أباها، وليس لديها أم، وأهم شيء أن كلارا تنقصها. لن تصبح سعيدة أبدًا إن لم تظهر أختها. لا فائدة كبيرة من وعود دييجو وآنا بالعثور عليها، إذ لم تعد لوثيا تصدق منذ فترة كبيرة قصص ما قبل النوم.

تنصت لوثيا إلى الكيفية التي يستمر بها نقاش آنا ودييجو بصوت خفيض وهما جالسان على الأرض ورأس كل منهما مستند إلى حافة حاشية الفراش. يحكي لها عن وضعيتها المعوزة، وكيف أنه شعر تجاهها بمودة فورية، وعن حياتها في «لاس بينيولاس»، وأمها المريضة، واعتناء السيدة دي بيافرانكا بها.

- السيدة دي بيافرانكا؟ أنا أعرفها، فهي تتعاون مع «المجلس الخيري».
- تقول لوثيا إنها احتفظت بالخاتم الذي يخصها.
- هذا ليس ممكنًا، فهذه المرأة لديها مال أكثر مما قد تتمناه. أنا وزوجي إلى جوارها سنبدو كشحاذين، أيضًا إنها متصدقة معروفة. لا تبخل بريال ومستعدة دائمًا للمساعدة، بل إنها من المقرر أن تُجري مزادًا لأغراض فنية متبرَع بها غدًا. لا يزال المحجر قادرًا على العمل بسبب سيدات مثلها.
- هل تعرفين أين سينعقد المزاد؟
- يمكنني أن أعرف.

جهز دييجو خطته بالفعل، سيتوجه إلى المزاد وسيتحدث مع هذه المرأة. صارت لديه قناعة بعد التحدث مع الراهب، بأنه يجب استعادة الخاتم ومعرفة ما الذي يعنيه للعثور على كلارا.



لا يُصيب تخمينه من المرة الأولى، فيمر في صباح ذلك السبت على ثلاث حانات إلى أن يعثر على دونوسو في حانة «الحمامة» في شارع «المُقَدَّرون» التي لم يتردد عليها منذ فترة. يشرب الحارس الملكي كأسه الثانية من «الأجوارديينتي»، فيتلجلج أحيانًا في حديثه.

- رأيت الصهباء أمس في مأوى اللقطاء. أوشكت على الإمساك بها لكنها فرت. هذه الفتاة سريعة كأرنب بري. حاصرتها، لكنها تبخرت تحت الأرض.

يُمسكه دييجو من معصمه في اللحظة نفسها التي يصب فيها لنفسه كأسًا أخرى:

- أريدك أن تتوقف عن ملاحقتها.

- لماذا؟

- لأن هذه الفتاة ضحية، ولأنني أطلب هذا الأمر منك.

تُفلت من دونوسو ضحكة ساخرة. بعدئذٍ يصب لنفسه فعلًا كأسًا أخرى من «الأجوارديينتي».

- وميداليتي؟

- سأجعلك تحصل على ما هو أفضل منها. لم تنتهِ قضية «الوحش». أظن أنها أكبر مما حسبناه. ساعدني في الاستقصاء وستكلَّل أنت بكل أوراق الغار.

- اترك أوراق الغار للحساء، لقد طُلب مني إلقاء القبض على هذه الفتاة.

- سينسون الأمر. لو ساعدتني، فستلقي القبض على من هم أهم منها.

- مثل من؟

- من يروقك، بل إنك قد تلقي القبض على أسقف لو أنها رغبتك.

يحرك دونوسو الشراب الكحولي الموجود في كأسه ويُحدق بعينه السليمة إلى الصحفي. يصل الشراب مباشرة إلى حلقومه، من دون أن يلمس لسانه، فيبتسم دييجو حين يسمعه يقول:

- لم يرقني الكهنة قط.

أيًا كان عدد قرارات الحكومة بمنع التجمعات التي يزيد أفرادها على عشرة أشخاص، لن تنجح الكوليرا أبدًا في القضاء على أكثر عادة تُميز أهالي مدريد: جلسات السمر في البيوت الكبيرة. الضيافة علامة على الوجاهة، ويمكن لأي شخص صاحب علاقات جيدة أن يختار في كل مساء من جلسات مختلفة تتنوع بين السياسة والفلسفة والموسيقى والشعر وعالم العروض أو حتى النمائم والتعليقات البسيطة حول حياة الآخرين، وهو الأمر الذي تؤول إليه في النهاية كل التصنيفات السابقة. يعتاد دييجو رويث الذهاب إلى جلستَي سمر أسبوعيًا، واحدة في بيت محامي اسمه إيراديير، في شارع «كانيوس ديل بيرال» تتناول شؤون السياسة، وأخرى في بيت سيدة تُدعى أليثيا روبليس، في شارع «الأدميرال»، ويشمل الحديث فيها المسرح والأدب. مع ذلك ليس مهتمًا اليوم بأي منهما. ما يهمه هو لقاء السيدة إينماكولادا دي بيافرانكا التي احتفظت، وفقًا للوثيا، بالخاتم الذي حاولت كلارا أن ترهنه.

أخبرته آنا أن المزاد سينعقد في بيت ماركيزة بيمينتيل، وهو أحد أكثر بيوت مدريد أناقة. ارتدى دييجو ملابسه بصورة برجوازية أكثر من المعتاد، بسترة رسمية وربطة عنق فراشية، وطلب من دونوسو أن يفعل الشيء نفسه.

- أبدو كفندور متباهٍ.

- أنت لن تبدو متباهيًا، حتى وإن ارتديت ملابس دوق ألبا.

يقفان في مطلع شارع «القلعة» أمام رواق كبير. ثمة درع محفور فوق بروز حجري في شرفته. تنتظر عربة مزينة بصفائح من تروس السلاحف ومطعمة بالعاج عند البوابة. يستقبل الزوارَ حارسٌ يرتدي سترة رسمية ويعتمر قبعة «سومبريرو» طويلة الرأس. في الداخل، في القاعة، تشتمل جلسة السمر على أرقى المأكولات، مُعجنات بلحم طيور الحجل والأرانب البرية، وصينية خنزير صغير مشوي، وقطع صغيرة من الحلوى الفرنسية. تتبختر سيدات ذات شأن هنا وهناك بتسريحاتهن المستحيلة وفساتينهن المصنوعة من الحرير البالنثي[1]، وينظرن إلى أنفسهن بغنج في مرآة ضخمة من الزجاج الصخري تعود إلى القرن السابع عشر. يبدو أن الأثرياء لا يعرفون شيئًا عن قيود التجمع التي تفرضها الكوليرا، كأن دماءهم الزرقاء منيعة ضد المرض.

يندهش دييجو حين يجد المضيفة تتوجه نحوه على الفور.

- دون دييجو رويث؟ كانت لديَّ رغبة في التعرف عليك. أنت أنيق فعلًا كما يُقال عنك.
- شكرًا سيدتي الماركيزة.
- لا أتعجب من أن تفقد دونيا آنا كاستيلار عقلها بسببك.

لا يزال دييجو مدهوشًا. لم يتخيل أن علاقته الغرامية معروفة وأنها صارت مادة للمحادثات في البيوت العريقة.

- احذر من زوجها، الدوق. صحيح أنه معتاد مغامراتها، لكنها عادة لا تستغرق أكثر من ليلة واحدة، ويبدو أنك بدأت تستهويها. ما من رجل، وبخاصة إن كان وزيرًا للملكة، سيروقه أن يغدو حديث الناس في البلاط بسبب عادات قرينته الخليعة.
- أؤكد لكِ أن ما وصل إليكِ غير صحيح، سيدتي الماركيزة. دوقة ألتويانو امرأة ذات أخلاق لا غبار عليها، وأتشرف فقط بصداقتها.
- لا تأت إليَّ بترهات يا رويث، ففي مدريد نعرف بعضنا جيدًا، أقصد بالطبع، كل من لهم أهميتهم. قالوا لي إنك تريد لقاء دونيا إينماكولادا دي بيافرانكا. ستراها اليوم هنا، لكن في وقت لاحق، نحو السابعة.

(1) نسبة إلى مدينة بالنثيا. (المترجم).

أعلنت كونتيسة سوتوجراندي حضورها في اللحظات الأخيرة، ولا يمكنني تسليتها بمزاد خيري بسيط. أنت تفهمني، ولهذا تعاقدت مع فريق رباعي من عازفي الآلات الوترية من الصف الأول.

- إذن سيبدأ الأمر في السابعة؟

- ربما يتأخر قليلًا، لكن اعتبر نفسك ضيفي حتى يبدأ.

تقول بإيماءة تضم دونوسو:

- لو أنكما ترغبان في الانضمام إلى الرجال، فستجدانهم يدخنون في الصالون الواقع عند نهاية القاعة.

أجواء صالون التدخين أكثر اعتدالًا ورجولة، بل إن الأطعمة نفسها تتغير. ثمة أجبان وأنواع مختلفة من النبيذ ومعجنات باللحم الأحمر والحنكليس. يأسر رجل أنيق اهتمام الحضور بخطاب عن غضب المواطنين في بعض كنائس المدينة.

- التفكير في أن الرهبان يُسمِّمون الماء أمر سخيف. أعرف هذا فعلًا، لكن المسألة ليست سوى رد فعل من الشعب تجاه الشائعة التي أطلقتها الكنيسة وتُلقي فيها بالذنب على الفقراء. مات أكثر من ثمانين راهبًا، ودعوني أقل لكم شيئًا، سيموت المزيد، لو لم يتوقفوا عن دعم الكارليِّين.

يجد دييجو في هذه الكلمات صدى لأفكاره. يتفهم في أعماقه لِمَ انفجر الشعب ضد الكهنة. لا يُبرر ما فعله الشعب، لكنه يتفهمه. حمَّلت الكنيسة الفقراء مسؤولية الوباء لأنهم أعطوا ظهرهم للرب، وقالوا إن الكوليرا غضب منه وإنها جاءت لمعاقبتهم لأنهم دنسوا المقدسات. والحكومة؟ ما الذي تفعله للمساعدة؟ لا شيء سوى أنها تهدم بيوتهم وتغلق أبوابها في وجوههم وتتركهم يموتون من الجوع على الجانب الآخر من «الجدار». يعرف دييجو جيدًا إلى أي صف يقف في هذه الحرب. لن يستغرب إن أقدم الفقراء من فرط استيائهم ويأسهم على التوجه نحو قصر «المزرعة» لاقتياد الملكة الوصية إلى المشنقة، وبخاصة بعد أن اجتاحوا الأديرة.

لا يتوقف عن الإنصات إلى آراء المشاركين في جلسة السمر، فربما قد تساعده في كتابة مقال رأي، لكنه لا يزال بعيدًا عن التطلع إلى هذا الأمر فعلًا، إذ إن كاتب مقال الرأي صاحب أوجَه وظيفة في عالم الصحافة، ويتكفل بها في جريدة «إل إيكو ديل كوميرثيو» مورينتين بنفسه.

حين يبدأ الطعن اللاذع والخطب المسهبة في التكرار، يتملك الملل من دييجو فيبحث عن صحبة دونوسو الذي فضل الاقتراب من مائدة النبيذ والطعام، ولم يتأخر في التحاور مع بعض الأشخاص. يتحدث الآن مع رجل أنيق.

- دييجو، هل تعرف دون أسينثيو دي لاس إيراس؟ إنه دبلوماسي. عمل سفيرًا في لندن. أقدم إليك صديقي دييجو رويث.
- دييجو رويث؟ ألست صحفي «إل إيكو ديل كوميرثيو»، الذي يوقِّع مقالاته باسم «القط المستخف»؟
- بشحمه ولحمه.
- اسمح لي بسؤال، ما هو سبب «القط»؟
- كما يُقال عن أهالي مدريد، وأنا منهم، على الرغم من أنني ابن المدينة بالتبني.
- إنها مدينة رائعة، حتى وإن مرت بلحظات شديدة الصعوبة.

السفير رجل لطيف ويسهل إرساء محادثة معه. يتحدث بطريقة آسرة عن حياته في لندن والعادات البريطانية المختلفة جدًّا عن نظيرتها الإسبانية.

- أعرف اسمك المستعار بسبب المقالات التي نشرتها عن «الوحش». تأخيرها إلى الصفحة الرابعة أمر مؤسف. إنها مقالات ممتعة.
- ستكون ممتعة لو أنها ليست حقيقية. بالنسبة إليَّ تبدو مرعبة.
- حضراتكم يا أهل الصحافة تروقكم هذه النوعية من الأخبار جدًّا، سيكون الأمر أفضل لو تخصصتم في كتابة روايات الألغاز.
- يقولون إن إنجلترا فيها شغف حقيقي بهذا النوع من الأدب.
- يجذبني المسرح بشكل أكبر. لم أكن قارئًا عظيمًا قط. أتمنى ألا تعتبرني غير مثقف.

يمضي دييجو بين المدعوين بالتناوب ويجمع معلوماته عن المزاد الذي ترعاه السيدة دي بيافرانكا لصالح مأوى اللقطاء. سيُباع في المزاد منديل من حرير الهند الرفيق، ومجلدان من كتاب «فن الفروسية»، مع أختام وساعة برونزية مصنوعة في ألمانيا، وملاكان مذهبان فوق قاعدة، من أعمال دورر[1].

(1) المقصود هو الألماني ألبرخت دورر، وهو من أشهر فناني عصر النهضة. (المترجم).

يحضر الحدث بعض باعة التحف الذين يأملون في الخروج بصفقة رابحة لمتاجرهم. يقترب بعضهم من الباب، فيخمن دييجو أن مرد هذا الاضطراب إلى وصول السيدة دي بيافرانكا التي تُبهر الجميع بمجرد ظهورها بأناقتها وجودة فستانها والجواهر التي تتزين بها.

يتقدم دييجو قبل بدء المزاد.

- دونيا إينماكولادا دي بيافرانكا؟

- هل أعرفك؟

- لا. اسمي دييجو رويث. أنا صحفي في «إل إيكو ديل كوميرثيو»، لكنني أوقِّع مقالاتي باسم «القط المستخف».

- آه! أنت من كتب عن «الوحش» منذ البداية. بالحديث عن الأمر، يقولون إن «الوحش» قد مات وإن فتاة ما قتلته. حسنًا، لو أنه «الوحش»، فقد مات هذا الرجل منذ يومين. المقال الذي نُشر في «إل أوبسيربادور» رهيب. كيف لطفلة أن تقتل هذا العملاق؟ كيف لها أن تقتل رجلًا مصقولًا في الجيش!

- أخشى أن بايستيروس لم يحظ بالمعلومات الكافية وانطلق قبل الأوان ليحكي ما لديه.

- ما هي المعلومات التي تشير إليها؟

- أفضِّل أن أحتفظ بالإجابة لنفسي إلى أن أجمع كل قطع اللغز. ربما يمكن لسعادتكِ أن تساعديني. وفقًا لما أفهمه، معكِ خاتم ذهبي، عليه ختم محفور لمطرقتين متقاطعتين في شكل علامة الضرب.

يخفض صوته ويُسقط النبأ:

- أخبرتني أخت مالكته السابقة بالأمر.

تُمسك السيدة دي بيافرانكا دييجو من ذراعه، وتمضي به مسرعة نحو أحد الأركان.

- هل تعرف أين هما هاتان الفتاتان كلارا ولوثيا؟

يقيس دييجو كلماته. هل يُمكنه أن يثق بهذه السيدة الأرستقراطية؟ هل قلقها الظاهر على الأختين حقيقي؟

- أعرف أين هي لوثيا، لكنني لن أخبرك، للحفاظ على سلامتها، لكنني لا أعرف أين هي كلارا. من المحتمَل أن تكون قد سقطت بين يدَي «الوحش» قبل مقتله لو أن «الوحش» هو مارثيال جارِّيجيس. لا نعرف ما إذا كانت كلارا على قيد الحياة، ولهذا السبب تحديدًا أحتاج إلى الخاتم. من الممكن أن يساعدني في العثور عليها.

- كانت نيتي أن أضعه في المزاد هذا المساء وأسلِّم المال للفتاتين، لكنني ندمت. ربما تحسبني مجنونة، لكن راودني حدس سيئ، وبعدئذ عرفت أن لوثيا...

يستقر الشك نفسه في نظرة السيدة دي بيافرانكا. هل هذا الصحفي الذي يبدو منزعجًا في ملابسه البرجوازية جدير بالثقة؟

- يمكنك أن تحكي لي ما يقلقك. بعيدًا عن مقالاتي، لا أريد سوى الأفضل لهاتين الفتاتين.

تتنهد وتقول:

- لدي صديق ساعدني في تجهيز المزاد وأبدى اهتمامًا غريبًا بالخاتم. طلب مني ألا أعرضه للبيع، وقال إنه سيشتريه مني في التو واللحظة. فاجأني سلوكه. وصل الأمر إلى أنه عرض عليَّ مبلغًا أكبر من إمكانياته.

- من هو؟

- لا تنظر، هو يراقبنا، لكنه يقف إلى جوار مائدة الطعام. اسمه دون أسينثيو دي لاس إيراس.

- الدبلوماسي؟

- هل تعرفه؟ إنه رجل سخي، لا غبار عليه. وقف جنبًا بجنب في أحداث عديدة مع «مجلس السيدات»، لكن اشتعلت عيناه بمجرد أن رأى الخاتم، ولهذا السبب قررت ألا أظهِره ثانية. ربما أنا محترزة أكثر من اللازم، لكنني أشك في نيات دون أسينثيو، أو ربما الأمر من تبعات رؤية مآسٍ كثيرة في الأوقات الأخيرة.

- سيدتي، لو أن الخاتم معكِ هنا، فأنا مستعد لمرافقتك للقاء لوثيا كي تُعيديه إليها.

تقترب ماركيزة بيمينتيل في تلك اللحظة وهي تقطب وجهها:

- سأضطر إلى توبيخك دون دييجو. لا يُمكن اختطاف منظِّمة المزاد الخيري بهذه الطريقة. ينتظرها كل ضيوفي.

- هذه ليست نيتي. اعذريني.

تتركها السيدة دي بيافرانكا تتأبط ذراعها، لكنها تلتفت قبلئذٍ لتهمس لدييجو:

- لا ترحل. سنتحدث بعد المزاد.

تُحضِّر متطوعتان مجموعة العرض الأولى. تحتشد مجموعة من المهتمين حول الطاولة التي توضع فوقها ساعة ذهبية مذهلة. يراقب دييجو دون أسينثيو ويتعجب حين يراه يتجه نحو الباب. هل من الممكن أن يرحل بهذه السرعة؟ يتقدم نحوه بالتصنع اللازم كي يبدو لقاؤهما مصادفة.

- هل ستغادر؟

- تأخر الوقت قليلًا بالنسبة إليَّ. حين يعيش المرء في إنجلترا، يصبح عاجزًا عن تحمل المواقيت الإسبانية.

يسلمه كبير الخدم قبعته وعكازه. يعجز دييجو عن تصديق ما يراه، فالعكاز المصنوع من خشب الماهوجني، يده من العاج.

يودِّعه دييجو مسرعًا، ويُباغت دونوسو وهو يمضغ بنهم قطعة من فطيرة الكُلى.

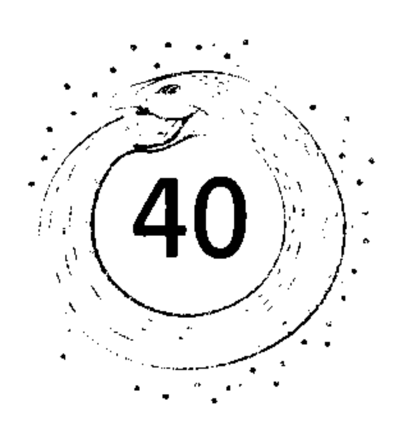
- دونوسو، عكاز أسينثيو دي لاس إيراس مزود بيد.

- إذن؟ هل تريد واحدًا مثله؟

- هذا ما قالته لنا زميلة جريسي عن الرجل الذي أخذها. سر خلفه، أما أنا فلن أغادر المكان من دون الخاتم. أنا واثق من أن هذا الرجل سيوصلك إلى جريسي. لا ترتكب أفعالًا مجنونة. امضِ خلفه فقط، أحتاج فقط إلى معرفة أين تعيش الممثلة الآن.

- إما أن غريزتي تخونني، وإما أن خطواتي وراء الدبلوماسي ستقودني إلى وكر أفيون أو ماخور. يا لها من طريقة يُرثى لها لقلب حال الليلة!

ينظر دونوسو بأسى إلى الأطعمة الموجودة فوق المائدة، لكنه وعد دييجو أن يساعده، لهذا يتوجه إلى البهو، وهو يحاول مضغ كل الطعام الذي وضعه في فمه.



شارك دونوسو جوال في عمليات تتبع كثيرة. يعرف كيف يمضي في طريقه من دون أن يلاحظه أحد. يسير على بُعد محسوب من أسينثيو دي لاس إيراس ويتوقف أحيانًا أمام أحد دكاكين الخياطة أو متجر للأحذية أو ورشة للأنسجة من تلك الموجودة في المنطقة لكيلا يلفت الانتباه. يجتازان شارع «إل باركيّو» في اتجاه شارع «القديسة بربارة». يدخل الدبلوماسي دكانًا لبيع الحلوى يقع في العمارة رقم 9 ويخرج بعدئذٍ ببضع دقائق وهو يحمل صينية ملأى بالحلويات ويمضي في طريقه. يفكر دونوسو: «إنها هدية لامرأة». ربما تكهُّن دييجو في جلسة سمر ماركيزة بيمينتيل خاطئ.

مع ذلك يبدو توقفه الثاني مُحيِّرًا بشكل أكبر، إذ إن الرجل بطريقته الأنيقة في السير، يتوغل في حي الحدادين ويدخل بيت «توكامي روكي» الشعبي عند تقاطع شارعَي «إل باركيّو» و«بيت لحم». ما من مكان لا يلائم سفيرًا مثل هذا المكان. تتضمن الأدوار السفلية ورشًا للحدادة، أما تلك العلوية فعاش فيها قبلئذ بعض أهل هذه الصنعة، لكن في الوقت الحالي صارت تشغلها سبعون عائلة تعيش في أسوأ الأوضاع ومن دون موارد تقريبًا. تُطرَد واحدة منها أسبوعيًّا تقريبًا بسبب تأخرها في السداد، ويتنازع المُلاك مع السلطات

كي تسمح لهم بهدم البيت، على الرغم من الشهرة التي اكتسبها من مسرحية «بترا وخوانا» لرامون دي لا كروث، التي تدور أحداثها في هذا المنزل الشعبي المتهالِك.

ينتظر دونوسو بصبر طيلة نصف ساعة، إلى أن يخرج أسينثيو دي لاس إيراس في النهاية ويستأنف مسيرته عقب النظر يمينًا ويسارًا. لا يمضي الأعور خلفه هذه المرة، إذ يثق الآن في أن جريسي موجودة في الداخل. جاء هذا الرجل لزيارة سجينته. لا يُمكنه أن يتخيل سببًا آخر كي يتردد رجل ذو شأن جدًّا مثله على هذا العقار القذر.

يجب عليه الآن أن يمارس عمله كشرطي، أن يزج أنفه في الداخل ويسأل بعض الجارات عن مستأجري هذا المكان. بعد استبعاد بعض الاحتمالات والتلصص عبر النوافذ والأبواب، ينتهي المطاف بدونوسو في الطابق الثالث الذي يصل إليه عبر درج مظلم وضيق بعض درجاته إما مكسورة وإما ناقصة. يتلاقى طريقه مع بعض الأطفال الذين يلعبون في الطرقات ونساء يتحدثن مع بعضهن بصوت عالٍ من داخل شققهن. تصل إلى هذا الارتفاع الرائحة النتنة القادمة من مرحاضَي الفناء اللذين يخدمان كل السكان.

يدعوه باب مفتوح متهالك إلى الدخول.

- جريسي؟

يسمع عند الجانب الآخر صوتًا خافتًا. إنه نحيب متقطع أو مونولوج لممثلة تراجع نصًّا. ينظر دونوسو إلى داخل الغرفة ويرى جريسي تفترش سريرًا لا يتعدى كونه مجرد لوحين من الخشب فوق مقعدين صغيرين. تغطي حصيرة من عشب الحلفاء قرضتها جرذان الأرض بأكملها. لا وجود لقطع أثاث في هذا المشهد الكئيب. تنبع إضاءته الوحيدة من القمر، فتتسلل عبر فتحة في السقف المائل، هي في الأصل كسر يدخل منه أيضًا البرد والمطر.

تجفل المرأة حين تراه.

- من أنت؟ ظننتك أسون التي تجلب لي الحساء.

- هل أنتِ جريسي.

تنظر إليه بريبة عبر شعرها الدهني الذي يغطي عينيها.

- ارحل وإلا استدعيت الشرطة.

- أنا الشرطة.

يقترب من الفراش فتنهض. حين يُبعد الخصلات التي تخفي وجهها، يتعرف دونوسو في هذه النظرة على براءة أسعد الأيام. إنها امرأة أضناها وأنهكها الزمن، بل ودهستها الحياة. مع ذلك فهي مفعمة بالقوة والتمرد. يتذكر كيف وصفها له دييجو ويعثر على معنى العظمة التي رآها الصحفي في هذه المرأة. لا يزال بعض جمالها كامنًا هناك على الرغم من ضربات الحياة التي حاولت دفنها. يجدها جميلة، إلى درجة أنه يشق عليه تذكر أي جمال مشابه مر عليه في حياته.

- ما الذي تريده مني؟

- أريد أن أعرف لماذا جاء الدبلوماسي لرؤيتك؟

تتمطى وهي تسأل:

- من؟

- لا تحاولي الكذب عليّ. لقد تبعتُه إلى هنا.

- أسينثيو، إنه يأتي لرؤيتي. إنه معجب. يقول إنه يروقه تمثيلي. جلب لي حلوى.

تُشير إلى الركن الذي تظهر فيه حزمة ملفوفة.

- هل تريد واحدة؟

- إنه عنيف نوعًا ما معكِ على أن يكون مجرد معجب. أخذك في ذلك اليوم بالقوة من إحدى البروفات، وأنتِ قلتِ لزميلة لكِ إنهم قد كشفوكِ. ما الذي قصدتِه يا جريسي؟

- جاء بحثًا عني في البروفة، لكنه لا يعاملني بشكل سيئ. يبحث عني آخرون.

- من الذي يبحث عنكِ؟

- رأسي يؤلمني، كل شيء يدور من حولي.

- هل دخنتِ الأفيون؟

تشيع أوكار تدخين الأفيون في الصين وشهدت الأحياء الصينية في المدن الأمريكية والفرنسية افتتاح العديد منها. يضم حي «إل رافال» في برشلونة عددًا كبيرًا منها، أما في مدريد فثمة واحد فقط. يقع في شارع «الصليب»

وليس معروفًا ويديره رجل صيني. يقولون إن الأفيون في باريس صار هواية يمارسها عدد ليس قليلًا من أفراد المجتمع الراقي، أما في مدريد فلا يتخطى كونه مجرد نشاط للمجرمين والساقطات، فهنا لا وجود لمراكع مزينة بالجمال ولا أراجيل مصنوعة بإتقان لتعاطيه، وإنما مجرد غرف صغيرة ملأى بالمراتب المتسخة المفرودة على الأرض، تنتصب فوقها جدران ملأى بالرطوبة والقذارة.

يحتبي دونوسو الأرض إلى جوار جريسي، العاجزة عن إيقاف نظرتها عند نقطة معينة، كأنها تطفو داخل ضباب ملتبس.

- هل ذهبتِ إلى شارع «الصليب» أم لا؟

ترسم جريسي دوائر برأسها، كأنها تود أن تستمتع بدوختها.

- رأيت تأثير الأفيون على الناس. أعرف أن المرء حين يجربه، يشق عليه أن يتوقف عن تعاطيه. شارع «الصليب» ليس مكانًا مناسبًا لامرأة مثلك.

تميل جريسي برأسها إلى أحد الجوانب وتنظر مجددًا إلى دونوسو، كأنه شبح في منتصف حلم. الرقعة الموجودة فوق عينه. زي الحرس الملكي الباهت. شاربه المهمَل. لماذا يضعها هذا الرجل في مكانة يجب أن تبتعد بسببها عن أوكار الأفيون؟ لا تقدر إلا على رسم ابتسامة واهية.

- امرأة مثلي؟ أنا والعدم سواء.

- أنتِ ممثلة مسرح. امرأة موهوبة. سافرتِ إلى باريس ولندن بأعمالك.

بينما تجلس فوق اللوح الذي يؤدي وظيفة حاشية الفراش، تترك جريسي جسدها يسقط نحو الخلف، فتستند بظهرها إلى الحائط وتغدو تعبيراتها حالمة.

- باريس، إنها فعلًا مدينة كوزموبوليتانية. لا أزال أسمع تصفيق الجمهور بعد كل عرض. لا أزال أرى الزهور التي ألقوها عليَّ. اعتدت أن أذهب إلى أفضل المطاعم وتلقيت دعوات لحضور حفلات حصرية، إلى أن ماتت ابنتي.

- هل تركتِ العمل لهذا السبب؟

يحاول دونوسو إطالة المحادثة بعدما بدت جريسي كأنها قد عادت من عالم الهلاوس الذي ظلت تتجول فيه.

- قدمت عدة عروض أخرى. بدأ كل شيء هناك. ذات ليلة أخذني رفيق في المسرح إلى وكر أفيون، كان أنيقًا جدًّا، ساعدني الأفيون على نسيان ما فعلوه لليونور حبيبتي. لقد قتلوها. هل حكيت لك الأمر بالفعل؟ كسروها كأنها دمية رخامية محطَّمة فوق الأرض، اقتلعوا رأسها وذراعيها، ولم تهتم الشرطة بي.

يعدها:

- أنا من الشرطة وسأهتم بك، لكن أحتاج إلى أن تحكي لي كل شيء.

تهز جريسي رأسها رفضًا عدة مرات ثم تشير فجأة إلى حزمة الحلوى. يجلبها دونوسو، فتزيل تغليفها، ثم تُبعد الصينية باشمئزاز. انقلبت معدتها من رؤية الحلوى.

- أنا صديق لدييجو رويث، الصحفي الذي حكيتِ له قصتك. لماذا تختبئين يا جريسي؟ نريد فقط أن نساعدك.

تقول:

- لقد هددوني.

تكشف بتعبيراتها عن ندمها لأنها تحدثت أكثر من اللازم.

- من الذي هددك؟

- إنهم قوم نافذون جدًّا. الإنصات إليهم أفضل. لا شيء قادر على إيقافهم.

- من الذي تتحدثين عنهم؟

- حدث هذا في باريس، قال لي صديقي في المسرح إنني يجب ألا أزج أنفي في مسألة ابنتي، وإن أفضل شيء هو المضي قدمًا في حياتي. كان لديه معلومات يقدمها له «مشعلو الفحم».

- «مشعلو الفحم»؟

- هذا هو اسمهم.

- هل حدث شيء معهم؟ هل لاحقوكِ؟ هل هددوكِ؟

تهز الممثلة برأسها. تمرر يدها عبر شعرها بتغنج. يراقبها دونوسو مسحورًا، فتلاحظه.

- أنت تأكلني بعينيك.

- اعذريني، الأمر وما فيه...
- أبدو لك جميلة. هل تريد أن ترقد هنا إلى جواري؟
- أعتقد أنكِ يجب ألا تذهبي إلى وكر شارع «الصليب»، أبدًا.

ليست لحظة مناسبة للغزل، لكن يبدو دونوسو مأخوذًا بإحساس مختلف، كأن ثمة صاعقة قد طرحته أرضًا.

- سئمت من معاملة الرجال لي كطفلة.

يستقبل سهام نقدها في صمت.

- جريسي من فضلك، قولي لي ما إذا كان «مشعلو الفحم» قد هددوكِ بشكل ما.
- فعلوها في باريس عبر صديقي. كرروا الأمر هنا. يعرفون أنني في مدريد وأنني قد أتحدث، لن يسمحوا بحدوث الأمر. سيقتلونني. قل لصديقك الصحفي أن ينساني، وإن أيامي صارت معدودة.
- لا تقولي هذا. لن يقتلك أحد.
- لا يُمكن للمرء أن يهرب إلى الأبد. ليس بيده سوى النوم والنسيان، على الرغم من أن هذا ليس مخبأ جيدًا. عثر عليَّ أسينثيو، مُعجبي. سيعثرون عليَّ هم أيضًا، لكنني على أي حال لم أعد قادرة على التحمل. فليعثروا عليَّ. فليقتلوني! لم يعد لديَّ مكان أذهب إليه.

تغطي وجهها بيديها. يلاحظ دونوسو كيف ينبض قلبه بسرعة. ظل منذ هجرته زوجته عاجزًا عن الارتباط بالنساء، إلا عبر الدفع لهن في المواخير مثل ماخور «اللبؤة». استمرت هذه الحساسية عدة سنوات، لكنه يندهش الآن بنفسه من الحسم الظاهر في صوته حين يقترح عليها حلًّا:

- لن أتركك بمفردك يا جريسي. أنتِ ستأتين معي. أنا سأعتني بك.



41

- «مشعلو الفحم».

يُعلن دونوسو المعلومة، كمن يكشف قطعة دومينو فوق الطاولة. ينظر دييجو إليه باندهاش. يفكر في الحدة التي حاول بها الراهب انتزاع المعلومات منه حول قيمة الخاتم، وكيف أن صديقه الأعور، الشرطي المرتاب، تمكن من التوصل إليها عبر عملية تتبع بسيطة، فإذا به يعود ومعه اسم جماعة سرية.

- هل تصدقها؟ ألم تكن تهذي؟

- أصدقها.

- حسبتها مجرد امرأة ثملة يا دونوسو. هل نثق بها؟

يصب دونوسو كأسين من إبريق النبيذ. ثمة شيء احتفالي فيما يفعله ويلاحظ دييجو الأمر. يرفع الكأس.

- جريسي معي. تركتها نائمة في بيتي. سأحميها. أنا شرطي، يفترَض أنني أكرِّس نفسي لمثل هذه الأمور.

يبتسم دييجو حين يفهم أنه أمام رجل جديد. لقد تبخرت المرارة، وما يظهر من وراء القناع الآن هو شاب يُسكره الأمل.

- حظًا موفقًا معها يا صديقي.

يقرعان كأسيهما ويفرغانهما في جوفيهما.

- ما الذي حكته لك عن أسينثيو دي لاس إيراس؟

- قالت إنه مجرد معجب، وإنه ليس من يُهددها.

- هل تصدقها في هذه المسألة أيضًا؟

- أصدقها. لا تشكك في الأمر وثق بحدسي كشرطي. ما الذي حدث مع مسألة الخاتم؟

- السيدة دي بيافرانكا صعبة المراس. لم ترد أن تأتي معي بالأمس لإعادة الخاتم للوثيا. قالت إن عليها أولًا أن تستقصي أمري.

- كيف يُمكنها ألا تثق بك وأنت الصحفي الميت من الجوع الذي يعجز عن سداد إيجاره؟

- أحتاج إلى الخاتم يا دونوسو. لو لم تأتِ إليَّ به، فسيجب عليَّ أن أنتزعه منها بشكل آخر.

- هل ستوجه ضربًا مبرحًا لامرأة أرستقراطية؟ أسألك فقط لأحجز لنفسي مكانًا في ساحة «الشعير» لحضور إعدامك.

- أرى أن الغرام يشحذ براعتك. سأرحل يا دونوسو. عليَّ أن أستقصي شيئًا حول «مشعلو الفحم» هؤلاء. لو حكت جريسي شيئًا آخر...

- ستكون أول العارفين.

يروق أوجوستو مورينتين في أيام الأحد أن يشرب بعض النبيذ في إحدى حانات شارع «خاكوميتريثو». إنها طريقة لقضاء الوقت والاختلاط مع العوام، وقياس النبض العام للشارع والتعرف على مشاغله، لكن هذه الحانة اليوم شبه خاوية. لا تزال أضرار الكوليرا مستمرة، ومع مرور الوقت يتراجع عدد الناس الذين يغامرون خارج جدران بيوتهم الأربعة. لم يُساعد تفجر العنف في مجزرة الرهبان يوم الخميس الماضي في الأمر أيضًا. بينما يتذوق نبيذ «بالديبيناس» يفكر في الصحفي المفضل لديه بين كل من يعملون عنده، دييجو رويث. لا يقول له الأمر أبدًا لكيلا يغتر، لكنه يُذكِّره بنفسه منذ عدة سنوات، لأنه يصارع من أجل موضوعاته وعنيد وقادر على مواجهته كمدير للجريدة. إنه مهني جيد، وكتابته قريبة من المرء ومباشرة وشغوفة، كما

أنه أصيل وشجاع. ربما حانت اللحظة التي يجب فيها أن يعرض عليه راتبًا شهريًا، أو عقدًا حصريًا معه.

يظهر دييجو عند الباب، كأنه قد استحضره.

- دون أوجوستو.

- كنت أفكر فيك وفي المستقبل الآن تحديدًا، ما رأيك في تناول كأس من النبيذ؟

- أجل، لكن أنا في حاجة إلى مساعدتك.

- هل يرتبط الأمر بالمال؟

- المال مفيد دائمًا، لكن اليوم ثمة أمر مُلح آخر. أنا في حاجة إلى معلومة.

لا يراوغ دييجو أكثر من هذا:

- ما الذي يُمكنك أن تقوله لي عن الجماعات السرية؟ أظن أنني فهمت من بعض مقالاتك أنك سبرت أغوار الموضوع.

- ما من أحد يسبر أغوار هذا الشأن. لو أنه أمر ممكن، لما أصبحت هذه الجماعات سرية، أليس كذلك؟ قل لي ما الذي تريد معرفته.

- أنا مهتم بمعرفة الطريقة التي تعمل بها جماعة معينة. «مشعلو الفحم».

ينتظر في صمت وهو يدرس رد فعل مديره. يعرف أنه رجل مطّلع، فمكتبته تضم كتبًا لإرنست هوفمان وشيلر تتحدث عن الجماعات السرية. رأى هناك أيضًا مجلدات وكتبًا ضخمة عن الماسونية. اقترب جدًا من اكتشاف ما يحدث. يشعر بهذا الأمر داخل أحشائه. يحتاج فحسب إلى جمع القطع النهائية. لا يستغرق مورينتين وقتًا في إظهار ضلاعته.

- «مشعلو الفحم» جماعة سرية. أصولها في إيطاليا، لكن من المحتمَل أنها بدأت تتوسع عبر أوروبا.

- هل وصلت إلى إسبانيا؟

- إنه أمر محتمل.

- وما مسعاهم؟ أنا مهتم جدًا بمعرفة الأمر دون أوجوستو.

- مكافحة الأنظمة الاستبدادية. لو أنهم في إسبانيا، لأرادوا التأثير في بلاط ماريا كريستينا لإبعاده عن إرث فرناندو السابع.

- ولو أن ثمة طريقة للتعرف على أعضائها، فهي؟

- حسنًا. من المعتاد أن يستخدم أعضاء أي جماعة سرية شفرة معينة للتعريف بانتمائهم إليها. يرتبط الأمر في بعض الحالات بحركة بسيطة في اليد، لكن في حالات أخرى برموز فوق الملابس لا يعرفها سوى الأعضاء.

يضربه اليقين كاملًا مكتملًا كرصاصة مفاجئة:

- كخاتم!

- أجل. لن أندهش لو استخدموا خاتمًا.

- يرتدي «مشعلو الفحم» خاتمًا دون أوجوستو. أنا واثق. خاتم عليه مطرقتان متقاطعتان.

- تمثِّل المطرقتان عمل الفحَّامين في المناجم. لديك هنا خط يشير مباشرة إلى «مشعلو الفحم»، إذ يُقال إنهم قد استمدوا اسمهم من العاملين في هذا المجال.

- إنه خاتم يُساعد في الدخول إلى اجتماعاتهم السرية ويرتبط بصورة لا أفهمها بمسألة الفتيات المقتولات.

- أنت تمضي سريعًا جدًّا، في أي لحظة ربطت بين «مشعلو الفحم» ومقتل هؤلاء الفتيات المسكينات؟

- إنها شُبهات ترتكز على أُسس قوية للغاية، دون أوجوستو. هل تتذكر الشارة التي عُثر عليها في حلق بيرتا؟

- وماذا عن «الوحش»؟ ألا يُفترض أنه مارثيال جارِّيجيس، الذي أصبح ميتًا الآن؟

- قد يكون عضوًا في هذه الجمعية السرية.

- هل تدرك مدى خطورة اتهاماتك؟ لا ينبغي لنا أن نتناول هذا الموضوع هكذا ونحن في حانة ونتحدث عن جمعية تحرض على قتل الفتيات بصورة متوحشة وتقطيع أوصالهن.

يملأ مورينتين كأسه ثانية بالنبيذ، وقبل أن يستأنف حديثه، يشربها على مرة واحدة. بعدئذٍ يحاول تفكيك نظرية دييجو كمن ينفض ذاكرة كابوس سيئ من رأسه، أي جمعية سرية قد ترتكب مثل هذه الأفعال المتوحشة؟ لقد

قرأ مدير الصحيفة عن بعض المحافل التي لا تسعى فحسب للإطاحة بملك ما أو للقضاء على مزايا الكهنوت، وإنما تأسست على أهداف أسمى تتحدث عن تحويل الإنسان والمجتمع. ليسوا متآمرين، وإنما مستنيرين يضعون فوق العلم مفاهيم أخرى أجدر بالسحر، مثل كيميائيِّي العصور الوسطى. تتفكك معارف مورينتين أمام الجسامة التي يتحدث بها دييجو، ولهذا يُحذره:

- هذا النوع من الجماعات ليس موجودًا. إنها حيل، مجرد حكايات مثل أن الكوليرا سببها مساحيق تُلقى في المياه.

يأخذ دييجو الآن قارورة النبيذ من مورينتين ليصب لنفسه كأسًا. يتذوق الشراب قبل أن يجيبه:

- إنها مسألة حقيقية يا دون أوجوستو. قد تكون معتقدات هذه الجماعة مجرد خرافة لا معنى لها، لكن هذه «الكيمياء» التي تتحدث عنها قد تحولت إلى شيء حقيقي ومؤلم صوَّرته هؤلاء القتيلات الأربع الصغيرات، مثل الصغيرة بيرتا، الفتاة التي رأيتها في «إل ثيرِّيبو» مقطوعة الأوصال.

يُغامر مورينتين بقول:

- لا يُمكن أن تؤكد أمرًا مثل هذا، إلا إن عثرت على «مشعلو الفحم» هؤلاء. سينبغي أن تتعرف على أعضائهم، بل وربما أن تحضر أحد اجتماعاتهم لتفهم ما الذي ترتكز عليه طقوسهم.

يبدو أن ما ظنه المدير سلفًا وهمًا كاملًا، قد صار الآن أمرًا غير مستبعَد نوعًا ما.

- دييجو، من المحتمل أن تكون قد عثرت على الطريق الصحيح داخل هذه المتاهة. مع ذلك خذ حذرك جدًّا. لا تتسرع في الوصول إلى النهاية، فأي خطأ قد يُبعدك نهائيًا عن سبر أغوار القصة. لا تمزج بين افتراضاتك والأحداث المثبتة.

يتفهم أن رأس دييجو، على الرغم من تحذيراته، يفور بالخطط والأفكار للعثور على هذه الجماعة والتسلل داخلها كي يصبح «مُشعلًا للفحم» حتى ولو ليوم واحد. إنه صحفي أصيل، ويُظهِر هذا الأمر كلما تحدث معه.

يأخذ دييجو قبعته «السومبريرو» للمغادرة، لكن مورينتين يوقفه للحظة وهو عند الباب:

- حين تنتهي مسألة «الوحش» والمذابح، سأدعوك لتناول العشاء. أود أن أقترح عليك شيئًا ما.

- ما الأمر؟

- انتظر حتى ينتهي كل شيء.

يبدو كأن نصف ابتسامة أوجوستو تشف عن الإجابة، أو أن هذا هو ما يشعر به دييجو وهو يبتعد نحو شارع «القمر». من المحتمل أن يكون حظه قد تغير أخيرًا، ربما سيحصل على عقد، وسيتحسن، ولن يضطر إلى الوثب هنا وهناك بحثًا عن قصة يبيعها كمن ينقِّب في النهر بحثًا عن الذهب. سيكون عملًا منتظمًا، فيما يحبه، ومدفوعًا بشكل جيد، وسيسمح له بسداد ديونه والتوقف عن تفادي صاحبة البيت. يشعر دييجو أنه يطفو أكثر من كونه يمشي فوق أرضية شوارع مدريد الموحِلة.

من دون أن يعرف كيف حدث الأمر، يجد خطواته تقوده نحو قصر دوقَي ألتويانو. حينئذٍ يفهم ما يحدث، إنه في حاجة إلى مشاركة سعادته مع آنا. إنهما رفيقان في هذا المسعى. فجأة تشقق المستقبل، هذا الكيان المظلم والملتبس الذي لطالما راقبه دييجو بخوف كأنه نفق بلا نهاية، وإذا بصدع مضيء يتراءى الآن في آخره، كستارة سميكة تنفتح. عمل ثابت في الصحيفة، وإحساس أنه توصل إلى حل لجرائم قتل «الوحش»، وربما العثور على كلارا، وتهدئة بال لوثيا، وبالطبع، آنا. على الرغم من سذاجة أمنية أن تترك الدوقة زوجها وتصبح جزءًا من هذا المستقبل المفعم بالأمل، فإنها في الوقت ذاته إغراء آخر كي يشعر الصحفي بعزم أكبر للمضي قدمًا في طريقه كي يصل إلى هذا الضوء في أقرب وقت ممكن. من يعرف؟ ربما هي ليست مثل بقية النساء ولا تخشى أن تلاحقها فضيحة انفصالها عن الدوق.

تفتح بلانكا الباب لدييجو وترافقه نحو الداخل. لا تتأخر آنا في الظهور، بنصف ملابسها، وهي تشع فرحة من هذه الزيارة المفاجئة.

- يا للمفاجأة! ما رأيك أن نمضي في جولة بعربة الجياد؟

ورأي دييجو أنها خطة مثالية ليوم الأحد.

متنزه «إل برادو» أفخم شوارع مدريد ومكان مثالي للمغازلة والتفاخر بالأناقة، فهو منطقة ملأى بالقصور والنوافير المزينة، والأجمات والحدائق والتماثيل التي عمل فيها أفضل مهندسي وفناني مدريد في أيام كارلوس

الثالث. لا تثبط جائحة الكوليرا من عزيمة كل المارة الذين يعثرون في هذا الشريان الواسع على الواجهة المثالية لإظهار وضعيتهم الاجتماعية، على الرغم من أن بعضهم يسيرون مكمَّمين أو وهم يغطون أنوفهم، وهو إجراء لا يُؤمن أحد أصلًا بفاعليته. لا يندهش دييجو من أن آنا قد اختارت عربة مفتوحة، كأن علاقتها معه مثلت لها حافزًا نهائيًا لتتوقف عن إخفاء هويتها الحقيقية. ثمة شيء من التبجح في طريقتها في تحية النبلاء الذين يتنقلون بعرباتهم المكشوفة الأنيقة وسيدات المجتمع اللاتي يتمشين تحت شمسياتهن، وبالمثل في ابتساماتها وتحريكها لمروحتها، كأنها تهش بها القيل والقال حول حياتها الفاسدة. ربما قد يُقال أصلًا إن دوقة ألتويانو اختارت هذا الصباح لتضفي على مغامرتها الرومانسية طابعًا رسميًا.

يجلس دييجو إلى جوارها، بارتباك وسعادة في الوقت نفسه، لأن آنا تُظهر نفسها من دون أي اعتبارات وهما معًا، فتؤجج أكثر تصوره حول وجود مستقبل وهي إلى جواره، كأنهما خليفتان لهرقل وسيقدران على تخطي أي صعاب يضعها القدر في طريقهما. لا يزال يشعر بانتشائه من المحادثة التي أجراها مع مورينتين. أنصتت آنا إلى حكايته بحماس، من دون أن يغيب عن نظرها ما يحدث في الشارع أو الأشخاص الذين يقابلونهما، وتحدثت معه عنهم كي يعرف هويتهم.

- إذن ستصبح صحفيًا مشهورًا.

- لا. ليس بهذه الطريقة، لكن لنقل إنني سأكف عن كوني مجرد جامع أحرف سوقي. في الحقيقة، ولا أكذب عليك، الشهرة هي آخر ما يشغلني في الوقت الحالي.

تُشاركه آنا تفاؤله بخصوص أن الاكتشافات الأخيرة قد تقودهما إلى العثور على كلارا. عانت لوثيا، على الرغم من حياتها القصيرة، بصورة أكبر من بعض الرجال المسنين. لو أن شخصًا ما يستحق مفاجأة من النصيب، فهي الأجدر.

تُفاجئ آنا دييجو بطلبها:

- سيروقني أن أتعرف على مكتب تحرير صحيفتك، وأيضًا إلى المدير. أود أن أرى الأماكن التي تقضي فيها حياتك.

- سأصحبك يومًا ما لرؤية المطبعة. سيروق مورينتين الأمر. إنه رجل مثقف جدًا.

- أريد أيضًا أن أزور قريتك، المكان الذي قضيت فيه طفولتك.

تُحيي آنا من النافذة سيدة تتمشى مع فتاتين صغيرتين ترتديان الفستان الأبيض نفسه المربوط بشريط أزرق. يظل دييجو يفكر فيما قالته للتو. زيارة القرية التي شهدت ولادته، والتقرب من طفولته. أي نوع من الرغبات هذا؟ لقد صار الحب، هذه الكلمة التي تهرّبا منها كمراهقَين خجولين، الآن واقعًا. سيروقه أن يُقبلها في هذه العربة تحت شمس مدريد وتحت مرأى الجميع. لم تعد مسألة أن ترتبط حياته بحياة آنا مستقبلًا مجرد حلم مستحيل.

تخلع آنا قفازها وتمسك يده، كأنها تود أن تظهر له أنها تفكر في الشيء نفسه. ترفعها بعدئذٍ نحو شفتيها وتطبع بهما قبلة فوقها، ثم تشد عليها بقوة وتضع رأسها على كتفه.



لا تزال جثة إيسابيل في المكان نفسه بعد مرور يومين. تطغى رائحة الدم المعدنية واللحم المتعفن على رائحة الفضلات والبول داخل الزنازين. تشعر الفتيات بالجوع والعطش، لكن ما يُسيطر فعلًا على المكان هو فتور الهمة الذي يفرضه الصمت. تنادي كلارا خوانا هامسة. غاصت في الظلال منذ محادثتهما الأولى، ربما وهي تحلم بلغة السُّحُب، وبهذه السماء التي كُتب القدر فيها. إنها السماء التي تستحيل رؤيتها من أعماق الزنازين التي علقن بها. ليتها تقدر يومًا ما على أن تتوه بنظرها فيها. ليتها تحترق من وهج الشمس وترى مرة أخرى طيف طائر أمها الأحمر الذي وعدتها لوثيا بأنه سيعتني بهما. يُخرج نحيب خوانا كلارا من خيالاتها. تتشارك ما فكرت فيه مع رفيقتها في هذه النكبة.

- ستُخرجنا أختي من هنا. اسمها لوثيا. سترين. ستنزل هذه السلالم في أي لحظة. لطالما فعلت هذا الأمر. تصل دائمًا كلما احتجت إليها.

تود كلارا أن تصيب خوانا بعدوى الثقة العمياء في أختها. تحكي لها كيف اعتنت بها حينما عملت أمها في غسل الملابس في النهر، وكيف أنها خرجت منذ شهر تقريبًا -على الرغم من أنه يبدو الآن أعوامًا كثيرة- لتبحث في مدريد

عن طريقة للحصول على المال والطعام بعد مرض كانديدا، وكيف انتهى بها المطاف في بيت «اللبؤة». حين تصف لوثيا وشعرها الأحمر الفريد جدًا، تتذكرها خوانا، وتتذكر المحادثة المقتضبة التي حظيتا بها عند درج الماخور والحسد الذي شعرت به حين علمت أن عذريتها ستُباع في مزاد مقابل مبلغ طائل. هذا هو المستقبل الذي حلمت به خوانا.

يأتي الدور الآن على كلارا لتبقى صامتة. تشعر بأنها تستحق العقوبة التي تعانيها. تبدو مقتنعة بأنها هنا بسبب الخاتم، لأنها في المرة الوحيدة التي فعلت فيها شيئًا بنفسها، من دون أن تستشير أختها، انتهى بها المطاف محبوسة. لم ينبغِ لها قط أن تحاول بيعه. إنه تميمة. كان يجب عليها ألا تحاول أن تتخلص منه. لقد تسببت في هذه اللعنة.

تتمتم خوانا:

- تؤلمني أحشائي.
- إنه الجوع. لا تفكري في الأمر.
- أنا عاجزة عن عدم التفكير. لم أعانِ الجوع قط. حظينا في بيت «اللبؤة» بكل الطعام الذي أردناه.
- يا للحظ! أعتقد أنني لم أشعر بالشبع قط، يمكنني أن أستمر في تناول الطعام دائمًا. أحلم في بعض الليالي أنني آكل الحلوى إلى حد التخمة. مع ذلك لا تفكري في الطعام. أغلقي عينيك وحاولي أن تنامي.
- حين أغلق عينيَّ أتخيل صينية ملأى بالعنب، على الرغم من أن العنب لا يروقني.

لا تفكر كلارا في العنب. حين تغلق عينيها، تتذكر الرجل ذا الوجه المحروق وهو يقتل بدرو وماريا قبل أن يأخذهما معه. تصل فكرة إلى خيالها فجأة، كأنها صفعة مفاجئة، ربما ذهب هذا الرجل بعدئذ بحثًا عن لوثيا وفعل بها ما فعله نفسه للزوجين، لكن لوثيا على الأرجح ستتمكن من الفرار، فهي قادرة دائمًا على النجاح في هذا الأمر، بالصورة نفسها التي ستنجح بها في العثور عليها قبل أن يقتلها الجوع والعطش.

فجأة تبدأ إحدى الفتيات في الصلاة بصوت مرتفع:

- أبانا الذي في السماوات...

تنضم فتاة أخرى إليها في صلاتها. لا تقتدي بهما كلارا. لا تعتقد أن الصلاة ستُساعد في شيء، لكن على عكس تفكيرها، وقبل أن تنتهيا من تلاوة صلاة «أبانا الذي»، يسمعن ضوضاء ويرين ضوءًا يقتحم المكان كفيضان. من يدخل ليس «الوحش»، وإنما رجل متوسط الطول، يتشح برداء أسود له قلنسوة كبيرة تغطي رأسه وتُخفي وجهه بين الظلال.

- طعام!

- ماء!

يصرخن جميعًا. يصرخ بعضهن ببؤس وأخريات بسعادة. لم تتساءل واحدة منهن عن هوية الزائر وما هي نياته. لا يفكرن أين هو العملاق الذي كان سجانهن الوحيد قبل هذه اللحظة. يرغبن فقط في تناول الطعام والشرب، وليحدث بعدئذٍ ما قد يحدث.

- تعرَّين جميعًا.

يرفع الرجل قنديلًا ويتفقد الزنزانات واحدة تلو الأخرى.

- ألا ترغبن في تناول الطعام؟ لن تتذوقن ولو قضمة واحدة، إن لم تخلعن ملابسكن كلها.

ينزل رجلان يرتديان رداءً مشابهًا لذلك الأول السلم الحلزوني وهما يحملان قدرًا ملآن على الأرجح بالعصيدة. يحملان أيضًا إبريقًا ملآن بالماء. تصل رائحة الطعام إلى كلارا وترفع من حدة جوعها، فتخلع ملابسها بسرعة مثل بقية الفتيات.

على الرغم من تيبسهن العضلي، لا يشق على أي منهن التخلص من أسمالها. يقفن بشرهٍ وهن عاريات ومتضورات من الجوع. يغرف الرجل الذي تحدث الطعام في قصعة ويصب الماء في قدح معدني. تأكل كل فتاة، واحدة تلو الأخرى، نصيبًا جيدًا من الطعام، ويمررن القصعة والقدح فيما بينهن كأنهن في عرض فني دائري عن البقاء على قيد الحياة. يُسمَع صوت ضربة يد ضمن محاولة للشجار حين تأخذ واحدة من الفتيات وقتًا أطول من اللازم في التهام العصيدة. يُهدئ صوت الرجل الشجارات ويُحدد الأدوار كأنه مُسَرِّع. يرتسم على وجه الفتيات الملطخ بالطعام ويظهر في لمعة أعينهم أمام الطعام، شيء من سمات الطقوس البدائية المشتركة مع الأسلاف.

لا تنتبه أي من الفتيات، من فرط اشتهائهن إلى الطعام، إلى أن الرجلين الآخرين قد خرجا من الديماس ومعهما جثة إيسابيل ولا إلى أنهما لدى عودتهما جاءا يحملان طستًا من الماء الفاتر. تفوح منه الآن رائحة زهرية نظيفة نقية تغطي تدريجيًا على عفن المكان. في تلك اللحظة يبدأ طقس جديد، بمجرد أن تنتهي أي فتاة من تناول الطعام، يخرِجها من زنزانتها الرجل الذي يبدو قائدهم، وهو أول من نزل الدرج. يُمسك في يده بجرَّة من البورسلين. يُخرِج منها، كأنه طبيب، دهانًا رائحته كالغابات أو خشب الأرز، ثم يفرده فوق مهبل الفتاة. بعدئذ يقودها نحو الطست ويجعلها تغطس في الماء.

فاتيما هي الأولى. لم تُخفِ خوفها في البداية من ماهية الدهان لأن الرجل حين لمس مناطقها الحساسة لم يُبدِ أي دلالة جنسية في حركته ولا بعدئذٍ حين دخلت الماء. مع ذلك لما غطست كما أمرها وأخرجت رأسها لاحقًا، نفَّذت الأمر وعلى وجهها ابتسامة، ومرد الأمر إلى حرارة الماء اللطيفة وشعورها بالراحة من التخلص من القذارة التي تكسو بشرتها والتشبع برائحة لم تقدر على معرفتها تحديدًا لكنها تشبه البابونج أو المريمية.

تتكرر العملية مع كل واحدة من الفتيات السبع الموجودات في الزنازين، أي استخدام الدهان وحمام الماء العطري في الطست الواقع في منتصف السجن ثماني الأضلاع. بعدئذٍ، يبدأ القائد في تفقدهن على ضوء القنديل قبل أن ينشفن وهو يبحث في بشرتهن عن شيء ملغِز لم تقدر أي واحدة منهن على تخمينه. يعُدن إلى زنازينهن وهن مسترخيات ونظيفات ورطبات ليرتدين ملابسهن مجددًا، بعد أن نفَّذ الرجال ذوو القلنسوات مهمة تحميمهن في صمت مُطلق، كأنه طقس مقدس.

ترى كلارا خوانا حين يأتي دورها وهي تلتصق بالقضبان. لا يوجد شيء توده في هذا العالم، بعد أن التهمت العصيدة بنهم وشقت حنجرتها بالماء، أكثر من الانزلاق نحو هذا الطست والتخلص من العفن الملتصق بها. وضعوا الدهان فوق مهبل خوانا التي تدخل الآن الماء بمساعدة الرجلين. ترفع حركة السائل الخفيفة مرة أخرى من رائحة هذا العطر الذي لا يريد الرجال ذوو القلنسوات أن يضيع، ولهذا يلقون بين الحين والآخر مزيدًا من الأعشاب العطرية في الطست. تغطس خوانا بوجهها وتبلل شعرها. تبتسم بسعادة من هدية خاطفيها. لن تسأل عن أي شيء أو تكافح من أجل حريتها في هذه

اللحظة تحديدًا، فهي تخشى، مثل بقيتهن، أن تتسبب أي كلمة خاطئة في إغضاب القائد وإنهاء استحمامها.

تعرف كلارا أن لحظتها تقترب حين يخرجون خوانا من الطست. إنها مجرد خطوة أخيرة وسيأتي دورها. يُقرِّب القائد القنديل من خوانا ويتفقد بشرتها بضوئه. ينزل به قرب أعضائها الجنسية، وفي تلك اللحظة يتوقف. تتفهم كلارا الآن لماذا اشتكت خوانا من ألم في أحشائها، إذ إن خطًّا رفيعًا من الدم ينزلق الآن عبر ساقيها.

- إنها جاهزة.

يبدو صوت الرجل سعيدًا بعد صمته الطويل. تعانق الفتاة جسدها في خجل وتنظر وهي مرعوبة إلى كلارا التي لا تشعر بالأسى، وإنما الخوف من أن يتركوها من دون استحمام. تحاول خوانا العودة إلى زنزانتها لكنهم يوقفونها بعد شد وجذب فينقلب الطست. تمتد المياه التي تحممت بها الفتيات فوق أرضية الديماس، فيما يصعد الرجال الدرج بخوانا. بينما تركل بقدميها وتصرخ ببؤس، تجثو كلارا على ركبتيها على الأرضية حيث يصل إليها خط من الماء ويعبر القضبان. تُبلل أصابعها وترفعها نحو وجهها وتمررها بالقرب من أنفها، في محاولة لاستخلاص رائحة الزهور.

أخرجوا خوانا من الديماس وأغلقوا الباب الغلوي، فعاد الظلام إلى الزنازين. لا تعرف أي منهن أن مسألة الدهانات والاستحمام التي خضعوا لها جزء من معتقد قديم لتسريع الطمث. الأمر ليس مهمًّا، ففاتيما ستكون أول من سيقول بصوت مرتفع لماذا يقضين وقتًا طويلًا وهن محبوسات هنا، وما الذي أراده العملاق منهن، ويريده الآن هؤلاء الرجال ذوو القلنسوات. ستقول:

- إنهم ينتظرون دمنا الأول.

43

- هل أنت مغرمة بدييجو؟

تحاول آنا، عبر ابتسامَتها، أن تُخفي انزعاجها من سؤال لوثيا. تجنبت هذه المسألة حتى الآن. إجابتها هي «نعم»، على الرغم من أنها تفضِّل ألا تقولها بصوت مرتفع، فـ «نعم» تجعلها ترتعش من الداخل، لأنها لم تخطط قط أن تغرَم بأحد. لم تفكر قط في أن أحدًا قد يدفعها إلى التحول كما فعل دييجو. حظيت بعشاق آخرين، وبلقاءات عرضية لم يتخطَ كونها مجرد ليلة من الجنس، لكنها لطالما هربت من العلاقات الدائمة، ومرد الأمر ليس الخوف من الفضائح، بقدر ما هو إحساس اللامبالاة الذي تولَّد فيها تجاه هؤلاء الرفقاء.

الزنا مقبول، بل ومُثمَّن في دوائر معينة في المجتمع. تنامت إلى علم زوجها -أو «الدوق الصغير» كما يروقها تسميته- مغامراتها خارج إطار الزواج أكثر من مرة. طلب منها فقط أن تكون متحفِّظة، لكنه لم يفعل شيئًا لإلغاء زواجهما أو للقضاء على سبب علاقاتها غير الشرعية، وهو في الأصل اهتمامه القليل أو ربما المعدوم بها. ليست مسألة يُمكنها أن توبِّخه بسببها، فعدم الاهتمام متبادَل وموجود منذ ليلة الزفاف، حينما لم يسعَ أي منهما لإنجاح الزواج الذي جاء في الأصل كاستراتيجية اقتصادية من عائلتين نافذتين أكثر من كونه

ارتباطًا عاطفيًا. لا تزدري الدوق، بل إنها تعتبره صديقًا ورفيقًا. بالنسبة إلى الاحتياجات الجنسية، فقد ظنته في البداية مُهتمًا بصغار السن، لكن لا، الأمر ليس هكذا، وإنما أنه ببساطة ليس لديه استعداد فطري لممارسة الجنس على الإطلاق، مع كل الأصناف. لا يُثيره سوى الحفاظ على وضعيته في البلاط. بالنسبة إليها، فهي نقيضه. تشعر بحاجة إلى الجنس، وعلى الرغم من كونها امرأة، لم تشعر بالخوف من ملء هذا الفراغ بهؤلاء العشاق العرضيين. كفى الدوق، كأنه اتفاق تكتيكي، ألا تأتي على ذكر الموضوع وأن تُبقي هذا الجانب من حياتها داخل صمت قائم على الاحترام. مع ذلك تعرف أنها قد خرقت هذا الاتفاق بجولتها هذا الصباح في العربة التي تجرها الأحصنة عبر «إل برادو». ما تعيشه مع دييجو ليس مجرد مغامرة غرامية.

- دعينا ندرس.

تحاول آنا إغلاق الموضوع مع لوثيا وتبحث عن ورق لتكتب فيه أي جملة بسيطة لتواصل تعليمها الحروف.

- ما هو أكثر ما يروقك في دييجو؟

يُمكنها أن تتفادى إجابة لوثيا، التي تبدو لها للحظة طفلة فضولية بل ووقحة بعض الشيء -كما ينبغي أن تكون أصلًا بسبب سنها- ومع ذلك تقرر في النهاية ألا تتفاداها. تحتاج آنا بشكل ما إلى أن تقول بصوت مرتفع لماذا تصرفت كما لم تتصرف من قبل ولماذا كسرت كل الحدود التي ظلت راسخة في رفقة رجال آخرين.

- أشعر معه بالحرية، ففي الحياة تضطر الواحدة منا يا لوثيا أحيانًا، ومن دون أن تدرك تقريبًا، إلى الاختفاء وراء أقنعة، كأنها في حفلة تنكرية، فتتصرف وتضحك كما هو منتظَر منها. ستجدين أشخاصًا قلائل مستعدين للنظر إلى الحقيقة الكامنة داخلك. دييجو من ضمن هؤلاء الأشخاص لأنه لا يرغب فقط في التعرف عليكِ، وإنما يدفعك إلى الشعور بأنكِ في خير حال، ولهذا تتخلصين من كل هذه الخدع، بل وتشعرين معه بأن الحياة ممكنة من دون أن تضطري إلى إخفاء أي شيء.

- ما الذي اضطررتِ إلى إخفائه؟

- أنتِ صغيرة جدًا على فهم الأمر، لكن دعينا من الحديث عني. إنه وقت العودة إلى الحروف. قد يجعلك الحب حرة، لكن العثور عليه ليس مؤكَّدًا. مع ذلك فالتعلم ومعرفة القراءة أمر يُمكنك فعلًا أن تجيديه، وهذه هي الخطوة الأولى للعثور على الحرية البعيدة جدًا عن بعض النساء.مكتبة سُر مَن قرأ

- لا أريد أن أقرأ. لا أريد أن أتعلم، وإنما أن أعثر على أختي فحسب.

- دييجو يحاول.

- إنها أختي. يجب ألا أجلس وأنا أضع كفًّا فوق الأخرى.

- ثقي به. هذا ما يجب عليكِ فعله الآن.

تقاوم لوثيا، لكنها تدرك أن آنا محقة. يجب عليها الآن أن تتحلى بالثقة فحسب. ربما ستأتي اللحظة التي ستضطر فيها إلى الفرار ثانية ومحاولة العثور على كلارا بمفردها. لكنها لا تريد أن تقرأ جملًا بسيطة المعاني، بل تفضِّل أن تقرأ أحد الكتب الموجودة فوق تلك المكتبة الصغيرة، أو ربما بالأصح الرف المثبت فوق أحد جدران بيت الصحفي.

- هل تعرفين هذه الكتب؟

تنظر إليها آنا. تظهر رواية «إل كيخوتي»، والكتاب المقدس، ونسخة مهترئة من «الإلياذة»، وكتاب باللاتينية عنوانه «دي ريروم ناتورا» للوكريتيوس، ورواية «حياة وآراء الفارس تريسترام شاندي» للورانس ستيرن.

- أعرفها كلها تقريبًا، لكنكِ لن تقدري على قراءتها حتى تعرفي كل الأحرف جيدًا، لهذا هيا بنا. صرتِ تعرفين الأحرف المتحركة. الآن علينا أن نبدأ بالأحرف الساكنة.

تتمكن آنا من إقناع لوثيا بتحمل ساعة أخرى قبل أن تفقد اهتمامها بالكامل. تصر الفتاة على أن تقرأ آنا لها مقال دييجو نصف المكتوب الموجود على المائدة. توافق السيدة الأرستقراطية في البداية، لكنها تندم حين تقرأ السطور الأولى.

- من الأفضل أن نترك الأمر. يبدو أن دييجو سيتأخر، ما رأيك أن نجهز شيئًا لنتناوله، لكن عليكِ أنتِ أن تعلميني هذه المسألة، فأنا لم أطبخ قط، لأنها مهمة الخدم في بيتي.

- لا. أريد أن تقرئي لي هذا. ما الذي يقوله؟

- لو أنني لا أقرؤه لك، فمرد الأمر أنني أظن أنه قد يخيفك.

يعبس وجه لوثيا. يخيفها؟ ستخاف هي لو حدثتها أصلًا عن غزواتها في مدريد من أسفل «الجدار» ومزاد «حفار القبور»، وأيامها في «لاس بينيولاس» ومقتل إيلوي وحنجرة بدرو المفتوحة، وعن الكيفية التي غرزت بها الدبوس في مؤخرة رقبة العملاق الذي أراد أن يقتلها.

- لا يروقني أن أُعامَل كطفلة. هل يتحدث عن «الوحش»؟

يبدو التعبير المرسوم على وجه لوثيا حاسمًا.

- من أين تأتين بعنادك هذا؟

يتحدث المقال عن الشارة التي عُثر عليها داخل فم بيرتا وتطابقها مع الخاتم الذي سرقتِه وعن الجرائم، أولًا في باريس والآن في مدريد، وعن الأسابيع التي تمر بين اختفاء الفتيات واللحظة التي يُعثَر فيها على جثثهن، وعن أجسادهن مقطوعة الأوصال.

تخشى آنا رد فعل لوثيا أمام وصف دييجو. لا بد أنها ستتخيل أن هذا المصير سينتظر أختها إن لم يعثروا عليها في أقرب وقت. مع ذلك حين ترفع رأسها ناحيتها، تجدها ساكنة الجوارح، كتمثال جليدي.

تقرأ لوثيا أفكار آنا، فتقول لها:

- لن أبكي إلا حين أعثر على كلارا. حينذاك سأبكي، لكن من السعادة.

تمر ساعتان ولا يعود دييجو. تُرهِق آنا كاستيلار لوثيا بسيل من التوصيات قبل رحيلها، عدم الخروج من البيت، وتجنب إحداث جلبة، وعدم الإقدام على أي فعل مجنون مثل مسألة جز شعرها من جذوره. ما إن باتت بمفردها، حتى بدأت لوثيا تتفقد ممتلكات الصحفي. لا يلفت انتباهها سوى الأوراق. هل في هذه المقالات أي إشارة إلى كلارا تجنبتها آنا؟ تندم على أنها لم تتعلم أكثر في دروس القراءة وتتعهد بأنه حين ينتهي كل هذا ستطلب من آنا أن تستمر في تعليمها. ستوليها اهتمامًا أكبر، وستغدو ذات يوم قادرة على فك شفرة ما تقوله هذه الكتب المتراكمة فوق رف دييجو.

تظل نصف ناعسة فوق المقعد، بقدم في أرض الواقع، وقدم أخرى في الأرض التي يحيا فيها كلارا وإيلوي كطيفين. تعرف أنها لن تقدر أبدًا على

اجتثاث إيلوي من عالم الأحلام هذا، لكن ترفض الإيمان بأن أختها موجودة أصلًا فيه. تصرخ لوثيا فيها في وسط أحلامها: «أنتِ حية»، وتأمرها بأن تتوقف عن التنزه في هذه النسخة الشبحية من مدريد في صحبة إيلوي.

تنتزعها بعض الضربات فوق الباب من نعاسها. تفزع. ماذا لو أن الحرس قد اكتشفوا مكانها؟ لكنها تتعرف على الصوت الذي يتحدث معها.

- أعرف أنكِ هنا. تحدثت بالأمس مع دييجو رويث.

إنها السيدة دي بيافرانكا، المرأة التي لطالما زارتهن في «لاس بينيولاس»، واحتفظت بالخاتم الذي ذهبت كلارا لترهنه.

تفتح لوثيا الباب، فتدخل المرأة بسرعة وتغلقه.

- لا تقلقي. تأكدت من أن أحدًا لم يرَ مجيئي ومن أنني بمفردي. أنا على دراية بأنهم يبحثون عنكِ. لن أسألكِ ما إذا قتلتِ المدعو مارثيال جارِّيجيس. إنها مسألة لا تهمني. لو أنكِ من قتلتِه، فأنا لا آسف عليه، وإنما على أنكِ اضطررتِ إلى العمل في بيت «اللبؤة» بعد موت كانديدا.

- أين الخاتم الذي أخذتِه من أختي؟ إنه خاتمنا.

تُخرِجه السيدة من حقيبة نقودها الصغيرة. يظهر وهو في راحة يدها، ختم المطرقتين المتقاطعتين الذهبي المحفور فيه. تنتزعه لوثيا بيدها. لا تعرف ما قوة هذا الخاتم، وإنما فقط أنها لم لو تسرقه من البيت الواقع في «طريق القديس جيروم»، لاختلفت حياتها هي وكلارا.

- لو أنكِ تحسبين أنني أردت استغلال أختك، فأنتِ مخطئة. حاولت فقط أن أحصل لكما على المزيد من المال، إذ علمتُ أنكما في حاجة إلى الطعام. أرادوا في بيت الرهونات أن يخدعوها. لو عرضتُه للبيع في المزاد، لحصلتُ لكما على أكثر من الضعف بكثير.

لا تُخفي لوثيا اللؤم في نبرتها:

- يا لمصادفة وجودك في بيت الرهونات هذا! أظن أن سيدة مثلك تذهب إلى هناك كثيرًا.

- أذهب إلى هناك أكثر مما يروقني. كنت أحاول استعادة حلية باعتها امرأة بثمن بخس من فرط يأسها.

يبدو العذر مقبولًا في أذنَي لوثيا. تلعب بالخاتم وهو بين يديها. هل يُمكنها أن تثق بها؟ لو أنها تريد إلحاق الأذى بها، لكفاها أن تأتي في صحبة الحرس. مع ذلك تعي أنها غارقة داخل لعبة لا تفهم قواعدها بالكامل.

- لماذا لم تبيعي الخاتم؟ لقد أخذتِه كي تبيعيه.

- لأنني ألاحظ وجود شيء غريب يرتبط به. لا أعرف ما إذا كان الطمع أم الخوف.

تعجز إينماكولادا دي بيافرانكا عن أن تشرح بشكل منطقي القلق الذي تشعر به من هذه الحلية، كأنها ليست مجرد ختم ذهبي، كأنها لها معنى أو قوة خفية. لديها هاجس مفاده أن هذه القطعة تُخفي قوة ملعونة.

- هل صحيح أن «الوحش» اختطف أختك؟

- أجل، لكنها حية وسنعثر عليها.

تكرِّر لوثيا الأمر مرة تلو الأخرى لتقنع نفسها به، لا لأن لديها يقينًا مطلقًا. ثمة شيء يُزعجها في صحبة هذه السيدة، ربما هو النفاق الموجود في سلوكياتها أو النبرة التي تستخدمها، أو حتى دفء نظرتها. يرافقها هذا الإحساس منذ اعتادت أن تزورهن في «لاس بينيولاس»، حين تعاملت مع أمها بتفضُّل من يعرف أنه أسمى.

- ما الذي فعلتِه بشعرك؟ كان جميلًا جدًّا.

- لا يروقني الحديث عن شعري.

- أيتها المسكينة الصغيرة، أنتِ وكل ما يحدث لكِ.

تحاول أن تداعب رأسها الحليق، لكن لوثيا تتفادى هذا التواصل كقطة أنوف.

- أعدتِ إليَّ الخاتم. الآن يُمكنكِ أن ترحلي.

- لماذا تتعاملين معي بعدائية؟ كل ما أريده هو مساعدتك.

- لم أطلب مساعدتك قط.

- لكن أمك طلبتها. انتزعت مني وعدًا بأنني لن أترككما بمفردكما، وأنا امرأة تلتزم بكلمتها.

- ماتت أمي. لم تعد تشعر أو تعاني. ليس لديكِ أي حسابات معها.

- سيكون حالك في بيتي أفضل من هنا. لن تحتاجي إلى شيء وسأعاملك بكل الحب الذي تتطلبه سنك.
- لم أعد طفلة منذ فترة.
- هيا بنا يا لوثيا. لا تكوني عنيدة. تعالي معي.
- دييجو يعاملني جيدًا ويساعدني في البحث عن كلارا.
- لا أشك في النيات الطيبة لهذا الصحفي، لكن إلى جواري ستكون الأمور أسهل. لديَّ أصدقاء جيدون في الحكومة.
- جميل. أتمنى أن تستمتعي برفقتهم في جلسات السمر الراقية التي تذهبون إليها. الآن غادري رجاء. لقد التزمتِ بكلمتك مع أمي، ومع كلارا أيضًا حين أعدتِ إليَّ الخاتم.

تلاحظ لوثيا حزن السيدة دي بيافرانكا. تعرف أنها تقسو عليها أكثر من اللازم.

- أشكرك على محاولة مساعدتي، لكن يمكنك أن تغادري وأنتِ مطمئنة. أنا في خير حال هنا.

تومئ إينماكولادا برأسها بأسى. إنها تلك الإيماءة التي تكررت منها في مرات كثيرة في أثناء زيارتها للأحياء البائسة. حين تُصغِّر عينيها كأنها تود أن تسحق دمعاتها قبل تبرعمها، وحين تتجعد قسماتها بضع ثوانٍ لكيلا تلمع بشرتها بضيائها وسط أجواء المحرومين. تعرف أنه لا جدوى من الضغط على لوثيا. تفتح الباب لترحل، فتندهش حين تجد دييجو رويث على الجانب الآخر.

يُحييها:

- يا لها من مفاجأة!
- جلبت الخاتم. ها هو ذا. أتمنى أن تستخدمه جيدًا.
- انتظري ثانية واحدة. لا ترحلي رجاء.

يوارب دييجو الباب ليضمن السرية اللازمة.

- أود أن أسألك ما إذا كنتِ قد سمعتِ شائعات حول جماعة سرية مستقرة في المدينة. «مشعلو الفحم».

تقطب السيدة جبينها وتتفقد دييجو بنظرتها. تحاول فهم سبب فضوله.

- سمعت شيئًا ما عنهم. لا شيء مميز. إنهم إيسابيلِّيُّون ومناوئون للكارليَّة ويريدون القضاء على إرث فرناندو السابع، وكلها أمور منطقية في رأيي.

- هل هم ثوريون؟

- أعتبرهم غير هجوميين. لديَّ صديق في هذه الجماعة، رئيس «دير القديس فرانسيس العظيم» على سبيل المثال، وإن كنت أخشى أنه قد مات الخميس الماضي في مذبحة الرهبان. أيضًا ماركيز بيمينتيل، على حد علمي، وبالمثل أسينثيو دي لاس إيراس، الرجل الدبلوماسي.

- أسينثيو دي لاس إيراس؟ هل أنتِ واثقة من أنه من «مشعلو الفحم»؟

- تمام الثقة. أنت تعرف أن أحدًا لا يتباهى بانتمائه إلى هذه الجماعة السرية أو تلك الأخرى، لكن بعضهم يجتمع في المقاهي، على مرأى من الجميع، تقريبًا، كما أن كل الأسرار تُحلق في جلسات السمر.

- أين يعيش دي لاس إيراس؟

- لا أفهم مرد اهتمامك. أقول لك إن جماعة «مشعلو الفحم» ليس فيها أي شيء يُميزها. لو أنك أتيت على ذكر جماعة «الملاك المبيد» أو جماعة «الكومونيروس»، لاختلف الأمر، فمثل هذه الجماعات مخرِّبة، لكن هؤلاء مجرد جماعة أخرى، لا أكثر أو أقل.

يُومئ دييجو برأسه. يحاول أن يتشارك مع السيدة دي بيافرانكا اطمئنانها، لكن روحه تغلي داخليًا بالشكوك ونفاد الصبر وروح المغامرة.

تعجز لوثيا وهي جالسة على المقعد عن التوقف عن النظر إلى الحلية التي جلبت لها تعاسات كثيرة. تراقبها من كل الزوايا، كما فعلت سلفًا مع الأوراق المكتوبة، كأنها ستقدر على قراءتها بالنظر إليها لفترة طويلة. لا تقول الأحرف ولا زوايا الخاتم شيئًا لها حول معناها الخفي.

يُفكر دييجو منذ لحظة في أمر ما. ينهض الآن ويقترب منها. يأخذ الخاتم وينظر إليه، مبهورًا. يتطابق الرسم مع الشارة التي أظهرها له الدكتور آلبان بعد إخراجها من فم بيرتا.

- سأحتفظ بالخاتم.

- لماذا؟ إنه ملكي.

- أعتقد أنه قد يكون مفتاح الدخول إلى دائرة «مشعلو الفحم» والتسلل إلى اجتماعاتهم السرية. ومن يدري؟ قد يساعدنا هذا الأمر في التحقق من مكان أختك. أعدك بأنني سأعيده إليكِ. ثقي بي.

- هل ستحكي لي إلى أين سيصل بك الخاتم؟

- أعدك.

تعانقه لوثيا فجأة. تفعلها بقوة شديدة إلى درجة أن دييجو يضطر إلى أن يبذل جهدًا ليظل واقفًا. تشعر الفتاة لأول مرة بأمل حقيقي منذ فترة. حتى الآن لم يُقرِّبها تجولها في المدينة من كلارا في أي لحظة، لكن دييجو يقود خطواتها نحوها. تقول لها في ذهنها أيًّا كان مكانها: «قاومي يا كلارا».

- هل ستعثر عليها؟

يعتقد دييجو، بينما يعانق لوثيا، أنه سيدفن أملها، لو قال لها ما يفكر به فعلًا، لو أن «الوحش» قد احتجز كلارا فعلًا، فإن مقتله سيتركها من دون طعام وماء، فكيف إذن ستتمكن من البقاء على قيد الحياة طيلة هذه الأيام؟ ولو أن ثمة أناسًا آخرين يقفون خلفه، فأليس من المحتمل أن تكون قد صارت فعلًا ضحية لهذه الجماعة السرية كما حدث مع بيرتا وبقية الفتيات؟ لكنه لا يرغب أيضًا في الكذب عليها، فهذه الفتاة الصغيرة التي تحاول أن تبدو امرأة حديدية على وشك السقوط من الخوف وهو الوحيد الذي يُبقيها واقفة على قدميها. يبتسم إليها ويُفكر في أنه حين ينتهي الأمر، سيفتقد العثور عليها في بيته لدى عودته. ربما ليسا مجبرَين على الابتعاد عن بعضهما. ربما يمكنها أن تظل معه لو لم تعد كلارا وهي على قيد الحياة.

- أعدك بأنني سأحاول.



يزداد اقتناع دييجو مع كل خطوة تقرُّبه من حي «زهور الثالوث» بأن أسينثيو دي لاس إيراس هو الرجل المنشود. يقف تحت مظلة متجر المخللات الذي يحتل حاليًا المساحة التي شغلتها سابقًا «حلقة ثرثرة الممثلين»، حيث اعتاد أن يجتمع كبار كتاب مسرح «القرن الذهبي». يراقب ناصية شارع «الأسد» مع شارع «الضفادع الصيَّاحة»، وهو العنوان الذي حصل عليه في المساء ذاته من السيدة دي بيافرانكا. يقف بثبات وهو متأهب أكثر من اللازم، فيدرك أن ما يفعله قد يُلفت الانتباه، لهذا يتسلى بالنظر إلى بعض الواجهات الزجاجية والسير من جانب إلى آخر ليفك تيبس عضلاته.

لم يرد أن يدخل في مواجهة مع دونوسو بخصوص قصة جريسي غير المتناسقة وهذيانها كامرأة يجرها التيار وهي مخدَّرة ومغلوبة على أمرها بسبب مأساة فقدان ابنتها. لا يصدق أن الدبلوماسي توجه بالأمس إلى منزل «توكامي روكي»، المكان سيئ السمعة، ليجلب بعضًا من الحلوى لممثلة منتهية. لا تتماشى الرواية غير المكترِثة التي حكتها جريسي لدونوسو مع ما قالته لهما زميلتها بخصوص أن أسينثيو أخذها عنوة. مهما تباهى دونوسو بحدسه كشرطي، فمن الواضح أن حكمه على الأمور أصبح ضبابيًا بسبب

الغرام. صحيح أن هذا ما يفكر فيه دييجو، لكن من جانب آخر، من هو أصلًا ليحكم عليه؟ ألا يجد نفسه في الضباب ذاته الذي يكتنف صديقه وهو في رفقة آنا؟ إن رؤية الكيفية التي تولَد بها مشاعر نقية مثل هذه، على الرغم من عفن هذه المدينة، لمدعاة للأمل.

يطول الانتظار من دون أي مستجدات وسط تمدد ظلال المساء. بينما يوشك دييجو على التراجع بعد أن قضى ساعتين متأهبًا، ينفتح باب العقار أخيرًا ويخرج منه رجل. إنه أسينثيو دي لاس إيراس الذي يغطي وجهه بمجرد أن تلامس قدمه الشارع، كأنه لا يريد أن يتعرف أحد على مساره. ينطلق دييجو خلفه مع إبقاء مسافة نوعية.

يتبعه حتى منتزه «الرهبان الفرنسيسكانيين». يتوجه بعدئذٍ إلى شارع «القلعة»، تاركًا «مخزن الحبوب الملكي» عن يساره وحديقة «الخلوة» عن يمينه، وقبل أن يصل إلى «بوابة القلعة» يتوقف وينظر حوله. ثمة قصر قد يظنه البعض مهجورًا يختفي نصفه وراء بستان تحيطه أشجار فاكهة. يتوجه الدبلوماسي إليه. لا يعرف دييجو المبنى، لكنه سيراهن بريالاته القليلة على أنه ملتقى هذه الجماعة السرية. قرأ أن الاجتماعات تنعقد غالبًا في أماكن متفرقة، في متاجر أدوية، ومخابز، وأديرة. يلتقي ماسونيُّو «محفل الشرق» في بيت «شركة القلبين» في شارع «كارِّيتاس»، التي تقع بورصة مدريد في فنائه. أي مكان لا يلفت الانتباه جيدًا، ويبدو هذا القصر الذي توقف الزمن به، بجدرانه المتعفنة، مثاليًا.

يصل أسينثيو دي لاس إيراس إلى البوابة، فلا يتمكن دييجو وهو مختبئ وراء الأشجار من رؤية ما يحدث بالضبط، لكنه يعتقد أنه يرى حارسًا يفتح الباب وأن الدبلوماسي يظهِر له شيئًا في يده، فيسمح له بالعبور ويغلق الباب خلفه.

يتنافس الاندفاع والحكمة حاليًا. يعرف دييجو أن الخاتم علامة على الانتماء وأن إظهاره يكفي كي يدخل المبنى، لكنه يجهل ما سيجده على الجانب الآخر من هذه الجدران. ربما لا يزال الدبلوماسي في الدهليز وهو ينفض حذاءه أو يحيِّي أحد رفقائه. لو تسرع فقد يكشف نفسه. لو تأخر فقد يفقده. ما الوقت الذي يجب عليه انتظاره؟ ينعق غراب وهو يقف فوق أحد الأفرع، كأنه يدعوه إلى المخاطرة، أو ربما لإكراهه على تنفيذها. أم أنه تحذير؟ تتيه نظرته في الحديقة المتهالكة التي تحيط القصر. تظهر في أحد

أجزائها زهور الداليا. يلفت انتباهه مدى الاعتناء الذي تتلقاه على عكس بقية المكان. يتسلح دييجو بالشجاعة ويرتدي في يده اليمنى الخاتم الذي يعتقد أن أسينثيو دي لاس إيراس أظهره. يجتاز الخطوات التي تفصله عن المدخل وهو يرتعش تقريبًا. يقرع الباب بضربات حاسمة، فيأتي الحارس ليفتحه.

- من هناك؟

يُظهِر له دييجو الخاتم من دون أن يقول شيئًا. ينظر إليه الرجل متعجبًا، كأنه يشتبه فيه أو كأنه تعرف عليه، لكنه في النهاية يبتعد ويفسح له المجال.

- تفضل. ستجد رداءك هناك.

ثمة اثنتا عشرة عُقافة فوق الجدار، أغلبها خاوية، لكن تتدلى ثلاثة أردية سوداء لها قلنسوات كبيرة. يفكر دييجو في أنه ربما يجب عليه أن يأخذ رداءً محددًا وأن الحارس يراقبه، بل وأنه قد ينكشف لو أخطأ في الاختيار، لكن مثل هذه الأمور يستحيل معرفتها، ولهذا ينتقي واحدًا بصورة عشوائية ويرتديه.

لم يحدث شيء.

- رافِقني.

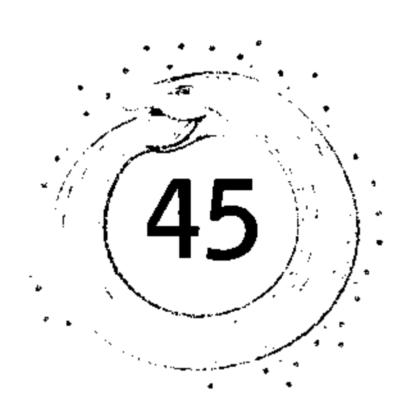
يمضيان عبر رواقٍ ضيق، من دون زينة. تبرز على الجدران بعض الآثار التي خلَّفتها لوحات أُزيلت في وقت سابق. يجتازان صالونًا كبيرًا خاويًا، يبدو عليه ملامح الهجران نفسها الموجودة في بقية المبنى. مع ذلك فالقاعة التالية مُزينة. تضم قطع أثاث على الطراز الإمبراطوري، ولوحات زيتية على الجدران، وستائر مخملية، وسجاجيد شرقية. تبدو كأنها صالة انتظار قبل البهو الرئيسي للقصر. يصلان إلى باب يفتحه الحارس. تُلقي بعض القناديل ضوءها المحتضر. يتخطى دييجو العتبة ويلتفت حين يسمع صفعة الباب. لم يمضِ الحارس خلفه. إنه الآن بمفرده.

للحظة يظن أنه قد سقط ضحية لمكيدة. يسمح له وميض بلون العنبر برؤية قاعة كبيرة مؤثثة بسخاء تُضيئها شموع ويتصدرها صليب للقديس أندرو طوله متران ومصنوع من الخشب. تظهر في وسط الصليب مطرقتان متقاطعتان منحوتتان تشكلان علامة ضرب، وهو الرمز ذاته الظاهر على كل الرايات التي تتدلى من مختلف المصابيح. تنفتح في جوانب القاعة تسع مُصليات صغيرة يتراءى داخلها وجود تسعة أشخاص يلبسون رداءه نفسه، ووجوههم جميعًا مغطاة بالقلنسوات. يشتعل البخور في أحد الأركان وتُلقي

الشموع بشبكة من الظلال فوق المكان كله. ثمة شيء مرعب في مهابة المشهد، وطابعه القروسطي.

يمد أحد الرجال ذوو القلنسوات يده ويشير إلى دييجو كي يدخل مصلى خاويًا يضم مقعدًا من الخشب المنحوت. يزدرد لُعابه قبل أن يتوجه إلى المكان المخصص له. لا يعرف ما يورط نفسه فيه، لكن الأمر الوحيد المؤكد أنه قد دخل فعلًا إلى لقاء جماعة «مشعلو الفحم» السرية.





يشعر دييجو بأن ضربات قلبه تدوي وسط الصمت الذي تتزايد كثافته إلى أن صار دبقًا. يجلس منذ بضع دقائق ولم تصدر كلمة واحدة، أو همهمة بجملة، أو نحنحة خفيفة من أحد. لا يحدث شيء، وحتى نيران الشموع نفسها تضطرم في صمت. لا بد أن أحد هؤلاء الرجال ذوي القلنسوات هو أسينثيو دي لاس إيراس، لكن التأكد من الأمر مستحيل، فالقلنسوات تبدو كهوفًا لإخفاء الوجوه. تمنع وضعيات رؤوسهم المحنية الخاضعة والظلال من التعرف على ما يوجد داخل سوادها. قد ينتصب رأس بين الحين والآخر ويلمع ضوءان هناك في الداخل، كعينَي حيوان محبوس. يتميز أحد الأردية بتطريز ذهبي في منطقة الصدر يتخذ شكل المطرقتين المتقاطعتين. يستنتج دييجو أنه على الأرجح «المعلم الأكبر»، الذي يجلس في المصلى الواقع عن يمين الصليب. ينهض ثلاثة من الحاضرين في الوقت نفسه ويخرجون من باب جانبي. يتساءل دييجو، وهو يحبس أنفاسه، ما إذا كانوا قد تصرفوا بناء على تحذير لم يُلاحظه، أم أن ما حدث يأتي داخل سيناريو دقيق، تدربوا عليه ألف مرة.

بعد بضع دقائق، ينفتح الباب الذي خرجوا منه ويظهر الثلاثة ومعهم طفلة عارية ساقاها ملطَّختان بالدماء. لو أنه عالم فراسة جيد، لتعرف في

خوانا على ملامح دلفينا، العاهرة التي تحدث معها في ماخور «اللبؤة». ورثت خوانا منها بشرتها الملأى بالنمش وأنفها المعقوف، بل إنها الآن في سلوكها الانهزامي واستسلامها لذوي القلنسوات وهم يقيِّدونها في صليب القديس أندرو تشبه دلفينا حين فقدت الأمل في العثور عليها. لكن دييجو لا يقدر على معرفة كل هذا ويقتصر كل ما يفعله على تمني ألا تكون هذه الفتاة كلارا، أخت لوثيا. لو أن ذاكرته لم تخنه، فقد قالت له إن شعرها أشقر. لا بد أنها طفلة أخرى.

يُحدق الآن إلى كأس فضية يضعها واحد من ذوي القلنسوات على الأرض بين ساقَي الفتاة. يظل الرجلان اللذان قيداها واقفين، كل منهما إلى أحد جانبَي الصليب، كحارسَي ضريح. يسود الصمت ثانية، لكن تزداد كثافته مع صوت تساقط نقاط، كأن صنبورًا لم يُغلق بشكل جيد. يفزع الصحفي حين يعرف منبع هذا الصوت. إنه دم دورة خوانا الذي يسقط من بين ساقيها إلى الكأس الفضية في تيار متقطع أليم. نقطة ومن بعدها لا شيء. قطرتان متتاليتان. خيط رفيع. عينا الطفلة لا هما مفتوحتان ولا هما مغلقتان. تبدو مُخدَّرة. لم ينبس أحد بكلمة واحدة طيلة ساعة كاملة استغرقها ملء الكأس. في النهاية، يكسر صوت أجش الصمت.

- ليتبارك الرب الذي قدم لنا هذه الابنة. لتتباركي يا ابنة «الأب» لتسليمنا طهارتك.

يعجز دييجو عن تحديد مكان صاحب هذا الصوت المفعم بإحساس مستنير. ربما هو الكاهن الذي يدير هذا الطقس.

- ستسلميننا الدم الأول الطاهر لشفاء بني البشر، وحين تفعلينها سيغدو جسدك دنسًا للمرة الأولى.

يُخرِج «المعلم الأكبر» -الوحيد الذي لديه علامتا ضرب مطرزتان فوق ردائه- علبة صغيرة من جيبه، ومنها شارة عليها شعار الجماعة، المطرقتان المتقاطعتان. يُخمن دييجو ما سيحدث. يُعلق «المعلم الأكبر» الشارة داخل فم الفتاة، التي تصدِر صوت غثيان بسيطًا حين يُخرِج يده من داخل فمها. على الفور يرفع الكأس الفضية ويضعها فوق الطاولة ويغطيها بقطعة قماشية من المخمل.

- أضحية وقربان الرب. لتغدو هديتك مفتاحًا لدخول السماوات. ليفتح لكِ «الأب» الأبواب حين يُظهِر دليل شهادتك.

ينطق صاحب الصوت الصداح، هذا الكاهن الغريب، الجملة النهائية:

- لتتحرر الروح من الجسد الفاسد.

يمد الحارسان حبال المعصمين والكاحلين إلى أن يربطاها وراء الصليب. لم يلاحظ دييجو الأمر وسط العتمة، لكنه حين يراه، يتذكر منصة تعذيب «محاكم التفتيش». يربطان أيضًا عقدة حول رأس خوانا، ثم يلفان أذرع التدوير إلى أن يُحكِما وثاق الحبال التي تشد أطرافها بقوة وتخنق رقبة الفتاة بصورة مفزعة. لا يصدق دييجو ما يراه، فينهض مندفعًا.

- توقفوا! هل أنتم مجانين؟

يسود الارتباك للحظة. ينظر «المعلم الأكبر» إلى الحضور، وتكفي إيماءة بسيطة منه أن ينهض بعضهم لإمساك دييجو الذي يشد ويجذب معهم.

- أفلتوني. إنها مجرد طفلة. ألا ترون الأمر؟

يرفع قائد الطقس، الذي يحتل أقرب مكان إلى الصليب أمام «المعلم الأكبر»، صوته:

- لتتحرر الروح من الجسد الفاسد.

ها هما ذان لفَّتان أخريان لعجلة التدوير، وصوت صريرها الذي يذكِّر بصراخ الخنازير في وقت ذبحها. بعد بضع ثوانٍ، ينفصل ذراع وساق عن جسد الفتاة. ينساب الدم كشلال، فيصرخ دييجو من فرط العجز والفزع، أمام الجسد الممزَّق. تأتي لفة أخرى لعجلة التدوير، فينفصل رأس الفتاة.

- لنصلي كي نُقدِّر تضحية الابنة حق تقديرها.

يبدأ بعض الحاضرين صلاتهم باللاتينية. يتأكد من يمسكون بدييجو من عجزه عن الفرار. يمشي «المعلم الأكبر» عبر القاعة ومعه الكأس الفضية في يده، قبل أن يحفظها في صندوق للذخائر. يصرخ دييجو ويتحدى المجموعة الدموية:

- قتلة! مستنيرون مجانين! قتلة! سأذهب إلى الشرطة.

- لن تذهب إلى أي مكان.

إنه الصوت نفسه الذي طالب بالأضحية. يعتقد دييجو الآن أنه قد تعرف فعلًا على صوت الدبلوماسي، أسينثيو دي لاس إيراس، في ذلك الرجل الذي يقترب ويدخِل يده في جيبه. قد يُخرِج صليبًا منه. لكن ما أخرجه فعلًا سكينًا غرزه في معدة دييجو ولفه داخل أحشائه.

يبدأ دييجو في فقدان وعيه، بعد أن اكتسحه الألم، إلى أن تعجز قدماه عن إبقائه واقفًا. يتركه من يمسكونه، فيسقط على الأرض وهو غارق في هلوسة تتمازج فيها صرخة الفتاة مقطوعة الأوصال مع ليالي شرب «الأجواردييننتي» في رفقة صديقه دونوسو، وابتسامة وقبلات آنا كاستيلار وعناق لوثيا الأخير وهي تطلب منه أن يعيد أختها، ومفارقته الحياة.

الظلام وحده ما بقي أمام عينيه.

يُقرفص أسينثيو دي لاس إيراس إلى جواره، ويمسك يد دييجو الميتة برقة، ويخلع منها الخاتم.

الجزء الثالث

46

مدريد 21 يونيو 1834

لم تأكل لوثيا في حياتها قط أطعمة شهية مثل الأكلات المطهية في مطبخ آنا كاستيلار. تأتي السيدة الأرستقراطية بها إليها في بيت دييجو كلما ذهبت لزيارتها. لحوم، وأنواع مختلفة من الكريمة، وأسماك، وأكثر ما يروقها، حلويات.

- لو استمررتِ في تناول الطعام هكذا، فستتعبين.

- ما سأتعب منه هو عدم تناول الطعام. أقول لكِ هذا بناء على معرفتي.

تبتسم آنا أمام هذه الإجابات ومع ما تحكيه لوثيا من نوادر عن «لاس بينيولاس» وغسالات النهر وأهالي الحي. تُفضي كل هذه القصص بصورة لا مناص منها إلى مأساة موت أمها كانديدا، ومقتل إيلوي، والغم الذي تشعر به بسبب أختها.

- لم تعيشي حياة عادلة. أن يكون أفضل شيء قد حدث لكِ هو انتهاء المطاف بك في ماخور شارع «القرنفل» يقول الكثير.

- اعتنت بي «اللبؤة» بطريقتها. لا بد أن خوانا، ابنة دلفينا، مع كلارا. هل تظنين أن بإمكاننا العثور عليهما معًا؟

تنجرف لوثيا مع خيالها وترسم في نسختها من الأحداث مغامرة لا تُصدَّق تنتهي بالعثور على الطفلتين اللتين اختطفهما «الوحش»، يظهر فيها حارس مفاتيح هو في الأصل تابع تائب لمارثيال جارِّيجيس. يعرف هذا الرجل القلعة التي حَبس الفتاتين فيها، والمتاهة التي تُفضي إليها وصممها مهندس مجنون، لكنها ستتمكن في النهاية هي وديبجو وآنا من حلها للعثور على كلارا، ومعها خوانا، وكل الفتيات اللاتي ينتظرن إنقاذهن. ها هو ذا عناق اللقاء والسعادة. ليست أول مرة تسمع فيها آنا خيالاتها، إذ حكت لها قبلئذٍ قصة نافورة الذهب والكنوز المخبأة في مجارير مدريد، واللغة السرية للسُّحب.

- حين ينتهي كل هذا وتتعلمين الكتابة جيدًا، عليكِ أن تُحرري كل هذه القصص. سنتحدث مع ناشر كي ينشرها. قد يُساعدك ديبجو وستصبحين ثرية. ستكونين ثربانتس الجديد.

- لكن بيدين اثنتين![1]

تضحكان. في الواقع أدركت لوثيا بالأمس فقط وجود كاتب يُدعى ثربانتس، وأنه كتب «إل كيخوتي»، ومسألة الذراع الواحدة. لم تتخيل أصلًا أنه يُمكن للمرء أن يُكرس حياته للكتابة، بل وأن يحصل على المال في المقابل، لكنها صارت تفهم الآن أن هذا هو ما يفعله ديبجو في الصحيفة.

اضطرت آنا إلى المغادرة. ينتظرونها في «محجر بالبيردي» لتنظيم وصول المساعدات، لكنها وعدتها بأنها ستعود في الصباح التالي لاستئناف الدروس.

- حين يصل ديبجو، قولي له أن يتواصل معي.

تتظاهر آنا كاستيلار بأنها ليست قلقة، لكن لوثيا تعرف أن هذه ليست حالها، فليس طبيعيًا أن يقضي ديبجو يومًا كاملًا من دون أن يظهر في بيته. لم يعد أصلًا للنوم. خرج مع الخاتم الذهبي مساء الأمس، ومنذ ذلك الحين لم تعرفا شيئًا عنه. ثمة هاجس أخذ يطفو من تحت محادثة آنا ولوثيا وحكاياتها

---

(1) فقدت إحدى يدي ثربانتس القدرة على الحركة بسبب إصابة تعرض لها في معركة ليبانتو، لكن هذه اليد لم تُبتر قط، على الرغم من وجود اعتقاد شائع بأنها قد بُترت. (المترجم).

الطفولية، لكن أيًا منهما لم تتجرأ على قوله بصوت مرتفع، لقد حدث شيء ما لدييجو.

حين ترحل آنا، تبذل لوثيا قصارى جهدها للتحلي بالإيجابية، ربما يحقق الصحفي من دون راحة في الأمر، بل وربما صارت كلارا أقرب الآن أكثر من أي وقت إلى حريتها. ماذا لو دق الباب وظهر على الجانب الآخر دييجو وكلارا؟ لا يمضي الزمن كما تود، ولهذا تجد نفسها مضطرة إلى اختراع فروض لكيلا تسقط في بئر التشاؤم. تحاول أن تقرأ الأوراق التي كتبها الصحفي قبل أن يغادر وهي تأمل أن تعثر على أي مفتاح فيها. على الرغم من قدرتها على فك شفرة الأحرف، تعجز عن تشكيل الكلمات، ربما بعضها فقط مثل: «وحش»، و«قاتل»، و«طقس»، وكلها كلمات ترتعد مما قد تعنيه بالنسبة إلى كلارا، لأنها تدفع أفكارها إلى خلق صور تبدو كالكوابيس.

حين تسمع صوت مفتاح في القفل، تنسى الإجراء الاحترازي الذي وعدته به، ألا وهو الاختباء إن لم تكن متأكدة من هوية من يفتح الباب، فتركض نحو المدخل.

- دييجو!

مع ذلك ليس هو من يدخل، وإنما الشرطي الذي يضع رقعة فوق عينه، الرجل الذي لاحقها في مأوى اللقطاء. عثر عليها الآن وسيقبض عليها. لكن كيف يُمكنها أن تهرب والمخرج الوحيد هو الباب الذي يغطيه بجسده؟

تسمعه يتمتم:

- علمت أنني سأجدك هنا. وجب عليَّ أن أتخيل الأمر سلفًا.

يقتصر رد فعلها على التراجع إلى نهاية الغرفة وهي تمد ذراعيها أمامها كحاجز وترجوه:

- من فضلك. لا تلقِ القبض عليَّ. يجب أن أعثر على أختي. لو لم أقتل «الوحش»، لقتلني هو.

- دييجو مات، لقد قتلوه.

أقسم دونوسو سلفًا إنه سيختار أقل الطرق قسوة، لكن في اللحظة الأخيرة لم تخرج من فمه عبارة جميلة. ربما لا يرتبط الأمر بأنه قد ارتكب فعلًا أخرق،

وإنما أن تلك الطريقة لإعلان مقتل صديقه تنضح بحقد معين تجاه هذه الفتاة التي ملأت رأسه بالخيالات.

- ماذا؟ من الذي قتله؟

- لا نعرف. عثروا على جثته بالقرب من حلبة الثيران. ربما هو لص.

تعرف لوثيا تمام المعرفة أنه ليس لصًا وأنه ليس حادثًا، لأن دييجو أخذ الخاتم الذهبي وأوشك على الاقتراب من الحقيقة.

تؤكد:

- إنه «الوحش».

- مات «الوحش». لا أريد أن أسمع هذا الاسم في حياتي أبدًا.

يُعبر دونوسو بصرخته المفاجئة أيضًا عن ألمه. تتراجع لوثيا خطوة أخرى إلى الوراء. تخشى أن يوجِّه لها الشرطي صفعة في أي لحظة. تجلس على الفراش، فتدهس أوراق مقال دييجو غير المكتمِل. تتراقص أمامها الكلمات التي حاولت قراءتها بالطول وبالعرض. «سفاح». «جماعة». «خاتم». «فتيات».

- ماذا لو أن ثمة وحوشًا غيره؟

- بالنسبة إليَّ الأمر سيان، حتى ولو قطعوا أوصال كل فتيات مدريد. قلت لكِ مرة واحدة، انتهى موضوع «الوحش». إن أتيتِ على ذكره مرة أخرى، فستطير أسنانك.

تشعر لوثيا أن بئرًا تنفتح تحت قدميها، إيلوي في البداية والآن دييجو، كأنها تحمل فيروسًا مميتًا تصيب به كل من يقترب منها، فتُسمم وتقتل كل من تشعر تجاهه بقدر من المودة. إيلوي، وعيناه الزرقاوان، وخجله الطفولي، ومساعدته لها حتى قبل أن يعرفها. دييجو واعتناؤه بها كأب، نومه فوق مقعد حطم له ظهره كي ترتاح فوق الفراش، معانقته لها بدفء لم تشعر به إلا مع أمها، حين وعدها أنه سيفعل كل ما هو ممكن لمساعدتها. صاروا جميعًا الآن طعامًا للديدان.

يزداد عمق البئر الواقعة تحت قدمَي لوثيا بمرور الوقت، فتشعر بغواية الاستسلام للسقوط فيه كي تتكسر إلى ألف قطعة. تضطرم الدموع داخل عينيها وهي تكافح للخروج، لكن يتنافس خواء هذا الألم الذي ترغب في

الاستسلام إليه مع ذكرى ملمس بشرة ورائحة كلارا، وهي تلوذ داخل عناقها. كيف لها أن تستسلم؟ لا يُمكنها أن تفعل هذا الأمر. يجب عليها أن تستمر في تحليها بالصلابة. لا مكان للدموع الآن. سيأتي وقت للبكاء على الضحايا.

- هل كان الخاتم معه؟ أعطيته له قبل مغادرته.

يغرز دونوسو عينه السليمة في لوثيا كطعنة. لا تأبه بتعرضها للضرب من الشرطي. إنها في حاجة إلى معرفة المزيد عن مقتل دييجو، لأن أي شيء قد يمثّل أهمية للعثور على أختها.

- لا، لم يكن معه. الشيء الوحيد الذي حصل عليه هو طعنة في المعدة. هل تعرفين ما يعنيه هذا الأمر؟ النزف حتى الموت. يفقد المحظوظون وعيهم من فرط الألم، لكننا لا نعرف ما إذا كان هذا ما حدث لدييجو.

تستنبط الفتاة من عبوس الألم المرسوم على وجه الشرطي الأعور أنه كان فعلًا صديقًا لدييجو.

- ألا تريد معرفة من الذي قتل صديقك؟ الذنب يقع على هذا الخاتم.

- أتعرفين ما الذي يقع عليه الذنب؟ الكبر! هذا هو ما قتل دييجو، اعتقاده بأنه قادر على مكافحة شيء يفوقنا، بل ويفوق الكل. إن هذا الخاتم ليس مصنوعًا لمن هم مثلنا. هل تفهمين المسألة يا تافهة؟

تكره هي الأخرى الخاتم. لو أنها قادرة على الرجوع في الزمن، لما انتبهت على الإطلاق إلى هذه الشرفة المفتوحة في شارع «طريق القديس جيروم»، ولما دخلت إلى هذا البيت لسرقة ممتلكات الكاهن الذي توفي بالكوليرا، ولما عثرت على الخاتم في ذلك الصندوق الصغير، ولأهدت إلى أختها شيئًا آخر لتهدئة مخاوفها. ربما أهدتها عصا أو حجرًا شكله مضحك أو ورقة شجر. لو حدث هذا لظلت كلارا إلى جوارها. لكن النظر إلى الوراء لمحاولة إعادة كتابة الماضي أمر سخيف. يركض الزمن في اتجاه واحد فقط، وهي لن تتوقف. لن تستسلم مثل الأعور.

- هل يجب عليَّ أن أغادر هذا البيت؟ ليس لديَّ مكان أذهب إليه.

إن التفكير في رفاهيتها الشخصية أنانية. يبدو أن هذه المسألة تُقلقها أكثر من مقتل دييجو. إنها محقة. ثمة وحوش كثيرة، وهي أولها. إنها تتحول بسبب الظروف والفقر والغم إلى كائن معدوم المشاعر تتراجع إنسانيته يوميًا.

- الإيجار مدفوع حاليًا لمدة أسبوعين إضافيين. ابقي هنا بضعة أيام وبعدئذٍ سنرى.

- ألن تعتقلني فعلًا؟

- ربما هذا ما يجب عليَّ فعله، جرك من أذنك واصطحابك أمام ناظر الشرطة كي تُعدَمي في ميدان «الشعير»، لو أن هذه هي رغبتهم، لكن...

يجلس دونوسو على المقعد الذي رأى دييجو مرات كثيرة فوقه، ويتمتم بشيء كأنه مُسن يشق عليه ابتلاع ريقه:

- ملعون أنا! لقد وعدت دييجو. قلت له إنني لن أفعل لكِ شيئًا، ربما يجب عليَّ نسيان هذا الوعد لأنه مات ولن يواجهني بتوبيخه، لكنني لست رجلًا يخون صديقه.

- قل لي كل ما حكاه لك دييجو.

تنغرز عين دونوسو السليمة مرة أخرى في لوثيا، مدهوشًا من وقاحتها بعد أن عفا عنها، فتصر الفتاة:

- كان ليريد هذا الأمر.

- ما الذي تعرفينه عما أراده دييجو؟

يضرب الأعور فجأة الطاولة بقبضة يده، من دون أن تتوقع لوثيا الأمر، ويشرع في البكاء فجأة. لم تر رجلًا يبكي قط، فما بالنا وهو رجل ذو مظهر صلب، ولديه عين مغطاة برقعة سوداء قد تُرعب أي شخص تتقاطع طرقه معه في الشارع، ويُظهر طرف مديته من وراء زناره. حين يتمكن الشرطي من كبح بكائه، يلتفت ناحية لوثيا ويتنهد ويُومئ في صمت:

- قال لي إنه يلاحق جماعة سرية. «مشعلو الفحم». أنا واثق من أن هذا المقال الذي لم يكمله يتحدث عنهم.

- من هم «مشعلو الفحم»؟

تسأله لوثيا كأنها أول مرة تسمع فيها هذا الاسم، كأنها لم تنصت إلى الحوار الذي دار بين دييجو والسيدة دي بيافرانكا، كأن دييجو نفسه لم يقل لها شيئًا. تتظاهر لأنها يجب عليها أن تدرك كل ما يُمكنها أن تدركه قبل أن تبقى بمفردها، وكل هذا عبر السؤال، وجمع المعلومات، حتى وإن لم تفهمها.

- سأقدم لكِ نصيحة، انسي «مشعلو الفحم». لا بد أن أختك ميتة الآن. لا تتابعي هذا الأمر وإلا انتهى بكِ المطاف مثل دييجو، أو أسوأ، هل تعرفين كيف وجدنا هذه الفتاة من «إل ثيرِّيو ديل راسترو»؟ وهي مقطعة الأوصال. هل هذه رغبتك؟ لم يأبه دييجو بما قلتُه وانظري كيف انتهى به المطاف. قلت له ألا يُقحم أنفه في هذا الموضوع، وإنه عاجز عن الدفاع عن نفسه، لكنه لطالما فعل ما يحلو له، لأن هذا هو طبعه.

- لا بُد من إبلاغ آنا كاستيلار.

- دوقة ألتويانو؟ لماذا؟

- كانت عشيقته. لا أعرف ما إذا كان وصفًا صحيحًا. لقد أحبا بعضهما.

لا يندهش دونوسو من هذه المسألة. لا يزال يتذكر نظرتهما حين تعارفا في «مسرح التخييل بالأوهام». ما يُؤلمه أن صديقه لم يحكِ له، مع أنه في الحقيقة كان من الأجدر به أن يتخيل الأمر، فدييجو يليق به كثيرًا أن يتورط مع أرستقراطية متزوجة.

- لطالما قال إنه صديقي، لكنه لم يفعل شيئًا سوى إخفاء الأمور عني، العنيد الملعون، ربما من أمر بقتله هو زوجها وليس «مشعلو الفحم» أو أي جماعة سرية. هل تعرفين كيف نعثر على الدوقة؟

- كانت هنا وقالت لي إنها ستعود غدًا، ويفترض أنها نوت أن تذهب اليوم إلى «محجر بالبيردي».

- هيا بنا.

- لا يُمكنني أن أخرج. لو تعرفت عليَّ الشرطة فستعتقلني.

- أنا الشرطة. هيا بنا. لم يعد معي مال وعلى أحد أن يدفع مصاريف الدفن. لن نسمح لهم بأن يلقوا دييجو في مقبرة جماعية، كأنه كلب.

تفهم لوثيا الآن ما جاء دونوسو ليبحث عنه في البيت وهو يفتح أدراج المكتب. جاء بحثًا عن المال ليحصل صديقه على دفنة كريمة.

47

أراد دونوسو أن يُجنِّب صديقه دييجو ما صادفاه فجرًا في اليوم التالي عند مدخل مقبرة «الهناء السعيد»، في شارع «سيلبا»، ألا وهو «دفن الرحمة»، أو «دفن الصدقة»، وتخرج فيه الجنازة من شارع «النعش»، وهو المسمى الذي يُطلقه أهالي مدريد على مجمع من البيوت يسكنه الحانوتية، وفيه تابوت للموتى الذين لا يقدرون على الدفع مقابل شيء أفضل، أولئك الذين يصنَّفون بكلمة «معوزين» في سجل الأبرشية.

في زمن الكوليرا، لا يوجد تابوت واحد للفقراء كما هي العادة، وإنما ثلاثة وتُستخدم كلها من دون توقف. تدخل عربة الخيول التي رآها دونوسو ولوثيا إلى المقبرة وهي ملأى بتابوتين كبيرين، لشخصين بالغين، وآخر أصغر لطفل. يرشم دونوسو الصليب حين يرى الأمر، فتقلده من دون رغبة حقيقية. سيلقي الحانوتية الأجساد المكفَّنة في مقبرة جماعية، وسيأخذون التوابيت لإعادتها وملئها بجثث جديدة. سيكررون هذه العملية عدة مرات طوال النهار. تمكن دونوسو بفضل أموال آنا كاستيلار من تجنيب صديقه هذا الوضع المؤسف. ربما كان شقيق دييجو ليقدر على التدخل، لكن المراسلات بطيئة جدًّا في ظل الكوليرا، ولهذا لم يَعدُّه خيارًا متاحًا.

حين يصلان إلى المقبرة، يتعرف دونوسو على بعض رفقاء سهرات العربدة الليلية وبضعة من زملاء دييجو في المهنة، ومن ضمنهم بايستيروس، صاحب السبق في نشر خبر مقتل «الوحش»، الذي لا يقف هناك بدافع الصداقة التي لم تجمعهما أصلًا، وإنما للحصول على بضعة ريالات من مقاله عن مقتله. يجد أيضًا أوجوستو مورينتين، مدير «إل إيكو ديل كوميرثيو»، الذي يتشح بالسواد بكل فطنة، لإظهار احترامه للفقيد. على أي حال عددهم ليس كبيرًا، فقرار منع تجمع عدد يزيد على عشرة أشخاص يسري أيضًا على الجنازات. كلهم رجال باستثناء لوثيا التي تغطي رأسها لتجنب أن يتعرف أحد عليها، على الرغم من أن شعرها لم ينمُ بعد.

تجري محادثات مقتضبة بين الحاضرين حول العنف الذي يجلد مدريد بلا رحمة وتتطرق إلى الوباء والشائعات التي تتحدث عن إقالة رئيس بلدية مدريد الماركيز دي فالثيس والحاكم المدني دوكي دو جور قريبًا من رئاسة «الميليشيا الحضرية»، ردًا على مذبحة الرهبان، وأيضًا إلى تحركات الجنرال ثومالاكارَيجي[1] في جبهة الشمال، التي تمثل كابوسًا للإيسابيلِّيين، بعد إعدامات الرصاص التي ارتُكبت في إيريديا[2]. في تلك الأثناء، يبقى دونوسو ولوثيا على الهامش. لا يرفع الشرطي رأسه، ويتمتم فقط بكلمة «شكرًا» حين يقترب أحد يعلم بأمر صداقته مع دييجو لتقديم العزاء. يبدو الأمر، في مسرح الموت الذي تحولت إليه مدريد، كأن دييجو النقطة التي جعلت الكأس تفيض، وجعلت دونوسو عاجزًا عن مواجهة المزيد من المآسي. ترى لوثيا فوق كوة الدفن الصفيحة التي جهزوها له، فتشعر بقلة الحيلة حين تعجز عن قراءة الكلمات التي ستُخلِّد ذكرى دييجو رويث إلى الأبد. ما الذي أمر دونوسو بحفره على الصفيحة؟ أم أن آنا هي من صاغت العبارة المكتوبة؟ تعرف لوثيا

---

(1) توماس دي ثومالاكارَيجي إي إيماث (1788-1835): عسكري إسباني تقلد رتبة جنرال في أثناء الحرب الكارليَّة الأولى. تنسب إليه واحدة من أشهر مذابح هذه الحرب والمعروفة باسم «إعدامات إيريديا». (المترجم).

(2) اسم المنطقة التي شهدت أحداث «إعدامات إيريديا». وقعت هذه الأحداث خلال الحرب الكارليَّة الأولى حين أعدمت القوات الكارليَّة تحت قيادة ثومالاكارَيجي 118 سجينًا من القوات المعروفة باسم «حراس آلابا»، على الرغم من أنهم أعلنوا استسلامهم وسلموا أسلحتهم. (المترجم).

تمام المعرفة ما كانت ستضعه. ثلاث كلمات بسيطة، ومع ذلك فمعناها ليس في متناول الجميع: «كان رجلًا طيبًا».

بينما ينتظرون جميعًا وصول التابوت، يتذكر دونوسو هذه الصداقة شبه الأخوية التي جمعت بين رجلين شديدي التباين، صحفي لديه ميل ليصبح كاتبًا مسرحيًا وحارس ملكي مستقبله شبه معدوم ولا يأبه بمهنته كثيرًا. قليلة هي الأيام التي لم يتقابلا فيها، منذ تعرفا على بعضهما في مواجهة بين أنصار الحكم المطلق والدستوريين، عمل الأول على تغطيتها لصالح صحيفته، وسعى الآخر، وهو في الخدمة، لفرض النظام فيها. كانت صداقة صادقة حتى تلك الأسابيع الأخيرة، فمنذ ظهور «الوحش»، صارت كل الأمور أنصاف حقائق. على الرغم من ذلك، يرغب في التفكير فقط في أن هذه المودة المتبادلة أكبر من أي سر أخفاه دييجو عنه. كانا الليل والنهار بأوجههما المتعددة، لكنهما أيضًا شخصان أحبا بعضهما.

تتوقف المحادثات حين تصل إلى المقبرة عربة تجرها أربعة خيول مع تابوت دييجو. يفكر دونوسو في أن آنا تحلت بالكرم، ففي زمن مثل هذا تعتبر مثل هذه العربة رفاهية بل ودفنة ملكية.

تنظر لوثيا حولها بتوتر.

- لا يمكنهم أن يدفنوه بعد، فآنا لم تأتِ.

- الدوقة امرأة متزوجة. لن تأتي.

يؤلم لوثيا أن تغدو الأمور هكذا، أن تتخطى المظاهر الاجتماعية كل شيء، وألا تتمكن آنا، التي تعتبرها صديقتها، من توديع دييجو. صحيح أنه ليس زوجها، لكنه الرجل الذي أحبته. لم تحضر اللحظة التي أبلغها فيها دونوسو بخبر الوفاة، لكنها سألت الشرطي، فجاءت إجاباته مقتضبة: أبدت حزنها ولم تمانع أن تتحمل تكلفة الدفن. لم يهتم الأعور سوى بهذه المسألة. تثق لوثيا بأن الأمر مثَّل ضربة قوية للدوقة.

يتلو الكاهن صلاة متسرعة وآلية، فكم صلاة مثلها عليه أن ينطقها اليوم؟ لكنه يتوقف حين يرى عربة فارهة بأربع عجلات يجرها حصانان وهي آتية. تنزل منها آنا كاستيلار وهي متشحة بأناقة بالسواد. ربما هي وأوجوستو مورينتين الشخصان الوحيدان من ضمن الحضور اللذان يُمكنهما أن يسمحا لنفسيهما بامتلاك زي لكل مناسبة في هذه النسخة ذات الفقر المدقع من

مدريد. تتردد همهمات كثيرة بين الحضور مع وصولها، لكنها لا تنظر إلى أحد، حتى بايستيروس الذي يشعر بأن مقاله سيغدو ملتهبًا بشكل أكبر، ويقتصر كل ما تفعله على التقدم لتقف إلى جوار لوثيا.

- هل أنتِ بخير؟

- أنا حزينة.

- أنا أيضًا. لم يستحق دييجو أن تنتهي حياته بهذه الصورة. من فعلها سيدفع الثمن.

تثير ثقة آنا الأمل بلوثيا ربما هي مصادفة، لكن الرجل الملتحي الذي قتل إيلوي مات مقتولًا بيد الأخ براوليو. العين بالعين. تتمنى الآن أن يواجه قاتل دييجو المصير نفسه، وتثق بأن آنا ستفعل كل ما في وسعها لتحقيق الأمر.

يستمر الكاهن في طقسه الجنائزي، وهو يُبرز الآن كلماته بشكل أكبر، لأن المرء لا يحظى دائمًا بفرصة للصلاة أمام إحدى كبيرات إسبانيا. تشعر لوثيا برغبة لإلقاء الوداع بشكل خاص حين يُوضع التابوت في كوة الدفن. لو أن معها وردة، لو أن لديها سوارًا، لوضعته فوق التابوت. إنها تريد أي تذكار يجمع بينها وبين دييجو للأبد. مع ذلك ليس لديها سوى هذا الفستان والمنديل الذي تغطي به رأسها المحلوق. تنظر فيما حولها، فتجد على بعد عدة أمتار امرأة مسنة تبيع باقات من الأقحوان. لو أن لديها بعض العملات، لما ترددت في إنفاقها. يبدو أن آنا قرأت أفكارها، أو ربما أنها لاحظت كيف تحدق لوثيا إلى بائعة الأقحوان المسنة، لذا تناولها بضعة ريالات في يدها. تشتري بها بعدئذٍ بلحظة بعضًا من الزهور البنفسجية، ثم تحتبي الأرض إلى جوار شاهد القبر وتضع الزهور فوقه. «ستحظى مقبرتك دائمًا بزهور نضرة. لن أنساك».

تتمتم آنا كاستيلار إلى جوارها وهي تكبح مشاعرها:

- صوت مدريد الذي لن يخرسه الزمن: دييجو رويث.

هذا هو ما كُتب على الشاهد.

تُمسك الدوقة ذراع لوثيا وتمضي بها إلى عربتها.

- ما الذي ستفعلينه؟ أين تعيشين؟

- إيجار بيت دييجو مدفوع لمدة أسبوعين. قال صديقه دونوسو إنني يمكنني البقاء هناك.
- وبعدئذٍ؟
- لا أعرف.
- يُمكنك أن تعيشي معي بداية من اليوم، لو أنها رغبتك. لن ينقصك أي شيء في بيتي.
- يجب أن أجد أختي.
- لن أجبرك، لأنني أعرف أنك ستهربين بمجرد أن أستدير، لكن باب بيتي مفتوح دائمًا لكِ. تعالي وقتما تقررين. هل أنتِ في حاجةٍ إلى المال؟

ليس لدى لوثيا وقت لتتنكر حاجتها. تضع آنا بعض الريالات في يدها. بينما تراها تبتعد في عربتها، تندم على عدم الصعود إليها. ما الذي ستفعله؟ من أين ستبدأ بحثها عن كلارا؟ رحل الحاضرون كلهم باستثناء دونوسو الذي يتحدث، وهو بعيد نوعًا ما، مع رجلين يرتديان زيًّا مشابهًا له. هل اكتشفا شيئًا بخصوص مقتل دييجو؟ تداهم لوثيا الشرطي بمجرد أن يبقى بمفرده.

- هل يعرفان من قتل دييجو؟ هل قلت لهما إنه لم يكن لصًّا؟ هل تحدثت معهما عن «مشعلو الفحم»؟
- لا يرتبط الأمر بهذا.

تفهم لوثيا من نبرة دونوسو الغليظة وتعبيره المتجهم أنه لن يقدم لها إجابات، لكن لوثيا لن تستسلم إلى أن يجد الشرطي نفسه مجبرًا على إخبارها بما أراده هذان الشرطيان.

- ظهرت فتاة أخرى مقتولة، ومقطوعة الأوصال. لم تُعرَف هويتها بعد، لكنهم عثروا عليها بالقرب من الموقع الذي ظهرت فيه جثة دييجو، وراء «بوابة القلعة». الأمر كأن عَلَقَة قد التصقت بجلدي ولا تتوقف عن مص دمي، من دون طريقة لإزالتها.

توقفت لوثيا أصلًا عن الإنصات إلى دونوسو منذ فترة، إذ استقر شعور الفزع في عقلها حين سمعت كلمتَي «مقطوعة الأوصال»، وبعدهما لم تقدر سوى على تخيل كلارا وهي ممزقة كدمية قماشية هتكها كلب. يكاد صوتها ألا ينبثق منها:

- هل هي أختي؟ خذني معك. أريد أن أرى ما إذا كانت هي.

يُناسب دونوسو الحصول على تعريف سريع لجثة الضحية، لكن رغبته الملحة في التصرف بنبل تُجبره على حمايتها.

- لو أنها مثل بقية الفتيات، فلن يكون الأمر هينًا.

- لقد رأيت كل شيء بالفعل.

- لا. دعيني أؤكد لك أنكِ لا يمكنك تخيل هذا الأمر أصلًا.

يخرج كلاهما من مقبرة «الهناء السعيد». لم ينتبها إلى ذلك الشخص الذي ظل يتمشى حول شواهد القبور، وهو يتفادى مقبرتَي بطلتي تمرد الثاني من مايو: كلارا ديل ري ومانويلا مالاسانيا. سجل كل الحاضرين في ذهنه، وخصوصًا الفتاة ذات الشعر الأحمر، فعلى الرغم من المنديل الذي ارتدته فوق رأسها، تعرف عليها.

منذ زاره دييجو رويث في الدير، بدأ استقصاءه للتأكد من أنه صحفي فعلًا. يعرف أنه حمى الطفلة في بيته وأن أفضل أصدقائه هو ذلك الحارس الأعور، بل وأنه كان في علاقة مُحرمة مع دوقة ألتويانو. لم تسعَ هي أصلًا إلى إخفاء الأمر بحضور الدفن. لكن ما الذي تحقق منه دييجو قبل وفاته؟ لا يعرف ماهيته، أو ما إذا كان قد حقق تقدمًا في مسألة هذه الجماعة السرية التي يعرف أن الأب إجناثيو جارثيا قد انتمى إليها، ولا ما إذا كان ما قاده إلى المقبرة اكتشافه لشيء ما مرتبط بهذا الموضوع. ليتغمد الرب روحه بالرحمة.

يقترب الأخ براوليو الآن من قبر دييجو رويث الخاوي وهو يرتدي ملابس مدنية، لأن الزي الكهنوتي كان سيلفت انتباه لوثيا، ويرشم الصليب، ثم يصلي في صمت لروحه.



ساد عرف حتى سنوات قليلة يسمح بتأجير «السيمونات»، وهي عربة يجرها حصان أو اثنان، من مواقف معينة إما بنصف يومية وإما يومية كاملة، لكن في الفترة الأخيرة انتشرت عادة تأجيرها بالمشوار. يُقال إن ثمة خدمة نقل عامة ستنطلق قريبًا بمسارات ثابتة وإن المدريديين سيُمكنهم أن يركبوها وينزلوا منها وفقًا لهواهم، لكن في الوقت الحالي عربات «السيمون» هي الوسيلة الوحيدة للتنقل عبر مدريد بسرعة مقبولة. تمضي واحدة منها الآن في طريقها من موقف «جادة القديس برنارد» حتى «بوابة القلعة»، لأن السائق رفض أن يذهب أبعد من هذا. ليس لدى دونوسو أو لوثيا رغبة كبيرة في التحدث في أثناء الطريق. تتيه نظرة كل منهما، وهما جالسان في صمت، في مباني المدينة الكبيرة ومعالمها التي تتراص أمامها في الطريق ويعود أغلبها إلى فترة حُكم كارلوس الثالث. تفكر لوثيا: «قصور فارهة تنظر إلى السماء وتزدري ما يحدث في الوحل». تقف كلها بعزة، وهي بعيدة عن المعركة التي يخوضها المواطنون، كأنها تعرف أنه ما من أذى قد يلحق بها، وأنه حتى لو تحولت المدينة إلى صحراء بيد الكوليرا والفقر والعنف، فإنها ستظل سالمة، وثابتة، في انتظار ساكنين جدد.

تشعر لوثيا بألم في صدرها وهي تنزل من العربة. ينبض قلبها المضطرم بسرعة بمرور الوقت. يشق عليها السير وراء دونوسو الذي يتقدم في اتجاه أرض خربة تقع على بعد مائة متر من طريق «القلعة»، ويُمكن للمرء أن يرى منها جدران ساحة الثيران المبيضة بالكلس. تريد أن تتظاهر بالقوة، لكنها ضعيفة كقلعة من أوراق اللعب. تعرف أنها قد تسقط من هَبَّة ريح واحدة، من قطعة جلد تجعلها تتعرف على كلارا. لا تتوقف عن التقدم، على الرغم من قلبها الذي يدوي داخل صدرها، وعرقها الذي ينزلق فوق جبهتها، وساقيها اللتين لا تتوقفان عن الارتعاش. تمضي هكذا خطوة تلو الأخرى نحو ما تخشى أن يكون جثة أختها.

يحتمي الأشخاص القلائل الموجودون من شمس ذلك اليوم الحارق في نهاية شهر يوليو بالوقوف تحت الأشجار القليلة الموجودة في المنطقة المحيطة. ظهرت جثة الطفلة في مجرى جدول صغير، بل إن من تركها هناك لم يشغل باله بإخفائها بعيدًا عن الأنظار. لا وجود لأي بيوت قريبة، باستثناء قصر مهجور على بعد نحو كيلومتر. يقترب دونوسو من حارس أشار إليه من مكانه داخل الأرض:

- هل الجثة كاملة؟

- إنها مبعثَرة في الأنحاء، مقطوعة الأوصال. الشيء الوحيد الذي لم نعثر عليه هو الرأس.

- ابحثوا عنه. لا بد أنه قريب.

يُذَكِّر كل شيء، باستثناء غياب المطر والأهالي، بصباح ليلة القديس يوحنا في «إل ثيرِّيو ديل راسترو»، حين عثروا على جثة بيرتا، وبوصول دييجو وانزلاقه فوق الوحل والكلب وهو يعوي ورأس الفتاة بين ساقيه، والعجوز التي أشعلت خوف وغضب الحاضرين. يفتقد استفزاز صديقه له لمعرفة أمور أكثر والحديث مع هذا وذاك لإدراك ما حدث. يبدو له أن هذا الشعور سيداهمه طيلة حياته، حين لا يتوقعه.

لا تزال لوثيا على بعد بضع خطوات منه. يشعر دونوسو بإغراء لمنع الفتاة من مشاهدة الرعب الموجود تحت قدميه، لكن لو أنها أختها فعلًا، فأليس من الأفضل أن تتعامل مع هذا الجرح في أقرب وقت ممكن؟ لا فائدة من إخفاء الجثة، أو الأجزاء التي جمعها الأهالي في كومة مشوهة. ساقان

وجذع وذراعان كلها متراكمة فوق بعضها كصف من اللحم. ستظل لوثيا ترفض الواقع حتى تواجهه.

يقول لها في النهاية وهو يُتمتم:

- لو أنها ليست رغبتك، فلا تقتربي.
- لو لم أقترب، فلن نعرف من هي أبدًا.

تنظر لوثيا إلى قدميها والطريق الترابي الذي تتقدم عبره. تعرف أنها حين ترفع عينيها ستجد الجثة. هل هي جثة كلارا؟ تحرق الشمس مؤخرة رقبتها وتجعلها تتعرق. ها هي ذي خطوة أخرى فوق الأرض القذرة الداكنة المبتلة. تعرف أن دم الجثة هو ما جعل الأرض موحلة ورسم غيمة سوداء فوقها، على الرغم من أنها لم تر أثرًا للون الأحمر بعد. تستند يد دونوسو إلى كتفها. تلاحظ ضغطها. يبدو أن الشرطي الأعور يُبالي بلوثيا، وأن الحال ليس كما أراد أن يظهره لها. تصل إليها رائحة عفنة تذكرها بما شمته في مصنع الثقاب حين عثرت على جثتَي بدرو وماريا، ورائحة أمها في الكهف وهما تنتظران دفنها، ورائحة بيت الكاهن الذي مات من الكوليرا حين سرقت الخاتم. هل التصقت بها هذه الرائحة إلى الأبد؟

تطرف عيناها. تدرك أنهما اغرورقتا بالدموع. تفركهما بقبضتها بغضب، وتقول لنفسها: «لا تبكي يا لوثيا». تريد أن تؤذي نفسها وأن تُعاقبها لأن كل ما يحدث ذنبها. حينئذ يظهر ذلك الشيء أمامها. يشق عليها في البداية أن تفهم ما تراه، كأحد السكان الأصليين الذي يرى أداة لأول مرة ويعجز عن تفهم ماهيتها. ترى لوثيا جلدًا أبيض كالملح وبعدئذٍ بعدة ثوانٍ تكتشف أنه لساقين نحيفتين مبتورتين واحدة من عند الفخذ والأخرى قرب الركبة. فوقهما يأتي جذع بنهدين صغيرين ممزق من عند طرفيه. ثمة ذراع إلى جواره، كف يدها لا هي مفتوحة ولا هي مغلقة، كأنها في انتظار أن يناولها أحد شيئًا ما. يبدو الأمر كأنها أمام وحش من عالم الكوابيس قادر على جمع أجزائه في أي لحظة لينهض كعنكبوت بلا رأس.

ينتظر دونوسو كلمات لوثيا الأولى بصبر. لا تزال مشلولة أمام بياض الجلد ولطخات الأجزاء الممزقة الحمراء. تتذكر يدي كلارا وهما تعانقان يديها وساقي أختها المتكورتين تحت البطانية وهما نائمتان، وعُريها الطفولي كلما تحمما في النهر وغطسهما وضحكاتهما والسعادة التي تبدو الآن بعيدة.

تقول في النهاية بثقة، كأنها تقيء كلماتها:

- ليست أختي. ليست هي.

بعدئذٍ تلتفت وتبقى الجثة خلفها، فيقترب دونوسو منها متفهمًا.

- هل تشعرين بالغثيان؟ إنه أمر طبيعي. حدث هذا لي في أول مرة.

لكن هذا ليس ما تشعر به لوثيا، فذلك التيار الذي يسري في جسدها ويمر عبر معدتها ليس سوى شعورها بالارتياح من تحققها من أنها ليست كلارا. تبدو لها هذه الراحة منفرة. هل كلارا أفضل من هذه الطفلة التي عُذبت بصورة متوحشة؟

يصرخ رجل مُسن تساقطت أسنانه:

- الرأس!

يُمسكه من شعره ويرفعه كبيرسيوس حين رفع رأس ميدوسا.

ظهر الرأس كما توقع الحارس على بعد أقل من مائة متر. يركض دونوسو ولوثيا لرؤيته. يتأرجح رأس الفتاة في يد الرجل المسن كأنه غنيمة. ربما ينتظر أن يقدم له الحارس الملكي مكافأة. لهذا الرأس شعر طويل وأسود، وعيناه مفتوحتان وأنفه معقوف وجلده أبيض ملآن بالنمش. لا وجود للدم إلا عند المريء الممزق والعضلات. «هل تريدين أن تلعبي؟» تتخيل لوثيا أنها تسمع صوتها وترى ابتسامتها والدمية القماشية بين يديها.

- اسمها خوانا. إنها ابنة دلفينا، وهي امرأة تعمل في ماخور «اللبؤة».

يأمر دونوسو الرجل المسن بأن يترك الرأس إلى جوار بقية الأعضاء. يريد أن ينسى في أقرب وقت كل ما يراه ويمحو هذه الصورة من ذاكرته، كمن ينفض التراب عن نفسه. يطلب أن تأتي عربة لأخذ الرفات إلى المستشفى.

- قال لي دييجو إن وراء لُهاة الفتيات ثمة شارة. إنها شارة لها شكل الختم نفسه الموجود على خاتمي.

- لو أنكِ تظنين أنني سأضع أصابعي في الداخل، فأنتِ مجنونة. هذا شأن يخص الأطباء.

تتغلب لوثيا على اشمئزازها وتقرفص إلى جوار الرأس. تباعد بين الفكين المتيبسين كالحديد وتضع يدها في فم خوانا. تُبعد لسانها بأطراف أصابعها، وفي نهايته، عند بداية حنجرتها، تلاحظ شيئًا صلبًا وباردًا. معصمها رفيع،

لهذا تتمكن من إدخاله بالكامل. يراقب دونوسو باشمئزاز وهو إلى جوارها الكيفية التي تبحث بها داخل فم الفتاة الميتة، إلى أن تتمكن في النهاية من العثور على ما تبحث عنه، وتخرِج بيدها الملأى بالعصارة شارة ذهبية تظهر عليها مطرقتان متقاطعتان كما قال دييجو.

يمد لها الأعور يده لمطالبتها بتسليمه الشارة.

- ما الذي ستفعله بها؟

- إنه شأن يخصني.

- إن لم تستخدمها للعثور على أختي، فلن أعطيك إياها.

- هل تُفضلين أن آخذها منكِ بصفعة؟

تبدو لوثيا غير واثقة بأنه قد يُقدم على الأمر، لكنها تعرف أن مواجهته أمر سخيف.

- هكذا أفضل.

يضع الشارة في جيبه ثم يساعد لوثيا على النهوض.

- الآن ستأتين معي إلى شارع «القرنفل».

تغلق لوثيا عينيها مع اهتزاز عربة «السيمون». إنها مرهَقة. لا تعرف إلى متى يُمكنها أن تكبح عواطفها، إذ إنها تبذل مجهودًا جبارًا كي تُبقي الجدران التي نصبتها قائمة -وكي تقاوم موجات ذكريات خوانا، ومخاوفها من أن تعاني كلارا النهاية نفسها- وكل هذا لكيلا ينكسر طوب هذه الجدران، فتبقى عارية وعزلاء أمام الألم.

تفتح عينيها. ينظر إليها دونوسو بعينه السليمة وهو يجلس إلى جوارها. تعتقد أنه يحكم عليها. ربما يفكر في أنها وحش، في أنها قد صارت حيوانًا، كحال بقية أهل المدينة الذين لا يأبهون سوى بنجاتهم. ربما هو محق. صارت الآن وحشًا، لكنها لن تؤنب نفسها. هذا هو ما استحالت إليه بسبب مدريد.

لدى وصولهما إلى شارع «القرنفل» عند ماخور «اللبؤة»، لا تتوقف عند السلم الذي تعرفت فيه على خوانا. تتخطاه بسرعة وهي تمضي وراء الشرطي. على الرغم من أن الظهيرة لم تنتصف، ومن أن خوسيفا ليست معتادة استقبال أحد قبل الثانية أو الثالثة مساء، سُمح للوثيا ودونوسو

بدخول الصالون الأخضر وأن ينتظراها هناك. جلست في هذا الصالون عدة مرات، على عكس دونوسو، الذي عبر عتبته فقط ليتفاوض مع «اللبؤة» حول كيفية إخفاء جثة مارثيال جارّيجيس.

يستغرق الأمر خمس عشرة دقيقة كي تظهر، بعد أن ارتدت بسرعة قدر استطاعتها رداء النوم نفسه الذي ارتدته في اليوم الأول الذي جاءت فيه لوثيا إلى البيت لتعمل.

- هل أنتما متأكدان من أنها هي؟

- رأيت جسدها يا «لبؤة» ووجهها.

تبحث خوسيفا عن دونوسو بنظرتها، كأنها في حاجة إلى الحصول على تأكيد من شخص بالغ، لكنه لا يتجاوب معها بأي إيماءة.

- سأبلغ دلفينا. ليرحمها الرب.

تنهض وتضع يدها فوق جبينها كأنها تعاني دوارًا. تغادر الصالون الأخضر بخطوات مترددة، ثم تعود بعدئذٍ في صحبة دلفينا. توقع دونوسو أن تكون قد جهزت دلفينا لما هو آتٍ، لكن الأمل الذي تجلى في عين العاهرة حين سألته عن أي أنباء بخصوص ابنتها، أوضح له أن الحال ليس هكذا. لم ترد خوسيفا أن تصبح جالبة هذا الخبر المؤسف. يجب عليه أن يُسقط النبأ كضربة فأس. ليست أول مرة يجد نفسه فيها مضطرًا إلى الاضطلاع بهذا الدور الكريه.

ترى لوثيا الكيفية التي يتفجر بها ألم دلفينا حين يُبلغها بمقتل ابنتها. صارت كمرآة تحطمت إلى فتات. تأتي الصرخات لاحقًا: «ابنتي! لِمَ هي؟»، ثم دموعها ومن ورائها رعشتها التي تبدو كأنها ستوقف قلبها. حاول دونوسو تهدئتها في البداية ومن بعده «اللبؤة»، لكن دلفينا لم تعد تسيطر على ذاتها. تطيح بمائدة صغيرة من الرخام، فينكسر طقم شاي على الأرض. تصرخ فيتجمع لعابها عند مقرن شفتيها. تجلس «اللبؤة» فوق متكئها لترتاح، وتجد لوثيا نفسها مضطرة إلى الابتعاد حين تلقي دلفينا زجاجة نبيذ لتنكسر فوق الحائط. «أنتِ من جلبتِ الوحش». تسمع لوثيا عواء المومس الذي يُربكها. هل قالت حقًا هذا الأمر؟ ينزلق النبيذ فوق الجدار، بحمرة الدم، كشعر لوثيا.

قطع الزجاج المهشم. أشلاء خوانا. الأشلاء التي ستصيرها كلارا. يتمكن دونوسو من تحجيم دلفينا ويُرقدها فوق الأرض. بينما يضع ركبته فوق ظهرها ويمسكها من يديها، يطالبها بأن تهدأ.

تشعر لوثيا بالدوخة، وبأن الغرفة تلف وتدور حولها.

- ما الذي ستفعلينه؟ أنتِ تعرفين أنه لا يُمكنك البقاء هنا.

تُمسك يد «اللبؤة» بمعصمها. تشعر ببرودتها. تشرح لها لوثيا وهي تتعثر في الكلام، أنها ستبقى بضعة أيام في بيت دييجو رويث أو ربما في قصر دوقة ألتويانو، التي عرضت الاعتناء بها.

- استغلي الفرصة.

لا نهاية لهستيريا دلفينا، إذ تستمر في الركل بقدميها، بعد أن حجَّمها دونوسو، لكن لا شيء قادر على إسكاتها.

- أنتِ من جلبتِه إلى هذا البيت! كان عليه أن يأخذك أنتِ وليس ابنتي! ليس خوانا!

يستمر الصالون الأخضر في اللف والدوران حول لوثيا. تشعر أن الجدران تنكسر.

«أنا المذنبة. أنا من جلبت الوحش. أنا من قتلت خوانا وبدرو وماريا ودييجو وكلارا». تتعثر بالزجاج المكسور، فتفقد اتزانها.

حسبت نفسها قادرة على تحمل أي شيء، لكنها مخطئة.

ترى الأعور وهو يركض نحوها. ترى النبيذ الذي يلطخ الجدران فتتخيل رأس كلارا وهو مبتور ويتأرجح في يد «الوحش» الذي لا يتوقف عن الضحك، وهو يلطخ هذا الجانب وذاك بالدماء.

بعدئذٍ تُغلق عينيها وتشعر بالكيفية التي تسحبها بها الجاذبية نحو الأسفل. تنهار فاقدة للوعي. يتمكن دونوسو من منع رأسها من الاصطدام بالأرض. صارت بين ذراعيه الآن فتاة عمرها أربعة عشر عامًا، ليس لديها أحد أو شيء.

49

حين استيقظت لوثيا، لم تعرف أين هي. ليست في بيت دييجو ولا ماخور خوسيفا، وهو آخر مكان تتذكره. ليس مكانًا فارهًا جدًّا كي يصبح قصر آنا كاستيلار. إنها غرفة واسعة فيها بعض لمسات تُوحي بوجود امرأة. ثمة ملابس موجودة فوق مسند مقعد، ومزهرية تضم ورودًا فوق كومود، وإلى جوارها صندوق قد يكون علبة جواهر صغيرة، لكن زينة الغرفة تبدو قديمة، تآكل طلاء بعض الجدران التي تلطخها بُقع تشهد على مرور السنين. تأسس هذا البيت بحب، لكنه الآن فقده. مع ذلك لا يبدو مكانًا عدائيًّا، فالفراش مريح ويغمر ضوءٌ يدخل من النافذة الغرفةَ، تظل بضع لحظات أخرى بين الملاءات، حيث تجد السلام، وهو سلام زائل ستحتفظ به فقط، إن لم تلامس قدماها الأرض.

أرادت تصديق أنها لا تنكسر، لكن الأحداث أثبتت لها أنها لا تزال تلك الطفلة الصغيرة التي لطالما وبختها كانديدا على عدم سماع كلامها. كم مرة قالت لها أمها أن تبقى بعيدًا عن المدينة؟ كم مرة قالت لها إن حياتها عند هذا الجانب من «الجدار»، أي في أحياء الضواحي، وليس في شوارع مدريد؟

تدق نواقيس إحدى الكنائس. تعد لوثيا ثلاث دقات. هل فقدت وعيها طيلة هذه المدة؟ تنهض في النهاية وتنظر عبر النافذة. تقف فيما يبدو أنه الطابق الثاني لبيت في حي شعبي. تتمكن من رؤية قبة كنيسة «القديس أندريس»، وصليب «بوابة الموروس». لا تعرف أي شارع هو، لكنها متأكدة من أنها بالقرب من ميدان «الشعير». تباهى إيلوي بأنه رأى هناك وهو في الخامسة من عمره إعدام رفائيل رييجو[1] وقال إنه يتذكر بصورة مثالية السُّباب الذي وجهه إليه الناس، على الرغم من أن المسألة مستحيلة، لأنه لم يكن قد وُلد تقريبًا. لم تعِره اهتمامها، بل ولم تعرف أصلًا من هو رييجو، وهي مسألة ربما لم يعرفها إيلوي أيضًا. أو ربما لم يعرف سوى أنه شخص مهم ويصعب نسيان اسمه.

تُسمَع ضوضاء داخل البيت فتقترب من الباب. تفتحه بحذر لكيلا تكشف عن استيقاظها وتقف على قدميها. ثمة رجل وامرأة في الصالون ولا تقدر على رؤيتهما. يبدو أنهما منغمسان في نقاش.

- كفرشاة أسنان بلا شعر. هذه هي حقيقتها. إنها لا تعرف كيف تتحدث أصلًا. كيف يضع ممثلة بلا خبرة بديلة لي؟

- اهدئي من فضلك.

- ما الذي يدور في رأس جريمالدي؟ هل يحسب أنه يقدر على أن يضع هذه الهمجية مكاني؟ هل يظن أنني سأضع كفًّا على كف؟ سأتحدث معه!

- لن تذهبي إلى مكان. يجب أن ترتاحي.

- اتركني في سلام. لست سجينتك.

- تناولي هذا المشروب أولًا وبعدئذٍ سنتحدث بهدوء. أنتِ ضعيفة جدًّا يا جريسي.

---

(1) عسكري وسياسي إسباني ليبرالي قاد حركة أنهت الحكم المطلق لفرناندو السابع في 1820، ما فتح الطريق لنظام دستوري في إسبانيا، لكنه مات مشنوقًا في 1823 بعد عودة الحكم المطلق. (المترجم).

تتعرف لوثيا على صوت دونوسو، لا على صوت المرأة. تستلقي فوق الفراش، انتظارًا لهدوء الأجواء. تجد زي الشرطة ملقى بإهمال فوق أحد مقاعد الغرفة. كل الملابس التي تجدها في الخزانة للرجال. لا بُد أنه بيته.

حين يهدأ الزعيق، تنهض مجددًا وتخرج من الغرفة. يُمكن للمرء أن يتنفس الهدوء الآن. ترى المرأة وهي تجلس مُتبرمة إلى جوار النافذة ومعها كوب من الشاي. يجمع الشرطي حطام إبريق انكسر إلى أربعة أجزاء. يتوقف حين يرى الفتاة عند العتبة.

يُوبخها دونوسو متأففًا:

- في المرة القادمة، نبهينا إلى أنكِ استيقظتِ.

لكن تعبيرات المرأة تلين حين تراها في شدة الوهن، فتتحدث معها بمودة جلية.

- حزينة جدًّا لما حدث لدييجو، على الرغم من أنني لم أعرفه تقريبًا. حكى لي دونوسو أنكِ فقدتِ وعيك منذ بضع ساعات. منذ متى لم تأكلي؟ لست طاهية ماهرة، لكن لدينا مرق. المرق يسهل تجهيزه ويستحيل أن يغدو طعمه سيئًا.

المرأة جميلة، لكنها نحيفة جدًّا وتعاني هالات سوداء. تتوجه بحركات متوترة نحو الموقد الذي يستقر فوقه إناء من الفخار. تمد لها فورًا عصيدة تتصاعد منها الأبخرة. لا تتفق لوثيا مع ما قالته بخصوص استحالة أن يغدو طعم المرق سيئًا، فمن الواضح جدًّا أن هذا الشيء بلا طعم، إذ يبدو مثل تلك الأطباق التي اعتادوا أن يعدوها في «لاس بينيولاس» حينما لم يجدوا شيئًا ليضعوه في الطنجرة. لطالما ألقت كانديدا في تلك المرات بحجر داخل الطنجرة. كرهت كلارا هذا الحساء، لكن لوثيا أقنعتها دائمًا بأن تتناوله كله، فهذا الحجر سيمنحها القوة.

- علينا أن نبحث عن أختي.

يقول دونوسو بنبرة يشوبها شيء من الازدراء:

- علينا؟ ليس عليَّ أن أبحث عن أحد.

لا تندهش لوثيا من رد فعله، إذ أظهر لها أكثر من مرة أنه لا يريد معرفة شيء عن كلارا أو «الوحش». مع ذلك تحاول إقناعه، لأنها ليس لديها حليف آخر.

- أنت شرطي، هذا واجبك.
- لم أنضم إلى الشرطة لهذا السبب. فعلتها فقط لأتمكن من وضع الخبز على مائدتي. أنا لا أصلح لرؤية جثث الموتى، أو استعادة جثة صديق.

ترى بوضوح ما يحدث لهذا الرجل: لقد شيد حول نفسه سدًّا من المرارة عقب مقتل دييجو، وتشعر أنه عبر هذا الشيء -أي الجانب العاطفي- يمكنها أن تفتح شرخًا داخله.

- كان دييجو سيريد أن تساعدني. أنا مقتنعة بهذا الأمر.
- طلب مني ألا أعتقلك، لا أن أمضي خلفك نحو المسلخ، وهذا تحديدًا ما حدث له.

تتدخل جريسي:

- لا تتحدث معها هكذا يا دونوسو.
- هذه هي الحقيقة. عليكِ الآن أن تمضي بمفردك.
- أنت ساعدتني بالفعل وجئت بي إلى بيتك.
- لأنكِ فقدت الوعي في بيت «اللبؤة» ولم ترد أن تبقي هناك، لكننا انتهينا بالفعل. بداية من تلك اللحظة، سأخرِج نفسي من المشهد. انتهت قصة «الوحش» والخاتم بالنسبة إليَّ.

تلتفت لوثيا في اتجاه جريسي، فربما تقدر على مساعدتها في إقناع دونوسو. تطلب منها الأمر بنظرتها، فتفك الممثلة شفرة رسالتها على الفور.

- أنا أيضًا لا أريد أن أعرف شيئًا آخر. كانت ابنتي ضحية لـ «الوحش»، ولن يعيدها أحد إليَّ. أيضًا «الوحش» مات وانتهت هذه المسألة.
- إذن لماذا ظهرت جثة خوانا؟ «الوحش» لم يمت وأنتما تعرفان الأمر.

يعبس وجه جريسي وتنظر إلى النافذة كأن نوبة كآبة قد امتصتها عبرها فجأة. لم تعُد تمثل الصورة الوادعة لامرأة تغمرها الشمس وتحتضن في يديها كوبًا من الشاي. تتوالى الحركات المتشنجة التي تفعلها بيديها، إذ ترفع إحدى خصل شعرها من فوق فمها، ثم تهرش في خدها، وتمد أصابعها في حركة

غريبة. إنها أعراض على انعدام الاستقرار ولا تمر على لوثيا من دون أن تلاحظها بفطنة. ينتهي دونوسو من جمع حطام الإبريق، ويضعه فوق أحد الأرفف.

- افهمي الأمر جيدًا يا جميلة. مات «الوحش» بالنسبة إليَّ. نحن لا نقدر على إيقاف أمر كهذا.

تتفهم لوثيا بحزن مدى وحدتها. لا يود أحد أن يتشارك معها مأساتها. يبتعد الجميع عنها كما يبتعد الجميع عن الكوليرا.

- أنت أفضل صديق لدييجو. ألا تريد أن تثأر مما حدث له؟ هذه طينة الجبناء.

يتجمع غضب العالم كله فجأة في عين دونوسو.

- يقع وزر ما حدث لدييجو على كاهله. من الذي أصر على الزج بأنفه في موضوع «الوحش»؟ تخيل نفسه محققًا. ذهب بقارورة الدم التي عثرنا عليها في جيب مارثيال إلى الدكتور آلبان، كأن العلم الموجود في «المستشفى العام» يُمكنه أن يُقدم إجابة عن هذا اللغز.

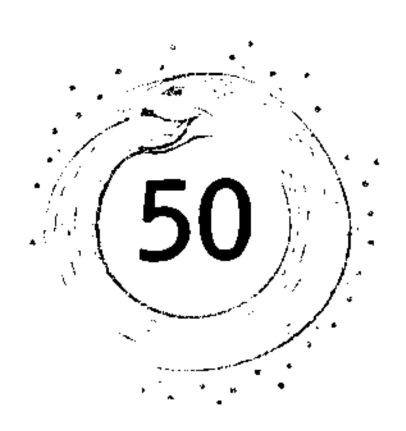
ينفث الهواء من فمه.

- وكان يسعى إلى كشف جماعة سرية تقف وراء الخاتم. هل تعرفين ما هي مشكلته؟ ليس «الوحش»، وإنما هو نفسه. لم يرد أن يعترف بأنه مجرد صحفي يكسب ما يكفيه ليسدد إيجاره بمشقة. كل هذه الأمور كانت كبيرة عليه. أنا أعرف أنني لست سوى حارس بسيط. لن أرتكب خطأه نفسه. أريد أن أعيش، لكن مثل هذه الأمور لا يُمكنك أن تفهميها، لأنك مجرد فتاة صغيرة لا يزال مخاطها يسيل من أنفها.

تتقبل السباب في صمت. تواصل جريسي نظرها عبر النافذة، وهي تهز رأسها كما الطيور. اللجوء إليها أمر مستحيل. إنها بمفردها. يُباغتها دوي معدني، مرده إسقاط الشرطي لغرض ما فوق المائدة.

- ها هو ذا مفتاح بيت دييجو. سأذهب في ظرف أسبوعين إلى هناك لتصفية الحساب مع صاحبته. أتمنى أن تغادريه قبل أن آتي.

تتمنى لوثيا بكل قواها أن ترفض هذه المساعدة البائسة التي يعرضها دونوسو، لكنها تُغلِّب عقلها على عزة نفسها، فتأخذ المفتاح وتصفع الباب خلفها.



تكررت مسألة التحميم، أما روتين «الوحش» القديم بسلسلة الاستمناء والجَلد وعلاج الجراح التي وصفنها لكلارا، فتلاشت. لم يعد العملاق إلى الديماس، لكن ينزل ثلاثة من ذوي القلنسوات مرة يوميًا إليه. يحمل أحدهم -وقد سمته الفتيات «الطباخ»- طنجرة ويوزع منها حساء من البطاطس والخضراوات. بعدئذٍ يجبرونهن على التعري ومغادرة زنازينهن واحدة تلو الأخرى، ليضع «الطباخ» وهو في وسط الديماس الثماني الدهان الذي تبدو رائحته كخشب الأرز، ثم يدخلن إلى حوض الاستحمام الذي يلقي فيه ذوا القلنسوتين الآخران الأعشاب العطرية، الكالامين والغار. لا تقدر أي منهن على أن تجزم بخصوص منبع العطر الذي يُخفي خلال تلك الفترة عفن المباول، لكن المتعة التي أثارها فيهن الأمر أول مرة اختفت.

يعرفن ما سيأتي بعد خروجهن من الماء، إذ يفحص «الطباخ» مهبل كل واحدة منهن بحثًا عن دم الحيض. إن لم يكن ثمة وجود للدم، فسيذهبن ببللهن إلى زنازينهن، وهن يرتعشن من البرد، على الرغم من أنه فصل الصيف، لأن حجارة الديماس باردة كالجليد.

كلما نزل الرجال ذوو القلنسوات الدرج الحلزوني، اختبأت الفتيات في أركان زنازينهن. انتهى وقت الخيالات. لا يمكنهن الرهان على أن ما ينتظرهن حين يخرجن من هذا المكان شيء طيب. قالت خوانا قبل أن يختاروها الأمر للجميع، من يحتجزهن هو «الوحش»، وحين يأتي اليوم الذي ينزفن فيه -أو حين يصبحن نساء كما اعتادت أن تقول أمهاتهن- سيغادرن الديماس وسيُقتلن بوحشية، بل وستقطع أوصالهن كما حدث مع الفتيات اللاتي ظهرن مقتولات حول مدريد.

لم يُخفين الأمر على الوافدة الجديدة، واسمها ميريام. وصلت في اليوم التالي لإخراج خوانا. عمرها اثنا عشر عامًا وعاشت مع والديها في مجموعة من المنازل البائسة في «طريق فرنسا»، بالقرب من طريق «الحبل». عيناها واسعتان ويداها صغيرتان وشعرها أسود مجعد. تبدو ميريام في زنزانتها كقطة مفزوعة، فهي في حالة توتر وصمت دائمين، تجعل بؤبؤيها يتمددان.

تجاهلت فاتيما شكاوى بعض زميلاتها.

- من الأفضل أن تعرف ما ينتظرها، وألا تظل مثلنا نحن اللاتي ظللنا فترة كبيرة تكاد تقارب حد الأبدية نظن أن بإمكاننا انتظار معجزة ما.

بعدئذٍ شرحت لها لماذا يتحممن ولماذا ينظرن إلى أعضائهن التناسلية، وكيف سينتهي الحال بهن، لو بدأن يحضن يومًا ما.

تقول ميريام لتكسر صمتها الذي استمر يومًا كاملًا:

- أخذ «الوحش» مانويلا، لكنهم لم يعثروا عليها قط. عاشت حيث عشت، في طريق «الحبل». لا تزال أمها تبحث عنها.

تتذكر فاتيما:

- هل هي قصيرة جدًّا؟ بقيت بضعة أيام هنا، ثم أخذوها على الفور.

يجد الصمت له مستقرًا في الديماس مرة ثانية. مانويلا وبيرتا وخوانا وكل الفتيات اللاتي خرجن من هنا، عُثر على جثث بعضهن، والبعض الآخر لا. إنها موجودة في مكان ما. ربما تتعفن وهي مقطوعة الأوصال في وحل مجري مائي أو بين فضلات إحدى حظائر الخنازير.

ينفتح الباب ويبدأ الطقس. ترى كلارا، التي تحتل الزنزانة المجاورة إلى ميريام، كيف تنكمش الفتاة وهي ترتعش في أحد الأركان.

تسألها هامسة:

- كيف أمسكوا بكِ؟

- في أحد المجارير التي تمتد أسفل «الجدار». اعتدت أن أدخلها يوميًا بحثًا عن شيء لآكله.

تُفكر كلارا في أن ما يستغني عنه البعض مفيد بالنسبة إلى آخرين. لا يتعلق الأمر بما تُبدده المنازل الثرية وتلقيه في القمامة وينتهي به المطاف هناك، وإنما أيضًا ما يتركه المهرِّبون خلفهم، فهؤلاء -وهم أكثر من يكسبون المال- يتناولون غداءهم تحت الأرض، فيما ينتظرون تخفيف مراقبة الحرس عند المخارج. من الطبيعي أن يتركوا خلفهم بقايا طعامهم، الذي يستغله من هم أشد بؤسًا منهم. من يعرف ما إذا كان ثمة آخرون يأتون وراء هؤلاء؟ بل ومن يعرف ما إذا كان آخر من يأتون يتنازعون على البقايا النهائية مع الفئران؟

يوزع «الطباخ» الآنية الملأى بالحساء. فاتيما هي الأولى. تخرج وهي عارية إلى الديماس ثماني الأضلاع وتجلس في حوض الاستحمام. تبدأ ميريام في البكاء. تكافح لتكبح صوت نحيبها، لكنها ستنفجر عاجلًا وليس آجلًا. لا يريد «الطباخ» أن يُفسد شيءٌ أو أحدٌ هذا الطقس العطري، وتخشى كلارا أن يصب غضبه عليها.

- هل تمكنتِ من رؤية المدينة السرية؟

- أي مدينة سرية؟

تعرف كلارا أن الأمر زائف وأنها مجرد قصة حكتها لها أختها كي تحلم، لكنها تمكنت من أسر انتباه ميريام التي صارت لا تفكر متى سيأتي دورها. تهمس لها بصوت خافت، لكيلا تلفت انتباه ذوي القلنسوات، بأن «الملكين الكاثوليكيين»[1] طردا اليهود من إسبانيا منذ سنوات كثيرة، تتخطى ثلاثمائة عام، لكن لم يرحل جميعهم، إذ إن بعضهم اختبأ في مجارير مدريد.

- ولم يخرجوا منها طيلة ثلاثمائة عام؟

---

(1) اللقب الذي يُعرف به تاريخيًا الزوجان فرناندو الثاني ملك أراجون وإيسابيلا ملكة قشتالة. (المترجم).

- يخرجون بالفعل. يفعلونها ليلًا عبر أبواب سرية لا يعرفها أحد سواهم، لكنهم يختبئون مجددًا مع الشروق.

- هل هم من جاؤوا بنا إلى هنا؟ هل هم «الوحش»؟

- لا. لا يؤذي اليهود الموجودون تحت الأرض أحدًا، بل يساعدون المحتاجين. ألم يحدث أن ذهبتِ ذات مرة إلى فراشك وأنتِ جائعة وأحضر لكِ أبوكِ أو أمك في الصباح التالي شيئًا لتتناوليه؟ حدث هذا لأنهم زاروا بيتك ليلًا.

تستمر كلارا في تذكر ما حكته لها لوثيا وهو أن هذه المدينة مكان رائع ملآن بالذهب والألماس، والخبز والحلوى والفواكه أكثر من أي شيء آخر، وأنه كلما مرت بضعة أيام قليلة، أغلق اليهود أنفاق المجارير التي يدخلون منها، وفتحوا أنفاقًا جديدة، لكيلا يقدر أحد على العودة إن اكتشف المدخل، وأن الموسيقى هناك في الأسفل لا تتوقف، إذ تعزفها فرق ليلًا ونهارًا.

ينفتح باب ميريام ويُجبرها «الطباخ» على التعري. تطيع الفتاة الرجل ذا القلنسوة بخجل. بعدئذٍ يقرفص أمامها ويدهن مهبلها. ترتعش ميريام، لم يلمسها أحد من قبل هكذا. تنساب الدموع من فوق خديها. تدخل حوض الاستحمام بمساعدة الرجلين ذوَي القلنسوتين الآخرين. بينما يغطس جسدها، ترتفع رائحة القار. لا يتحدث أحد في الديماس. تنتظر كلارا وهي عارية دورها. إنها التالية، إلا لو خرجت ميريام، مثل خوانا، من حوض الاستحمام وهي تنزف.

- اتركني!

تحاول ميريام أن تتملص من الرجلين ذوَي القلنسوتين حين يحاولان إخراجها من الماء. تحرك يديها فيتناثر الماء، لكنهم ليسوا مستعدين لمثل هذه الألعاب، ولهذا يسحبونها بعنف من ذراعيها ويجرونها نحو الخارج، قبل أن تصمت بعد صفعة من «الطباخ». لا تقدر ساقاها على الوقوف، بل إن الملثمين هم من يبقونها واقفة بإمساكها من إبطيها. يرفع «الطباخ» القنديل بحثًا عن الدماء.

- اتركوها في سلام. لا تلمسوها.

تتشبث كلارا بقضبان زنزانتها وتصرخ وهي خارجة عن السيطرة. يترك الرجل القنديل على الأرض وفي ظرف خطوتين يفتح زنزانة كلارا ويوجه

لها لكمة في فكها تطيح بها أرضًا. تتلقى وهي متكورة حول نفسها وعارية مجموعة من الركلات في معدتها تحاول أن تحمي نفسها منها بذراعيها وساقيها. حينئذٍ، يُمسكها الطباخ من شعرها ويرفعها ببطء. يبدو أنه يريد أن يحطم رأسها فوق حائط الديماس الحجري، لكنه بعدئذ يُفلتها. تسقط كلارا على الأرض وهي تختنق. لا يزال يشق عليها التنفس بعد هذا الضرب المبرح.

- لنرَ ما إذا كنتِ تعلمتِ أن تصمتي.

بعد أن يطلق تحذيره، يأخذ ملابس كلارا ويخرج من الزنزانة، ثم يغلقها خلفه، قبل أن يُنهي ما بدأه مع ميريام. يوجه ضوء القنديل على أعضائها التناسلية، لكن لا وجود للدماء.

- ضعاها في الداخل.

يطيعه الرجلان. يعيدان ميريام مع ملابسها إلى زنزانتها ويغادرون جميعًا. يبدو الإحباط على خطواتهم وهم يصعدون السلم الحلزوني.

تعانق كلارا نفسها وهي في ركن زنزانتها. محا الأدرينالين إحساس الألم في الوقت الحالي، لكنه بعد وقت قليل سيغدو لا يطاق. انكسار أحد أضلاعها من هذه الركلات أمر ممكن، ستكون ليلة قاسية بسبب الألم والبرد. تركها «الطباخ» عارية. تعرف أنه أراد أن يقتلها، لكنه لا يقدر، فداخلها ما يشتهونه بقوة: الدم.

تغلق عينيها وتحاول أن تفكر في القصص التي لطالما حكتها لها لوثيا، وأن تنسى كل شيء بالتجول في المدينة الرائعة التي اختبأ فيها اليهود تحت مدريد. مع ذلك لقد تغير شيء ما إلى الأبد داخلها. صارت تعرف أن مدريد لا تخفي سوى البؤس والقذارة والموت.

لا وجود لمدن الذهب والحلوى ولا وجود للموسيقى في أي مكان.

51

بينما تُحرك لوثيا القفل، تدرك أن أحدًا داخل البيت. شعرت بخطوات وحفيف أوراق يتوقف فجأة. يعني هذا أن صوت المفتاح أثار انتباه الدخيل. يسري الخوف في جسد الفتاة عقب أن انتبهت إلى تهورها. وجب عليها تخمين أن قاتل دييجو قد يقتحم البيت لتفتيشه جيدًا. تحدث كل الأمور بسرعة. تبدأ لوثيا انسحابها في صمت، لكن الباب ينفتح فجأة وإذا بيد مشعرة، كأنها يد ذئب، تجذبها من معصمها وتسحبها إلى الداخل. تُلقي بها هذه الحركة الحادة فوق الفراش، حيث تتبعثر أوراق المقال الذي لم ينهِه دييجو. تدفعها غريزتها الأولى إلى الركل، تحسبًا لتعرضها إلى هجوم، لكن الرجل يُغلق الباب، ويظل ينظر إليها من دون أن يقترب منها، وعلى وجهه نصف ابتسامة لمفترس.

- ألم تتعرفي عليَّ من دون رداء الراهب؟

تنهض الفتاة لتتفحص وجهه وتتعرف فيه على ملامح الأخ براوليو. إنه الراهب المحارب من «كنيسة القديس فرانسيس العظيم»، لكنه يرتدي ملابس مدنية.

- هل عثرتِ على الخاتم الذي كنتِ تبحثين عنه؟

لا تعرف لوثيا ما يجب عليها فعله. يدفعها هذا الرجل إلى احترامه، بل والخوف منه.

- كيف عرفت مكاني؟

يجلس الرجل على المقعد الذي اعتاد أن يستخدمه الصحفي. يجتاح لوثيا إحساس غريب، كأنها رأت الأخ براوليو يغتصب مكان شبح دييجو.

- حزين لمقتل الصحفي. لم يرُقني في البداية قط، لكنني أظن أنه لم يكن رجلًا سيئًا في نهاية المطاف. ربما هو متكبر بعض الشيء، لكنه شجاع.

- من قتله؟

- لم أعرف بعد، أراد العثور على خاتم رئيس الدير مثلك. أعرف أنه لم ينجح. من يدري أي شحاذ قد أخذه من الجثة، لكنه على الأرجح تحقق فعلًا مما تورط فيه رئيس الدير.

- ما فائدة أن أحكي لك أي شيء؟ حتى شرطة مدريد غير مهتمة باكتشاف ما يحدث في المدينة.

- أعتقد أن انجذابي لسلطات مدريد قليل جدًّا مثلك. اختبريني، فمن الممكن أن أساعدك. قولي لي كل ما تعرفينه، من دون كذب. لا أريد مزيدًا من حكايات أن الخاتم الذي تبحثين عنه ذكرى عائلية.

ينهض الأخ براوليو ويسير نحوها، وبينما يفعلها يُهيأ لها أن قامته تتضخم. قد تتحول كلماته اللطيفة في أي لحظة إلى حركة عنيفة، وهذا هو ما تخشى أن يفعله حين تقترب يده منها. مع ذلك تغيِّر يد الأخ براوليو مسارها في اللحظة الأخيرة وتُمسك الأوراق الموجودة فوق الفراش.

- كتب دييجو عن جماعة «مشعلو الفحم» السرية. ما الذي تعرفينه عنهم ؟

- تمحورت أفكاره حول أنهم مرتبطون بـ «الوحش»، لكنني لا أعرف من هم «مشعلو الفحم»، ولا أعرف أصلًا ما الذي تعنيه جماعة سرية.

يبتسم الأخ براوليو من صدق لوثيا الطفولي.

- ما من شيء كبير معروف عن «مشعلو الفحم». بدؤوا في إيطاليا، لكن ثمة من يقولون إنهم كانوا في إسبانيا في 1822 وإنهم تآمروا مع «الكومونيروس»، وهي من أسوأ الجماعات التي أنجبها هذا البلد.

يبتسم ساخرًا. تتفهم لوثيا أن الساعة التي يجب فيها أن تحكي كل ما تعرفه قد حانت، فبخلاف أن هذا الرجل قادر على كشف كذبها، فهو أيضًا الوحيد المهتم بالتحقق مما حدث لدييجو. تعترف له بالحقيقة منذ البداية، سرقة الخاتم، وموت أمها، واختفاء أختها، واحتمالية حدوث هذا الأمر بيد «الوحش»، وتدخُّل السيدة دي بيافرانكا لبيع الحلية بسعر جيد، والطريقة التي عاد بها الخاتم إلى يديها، وكيف أن دييجو قد استعاره لمحاولة دخول هذه الجماعة، وفقًا لما قاله لها.

لا يكشف الأخ براوليو أوراقه. يعرف أكثر مما يظهره أمام لوثيا، لكن ثمة أمرًا لا يبدو له ملائمًا.

- تضم الجماعات السرية شخصيات مؤثرة جدًا. لدى أغلبها أهداف حميدة، لكن بعضها خطير جدًا. قد تتآمر للإطاحة بالحكومات أو لفرض دستور معين، لكن لماذا ترغب في اختطاف وقتل فتيات؟
- لا أعرف، لكنني متأكدة من أن أختي مع هذه الجماعة. سيعذبونها كما فعلوا مع خوانا والأخريات. سيقطعونها إلى أشلاء.

يقاطع الأخ براوليو لوثيا:

- حسنًا يا فتاة. فهمت.

لا يبدو مهتمًا بهرائها العاطفي.

- علينا أن نراجع كل ما نعرفه بالتفصيل. أول خيط يجب علينا أن نسحبه هو ذلك الخاتم. احكي لي مجددًا كيف وصل إلى يديك ولا تغفلي عن ذكر أي تفصيل في هذه المرة. أنا واثق من أن ذاكرتك جيدة.

تلتقط لوثيا أنفاسها، وتغوص في ذكرياتها وصولًا إلى يوم العاصفة الذي سبق اقتحام بيت الأب إجناثيو جارثيا.

- رأيته أول مرة في شارع «القلعة». سار مع رجل آخر أصغر منه من عند حديقة «الخلوة» وانعطف عند متنزه «الرهبان الفرنسيسكانيون».

سار بشكل غريب، مثل السكارى، لكن مرد الأمر ليس ثمله. أدركت أنه مريض، وأنها الكوليرا.

- لماذا تتبعتِه؟

- لأسرقه. أحيانًا تمضي أيام كاملة بين موت أحد ما بالكوليرا وإبلاغ الجيران عن وفاته لإزالة الجثة، حين تبدأ رائحتها تظهر. ذهبت وراءه حتى بيته وبقيت هناك لأراقبه. خرج إلى الشرفة وترك النافذة مفتوحة. رحلت، لكنني في اليوم التالي عدت ورأيت أن الشرفة لا تزال على حالها. تكرر هذا في اليوم التالي أيضًا. ما جعلني أحسم قراري هو أن السماء أمطرت بقوة عشية ليلة القديس يوحنا، لكن أحدًا لم يخرج لإغلاق النافذة. حينئذٍ أدركت ما يحدث، لقد مات. حسبت أنني سأعثر على مال كثير، لكنني لم أجد سوى الكتب.

- والخاتم؟

- أجل، كان في علبة. احتفظت به في جيبي، لكن حينئذ ظهر العملاق ذو الوجه المحروق، «الوحش»، وأوشك على الإمساك بي، لكنني تمكنت من الهرب.

- ما الذي أخذتِه أيضًا؟

- أخذت شمعدانًا وبعضًا من أدوات المائدة الفضية ومعطفًا. لطالما اشتكت أمي من البرد ليلًا. إنه معطف بني قبيح جدًّا، لكنه يبث دفئًا كبيرًا. بعت الشمعدان وأدوات المائدة وأعطيت الخاتم لأختي كي تحتفظ به. قلت لها إنه تعويذة، لكنها أخذته لترهنه.

- هل تعرفين أين؟

- بيت رهونات في شارع «المرملة».

يرفع الراهب لوثيا من فوق الفراش وهو يُمسكها من ذراعيها. تُحرك الفتاة لبضع ثوان قدميها في الهواء بحثًا عن الأرض الصلبة.

- هيا بنا.

- إلى أين؟

- إلى بيت الرهونات.

- ما الذي سنبحث عنه هناك؟

- لن نعرف حتى نعثر عليه.

تفرك لوثيا ذراعها. إنها واثقة من أن ثمة رضة ستظهر في المكان الذي أمسكها منه الراهب بيده الضخمة، لكن غلاظته معها ليست عدائية، ولهذا تلاحظ أن الخوف الذي يُثيره فيها يفقد قوته. تفكر فيه كحيوان ضخم -ربما دب- لا يعي حجم الضرر الذي يتسبب فيه حين يريد أن يلعب، أو ربما أن يأسها هو ما يدفعها إلى تفضيل أن تُصدق هذا الأمر.

يشق على لوثيا السير بإيقاع خطوات الراهب الواسعة نفسه. يسير بسرعة كبيرة إلى درجة أن صوته يتهدج حين يتحدث معها.

- حين نصل، ستصمتين وتتركينني أتحدث.

ثمة قوم قليلون في بيت الرهونات. يقف عامل وراء النضد، لكنه ليس الشخص الذي يرغب الأخ براوليو في أن يتحدث معه.

- قل لرئيسك إنني أريد مقابلته.

- ما الذي لديك له؟

يضع الأخ براوليو خاتمًا مرصعًا بحجر أحمر كبير فوق نضد البيع. حين يتقدم العامل ليمسكه، يقبض على معصمه.

- إياك أن تلمسه. قل لرئيسك إنني هنا لإجراء صفقة. إنه من ممتلكات ابنة الملك الميت.

- لا يصل عمر إيسابيل الثانية إلى أربعة أعوام أصلًا. لا يُمكن أن يكون لها.

- أنت لا تتخيل أصلًا حجم الجواهر التي مع هذه الطفلة في الأساس. إما أن تقول لرئيسك إنني هنا، وإما أنني سأدخل بحثًا عنه.

تعرف لوثيا أنها مجرد خدعة من الراهب، فبينما يمضيان نحو شارع «المرملة» اشترى هذا الخاتم من أحد تجار السقط بأقل من ريال، لكنها خدعة فعالة جدًّا، إذ يسمح لهما فورًا بالدخول إلى مكتب صغير. هناك يقف مالك كل هذا، إيسيدورو سانتاماريا.

- هل صحيح أن معك خاتمًا كان لإيسابيل الثانية؟

بمجرد دخول الأخ براوليو وبقائهما بمفردهما معه، لم يعد يأبه بأي مداراة، إذ يُمسك صاحب بيت الرهونات من عنقه، ويوجه له صفعتين قويتين.

يتمتم الرجل الذي لم ينتظر أمرًا مثل هذا بشيء غير مفهوم، إذ تخرج الكلمات من فمه بصورة فوضوية، كأنها دُهست.

يُسكته الأخ براوليو:

- اسمعني. هذا أقل ما قد يحدث لك. اجلس، وإن صرخت فلن تخرج حيًّا من هنا. أقسم لك إنني سأحطم حلقومك بلكمة واحدة.

رأت لوثيا الراهب وهو يقاتل. تعرف أنه لا يكذب وأن أي خطأ من صاحب بيت الرهونات سيعني موته. هذه المرة الأمر ليس خدعة. أدركت في الليلة التي رأته فيها في الكنيسة أنه رجل دين مختلف عن البقية. اختفى خوفها تمامًا، إذ تشعر في أثناء وقوفها خلفه، وهي تستند بظهرها إلى الباب، بأنها آمنة.

- لن أبيع لك أي خواتم. سأمنحك فرصة كي تُخبرني بكل ما تعرفه عن خاتم ذهبي عليه مطرقتان متقاطعتان. جاءت طفلة لترهنه. أريد منك أن تحكي لي كل شيء.

- جاءت الطفلة، لكنني لم آخذه، أخذته امرأة، السيدة دي بيافرانكا.

يوجه الراهب صفعة أقوى من الصفعتين السابقتين لإيسيدرو، إلى درجة أنها تطرحه أرضًا.

- جرب أن تقول لي شيئًا لا أعرفه وإلا فإنك ستقضي وقتا سيئًا.

يرتعب الرجل إلى درجة أنه لا ينهض، وإنما يتحدث وهو يجلس هناك ويغطي رأسه بذراعيه لحماية نفسه من أي ضربات جديدة.

- قبلئذٍ بيومين جاء مارثيال جارّيجيس ليراني، لكنه الآن ميت. ظهر الأمر في الصحيفة. يقولون إنه «الوحش». جاء إلى هنا مرة واحدة فقط ليسألني أين يُمكنه شراء ذهب من أجل الـ...

يضع الأخ براوليو حذاءه فوق وجه إيسيدورو ويضغطه فوق الأرض.

- من هم أصدقاء مارثيال؟

- لا أعرف. أقسم لك! جاء هاتين المرتين فقط. قال لي في المرة الأخيرة أن أرسل له إخطارًا لو ظهر خاتم المطرقتين المتقاطعتين.

- أين؟

- في «كنيسة القديس فرانسيس العظيم». وجب عليَّ أن أسلمه لرئيس الدير برناردو، على أن يتولى هو توصيله إليه.

- جيد جدًّا. هكذا يروقني الأمر. بدأت القصة تروقني.

يحكي صاحب بيت الرهونات أنه أمر بتتبع الفتاة التي جاءت بالخاتم لإبلاغ مارثيال جارِّيجيس بمكانها، كي يحصل على المال بهذه الطريقة.

- قلت له إنها تعيش في مصنع الثقاب. لا أعرف شيئًا آخر. سدد لي المال ورحل.

لا تقدر لوثيا على السيطرة على نفسها حين تسمعه، فتنقض عليه وتركله في بطنه.

- اختطف أختي بسببك.

- ما الذي تقولينه؟ توقفي عن ركلي!

يعجز إيسيدورو، في ظل وجود قدم الأخ براوليو فوق وجهه، عن الدفاع عن نفسه.

- جاءت كلارا، أختي، لتبيع لك الخاتم وأنت من أطلق «الوحش» وراءها.

يقول الأخ براوليو للوثيا:

- لو أردتِ أن تلحقي به الأذى فعلًا، فعليكِ أن تتحسني، هكذا....

ثم يوجه لصاحب بيت الرهونات ركلة في معدته تنقطع معها أنفاسه. يجلس بركبة واحدة على الأرض، ثم يمسكه من ربطة عنقه الفراشية، ويرفع رأسه وينظر إلى عينيه.

- شيء آخر. قل لي شيئًا آخر، وربما لن أقتلك قبل رحيلي. ترغب الفتاة أن تمنحني عذرًا لأفعلها.

يصرخ صاحب بيت الرهونات بيأس حين يرى الراهب يجهز ذراعه ليوجه له لكمة أخرى:

- المعطف! كان مهتمًّا أيضًا بمعطف ما! سألني ما إذا كانت الفتاة التي جاءت لبيع الخاتم قد ارتدت معطفًا بنيًّا.

تبقى قبضة الأخ براوليو معلقة في الهواء. يتبادل نظرة مع لوثيا التي تشعر هي الأخرى بالحيرة. معطف الأب إجناثيو جارثيا. ما هي أهميته أصلًا؟



تتوقف عربة «السيمون» حين تصل إلى نقطة تفتيش «الميليشيا الحضرية» عند «بوابة طليطلة». يتبادل الأخ براوليو بضع كلمات مع الحارس، فيفسح لهما الطريق. إنها أول مرة تعبر فيها لوثيا «الجدار» بشكل قانوني منذ فترة طويلة. ذهبا هما الاثنان في الليلة الماضية إلى الكنيسة قبل أن يبيتا في منزل دييجو كي يستعيد زيه الكنسي، وحكت له لوثيا بدقة تفاصيل اليوم الذي بُوغتت فيه كلارا وهي في الكهف وسُرق منها ضمن مقتنيات أخرى المعطف الذي يجب عليهما الآن أن يجداه.

استيقظت مدريد بعد ليلة من الحر الخانق وفي سمائها طبقة من السحب المنخفضة، كأن قذارة هذه المدينة التي تخلى عنها القدر لم تتوقف طوال النهار عن جذب الحر إلى الأرض كمغناطيس. يُعذب السائق الحصان ليتفادى تعرجات الأرض وتيارات مياه الصرف والعفن الذي علقت فيه الإطارات أكثر من مرة. تتعاقب مشاهد البيوت المتهالكة والأطفال سيئي التغذية والكلاب التي تتضور جوعًا في عينَي لوثيا كأنها لوحات من ماضٍ قريب لا يزال ملتصقًا بجلدها. يجتازان الأنقاض المتفحمة لحي «لاس بينيولاس»، ذلك

المكان البائس الذي تبتسم أمامه بنوع من الحنين الذي سيتكفل الزمن بمحو ذكراه، ثم يمضيان في طريقهما نحو الكهوف.

يتوقف السائق بعد إشارة من الأخ براوليو الذي يطلب منه أن ينتظر عودتهما، فالعثور في هذه الضواحي على عربة تُعيدهما إلى المدينة على الأرجح أمر مستحيل. تُرشده لوثيا عبر المنحدر حتى الكهف الذي ماتت فيه كانديدا. يتسلقه الراهب برشاقة محارب مصقول في أكثر الأراضي انحدارًا. يتفقدان الكهوف واحدًا تلو الآخر -والكثير منها مسكون- فلا تجد لوثيا بُدًّا من الإعجاب بطلاقة الراهب وطريقته في تفتيش كل فجوة وفتح كل صُرة، ورفع كل بطانية ونفض كل رُزمة من دون أن يضيع ولو لحظة واحدة في تقديم تفسيرات لأصحابها. تحتج امرأة على الطريقة التي اقتحم بها المكان ويرفع رجل يرتدي الأسمال صوته ويتشمم أحد الكلاب رداءه الكنسي، لكن كل هذا لا يُثنيه عن التفتيش من دون توقف. لا شيء يُوقفه، إذ يُخمد تلك الأشكال الضعيفة من المقاومة بضربات يد حاسمة ونظرات قاسية لا تقبل ردًّا.

يجدان في الكهف الخامس امرأة مُسنة تُقلب قدرًا. ترتدي المعطف البني الذي يبحثان عنه وتدثرت به أم لوثيا في آخر لحظات حياتها. يأمرها الأخ براوليو بأن تخلعه وينتبه إلى أن عناد العجوز سيتحول سريعًا إلى مقاومة متوحشة. لا يدخر الراهب جهدًا في استخدام العنف، حتى في مواجهة هذه السيدة المسنة التي ظلت تنتحب وهي تتشبث بالمعطف كأنه أحد أبنائها، وتؤكد أنها اضطرت إلى دفع ريال كامل للحصول عليه. يلوي الراهب ذراعها ويشل حركتها فوق صخرة، ثم ينتزع منها المعطف. يرافقه سباب المرأة المسنة في طريق العودة. يزداد بُعده كلما مر الوقت، لكنه لا يتوقف. ينتظرهما سائق العربة وهو يدخن بعض التبغ.

يتفقد الأخ براوليو المعطف بدقة وهما في طريقهما إلى المدينة، من دون أن يجد شيئًا في جيوبه.

- لا بد أن شيئًا ما داخله. لا أظن أن مارثيال بحث عنه كي يتدثر به.

يُوشك على الاستسلام، حين يلاحظ شيئًا ما بأصابعه.

- أعتقد أنني عثرت عليه.

يتمكن بعد قطع حاشيته، من إخراج ورقة مثنية. تظهر مجموعة أسماء ذات معنى مجهول أسفل كلمة «المعلمون»، وإلى جوار كل منها مجموعة من الأحرف التي تبدو اختصارًا لشيء ما: «م ج ر» و«ر د ل ب»، وهكذا.

تسأله لوثيا بنفاد صبر:

- ما الموجود فيها؟

- «المعلمون». هذا هو ما يُطلق على أعضاء الكثير من الجماعات السرية. يبدو ما هو موجود تحتها كأسماء مُشفرة لـ «مشعلو الفحم»: «أناباوسيس»، و«البريق الذهبي»، و«سالاوت الخالد».

- ألا يقول من هم في الحقيقة؟

- قد تكون الأحرف الموجودة إلى جوارهم اختصارًا لأسمائهم، لكنها قد تعني أيضًا أي شيء آخر. ربما مناصب داخل الجماعة أو أي شيء آخر. إنهم اثنا عشر فردًا.

- وما الذي يفعلونه؟

- ليس لديَّ أي فكرة.

لا يتعامل الأخ براوليو بصراحة كاملة مع لوثيا. يعرف أكثر مما حكاه لها عن «مشعلو الفحم» بفضل الشائعات التي سمعها عنها ومقال دييجو رويث الذي لم يُكمله وتمكن من قراءته في بيته. يعرف أنهم لطالما تواجهوا مع أنظمة الحكم المطلق، وأن طقوس عضويتهم تشتمل على قسم بالطاعة والسرية، وأن الموت هو عقوبة الإخلال به. تتكون الجماعة من خلايا ولكل واحدة منها رئيس وأمين ونائب وعشرون عضوًا. مع ذلك لا يبدو أن هذه القائمة تتماشى تمامًا مع هذا الهيكل، من هم الاثنا عشر شخصًا الموجودون فيها؟ لماذا أخفى عالم اللاهوت إجناثيو جارثيا هذه القائمة في حاشية معطفه؟ من القائد بين هؤلاء الاثني عشر؟

- لكل واحدة من هذه الجماعات «معلم أكبر» دائمًا، وهو المسؤول عن قيادتها.

- «الوحش»؟ مارثيال جارِّيجيس؟

- لا. هذا مجرد منفذ للأوامر.

يهز الأخ براوليو رأسه وهو يفكر بصوت مرتفع. قرأ سيرة مارثيال في الصحف وماضيه العسكري الذي لا يختلف كثيرًا عنه ويُزين هويته الحقيقية كتوماس أجيرّي، العميل الكارليّ. مارثيال جارّيجيس جندي مثله، وليس جنرالًا.

- الشارع هو ما أطلق عليه اسم «الوحش» أو ربما الصُحف، لكنه لا يُدعى هكذا داخل الجماعة. مارثيال جارّيجيس مجرد قطعة داخل هذه القائمة، أو شيء أكبر من هذا بقليل، ربما مقاتل.

- مثلك.

ينظر الأخ براوليو إليها مدهوشًا، لكنه يُومئ برأسه. ربما ستأتي سريعًا اللحظة التي سيحكي لها فيها من هو حقًا.

تأخذ لوثيا قائمة الأسماء منه. تحاول قراءة أحدها، لكن الأمر يشق عليها.

- أ، نا، با،

يُقاطعها الراهب:

- أناباوسيس. ألا تجيدين القراءة؟

- قليلًا جدًا، هلا قرأت لي الأسماء؟

ينزع الورقة من يديها:

- إنها مسألة لا تهمك، بل شأن يخصني.

- بل إنها تهمني بالطبع. أختي مع «مشعلو الفحم».

- هل حكى لكِ الصحفي عمن فكر في أنه عضو داخل هذه الجماعة؟

- لم يقل لي أي اسم، لا أعرف ما إذا كان قد قال لدونوسو، لكن الحديث مع هذا الأعور، كالحديث مع حجر.

- اذهبي إلى بيت دييجو وابقي هناك.

- ما الذي ستفعله؟

- لا تسأليني كثيرًا. عليكِ بطاعة ما أقوله فحسب. أيها السائق!

تتوقف العربة. ينزل الأخ براوليو ويدفع أجرة المشوار ويأمر الرجل بتوصيل الفتاة إلى شارع «الأثرياء». تلتفت فتراه يمضي عبر الشارع بخطى

حثيثة، ثم تعتدل بعدئذٍ في مقعدها، وتستمتع بإحساس التنقل الفريد كآنسة من بنات الحسب والنسب.

لوثيا ليست مستعدة لحبس نفسها في البيت من دون أن تفعل شيئًا. تود أن تثق بالراهب، لكن حياة أختها في الوقت نفسه لا تبدو مهمة بالنسبة إليه، إذ تُحرِّكه أهداف أخرى لم يكشف عنها، وإلا فلماذا يبحث بمثل هذه البسالة عن المعطف؟ لم يعد الإيثار شيئًا شائعًا في هذه المدينة، إذ يبحث كل كلب عن عظمة لنفسه. قال لها دونوسو في وقت سابق شيئًا يضرب رأسها الآن كالمطرقة. تحدث عن قارورة دم عُثر عليها مع «الوحش». أخذها دييجو إلى الدكتور آلبان في «المستشفى العام». ماذا لو أن الطبيب قد اكتشف شيئًا بعد أن حللها؟ إنه أمر تجهله، لكنها مستعدة للتحقق منه.

يقع المستشفى بالقرب من شارع «أتوتشا»، على بعد خمس دقائق تقريبًا من بيت شارع «الأثرياء». يبدو المبنى الضخم كغلاية ملأى بالبشر، مرضى يفترشون الأرض، وراهبات مسرعات لتقديم العون إلى من يستطعن مساعدته، ومرضى يحتجون ويطالبون بالاعتناء بهم، وامرأة لا تتحرك -ربما ميتة- وتجلس على مقعد بسيط من دون أن يهتم أحد بها، تتمشى لوثيا وسط القاعات وهي ترى كل شيء، فتشعر بالسعادة لأن أمها لم تقضِ أيامها الأخيرة في مكان مثل هذا. على الأقل ماتت وهي تعانق ابنتيها، لا في هذه الوحدة.

لا أحد يدرك من هو الدكتور آلبان، فالمستشفى ملآن بمتطوعين لم يقضوا وقتًا كافيًا في هذا المكان للتعرف على الأطباء، وبخاصة لو تعلق الأمر بطبيب شاب وصل للتو من باريس، على الرغم من أن لوثيا لا تعرف هذا الأمر أصلًا. تتجول داخل عدة أجنحة في المبنى وتُداهم كل من تجده في طريقها ويرتدي معطفًا طبيًا. في النهاية يتلاقى طريقها مع راهبة شابة جدًا تتمكن من مساعدتها.

- الدكتور آلبان؟ أنتِ محظوظة. إنه الرجل الذي يسير هناك.

تركض لوثيا خلفه، خلف هذا الكيان القلق والمتسرع، الذي يرتدي معطفًا ملطخًا بالكامل بالدم.

- دكتور آلبان! أحتاج إلى التحدث معك.

- عذرًا، لو أنكِ تبحثين عن أحد أقاربك، فأنا لست الشخص المناسب. فوق هذا لديَّ عمل كثير.

- ترك معك دييجو رويث، الصحفي، قارورة دم لتحللها.

يتوقف الطبيب بعد أن تمكنت الفتاة من أسر انتباهه.

- عرفت ما حدث له، لربما وددت أن أحضر الدفن، لكن الحكومة تحظر التجمعات التي يتخطى عددها عشرة أشخاص. يجب علينا معشر الأطباء أن نصبح أول من يلتزم بالقواعد.

يبدو اعتذار آلبان صادقًا. يُمسك لوثيا من ذراعها، ويحكي لها في حديقة المستشفى أنه قرأ بحزن مقال الدفن الذي كتبه بايستيروس. حين يدرك أن لوثيا عاشت مع الصحفي، لا يدخر جهدًا في سؤالها عن العلاقة المفترضة التي جمعت دييجو بدوقة ألتويانو. ربما يُفكر في استخدام المعلومات التي قد تقدمها له الطفلة في جلسة سمر معينة.

- كل هذه الأمور ليست مهمة. كان دييجو يبحث عن أختي. اختطفها «الوحش»، وقد تساعد قارورة الدم هذه على الأرجح في العثور عليها.

- كيف ستفيدك مجموعة من المعلومات العلمية يا صغيرة؟

حين يُلاحظ آلبان عجز لوثيا وأنها تفهم أن ما يقوله صحيح، يُفضِّل أن يتوقف عن التشكيك فيها. يُمكنه أن يخصص عشر دقائق من وقته لمساعدتها.

- هل تعرفين أنهم جاؤوا بالأمس بضحية أخرى لـ «الوحش»؟ يبدو أن هذه القصة لم تنته.

- أعرف. اسمها خوانا. كنت في الطريق حين عثروا عليها.

- لم أجد أي شارة في فمها.

- أخرجتها بنفسي وأعرف أين هي. تشبه شارة بيرتا وعليها مطرقتان متقاطعتان.

تمضي لوثيا وراء الدكتور آلبان حتى المعمل. إنه أحد الأماكن القليلة الهادئة في المستشفى. يبدو كغرفة خلفية في أحد الدكاكين ويمتلئ بالدوارق والأنابيب والسخانات.

- العمل كثير ولم أحظ بوقت لتحليل العينات. أعطاها لي دييجو في المساء نفسه الذي شهد مذبحة الرهبان، وكأننا لم يكن لدينا موت كافٍ

بسبب الكوليرا. جلب إليَّ قارورتين. عثر على الأولى غالبًا في بيت عالم لاهوت، اسمه إجناثيو جارثيا تقريبًا. أما الأخرى ففي جيب مارثيال جارِّيجيس. أراد أن يعرف هل هو دم بشري.

- وهل هذا أمر يُمكن معرفته؟

- ليس بصورة مؤكدة. لن يقبله أي قاضٍ، لكن هنالك طريقة باللجوء إلى حاسة الشم. درست في باريس وتعلمت هناك أساليب الدكتور بارويل. سأشرح لكِ الأمر الآن، لكن ثقتي بهذا الأمر محدودة.

يفتح الدكتور آلبان خزانة ويتفقد بسبابته عدة قوارير عليها ملصقات، إلى أن يعثر على مبتغاه.

يقول لها ليرفع معنوياتها:

- وجدتهما. آسف الآن لأن دييجو ليس موجودًا كي... في النهاية إنها أيام صعبة. هيا بنا.

يُخرِج عينتين من الدم المتجلط من كل قارورة ويضعهما فوق طبق صغير. بعدئذٍ يبحث عن قنينة من ضمن المئات الموجودة هناك ويستخدم مقياسًا، ثم يضع نقطة فوق كل عينة.

- هذا حمض الكبريتيك. هل تعرفين ما هو؟

- لا.

- حسنًا. ليس أمرًا مهمًّا. إنه عُنصر مُفَعِّل. وفقًا للدكتور بارويل، إن وُضع هذا الحمض فوق الدم البشري فستنتج رائحة خاصة. كيف تبدو لكِ؟

تُقرب لوثيا أنفها من الطبق ويبدو عليها الاشمئزاز.

- لا أعرف. إنها رائحة سيئة.

- تبدو لي رائحته سيئة أيضًا ولا أعرف هل هو دم إنسان أم بقرة. تمنيت أن يحالفني التوفيق هذه المرة وأن يُنيرني الرب، لكن ليس لديَّ أي فكرة. يقول بارويل إنه كان يقدر على معرفة هل هو دم رجل أم امرأة.

- إذن لن نعرف؟

- أخشى أن الإجابة هي نعم.

ينغمس في أفكاره.

- إلا إذا حاولنا عبر طريقة أخرى. إنه شيء رأيت طبيبًا إيطاليًا يُجربه، واسمه الدكتور كازانتي.

يشرح آلبان كل ما يفعله للوثيا. يُعطي الأمر انطباعًا بأنه رجل ثرثار ومغرم بعمله وممتن لوجود مستمعة لمعارفه، على الرغم من أن هذه المستمعة لا تفهم ولا كلمة واحدة مما يقوله.

- علينا أن نُحول عينة الدم المتجلط هذا إلى مسحوق ناعم جدًا.

بينما يتحدث، يضع قليلًا من الدماء فوق شريحة معملية ويقطعها بسكين صغير. يتمكن في النهاية من تشكيل شيء يشبه الرمال. بعدئذٍ، يفتش بين الأرفف إلى أن يعثر على زجاجة مدببة.

- سنخلط هذا المسحوق الآن مع قليل من حمض الفسفوريك.

يضيف بعض النقاط إلى كثيب الرمال الحمراء الموجود فوق الشريحة.

يقول راضيًا:

- هكذا كافٍ. الآن علينا أن ننتظر رد الفعل.

تتفقد لوثيا باهتمام العجينة الناتجة، لكنها لا تلاحظ شيئًا بعينه. مع ذلك يرى الطبيب فعلًا شيئًا يلفت انتباهه. يغمس أنملة إصبعه في طرف هذه الكتلة الصغيرة الدبقة.

- انظري. تكوَّن عجين متجانس، لكن لو ضغطنا عليه يتحول مرة ثانية إلى جزيئات جافة لا تشكل كيانًا واحدًا.

الأمر صحيح. حين يضغط بإبهامه، يتفكك العجين إلى حبيبات حمراء.

- ما الذي يعنيه هذا؟

- وفقًا للدكتور كازانتي، تحدث هذه الظاهرة مع دم الحيض. هل تعرفين ما هو دم الحيض؟

لا تجيبه لوثيا. تتيه نظراتها في الأرفف الملأى بآنية وقوارير دهانات، ونواجير فيها أنواع مختلفة من الشراب، وهي تحاول إيجاد مكان لهذه المعلومة في متاهة اختفاء أختها و«مشعلو الفحم» وضحايا «الوحش».

يوضح الطبيب:

- دم الحيض هو دم دورة النساء الشهرية. إذن في هذه الحالة، إنه بوضوح دم أنثوي.

لا تحتاج لوثيا إلى تفسيره. تعرف تمام المعرفة ما هو دم الحيض، لكنها لا تجيب الطبيب إذ تتفهم فجأة لماذا تُقتَل فتيات قبل أخريات، وهي المسألة التي لم يتمكن دييجو من التوصل إليها. تُطلق سؤالها وهي تحاول ربط ذيول الأمور ببعضها في رأسها، على الرغم من أنها في أعماقها ليست في حاجة إلى إجابة:

- لماذا قد يود أحد أن يحتفظ بدم حائض؟
- ساد اعتقاد فيما سبق أن دم بعض الأفراد قد يساهم في علاج المرضى. على سبيل المثال، في عام 1492 كان البابا إينوسنت الثامن يحتضر، وفي محاولة لإنقاذه، دفعه طبيبه إلى شرب دماء ثلاثة أطفال في سن العاشرة.
- وهل نجا؟
- لا. مات هو والأطفال. إنها مجرد خرافات قروسطية واعتاد الناس أن يصدقوا أي شيء.
- لا تفقد القصص رواجها يا دكتور. يحتاج إليها الناس.
- أنتِ محقة. حين بدأت دراستي، أتذكر أنني قرأت بحثًا للدكتور بالتاسار دي بيجيرا. جمع بعض الاستخدامات المنسوبة إلى دم الحيض على مر التاريخ. حضّر المعالجون بهذه الدماء دهانات ونسبوا إليها قدرة علاجية لعدد كبير من الأمراض وكأن الأمر معجزة من مريم العذراء المباركة. قالوا إن دهنها يعالج الثآليل والنقرس بل وحتى الصرع. إنهما الجهل والخرافات. لا يوجد ثنائي أسوأ من هذا. حتى وإن لم تصدقي، فقد قِيل سابقًا إنه حين تخرج امرأة حائض عارية إلى أرض مفتوحة، فإن خروجها يُعدِّل الجو، فتختفي هكذا العواصف والأعاصير وتكتسي السماء بزرقة صافية وتغرد الطيور وتنثر نسمات الهواء رائحة الخشخاش. للأسف، مهما تقدم العلم، فستظل هنالك بعض الرؤوس الجوفاء التي تظن أن الأرض مسطحة وأن دم الحيض يُخفف الحمى.

تجلس لوثيا على الأرض تحت رف ملآن بمواد معملية. تُفكر في كلارا التي سألتها وهي حائرة كيف كان مقدار الألم حين جاءها الحيض. «آلمني الأمر قليلًا، لكن لا يزال يتبقى لكِ بضع سنوات على مجيئه». حينذاك كان عمر كلارا

سبع سنوات فقط. عمرها الآن أحد عشر عامًا، لكنها لم تلطخ نفسها بعد، إنها واثقة من هذا الأمر. هل هذا ما ينتظرونه؟ هل لهذا السبب يمر وقت بين حوادث الاختطاف ويختلف وقت ظهور الجثث من فتاة إلى أخرى؟

تقول:

- الدم الأول. يقتلونهن بعد دمهن الأول. هذا ما ينتظرونه. لهذا عمر كل الفتيات واحد.

ينظر الدكتور إليها مدهوشًا، لكن تلمع عيناه بالطريقة نفسها التي لمعتا بها حين وضع المادة المُفَعِّلة فوق العينة. يبدو أنه هو الآخر يحب الألغاز والافتراض الذي أطلقته لوثيا يتماشى مع اللغز الذي طرحه دييجو أمامه في وقت سابق.

- الأمر ممكن. ثمة أساليب سخيفة، مثل تلك العادات التي ذكرتها لكِ، لتحفيز بدء الإحاضة، أو الدم الأول على حد تعبيرك. ترتبط هذه الأمور بمراحل اكتمال القمر، لكن المسألة في النهاية قرار من الجسد ولا يُمكن لأحد أن يُقدمه أو يؤخره.

تبتسم لوثيا لأول مرة منذ فترة طويلة. تبدو لها احتمالية استعادة كلارا وهي على قيد الحياة ممكنة أكثر من أي وقت مضى منذ اختفائها. لو أنها لم تحض بعض، فسيبقونها على قيد الحياة، ويمكنها أن تعثر عليها قبل أن يتأخر الوقت.

53

لا تزال حلوى «البارتوليو» ساخنة بعد أن خرج دونوسو من «مخبز البئر». تحرقه حرارتها من تحت الورق الأسمر الملفوفة فيه، لكنه يعرف أنها ستغدو مثالية حين يصل إلى بيته. ظلت جريسي في الفراش وتركت النوافذ مفتوحة بحثًا عن أي نسمة هواء بعد أن خرج لشرائها. تغرق المدينة في قيظ يوليو ويبدو المشاة كأنهم لا يستطيعون تحريك سيقانهم. مع ذلك يشعر دونوسو بخفة غريبة، كأنه قد تخلص من ثقل يدفعه إلى الغرق. إنه ثقل اللاجدوى والأيام التي تآكلت من غياب المشاريع والأحلام. وضع القدر ملاكًا في حياته، وهو ملاك مكسور الجناح ويجب مداواته. يثق أنه وحده، من بين كل رجال الأرض، القادر على تنفيذ هذه المهمة. صحيح أن جريسي امرأة عصبية وغير مستقرة ومدمنة للأفيون وميتة من الخوف والألم، لكن الجمرات تلمع في وسط الأرمدة، ولهذا يرى القوة الكامنة داخلها والجمال المقاوِم للمآسي، فعلى الرغم من أن الحياة قد قست عليها، فإن رغبتها في العيش وحماية وضعيتها في عالم المسرح واستغلال الفرص التي قد يمنحها القدر لها لا تزال قائمة.

يسير بخطوات خفيفة، وهو يُغير مكان رزمة الحلوى من يد إلى أخرى كي لا تحرقه يده، وحين يمر أمام إحدى الحانات لا يجد نفسه أصلًا مضطرًا إلى مقاومة إغراء صب كأس من «الأجواردييني» في معدته. يود فقط أن يشعر بقرب جريسي إلى جواره، والاعتناء بها، الاعتناء بهذه المرأة البائسة التي تحتاج إلى مساعدته. كيف تبخرت المرارة المحبوسة في داخله فجأة؟

لم يعد يرغب في تفهم الكيفية التي حققت جريسي بها هذا التحول العجيب داخله. حدث الأمر في أيام قليلة، كأنه شرب من الماء الذي قِيل إنه كان موجودًا في البئر التي استمد هذا الشارع اسمه منها، ويشفي كل مريض لأنه ضم بعضًا من أشواك تاج المسيح. جريسي هي ماء دونوسو الشافي، فشفتاها وعيناها، اللتان رأتا أكثر مما ينبغي، وبشرتها البيضاء المخملية هي الإكسير الذي دفعه إلى نسيان الشرب وخيبة أمله الغرامية مع زوجته، بل وسمحت له على وجه الخصوص بأن يتوقف عن النظر إلى الوراء، إلى الماضي، وأن يلتفت بوجهه مجددًا نحو المستقبل. باتت لدى الحارس قناعة ثابتة لأول مرة على الرغم من الألم والموت اللذين أحاطا به في الأسابيع الأخيرة، ومفادها أن احتمالية وجود «غد سعيد» قائمة، ولهذا يجب عليه أن يهش لوثيا وكأنها بعوضة مزعجة بعيدًا عن أفكاره، هي ومسألة البحث عن أختها. تنتمي هذه الفتاة، كأشياء أخرى كثيرة، إلى زمن ماضٍ لا يرغب في النظر إليه مجددًا.

تقع الأحداث الكبرى في حياة أي إنسان بالمصادفة، لكن دييجو سبب كل هذا لأنه من وضعه في طريق جريسي. يندهش فجأة حين يشعر بالامتنان تجاهه، ويلاحظ حينئذٍ بوضوح أن ألم خسارته ليس مميتًا، بل إنه يشبه الكآبة الحلوة التي ترتوي من ذكريات محادثاتهما وليالي عربدتهما وجلسات تسامرهما والمواخير التي لم يرد دييجو أن يدخل إلى أي من غرفها قط، وضحكته المعدية في مواجهة غمه شبه الأبدي. يتمتم الحارس: «أنا آسف جدًّا». يأسف على أنه لم يكن أفضل صديق له، وعلى أنه لم يحاول إدخال البهجة على أيام الصحفي بشكل آخر، وعلى عجزه عن إبعاده عن المخاطر. كان سيروقه أن يغدو آنذاك الرجل الذي هو عليه الآن.

بينما هو غارق في أفكاره، يترك دونوسو خطواته تقوده عبر شارع «أتوتشا»، وحين يصل إلى ناصية ساحة «الحطب»، إذا بيدين تسحبانه من

ذراعه فجأة وتجرانه إلى ميدان صغير بعيد عن أعين بقية المشاة. يحاول دونوسو وهو يتلعثم، كمن يستيقظ من نومه لأنه لا يثق في إذا كان ما يحيط به حقيقيًا أم جزءًا من عالم الأحلام، أن يتعرف على الراهب الذي جره إلى هذا المكان الخاوي. بينما يحافظ على الاتزان المتزعزع لرزمة حلوى «البارتوليو»، يُوجه إليه سبابًا. ألا يعرف هذا الراهب أنه حارس؟

- لا تهمني كل شاراتك. لا أظن أنك أصلًا تُقدر أيًا منها يا دونوسو.

- كيف تعرف اسمي؟

- أعرفه بالطريقة نفسها التي أعرف بها أنك سكير وجبان. يكفي أن ينظر إليك المرء بضع دقائق ليدرك الأمر.

ينظر الحارس إلى كلا الجانبين ليدرس خياراته. ليس لديه أي نية لمحاولة ردع هذا الراهب الغريب بشتائمه، فكل ما يهمه هو العثور على طريق للهروب. يستمر فقط في التحدث معه لكسب الوقت.

- ما الذي تريده؟ لو أن المال مسعاك، فقد أخطأت.

- دييجو رويث. كان صديقك، لكن لديَّ انطباعًا أن حِدادك عليه لن يستمر كثيرًا. أعتقد أنه ربما حكى لك أكثر من الأشياء التي كتبها في مقاله عن «مشعلو الفحم».

- لم ينشر دييجو أي مقال عن هذا الأمر.

- لم يُكمله. كنت في بيته وقرأته. أعتقد أيضًا أنه تحدث مع لوثيا، الفتاة ذات الشعر الأحمر. ما الذي توصل إليه دييجو بخصوص «مشعلو الفحم»؟

تروي امرأة بعض زهور إبرة الراعي في إحدى الشرف. يتدافع فَتيان عربيدان ويضحكان في نهاية ساحة «الحطب» كأن الكوليرا ليست موجودة. لو أن دونوسو سريع بما يكفي، لتمكن من العودة إلى «أتوتشا» بعد قطع بضع خطوات، بل ولربما لفت انتباه أي حارس. مع ذلك لا يبدو الفرار ركضًا أفضل خيار.

- توجد حانة في شارع «خمارة الجدران». يُمكننا أن نتحدث هناك بهدوء، فهذه ليست أمورًا لنتناولها في وسط الشارع.

يُقدم الراهب نفسه لدونوسو باسم الأخ براوليو ويرافقه، كأنه كاهن يواسي سجينًا في طريقه نحو منصة الإعدام. لا يقطع الصمت سوى صوت خطوات

الرجلين والأسئلة القليلة التي يُطلقها الراهب بلا جدوى: كيف أدرك دييجو وجود جماعة «مشعلو الفحم»؟ كيف فكر في أنه يقدر على الدخول إلى هذه الجماعة؟ يُطالب دونوسو الراهب بالصبر، فهو سيحصل على إجاباته. يغلي قلب الحارس بالجزع. يأسف على أنه لا يملك سلاحًا، على الرغم من أنه حقه بموجب مهنته. يعرف أنه لا يتمتع بالأفضلية، فالراهب ضخم الجثة قادر على كسر عظامه من ضربتين فقط. لو أن هناك شيئًا تعلم دونوسو التعرف عليه بمرور الوقت، فهو تبيُّن متى تغدو الخسارة مؤكدة. مع ذلك لن يُقدِّم له ما يبحث عنه. لن يكشف أمام الراهب أن جريسي مثلت بوابة دخول دييجو إلى هذه الجماعة وأنها أول من قدمت له الاسم.

تُغطي النشارة أرضية الحانة. يقود الأخ براوليو دونوسو من ذارعه إلى طاولة منزوية. يطلبان من بانكراثيو جرَّة من النبيذ، وفي وسط عتمة الحانة، يكرر الراهب الأسئلة نفسها.

- بدأ صبري ينفد يا دونوسو.

يعي الحارس أن التهديد ليس واهيًا. بينما يجلبان لهما جرَّة النبيذ، يتلعثم دونوسو وهو يحكي قصة غير مترابطة، تخيل دييجو أمورًا. حين رأى الشارة التي عثروا عليها في بيرتا، تخيل أن كل الأمور ترتبط بجماعة سرية. ربما دفعته المطرقتان المتقاطعتان إلى التفكير في المناجم والفحامين. لا بد أن أحدًا حكى له عن وجود جماعة لها اسم مشابه، «مشعلو الفحم». يحيك دونوسو كذبته بكلمات غير دقيقة وهو يملأ القدحين. يضحك بعدائية رجلان يجلسان إلى طاولة أخرى بعد أن أثقلهما شراب «الأجوارديينتي». لا بد أنهما صارا ثملين وسيتبادلان السباب سريعًا. يرجو آخرون بانكراثيو أن يثق بهما ويقدم لهما جولة أخرى من الشراب، لكنه يُبعدهما صارخًا. سيلجأ إلى التعامل بيديه في أي لحظة، فهذه هي الأجواء التي انتظرها في الحانة التي يعرفها جيدًا.

- توقف عن الهراء يا دونوسو. ربما كان دييجو صحفيًّا تقليديًّا، لكنه أصاب في هذه القصة. لا أطلب منك أن تتورط في الأمر، بل إنني أتمنى ألا أرى رقعتك هذه مرة ثانية بعد الخروج من هذه الحانة، لكنني لن أرحل إلا بعد أن تحكي لي الحقيقة. لا بد أن دييجو عثر على أحد ما انتمى إلى هذه الجماعة. أخذ الخاتم من الفتاة وخرج يوم الأحد ليلًا في اتجاه معين. إلى أين ذهب؟

- لماذا قد يهتم راهب بهذا الشأن هكذا؟

يظل الأخ براوليو صامتًا، فيفهم دونوسو من ابتسامته الخفيفة أن كل ما يربطه برجال الدين هو الرداء الكنسي فقط. ربما هو كارليٌّ. يقولون إنهم كثيرون في مدريد، كالفقراء. يحاول الشرطي الأعور أن يتفاوض:

- لو قدمت لك معلومة، فمن العدل أن تعطيني واحدة مثلها في المقابل.

- إلى أين ذهب دييجو في تلك الليلة الأخيرة؟

يتململ دونوسو في مقعده كأنه يشق عليه الإفصاح عن الكلمات التي سينطقها، ثم ينظر إلى الراهب. تتزايد جلبة رواد الحانة. إما الآن، وإما فلا. يمسك قدح النبيذ ويلقيه بحركة سريعة في وجه الأخ براوليو. ينكسر الزجاج ويختلط النبيذ بدم الجرح الذي انفتح في وجه الراهب. يسحب المقعد ويركض سريعًا قدر استطاعته ليخرج من الحانة. تكفي الثواني التي يستغرقها الراهب في إبداء رد فعل سكارى الحانة للدخول في شجار يُسعد يومهم، ففي نهاية المطاف، هذا ما ظلوا يسعون إليه.

يركض دونوسو في الشارع من دون أن ينظر إليه. يدخل شارع «الأختين»، بعد أن انقطعت أنفاسه تقريبًا، وحينئذ يتذكر أنه نسي حلوى الـ «بارتوليو» فوق طاولة الحانة. يتوقف لحظة ليحتمي وراء باب، ويبتسم بعد أن تذكر هذه المسألة التافهة. ثمة أمور مُلحة بشكل أكبر الآن، لو أن الراهب ظل يُراقبه لفترة، ولو أنه يعرف عن حياته الكثير كما يقول، فربما يعرف أيضًا أين يعيش. حين يستأنف طريقه للخروج إلى شارع «السفراء»، تُسقطه صفعة أرضًا. يقلبه أحد ما فوق الأرض، ويجلس فوقه مباعدًا بين ساقيه. تتساقط قطرات من النبيذ والدماء الآن فوق عينه الوحيدة. لا وجود للأسئلة هذه المرة.

تنغرز براجم قبضة الأخ براوليو في فمه وهو يلكمه. يراه بصورة ضبابية وهو فوقه، فيما يجهز ذراعه لضربه مجددًا.

- أسينثيو دي لاس إيراس!

يعتقد دييجو أن صراخه سيدفع الراهب إلى التوقف، لكنه مخطئ، إذ إن الأخ براوليو يوجه لكمة أخرى إلى فكه. يشعر الشرطي الأعور كأن فكه قد تحرك من مكانه. تنادي بعض النساء حوله الحرس، فيما يضحك بعض الأطفال.

- من هو أسينثيو دي لاس إيراس؟

- دبلوماسي. لست متأكدًا، لكن يعتقد دييجو أنه من عناصر «مشعلو الفحم». لو أنه ذهب إلى أي مكان في ليلة مقتله، فقد ذهب إلى بيته، تميز بعناده. كلما وضع شيئًا ما في رأسه، لم يتوقف إلا بعد الوصول إلى نهايته.

- كل ما أسمعه عن دييجو يبدو جيدًا. لا أفهم كيف كان صديقًا لشخص بائس مثلك!

يُخرج الأخ براوليو سكينًا من ثوبه الكنسي ويضع طرفه فوق حنجرة دونوسو.

- ما الذي لم تحكه لي حتى الآن؟ أعرف أن الرب سيشكرني على إبعاد نعجة مثلك عن القطيع.

- أقسم لك إنني لا أعرف شيئًا آخر.

يظهر بعض الجنود عند ناصية الشارع. يتتبعون أثر شجار الحانة، حيث اضطر الأخ براوليو إلى إفقاد اثنين من السكارى وعيهم قبل أن يخرج في أثر دونوسو. ينظر إلى الحارس مرة ثانية. قد يشق عنقه كوداع، لكنه حصل على المعلومات التي يحتاج إليها ويعرف أن مواجهة أسئلة الجنود الآن ليست تصرفًا ذكيًا. سيصدقون كلمات دونوسو أكثر من أي راهب، لأنه في نهاية المطاف حارس. ينهض، ويصل بعد بضع ثوان إلى شارع «السفراء». يترك خلفه صوت الشرطي الأعور وهو يطالب الجنود بإيقافه، لأنه سفاح كارليٌّ. يقول دونوسو عبارته بصورة عشوائية، أو ربما لأنه ما من شيء يُحفز أي جندي أكثر من اصطياد الكارليِّين، لكنه في الوقت نفسه يجهل أنه قد أصاب.

يجد الأخ براوليو بوابة أحد البيوت مفتوحة، فيدخل. يصعد السلالم الخشبية وصولًا إلى السطح. يمكنه أن يقفز من هناك إلى سطح البيت المجاور في الشارع. تفصل المبنيين مساحة صغيرة جدًا. حين ينزل فوق السطح الآخر، يلتوي كاحله فيكتم صرخة ألم. تُؤلمه أربطته، لكنه يختبئ تحت سور السطح. يصل الجنود بعدئذٍ بوقت قليل إلى سطح المبنى السابق. ينظرون حولهم من دون أن يجدوا أثرًا للراهب، فيغادرون وهم مقتنعون بأنهم لاحقوه في الاتجاه الخاطئ. يجد الراهب الزائف حينئذٍ لحظة للنظر إلى كاحله المصاب. ينهض. إنه قادر على تحمل الأمر.

يعرف الآن إلى أين عليه أن يُوجه خطاه، إلى بيت أسينثيو دي لاس إيراس.



تشعر خوسيفا بالفزع. تعاني منذ بداية الصباح الدوار والقيء، وأسوأ شيء دخولها المتكرر إلى الحمام. لا تريد أن تتحدث مع أحد. أمرتهم بأن يقدموا لها الإفطار في غرفتها، لا في الصالون الأخضر، كما هي العادة. أخفت الأمر حين دخلت الخادمة لكيلا تلاحظ توعكها. تشرب الماء، بل كميات كبيرة منه، وهو ما تفقده في زياراتها المتكررة إلى المرحاض. ربما لا فائدة من كل هذا، فهي تعرف ما لديها. قرأت عن هذه الأعراض، ولا حديث في المدينة عن أي شيء آخر سواها منذ أكثر من شهر. أصابتها الكوليرا وستُشفى في غضون أسبوعين لو أنها محظوظة، أو ستموت بعد وقت قصير لو لم يقف الحظ إلى جوارها في فترة أقل من خمسة أو ستة أيام. لا فائدة من الأعشاب ولا حتى الأفعوانية الشهيرة، أو الاستنزاف، فهي ليست مستعدة للخضوع إلى هذا الأسلوب. لو حانت ساعتها، فلن تقاوم وستغادر بهدوء لملاقاة الموت. ستتصرف بعزة وشجاعة كما فعلت دائمًا.

تفكر في حياتها. لطالما ظنت أنها ستحظى بسنوات كثيرة لترتيب أيامها الأخيرة، لكن يبدو أن النهاية حلت قبل موعدها المتوقع. ما الذي سيحدث لبيتها وللنساء اللاتي يعملن فيه؟ بينما تُؤهل لوثيا، آمنت بفكرة أن هذه الفتاة

ذات الشعر الأحمر تحمل داخلها القوة الضرورية لأن ترث عملًا مثل الذي تديره في شارع «القرنفل». لن تحظى بفرصة للتحقق من الأمر، فمصير هذه الفتاة المسكينة ليس بين يديها أصلًا. سينتهي الأمر غالبًا باعتقالها من قبل الشرطة، فالجرائم التي تُرتكب ضد أشخاص مهمين لا بُد من حلها، وستُعدم بسببها. لا تبدو دلفينا خيارًا مناسبًا في الوقت الحالي، لأنها انكسرت من الألم عقب وفاة ابنتها ولا تعرف أي امرأة ستصيرها بعد التئام هذه الجراح، هذا لو قُدر لها الالتئام أصلًا. سيغدو تسليمها مقاليد حكم البيت مثل إلقائه في القمامة. ربما يُمكن لعشيقها أن يُدير العمل جيدًا، لكن خوليو جامونيدا قاضٍ محترم ومتزوج ولن يقبل أبدًا أن يُدير ماخورًا، حتى وإن كان الأفضل في مدريد. على الرغم من كل شيء، لا تريد خوسيفا أن يضيع الماخور ويُغلَق بعد وفاتها، ولا أن يختفي تمامًا كل ما فعلته «اللبؤتان»، أي هي وسلفتها سابرينا. تُراجع داخل رأسها كل واحدة من الفتيات اللاتي يعملن أو عملن لصالحها في الماضي، لكن لا تتمكن أي واحدة منهن من إقناعها.

حين يخبرنها أن لوثيا أتت، تبتسم بحزن. كان من الممكن أن يغدو مستقبل كل منهما مختلفًا، لكن القدر حكم عليهما بالخسارة. تأمر أن يسمحن لها بالدخول، وحين تراها، تندهش من التعبير المرسوم على مُحياها. لم تعهد مثل هذا الإصرار في نظرتها. يبدو كهالة لامرأة صارت بعيدة عن عالم الطفولة.

- لم أظن أنكِ سترجعين. ألم تستقري مع آنا كاستيلار؟
- لم أستقر بعد، لكنني سأفعلها يا «لبؤة». أراكِ متوعكة.
- أنا بخير. لا تقلقي عليَّ.
- يجب أن أسألك بخصوص شيء مهم. هل تعرفين ما إذا كان الحيض قد جاء إلى خوانا؟
- أعتقد أنه لم يأتِ. لست متأكدة. ظني أنه لو جاء، لأصرت أمها على أن أتركها تعمل، فحياة هذه الفتاة مكتوبة من قبل أن تنام دلفينا مع من تركها حبلى. لماذا تريدين أن تعرفي الأمر؟
- تحدثت للتو مع طبيب في «المستشفى العام». عثر دييجو على قارورة دم في جيب «الوحش». ربما دم واحدة من الفتيات المقتولات، ووفقًا للطبيب، فهو دم حيض.
- من الذي يحتفظ بقوارير دم، وبخاصة مثل هذا؟! أؤكد لك إنني رأيت على مدار حياتي أغرب الأمور، لكن هذا أغربها فعلًا.

- يأسر «الوحش» فتيات تتراوح أعمارهن بين أحد عشر واثني عشر عامًا.
- لم يعد يأسرهن. أذكرك بأنكِ طعنتِه في واحدة من غرفي.

انتشرت الشائعة في مدريد كما ينتشر البق في فراء كلاب «لاس بينيولاس»، وعلى الرغم من دفاع «إل أوبسيربادور» عنه، بات لدى الجميع يقين أن مارثيال جارِّيجيس هو «الوحش».

- ثمة وحوش آخرون يا «لبؤة». أعتقد أنني أعرف لماذا يهتمون بفتيات في مثل هذا العمر. يبحثون عمن يوشكن على أن يحضن للمرة الأولى. حينما يحضن، يقتلونهن ويستخدمون دماءهن لغرض ما، لا أعرف السبب، لكنهم على الأرجح يحتفظون بها، بذات الصورة التي تحتفظ بها الكنائس برفات القديسين.
- ما تقولينه متوحش يا لوثيا.

تُصر:

- أعرف أنه متوحش. أحتاج إلى فهم بعض الأمور، مثل لماذا يضعون في أفواههن شارة المطرقتين المتقاطعتين.
- أي شارة؟ ما الذي تتحدثين عنه؟

تعجز خوسيفا، المرهَقة والمحمومة، عن متابعة تفكير لوثيا المنطقي. تشبه الفتاة الزوبعة لأنها لا تتقدم تدريجيًّا وإنما تتواثب. حين تتمكن من تهدئتها ترجوها أن تشرح كل شيء من البداية. تبدأ لوثيا تشعر بالإنهاك من كثرة إقدامها على هذا الأمر، لكن ترسم بإيجاز قصتها منذ سرقة خاتم مطابق للشارة وصولًا إلى اكتشافاتها الأخيرة. «الوحش» في الحقيقة مثل الهيدرا، فهو مسخ متعدد الرؤوس، جماعة سرية معروفة باسم «مشعلو الفحم». تقول نظريتها إن كلارا ستظل حية، ما دامت لم تحض.

تقول خوسيفا وهي تبذل مجهودًا لتهدئة شعورها بالإرهاق:

- تحدثي مع دلفينا. ستؤكد لكِ ما إذا كانت خوانا قد حاضت أم لا.
- ليست لديَّ الجرأة للاقتراب منها، فهي تحمِّلني مسؤولية جلب «الوحش» إلى هذا البيت. تقول إنه اختطف خوانا بسببي و...

فجأة، تظل كلمات لوثيا معلقة في الهواء، إذ تدرك معلومة أغفلتها حتى الآن:

- حين حاصرني «الوحش» في الغرفة، أفهمني أن أختي كشفت له أنني أعمل هنا. ألا تدركين الأمر؟ اختفت خوانا قبل كل هذا. لو أن «الوحش» راقب الماخور لاختطاف ابنة دلفينا، فإن الذنب ليس ذنبي.

- ولماذا قد يأتي إلى هنا؟

- إنهم يبحثون عن فتيات لم يرين دمهن الأول. فتيات بمفردهن، ولمعرفة معلومة مثل هذه عن خوانا، لا بد أن أحدًا ما يعرفها جيدًا قد رشحها. لو أن الأمر ليس كذلك، لذهب «الوحش» للبحث عن فتاة عند الجانب الآخر من «الجدار»، كما فعل دائمًا.

- هل تتهمين أحد زبائن هذا البيت؟ كل من يأتون إلى هنا قوم محترمون.

تحتج خوسيفا لأنها لطالما تباهت بسمعة عملها، لكن لا يُمكنها أن تنفي أن ثمة متسولًا يتحرك تحت سقفها:

- الأبتر؟

- لا. الأبتر، لا. إنهم قوم محترمون. قوم مهمون. من يدخل جماعات سرية مثل «مشعلو الفحم» ليسوا تجارًا للملابس الرثة أو سقّائين، من هو يا «لبؤة»؟ من؟ هل تعرفين اسم «أناباوسيس»؟ «الشرق الأبدي»؟

- أي صنف من الأسماء هذا؟

تقاطعهما واحدة من النساء اللاتي يعملن في المكان.

- خوسيفا. دون خوليو جامونيدا هنا. هل يدخل إلى الصالون الأخضر؟

- لا. سأستقبله هنا.

تدرك لوثيا أن خوسيفا اعتبرت محادثتهما منتهية، وتخرج من هناك وهي واثقة من أنها لم تُهن «اللبؤة».

لم تقل خوسيفا للوثيا ما خطر على بالها، لكنها لن تُخفيه عن خوليو جامونيدا. لو أن الحياة مختلفة، لو أنها ليست عاهرة -على الرغم من أنها عاهرة ناجحة جدًا- لودت أن تتزوجه وتنجب من أجله. المشكلة أنها لو لم تكن عاهرة، لعاشت في قرطبة من دون أن تتعرف عليه أصلًا. كل شيء في هذه الحياة عبارة عن مصادفة، إلى درجة أنه لا فائدة مطلقًا من أي خطط أو التفكير فيما قد يحدث. ستحكي له. هذا صحيح. ستقول له إنها تحتضر.

يقترب منها خوليو جامونيدا بمودة ليقبلها في رقبتها، لكن خوسيفا تتفاداه. تطلب منه «اللبؤة» أن ينصت إليها دقيقة، قبل أن يبدي تعجبه من حركتها. تعترف له بالألم الذي يحرقها من الداخل.

- الكوليرا؟ هل أنتِ متأكدة؟

- أنا متأكدة، لكن لا أرغب في الذهاب إلى أي مستشفى. لا أريد أن يرسلوني إلى أي محاجر أو أن يضعوا فوقي أي علقيات. لو أنني سأموت، فأفضِّل أن أموت هنا، وأنا محاطة بأغراضي وأهلي.

يضع يده فوق جبهتها لقياس حرارتها.

- يجب ألا تكون معي. ستصاب بالعدوى.

- لا يمكنكِ أن تموتي يا حبي أنا.

تبتسم بعذوبة، فيستأنف كلامه:

- لدينا خططنا. ألا تتذكرين؟

- كلها خطط في الهواء. لم أصدق قط أنك ستترك كل شيء من أجلي.

- لأن إيمانك ضعيف، لكن أنا مستعد لكل شيء، للتخلي عن منصبي كقاضٍ، وترك زوجتي، وتغيير المدينة للهروب من الفضيحة.

- الفضيحة؟

- أجل. الفضيحة. لن يتسامح المجتمع مع حب بين قاضٍ وعاهرة، بل إنه سيعجز عن فهم حدوث شيء مثل هذا، لكنه حدث، ولست غبيًّا إلى درجة التخلي عنه.

- صار مصيري معروفًا يا حبي. احتفظ بذكرياتنا وعليك أن تنسى هذه الخيالات.

يتمشى جامونيدا عبر الغرفة وهو قلق. يجذب الستارة وينظر عبر النافذة. يدخل ضوء شمس العدالة التي ذابت معها الغيوم الأولى.

- ابتعد عن النافذة. أم أنك تريد أن يراك أحد ما؟

ينظر إليها بجدية. سيثبت لها لأول مرة أنه يعشقها، على الرغم من أنه لم ينفصل عن زوجته، ولم يظهر معها علنًا. يقول لها بصوت ملآن بالإيمان:

- لن تموتي.



يشعر توماس أجيرّي -لأن نسيان اسم الأخ براوليو الذي استخدمه منذ وصوله إلى مدريد صار ممكنًا- بألم لا يُطاق تقريبًا في كاحله. مع ذلك يتمكن من أن يخطو فوقه فيما يسير، ما يعني أنه لم ينكسر. يبحث عن القائمة التي أخرجها من معطف الأب إجناثيو ليتحقق من تماشي الاسم الذي قدمه له دونوسو مع أحد اختصارات الأحرف الأولى الموجودة فيه. أصاب تخمينه على ما يبدو، فإلى جوار «أناباوسيس»، تظهر أحرف «أ د ل إ»، أي أسينثيو دي لاس إيراس.

يجلس على درجات السلالم الموجودة في ساحة «شجيرة الحور» ليرتاح. يغسل جرح وجهه في إحدى النوافير. إنه مجرد خدش بسيط، لكن المشكلة في قدمه المتورمة. لا يعرف ما إذا كان سيقدر على المضي قدمًا. يحتاج إلى ربطها قبل أن تلتهب. الشيء الوحيد المتاح أمامه هو زناره. ستصبح هذه آخر خدمة يُقدمها له رداء الراهب. يكز أسنانه ويربطه بقوة. تنطلق موجة من الألم من قدمه وتضرب جسده بالكامل. لا يأبه بالأمر. ليست أول مرة يعاني فيها لتنفيذ واجبه، فالطعنة التي تعرض لها منذ أسبوع آلمته بشكل أكبر.

توماس أجيرِّي في الأصل راهب، مثل الرجل الذي انتحل هويته خلال الأيام الأخيرة، ألا وهو الأخ براوليو الذي كان سينضم إلى طاقم «كنيسة القديس فرانسيس العظيم» وشاءت الظروف أن يفارق الحياة بعد إصابته بالتهاب رئوي. وُلد توماس أجيرِّي في «أستيجاراجا» في «جويبوثكوا»، واشتهر بقسوته ودعمه للقضية الكارليَّة. انضم ومعه كتيبة من خمسين رجلًا إلى قوات الجنرال ثومالاكارِّيجي، ويُعتبر مُعاونه منذ شارك في الهجوم على قافلة بين «لوجرونيو» و«ثينثيرو»، وتمكن في هذه العملية من الحصول على أسلحة لصالح الجيش الكارليِّ. إنها ألمع لحظاته، فحينذاك لم تساوره أي شكوك، أما الآن فإنه لا يعرف أحيانًا لماذا يُقاتل. يدرك أحيانًا -وكأنه قادر على رؤية الحقيقة من علو ومن مسافة نوعية- أنه لا يوجد مبرر حقيقي كي تصبح الأفكار التي يدافع عنها هي الأصوب، ومنها رفض البرلمانية، واستمرارية محاكم التفتيش، والقانون السالي الذي يحرم النساء من اعتلاء العرش ويعتبر كارلوس ماريا إيسيدرو دي بوربون الوريث الشرعي. يفتقد كثيرًا تشبثه غير العقلاني بهذه المبادئ التي غرستها فيه عائلته، فحينذاك لم يُشكك في التعاليم التقليدية، بالصورة نفسها التي لم يُشكك بها في الثالوث المقدس، أما الآن فحتى العقائد الأساسية ترتعش داخله كشعلة شمعة تهزها الريح. أين كان الرب حين ارتُكبت مذبحة الرهبان يوم الخميس الماضي؟ لماذا يسمح باستمرار صخب المآسي في أرض المعركة والمدن التي يجتاحها الفقر والكوليرا؟ لربما أراد أن يغدو إيمانه أعمى كأوائل المسيحيين القادرين على التضحية بأنفسهم والاستشهاد بأعين مغمضة، لكن الشك تسلل إلى كيانه وتمدد كخط مشتعل من البارود لينسف أعمدة تعليمه المسيحي. لطالما أعطى الإيمان بالرب والقضية الكارليَّة والحاجة إلى الحرب معنى إلى حياته. مع ذلك هذا ليس وقتًا للتفكير. يبدو أن العالم يتغير سريعًا في ظل اضطرابه. هذا هو الزلزال الذي يُفكر أحيانًا في أنه سيستبق موت الحضارة. لقد انقرضت المحادثات الهادئة والنقاشات المحترمة وصار كل شيء يرتبط بالمبالغة والصراخ.

يُحمِّله كثيرون المسؤولية في واقعة الإعدام بالرصاص التي تعرض لها «حراس آلابا» في مارس من العام ذاته. يظنون أن ثومالاكارِّيجي لم يصدر أمر إعدام هؤلاء المائة وثمانية عشر رجلًا بالرصاص إلا بناء على نصيحة منه. يعرف وحده أنه حاول إلغاء الأمر حتى اللحظة الأخيرة. نشأت مجموعة

«حراس آلابا» في الأصل للدفاع عن المنطقة أمام الهجمات الكارليَّة، وفي السادس عشر من مارس أرسل الجنرال ثومالاكارِّيجي مع الشروق سرية من سلاح الفروسية وسريتين من سلاح المشاة إلى جامارًّا حيث تمركزوا. كانت المعركة حامية الوطيس وسقط ضحايا كثيرون من كلا الجانبين. في النهاية استسلم الحراس عقب تلقي وعد بأنهم لن يُقتَلوا، ومع ذلك قرر الجنرال الكارليُّ أن يُعدموا في اليوم التالي، في إيريديا. حاول توماس أجيرِّي أن يوضح له مدى قسوة هذا التصرف وتوابعه الحزينة، لكن الجنرال أراد أن يعطي درسًا لكل من يعارضون تقدم قواته. رأى ثومالاكارِّيجي أنه لا بُد من نشر الرعب بين الخصوم داخل الحرب الأهلية. ظهر أجيرِّي في أعين الشهود كالمحرِّض الرئيسي على هذا الفعل المتوحش، على الرغم من إصراره على منعه، وهذا لأنه لم يكن ليتهم ثومالاكارِّيجي بالوقوف وراء هذا الفعل البغيض.

منذ ذلك اليوم، انكسرت العلاقة بين الرجلين. ربما لهذا السبب استغنى عن وجوده في الجبهة وأرسله إلى مدريد. لكن أجيرِّي، حتى في وقت الضراء، رجل يلتزم بكلمته، ولهذا يود أن ينفذ مهمته بأفضل شكل ممكن. لطالما حاول متعاطفون مع القضية الكارليَّة طيلة فترة طويلة أن يتوغلوا داخل حكومة مدريد لإضعافها من الداخل، لكن موت أحدهم -أي عالم اللاهوت إجناثيو جارثيا- هو ما أثار الانتباه، هل موته طبيعي أم أن أحدًا اكتشف كونه كارليًّا فقضى عليه؟

أصابت شكوك الاستخبارات. ربما يقف رئيس الدير برناردو، المأمون على اعترافات الملكة الوصية، وراء موت الأب إجناثيو جارثيا، ولهذا السبب انتحل هوية الأخ براوليو ليصل إلى وضعية مقربة من رئيس «دير القديس فرانسيس العظيم»، ومتابعة خطواته وتفتيش أدراجه وخزائنه، لكن الحبكة تخطت في تعقيدها كل توقعاته، فمع مقتل رئيس الدير في المذبحة، وظهور لوثيا ودييجو ودخولهما حياته، وحوادث قتل الفتيات المتوحشة، و«مشعلو الفحم»، وجد نفسه فجأة أمام وحش أجمح من المنتظر.

ينهض أجيرِّي وينطلق ليسير في اتجاه حي «زهور الثالوث»، فهناك عند ناصية شارع «الأسد» مع «الضفادع الصيَّاحة»، على بعد أمتار قليلة من شارع «البساتين»، يعيش أسينثيو دي لاس إيراس. يظهر الدبلوماسي كثيرًا

في الصحف، فهو رجل ذو علاقات، ويُقال إنه سيصبح سفير إسبانيا المقبل في برلين، بعد أن كان قنصلًا في لندن وباريس.

يراقب توماس أجيرِّي المبنى من بعيد. يجلس عند البوابة العجوز ديماس المعروف جدًّا داخل الحي وهو يُصلح ساعة داخل كشكه الصغير. ثمة شيء منوم مغناطيسيًا في تركيز الساعاتي، والشكل الفضي المستدير للساعة التي يُمسكها. لكن لا يوجد شيء أكثر تكلفًا وغباء ولا لزوم له مثل ارتداء الساعات، كما يفكر العميل الكارليُّ، لأن المرء يعرف الوقت والشمس أمامه، ومن الصلوات والأجراس وهو بين الجدران. لا يتمتع العقار، على الرغم من أهمية ساكنه الألمعي، بمراقبة خاصة. لا يوجد إلا رجل واحد فحسب عند الباب ويبدو أن وجوده مرتبط بالمظاهر أكثر من الأمن. يسهل على أي رجل دين مماالقة أي حارس بسهولة، لهذا يفك الزنار من فوق كاحله ويرتديه مجددًا حول وسطه.

- إلى أين تذهب يا أخانا؟
- إلى بيت دون أسينثيو دي لاس إيراس. أظن أنه يعيش في الدور الأول.
- أجل، لكنه ليس موجودًا في منزله.
- لم أنتظر منه أن يستقبلني بنفسه. سيكفيني أن أرجو من زوجته إحسانًا لصالح الأبرشية.
- مسألة أن تأخذ شيئًا من زوجته صعبة.
- لا تشك في قدرة أي راهب على أخذ المال. أنت تعرف أن هذه مهمتنا منذ قرون. ولا تشك في إحسان هذه المرأة.
- لا أشك فيك، وإنما فيها، لأن دونيا إلبيرا ماتت منذ عام. على الأرجح أنت ترغب في التحدث مع دونيا أسونثيون، مُدبرة بيته.
- مدبرة بيته؟ حسبتها زوجته. إذن أتمنى أن تكون دونيا أسونثيون سخية.
- لو سمحت لك بالدخول وكانت سخية، فهل ستعطيني شيئًا؟

يضع أجيرِّي ريالين في يد البواب.

- أنت تعرف أن المشاركة أهم شيء في الحياة. قد أتلو لك بعض الفقرات من الكتاب المقدس التي تتحدث عن هذا الأمر.

يصعد توماس أجيرِّي الدرج وهو يعرج، إذ إنه يكاد ألا يطيق ألم كاحله. يقول لنفسه: إذن، هنالك مدبرة بيت اسمها أسونثيون. يتخيل وجود طاقم يضم خادمات وطاهية. يتمنى ألا يجد كبيرًا للخدم، فتحجيم ذكر من دون إلحاق أذى به يتطلب مجهودًا أكبر.

تفتح له الباب امرأة متشحة بالسواد. لا يتخطى عمرها ثلاثين أو خمسة وثلاثين عامًا. إنها جميلة للغاية وليست الصورة التي قد يتخيلها المرء لمدبرة بيت. تمر فكرة خاطفة داخل رأسه: لو أنها أسونثيون، فهذه ليست مدبرة منزلية فقط، بل عشيقة الدبلوماسي.

- صباح الخير، هل أنتِ أسونثيون؟

- أجل. أنا هي.

- جئت من «كنيسة القديس فرانسيس العظيم». تحدثت منذ بضعة أيام مع أسينثيو دي لاس إيراس. هل قال لكِ شيئًا؟

- لا، لا، دون أسينثيو، في الفراش. إنه متوعك.

يستغل توماس أجيرِّي أن المرأة لم تتخذ احتياطاتها لما وجدت أمامها رجل دين وسمحت له بالدخول، فيُخرج مديته ويضعها فوق رقبتها.

- لا أريد أن أوذيك. لا تصرخي. لا تحاولي أن تفعلي شيئًا ولن تتعرضي إلى أي خطر. رافقيني إلى مكتب سيدك.

- لا يوجد مال.

- لا أبحث عنه.

لا يصادفان أحدًا في طريقهما. بمجرد أن يُقيد المرأة ويكممها، يبدأ الراهب في تفتيش المكتب. يندهش من اكتشاف بعض الكتب ذات الطابع الكارليِّ فوق الطاولة. يجد أيضًا وثيقة وقَّعها الجنرال ثومالاكارِّيجي وأشَّر هو -أي توماس أجيرِّي- عليها بنفسه. لا يقتصر الأمر على هذا فقط، وإنما يعثر على علبة فيها رسالة من خيرونيمو كوب -المعروف باسم «الراهب ميرينو»- وهو رجل دين كارليٌّ اشتهر بدمويته وشارك مثله في معارك في موريًّا وبلباو. يطلب كوب في هذا الخطاب من أسينثيو دي لاس إيراس أن يُخرب المراسلات التي ستخرج من بريد مدريد نحو بيتوريا وبايونا. لا يوجد

سوى مبرر واحد لوجود كل هذه الوثائق، الدبلوماسي من ضمن رجال الحركة الكارليَّة في مدريد. لو أن هذا صحيح، فهي تفاصيل لم يُبلَغ بها.

- أين دون أسينثيو؟

يجب أن يخلع الكمامة من فوق فم المرأة كي تجيبه.

- قلت لك إنه مريض، لا أدري ما إذا كانت الكوليرا.

- هل من أحد آخر في المنزل؟

- فقط نحن والسيد دي لاس إيراس.

يُجبر توماس مدبرة المنزل، تحت تهديد مديته، على أن ترافقه إلى غرفة النوم التي يرقد فيها صاحب البيت.

يرقد أسينثيو دي لاس إيراس فوق الفراش. لا يتبقى له وقت طويل في عالم الأحياء. يبدو شاحبًا كورق للكتابة، وهو يزر عينيه، بفمه الذي لا هو مفتوح ولا هو مغلق. قد يحسب المرء أنه قد انتقل بالفعل إلى حياة أفضل لولا الصفير المنهك الذي يخرج من رئتيه حين يتنفس. يحاول أجيرِّي أن يتحدث معه، لكن الأمر مستحيل، فيقتصر الأمر على وقوفه شاهدًا على حشرجته الأخيرة.

- متى بدأت مسألة الكوليرا؟

- بالأمس حين نهض. لم يخشَ هذا المرض الملعون. قال إنه لن يمسه، كيف قضى عليه بمثل هذه السرعة؟

تؤكد دموع عينَي مدبرة المنزل المزعومة لتوماس أن العلاقة بينهما ليست مهنية فقط.

- لماذا لم تذهبي به إلى المستشفى؟

- قال إن الكل يموتون في المستشفيات وإنه ثمة طريقة للشفاء. لم يقل ما هي، لكن ما الذي أخذه من كل هذا؟ قضى طوال النهار وهو ملتصق بهذه القارورة و... كان يجب عليَّ أن أتحلى بحسم أكبر وألا أصغي إليه. ربما لو أجبرته على زيارة طبيب...

توقف توماس أجيرِّي عن الإنصات لندب مدبرة المنزل. فوق أحد الأرفف، تستقر قارورة تحتوي على سائل ثخين بني اللون. يشمه أجيرِّي. رائحته قوية وترابية. إنها رائحة ساحة معركة مروية بالجثث، رائحة الدم.

يحتفظ بالقارورة.

- وهذا؟

تستقر نظرته عند فستان فتاة. القماش خشن وقذر ورائحته كأنه مسحوب من مقلب قمامة.

- هل لديه بنات؟

- ولا واحدة. ترمَّل قبل أن تلد زوجته له ذرية. جاء بالأمس ومعه هذه الخرقة، لا أعرف من أين أتى بها. كنت سأوشك على التخلص منها حين وصلت.

تتصاعد أصوات رجولية ومعها خطوات حثيثة وضوضاء معدنية لأسلحة تتجهز. يتأهب أجيرِّي. يشهر مديته، فتفزع أسونثيون ظنًّا منها أن ساعتها قد حانت، لكن المحارب يحرر المرأة من قيودها بضربة واحدة.

يسألها:

- هل من مخرج آخر؟

- من هنا.

تفتح له أسونثيون بابًا يقوده إلى مكتب ثم آخر يُفضي إلى ممر طويل.

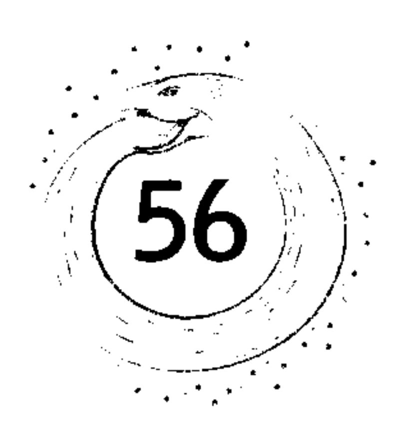
- في النهاية، ثمة درج يصل إلى السطح.

ينصحها قبل أن يغادر بحثًا عن هذا الدرج:

- أنتِ أيضًا عليكِ أن ترحلي. أخشى أن هذا البيت لم يعد آمنًا.

بالفعل، يُفضي هذا الطريق إلى سطح البيت. ترتد انعكاسات الشمس من فوق معادن المداخن. يكرر أجيرِّي عملية فراره، بالقفز من سطح إلى آخر كقط شوارع على الرغم من ألم كاحله. يمسك في يد بقارورة الدم، وفي الأخرى بالفستان. يعرف أن هذه الميليشيا تأتي بحثًا عنه. هل اعترف دونوسو للجنود بأنه قد ذكر له اسم الدبلوماسي؟

حين يقتنع بأنه بات في مأمن، على بعد عدة منازل من بيت أسينثيو دي لاس إيراس، ينظر خلفه. هل أرسلوا جيشًا في أثره لأن حارسًا أعور قال إنه كارليٌّ أم أن اللعبة كبيرة إلى درجة محو أي أثر من بيت أسينثيو دي لاس إيراس؟ ما نوع الجماعة التي يواجهها؟ يتمنى أن يكونوا قد سمحوا لأسونثيون بالرحيل. لو أن الأمر في يده، لتركها ترحل.



تقبض لوثيا على الفستان الخشن كأنها تتشبث بحافة بارزة لكيلا تسقط وسط الفراغ. تكز على أسنانها وتبحث عن تفسير من توماس أجيرّي. توقف الراهب سلفًا عن التظاهر بمسألة رجل الدين. وصل إلى بيت شارع «الأثرياء» في وقت متأخر من المساء. خلع الرداء الكنسي وارتدى شيئًا من ملابس دييجو رويث. لم يناسب مقاسه سوى قميص واحد. قال للوثيا أن تتوقف عن مناداته بالأخ براوليو. مع ذلك فإن اعترافه لها بالانضمام إلى الحركة الكارليَّة وانتحال هوية راهب آخر، لم ينفذ إلى مخها تقريبًا، بعد أن أعمتها رؤية فستان كلارا.

- أين عثرت عليه؟

- في منزل دبلوماسي. اسمه أسينثيو دي لاس إيراس. هل هو لأختك؟

أهدت كانديدا إلى لوثيا الفستان نفسه المصنوع من الكتان والمصبوغ بالأزرق وهي في عمر العاشرة. كان قديمًا أصلًا حين اشترته أمها من أحد تجار السقط. لما صغر مقاسه عليها، ورثته كلارا برتق في تنورته، لأن لوثيا قطعته قبلئذٍ وهي تتسلق شجرة بلوط مع بعض الجيران في «لاس بينيولاس». يعرف الرب وحده كم مرة غسلته كانديدا في النهر، لكنها مرات كثيرة إلى

درجة أن زرقته أخذت تفقد حدتها حتى تحولت إلى مجرد انعكاس سماوي. مع ذلك لطالما عشقت كلارا هذا الفستان. رأت أختها الكبرى وهي ترتديه مئات المرات، وكلما ارتدته قالت لها: «أنا الآن قوية مثلك».

لا تحكي لوثيا أيًا من ذكرياتها لتوماس أجيرِّي. تُومئ برأسها فقط لتؤكد أنه فستان كلارا. تعرف أن ضحايا «الوحش» يظهرن عاريات وأنها ربما مسألة ساعات قبل أن تظهر بقايا جثة أختها. أمامها فرصة للانهيار، وهذا هو ما يطلبه قلبها، لكنها تقرر التشبث بأمل صار يبدو مستحيلًا في ظل كل هذه المعطيات.

- من أين أتيت بها؟

تنغرز عينا لوثيا في قارورة صغيرة ملأى بشيء يبدو كالدماء المتجلطة. تركها أجيرِّي فوق مائدة دييجو قبل أن يسقط فوق المقعد لتفقُّد حالة كاحله المصاب.

- عثرت عليها في غرفة أسينثيو دي لاس إيراس. قالت لي مدبرة منزله إنه لم يفارقها. لا أعرف لماذا أحب هذه القارورة كثيرًا. ما بداخلها يبدو دمًا.

- إنه دم حيض.

هل هو لكلارا؟ تحتفظ لوثيا بسؤالها لنفسها. تخشى أن تغدو هذه الكلمات حقيقية حين تنطقها.

- وبناء على أي شيء تقولين كلامك؟

لا تُجيبه. تأخذ القارورة وتنطلق إلى الشارع بسرعة البرق. يلاحقها المحارب الكارليُّ ليُطالبها بتفسير، فتقدمه له لوثيا بشكل موجز في طريقهما إلى «المستشفى العام» وسط أضواء الغسق. تُخبره عن زيارتها للدكتور آلبان صباحًا والتجارب التي أجراها، وكيف خلصت إلى استنتاج أن «الوحش» -أو جماعة «مشعلو الفحم» أو أيًا كان- يختطفون الفتيات اللاتي لم يحضن ويحبسونهن حتى يأتي هذا اليوم.

- شرب أسينثيو دي لاس إيراس من هذه القارورة.

يتزامن وصولهما مع خروج الدكتور آلبان من المستشفى. تُقدم لوثيا توماس أجيرِّي سريعًا وترجو من الطبيب أن يتحقق مما إذا كان الموجود في القارورة دمًا مثلما فعل سابقًا.

- لم أدخل بيتي منذ أربع وعشرين ساعة ورأيت خمسة وعشرين شخصًا يموتون في هذه الفترة. كل ما أريده هو الرحيل. ألا يُمكن لهذا الأمر أن ينتظر إلى الصباح؟

يقول له أجيرِّي:

- على الأرجح لن تفحص غدًا دمًا، وإنما جسدًا مقطوع الأوصال لفتاة أخرى. هل تريد أن تتحمل هذه المسؤولية؟
- وهل تريد أن تتحمل أنت مسؤولية وفاتي من الإنهاك؟
- يمكن للإنسان أن يقضي ثلاثة أيام كاملة من دون نوم. أقول لك الأمر بحكم التجربة.

يعتقد أجيرِّي أن صوته الأجش والحاسم ما خفف من ممانعة الطبيب، لكنه يجهل أنه ما من شيء يروق آلبان أكثر من الزج بأنفه في التحقيقات الشرطية. مع ذلك يتنهد الطبيب كأنه سينفذ تضحية كبيرة ويهز رأسه فيما يقودهما نحو المعمل، حيث يكرر التجربة التي نفذها بالقارورة التي جاءه بها دييجو.

النتيجة واحدة.

- إنه دم حيض.
- هل يُمكننا أن نعرف شيئًا آخر؟ أنها فتاة...
- ألا تبدو لكِ قدرتنا على تحديد أنه دم حيض معجزة كافية؟ لا تزال أبحاث السوائل الجسدية في بداية تطورها، فالطب لا يزال عالقًا في العصور الوسطى. هناك في الخارج، لا يزالون يؤمنون بأن بعض العلقيات التي تمص الدم قادرة على علاج الأمراض، في حين أن كل ما تفعله هي إضعاف المريض.
- وجود أشخاص يشربون هذا الدم أمر محتمَل. ما الضرر الذي قد يلحقه بهم؟

يتردد الدكتور آلبان أمام سؤال توماس أجيرِّي. بدأ المحارب يخلق رابطًا بين موت عالم اللاهوت إجناثيو جارثيا ووفاة أسينثيو دي لاس إيراس، التي

شهدها بعينيه منذ بضع ساعات. ربما اقتربت معطيات الواقعة التي أرسلوه بسببها إلى مدريد -ألا وهي اكتشاف ما إذا كانت وفاة إجناثيو جارثيا اغتيالًا- على الانكشاف.

- مبدئيًا، لا يُمكن أن يقتلهم. مع ذلك يسود ظن مؤخرًا بأن بعض الأمراض يُمكن أن تغدو معدية عبر الدم، لكن على أي حال، لو حدث هذا فلن يقع الموت فورًا، إذ لا بد أن يطور الشخص الذي يتناول الدم المرض أولًا.

- حتى لو تحدثنا عن دم حيض؟ الأمر وما فيه يا حضرة الدكتور أنني بدأت أشك في أن رجلين قد ماتا بعد شرب هذه الدماء. يحتمل أنهما مرضا بالكوليرا، لكن موتهما وقع سريعًا، وظني أن السبب هو هذا الدم.

- كي يتمتع بهذه الفاعلية، فيجب أن يغدو ملوَّثًا. لا بُد من فحص الجثتين.

- أحدهما مات اليوم، وهو دبلوماسي اسمه أسينثيو دي لاس إيراس.

يستنشق الدكتور آلبان بعض الهواء، ويبدو أن إنهاك وجهه قد أفسح مجالًا للفضول.

- هل يُمكننا أن نرى هذه الجثة؟

وسط العتمة، لا يُمكن تمييز الواجهة التي اسودت بسبب الحريق، لكن رائحة الدخان لا تزال تفوح من المربع السكني. تمضي لوثيا وراء الدكتور آلبان وتوماس أجيرِّي في صمت. لم تؤرقها أسئلة المحارب الكارليِّ في المستشفى. لماذا تهمه كثيرًا وفاة عالم اللاهوت أو هذا الدبلوماسي؟ بخلاف اعترافه لها بأنه لم يعد راهبًا وبأن اسمه ليس الأخ براوليو وبأنه محارب كارليٌّ، فتوماس لم يحكِ لها شيئًا عن حياته. أصبح فكرها ضبابيًّا بسبب فستان كلارا والخوف من مصير أختها، لكنها تدرك الأمر الآن، ما هي مصلحة أجيرِّي الحقيقية من كل هذا؟ تراقبه بشك وتحسب أنها قد تعرفت على ملمح للحزن فيه، حين ينظر إلى كشك ديماس الساعاتي، المغلق بالضبة والمفتاح في هذه الساعة. بعدئذٍ يقترب توماس من البوابة. يتردد صدى طرقات براجم أصابعه على الباب في الشارع الخاوي. يطل ديماس الناعس من كشكه بعدئذٍ بوقت قليل. يندهش أجيرِّي حين يرى الساعاتي، ويخمن أنه ينام في كشكه. يُقدم نفسه كراهب جاء ليسهر على الدبلوماسي الراحل.

- نقلوه منذ فترة طويلة.
- هل تعرف ما إذا كان سيوضع في غرفة للتسجية؟
- بالقرب من هنا، في كنيسة «القديس سباستيان». سيُدفن غدًا في المقبرة، وفقًا لما قالوه لنا نحن جيرانه.
- أشكرك. هكذا سأصلي لروحه الصلاة التي لم أصلِّها له وهو حي.

يخرج توماس أجيرِّي من مدخل البناية ويتشارك اكتشافه مع لوثيا والدكتور آلبان.

- ما الذي تحتاج إليه يا دكتور؟
- تكفيني عينة من الجثة. قليل من الشعر سيكون مفيدًا.
- إنه بالقرب من هنا، في كنيسة «القديس سباستيان».

نبش القبور ليس شيئًا نادرًا كما يبدو، ففي مقبرة «القديس سباستيان» -حيث يستقر رفاة لوبي دي بيجا[1]- حاول الكاتب خوسيه دي كادالسو منذ نحو ستين عامًا أن يُخرج جثة عشيقته الممثلة ماريا إجناثيا إيبانييث، التي ماتت فجأة ودُفنت هناك، ولم يمنعه سوى تدخل صديقه، كونت أراندا، فبقيت شاهدة على هذه الواقعة، أبيات الشاعر الرومانسي التي يتلوها الدكتور آلبان:

«ماتت فيليس[2]

ولا ينتظر العالم

سوى الضباب المرعب

والليل الجليدي».

على أي حال، لا حاجة في الوقت الحالي إلى الوصول إلى هذا الأمر.

- انسَ هذه الأبيات يا دكتور، سننتزع بعضًا من شعره من دون أن ينتبه أحد، ولن نحتاج إلى نبش قبره.
- ألا تريان أن نبش قبره سيغدو أكثر إثارة؟

يُساهم حظر تجمع أكثر من عشرة أشخاص في الأحداث العامة أو الخاصة الآن في مساعدتهم، فعزاء الدبلوماسي الشهير الذي كان سيجمع عشرات

(1) أحد أهم شعراء وكُتاب المسرح في تاريخ الأدب الإسباني. (المترجم).

(2) الاسم الذي أطلقه دي كادالسو على إيبانييث. (المترجم).

الأشخاص وجزءًا كبيرًا من البلاط، حتى في تلك الساعات المتأخرة، تحول إلى حدث باهت يحضره بعض الجيران وربما شخص ما فضولي. تحققت مخاوف أجيرّي من كلمات البواب، لأنه يجد أن جثمان أسينثيو دي لاس إيراس ليس بمفرده، فإلى جوار تابوته المفتوح، ترقد جثة أسونثيون.

جُهزت الجثتان، ومع ذلك تنبثق من بشرتهما زيتونية اللون -الصفراء في بعض النقاط بسبب الدهانات المستخدَمة- رائحة مسكرة حامضة مزعجة. غطوا جزءًا من وجه أسونثيون بـطرحة «مانتيًا»[1]، لكن يتراءى من تحتها تشوه وجهها إثر ضربة قوية كسرت جزءًا من جمجمتها على الأرجح. إنها مجرد ضحية بريئة، وبعيدة كل البعد عن المؤامرات التي يُفترَض أن أسينثيو دي لاس إيراس تورط فيها. يفصل فارق شعر الدبلوماسي من منتصف رأسه، فيما تسقط خصلة دهنية منه. يشدها أجيرّي لينتزع العينة التي يحتاجون إليها.

يسأل المقاتل الكارليُّ وهو يظهر غنيمته للطبيب:

- هل ستنفع؟

يُومئ آلبان برأسه. يُخرج من جيبه علبة مربعة ومسطحة، لها غطاء فضي. يفتحها ويضع داخلها خصلة الشعر.

- الآن سأقدم لكما درسًا في الطب.

لدى عودتهم إلى المعمل، يشرح الطبيب ما سيفعله:

- اسمه «اختبار مارش». ابتكره خيميائي إنجليزي منذ عامين ليشهد في مُحاكمة واجه فيها رجل تهمة تسميم جده. لديَّ نبأ سيئ، لم تسِر الأمور بشكل جيد، لكن دعونا لا نركز في الأمور السيئة. أحيانًا تنجح الأمور بالمصادفة.

يقتصر ما يفعله توماس أجيرّي ولوثيا على رؤية الطبيب وهو يعمل في صمت مع دوارقه أو مناولته كتابًا من الرف حين يحتاج إلى الاطلاع عليه. يسكب محلولًا صنعه سلفًا في حوض، ثم يغمس فيه شعر الميت.

---

(1) طرحة إسبانية استخدمتها النساء في تلك الفترة، وتعرف أحيانًا بصورة خاطئة في العربية باسم «مانتيلا». (المترجم).

- يرتكز الاختبار على خلط العينة الواجب تحليلها، أي الشعر الذي انتزعناه من شعر الميت، مع كبريتيد الهيدروجين، وحمض الهيدروكلوريك، وانتظار اصفراره من عدمه.

- لماذا؟

- ألا تبحث عن سم؟ دعنا نرى ما إذا كنا سنعثر عليه!

- كم من الوقت سيستغرقه هذا الأمر؟

يُقوِّس آلبان حاجبيه في إشارة إلى جهله. يُمسك كتابًا ويتصفحه إلى أن يعثر على الإجابة المنشودة.

- ساعة.

يحتج أجيرِّي:

- ساعة؟! أليس من الأسهل تحليل الدم مباشرة؟

- هذا أمر غير ممكن في الوقت الحالي. لا تزال التجارب جارية. جيمس مارش بنفسه يحاول الوصول بالنظام إلى حد الإتقان. تكمن المشكلة في أن كبريتيد الزرنيخ الثلاثي يتلف بسرعة كبيرة.

ينظر أجيرِّي إلى الحوض. لا يزال شعر دي لاس إيراس رماديًّا كالغيوم التي تُخيم على مستقبله. صار معروفًا أنه كارليٌّ وباتت أيامه معدودة في المدينة.

تتنهد لوثيا. لا تعرف ما إذا كان لدى كلارا كل هذا الوقت.

يقول الطبيب:

- يُمكنكما أن ترقدا لترتاحا. أخشى أن الاختبار لن تزداد سرعته فقط لأننا ننظر إليه. ما من حل سوى الانتظار.

يجلس آلبان فوق مقعد ويخلع حذاءه، ثم يبدأ شخيره في ظرف ثوانٍ.

يمر الوقت ببطء في المعمل، وسط ضوضاء الجرذان التي تركض فوق السقف، وتنقيط صنبور ما في مكان قريب، والنحيب البعيد لبعض المرضى الذي يتسلل من تحت الباب.

يستيقظ الطبيب من ضربة بالكوع. إنه أجيرِّي.

- يتغير لون الشعر.

ينهض آلبان وهو يقفز ويقترب من الحوض.

- ها هوا ذا اللون الأصفر.

يعترض أجيرِّي:

- أنا لا أراه أصفر.

- لا تفكر في حقل للقمح. في الطب هذا لون أصفر، وفي قريتي أيضًا. لقد تشكل كبريتيد الزرنيخ الثلاثي.

- ما معنى هذا؟

- ألم تبحث عن سُم؟ ها هو ذا.

- مات دون أسينثيو دي لاس إيرس مسمومًا بالزرنيخ.

لا ينتظر توماس أي تفاصيل أخرى من الطبيب. في هذه المرة ينطلق هو إلى الخارج وتُلاحقه لوثيا.

- ما هي أهمية الموجود في الدم؟

تُوقف لوثيا المحارب الكارليَّ عند باب المستشفى. يتلألأ القمر ويكسو واجهات بنايات شارع «أتوتشا» باللون الفضي.

- إنهم يُسمِّمون الكارليِّين! هذا ما يفعله «مُشعلو الفحم» بالدم! لا أعرف ما الذي يقولونه لهم. على الأرجح قالوا لهم مثلما قالوا لأسينثيو دي لاس إيراس، إنه سيُكسبهم مناعة ضد الكوليرا. أفترض، وفقًا لما بدأتُ في استنتاجه، أن هذا هو ما حدث مع الأب إجناثيو أيضًا. لا يهمني أي نوع من الاحتيال يستخدمونه، فهدفهم النهائي قتل رجال أخيار يكافحون من أجل القضية.

- من الذي قد يهتم بالكارليِّين؟ وماذا عن بيرتا وخوانا وأختي؟ هؤلاء هن من يقتلونهن فعلًا. لو أن هذين الاثنين كانا فعلًا هناك وسمموهما، فأتمنى أن يحترقا في نار الجحيم.

يُحدق أجيرِّي إلى لوثيا بحدة. أرسلوه إلى مدريد بهدف واحد. إنه جندي جيد، وعليه أن يُكمل مهمته. لن يضيع وقته في تقديم تفسيرات أمام طفلة عمرها أربعة عشر عامًا. يعطيها ظهره في صمت، ويبتعد عبر شارع «القديسة إيسابيل».

بينما تقف أمام باب المستشفى، ترفع لوثيا نظرتها إلى السماء فتجد القمر مكتملًا، كقرص مثالي يأبى أن يختفي.



بينما تتكور كلارا كجنين، تعانق نفسها، لكن جسدها فقد حرارته منذ عدة ساعات. تنفذ رطوبة الزنزانة إلى عظامها. لم يُعِد «الطباخ» فستانها الأزرق وأفسح خجلها من عريها سريعًا المجال إلى ألم الضربات والبرد. قطعت ميريام جزءًا من فستانها وناولتها إياه عبر القضبان، ربما من فرط تأثرها من تعرض كلارا إلى هذه العقوبة دفاعًا عنها. استخدمت كلارا الخرقة حول عنقها وصدرها وساقيها، إذ فركت القماش في جلدها لتسخينه. يبدو الأمر غير نافع، بل وأحمق بعض الشيء. ما من شيء يُمكن فعله لمكافحة الارتعاشات التي صارت تؤلمها. لو تمكنت من النوم، فسيمر الوقت أسرع. يتمثل أملها الوحيد في انفتاح باب السلم الحلزوني ثانية. ربما لن يعيدوا إليها الفستان، لكن تحميمها سيخفف من معاناتها.

لا يتحدث أحد في الديماس. لا يكسر الصمت سوى شخير إحدى الفتيات. تُغلق عينيها وتقرر أن تحكي لنفسها قصة تُبعدها عن الحقيقة.

تعجز لوثيا عن النوم. تنظر من نافذة غرفة دييجو المطلة على شارع «المعدن»، وتتأمل الدائرة التي يرسمها القمر. لا تعرف إلى أين ذهب توماس أجيرّي ولا يهمها الأمر أصلًا، إنه ليس مثل إيلوي أو دييجو. يخوض توماس

حربه الشخصية، وهي معركة لا تؤثر عليها بأدنى درجة. من هم هؤلاء الكارليُّون؟ ما هو هدفهم؟ سمعت ألف مرة أنهم يسعون وراء شيء يرتبط بالملكية والكنيسة وأنهم بدؤوا مواجهة مع الحكومة. إنها صراعات لا ترتبط بها أو بكلارا، ولا تصنع فارقًا مع الفتيات اللاتي يقطع «مشعلو الفحم» أوصالهن باسم الرب أو الشيطان. لا تتسع أفكارها سوى لأختها وذكرى الضحايا، الفتيات اللاتي يصرن نساء ويُضحَّى بهن وسط هذا التحول. لطالما رأت منذ طفولتها كيف يُنظَر إليهن ككائنات أقل من الرجال، ربما في مستوى بعض الحيوانات بل وأقل منها، فحمار الفلاح أثمن عنده من زوجته. قالوا إنهن متقلبات، وغير مستقلات، ولا يُمكن توقعهن، ويحملن بذرة الإغواء، ما أهمية أن يمتن؟ شاهدت هذا الأمر في توماس أجيرّي، ففي ميزانه، مالت كفة رجلين -عالم اللاهوت إجناثيو جارثيا والدبلوماسي أسينثيو دي لاس إيراس- عن كفة كل الفتيات المقتولات.

تُحدق إلى القمر من جديد. يقولون إن أطوار القمر تُحدد المد والجزر وأحوال سوائل ومزاج المرأة. حذرتها كانديدا سلفًا من أيام القمر المكتمل، حين يغدو دم الحيض أكبر. هل ستتحول كلارا إلى امرأة هذه الليلة؟ لا بد أن تقاوم التشاؤم وأن تُبعد عن رأسها أفكار هذه الحلقة المفرَغة. لا يُمكنها أن تفعل شيئًا طوال الليل سوى انتظار الشروق كي تبحث عن كلارا، لكنها لا تعرف جيدًا أين يُمكنها استئناف هذا المسعى. تحاول أن تسيطر على خوفها، فتتذكر قصة اعتادت أن تُهدهد أختها بها ليلًا، قصة شجرة الندم.

تعتقد كلارا أنها تسمع صوت أختها في رأسها. لطالما وصفت لها بنبرة عذبة على فراش القش الذي نامتا عليه في «لاس بينيولاس»، إلى جوار أمهما، ما سمته بـ «حقل المورو»، وهي حديقة، لو تمكن المرء من العثور عليها، فسيجد فيها «شجرة الندم». يصعب الدخول إليها، فهي أرض ممنوعة على أهالي مدريد، واستخدامها مقصور على الملوك وعائلاتهم، لكن لوثيا تعرف كيف تنفذ إليها عبر مجرور يقع إلى جوار «بوابة القديس فينسنت»، ومن ثم اجتياز النفق الذي يمر من تحت القصر، ويفضي إلى أحد كهوف «حقل المورو». بمجرد أن يصل المرء إلى هناك، يغدو البحث عن «شجرة الندم» ممكنًا. ليس أمرًا صعبًا، فهي شجرة سيكويا، الأطول في الحديقة.

لطالما قالت لوثيا لكلارا إنه بعد أن يتمشى المرء بين التماثيل والنوافير وعبر ممرات الحديقة التي يصل حد فخامتها إلى فخامة «القصر الملكي»

نفسه، سيصل إلى شجرة السيكويا. سمعت اسم هذه الشجرة من فم غسَّالة تعمل في القصر ورأتها. حكت لها أيضًا أن عمر الشجرة مائة عام وأنها طويلة كمبنى، فبدا لها أنها تتوفر فيها كل المقومات كي تصبح بطلة القصة، ولهذا حولتها إلى «شجرة الندم». ابتكرت وهي تحكي لكلارا أنه يُمكن للمرء أن ينظر من قمتها إلى كل أيام الماضي. تسلقها ليس سهلًا، لكنه ليس مستحيلًا، وهذا لأن لوثيا أرست قاعدة عامة: لا بُد من وجود مكمن للخطر في أي قصة تتضمن عنصرًا إعجازيًّا. لطالما قالت لكلارا إنه ما إن يصل المرء إلى قمتها، حتى يُمكنه اختيار يوم من الماضي ومحوه، فيتخلص منه هكذا إلى الأبد.

تنعس كلارا. تتخيل نفسها وهي فوق شجرة السيكويا في «حقل المورو» كما وصفته لها لوثيا. تتخيل أنها تستند بقدميها إلى أفرعها التي تتنامى على جانبي جذعها لتجعل الصعود إلى رأسها أمرًا ممكنًا. تنبسط كل أيام حياتها أمامها في الأفق، بمجرد أن تصل إلى الرأس. يُمكنها أن تشير إلى أي منها وأن تطلب من شجرة الندم أن تمحوها، لكن هبة الشجرة تُستخدَم مرة واحدة فقط، لذا عليها أن تختار جيدًا اليوم الذي ترغب في محوه، لأن تسلق جذعها بعد الاختيار سيغدو مستحيلًا، ولن تتمكن بعدئذٍ أبدًا من رؤية ماضيها. لطالما سألتها لوثيا: «أي يوم ستختارين؟». آنذاك وهما في بيت «لاس بينيولاس»، لم تعرف كلارا ما يجب عليها قوله، لأنها لم تعش قط يومًا سيئًا إلى درجة رغبتها في عدم تكراره.

يمضي القمر المكتمل عبر السماء إلى أن يختبئ وراء إحدى البنايات. لا تزال لوثيا عاجزة عن النوم. أي يوم من حياتها ستمحوه؟ بدا السؤال، وهما لا تزالان صغيرتين، بريئًا، لكنه الآن صار لغزًا لا حل له. الليلة التي ماتت فيها أمها؟ أم حين مات دييجو وإيلوي؟ أم ليلتها الأولى في الماخور وهي تعاني دفعات «حفار القبور»؟ أم اليوم الذي واجهت فيه «الوحش»، وحين وصلت إلى مصنع الثقاب، وجدت أن كلارا قد اختفت؟ ربما يتمثل أذكى تصرف في محو اليوم الذي دخلت فيه بيت عالم اللاهوت إجناثيو جارثيا وسرقت فيه الخاتم. مع ذلك يبدو لها فجأة أن هذا اليوم ليس حاسمًا بالصورة التي ظنتها.

ماذا لو أن القدر أصلًا لا مناص منه؟ لو أن موت أمها بالكوليرا مكتوب أيًّا كان ما ستفعله؟ ماذا لو أن غضب المدريديين كان سيقضي على أي حال على إيلوي، تمامًا كما قضت مصالح «مشعلو الفحم» على دييجو؟ ماذا لو أن قدر كلارا أن تصبح ضحية لـ «الوحش»؟ تتذكر الكهنة الذين يعزون كل شيء

إلى وجود خطة إلهية ويقولون إن مستقبل بني البشر بين يدي الرب. لو أن الأمر صحيح، فما فائدة أن تفعل لوثيا ما تفعله من أجل أختها أو أن تتوقف عن فعله؟ على الأرجح لو تمكنت من تسلق شجرة الندم ومنعت «الوحش» من اختطاف كلارا، كان المطاف سينتهي بها على أي حال وبطريقة ملتوية وهي مختطَفة في أيًّا كان المكان الذي هي به الآن. ربما موتها مكتوب أصلًا.

تبتعد لوثيا عن النافذة باستياء. تُدرك في النهاية أن اليأس قد التف داخلها كثعبان، وهذه مسألة لن تسمح بها. لا يهمها أن كل هذه الأمور خطة من الرب. ستعثر على كلارا، بل وستعثر عليها حية.

اليوم الذي ذهبت فيه بالخاتم إلى صاحب متجر الرهونات. هذا هو اليوم الذي ستختاره كلارا، لو صعدت فوق شجرة الندم، لو أنصتت إلى أختها واحتفظت به كتميمة كما أخبرتها، لما صارت عارية وترتعش من البرد كما هي الآن من دون شيء لتتدثر به سوى خرقة الملابس التي ناولتها لها جارتها في الزنزانة. إن لم يستخدم المرء التمائم بشكل جيد، فإنها ستنقلب ضده دائمًا.



توجه دونوسو إلى جادة «القديس برنارد» لتقديم استقالته في «وزارة الإحسان والعدل» التي تشرف على «النظارة العامة للشرطة»، وهي بدورها الهيئة التي تشرف منذ سنوات قليلة على كل الأجهزة البوليسية للمملكة. مع أنهم تعاقدوا معه ضمن تعزيزات مواجهة جائحة الكوليرا، فقد ظل يتمسك سرًا بأمل استعادة وظيفته بالكامل، على الرغم من إعاقة عينه. لم يعترف لدييجو قط بالأمر، لكن كيف سيكسب قوت يومه لو لم يفعل هذا؟ جرب سابقًا ملاحقة المتأخرين في سداد الديون بالتهديدات أو الضرب المبرح، فصار يعي أنه بمرور الوقت سيصل إليه أمر بإرسال أحد هؤلاء المديونين إلى العالم الآخر. يعلم دونوسو أنه ليس أفضل حارس، لكنه ليس قاتلًا. انفتحت الشرطة أمامه كأفق وحيد بدافع الحاجة، لا ميوله الطبيعة. تمكن من تحقيق الأمر في النهاية، لكن الأمور تغيرت الآن.

لدى خروجه من الوزارة، يقابل أحد معارفه القدامى الذي يبدي تعجبه من رؤيته من دون زي الشرطي.

- تركته. إنه ليس لي.

- إنها أيام صعبة يا دونوسو، لكنك تعرف جيدًا أنها ستمر عاجلًا وليس آجلًا. أي مكان سيناسبك أكثر من الحرس الملكي؟

- تأخرت في إدراك الأمر، لكن لا تتخيل مدى الحرية التي أشعر بها منذ خلعت هذه البزة.

في هذه المرة، بينما يمضي في طريقه إلى البيت حيث ينتظر ملاقاة جريسي، يدخل حانة شارع «المقدَّرون» ليُرطب أفكاره بشرب «الأجواردييننتي». من المؤكد أنه يشعر بالخوف. تتحدث الصحف عن موت أسينثيو دي لاس إيراس، وعلى الرغم من أن الأنباء حول أسباب وفاته ملتبسة، فإنه يعرف أنه قُتل على يد الكارليِّين أو «مشعلو الفحم». يشعر بكونه في خطر، لأنه تورط في هذه المؤامرة. مات صديقه دييجو والدبلوماسي أيضًا بعد ساعات من الكشف عن اسمه. من يعرف ما إذا كان هو الضحية المقبلة. الفرار من مدريد والبحث عن مستقبل خارج هذه المدينة التي التهمها الجنون هو سبيل النجاة الوحيد. يحرق الكحول حنجرته ويداهمه إحساس خانق ويقول له: «اخرج من هنا. اهرب ما دام لديك وقت».

ثمة شك يحرقه أكثر من الشراب، ماذا لو أن جريسي رفضت مرافقته؟ توصل إلى فكرة مواسية في الساعات الطويلة لأرقه الأخير، ومفادها أن السبب الرئيسي وراء خطته ليس الجبن الذي لطالما منعه من الترقي في سلاح الحرس الملكي ودفعه إلى تلافي المعارك والاضطرابات. لا، ليس الجبن ما يدفعه إلى الفرار، وإنما رغبته في حماية جريسي. يعرف أن الممثلة تعاني أزمة عصبية وأنها تجفل أمام أي ضوضاء على السلم، كأن أحدًا يترصدها عند الباب. يعرف أيضًا أن سمعتها كممثلة انهارت. سيعني الرحيل إلى إشبيلية أو قادش، أو أي مدينة لها باع في المسرح، فرصة جديدة لها لاستئناف مسيرتها. سيساعدها مكان بعيد على البدء من جديد، مكان سيغدو فيه هذا الراهب و«الوحش» وموت دييجو والأفيون مجرد ذكرى سيئة.

يقترب رجل منه ويتحدث بصوت خافت:

- هل تريد خاتمًا؟ سأبيعه لك بسعر رخيص.

لا يزال يحتفظ بالشارة التي عُثر عليها في حنجرة الفتاة الأخيرة، خوانا، لكنه لا يفكر في بيعها، واستغلال كونها من الذهب. يفكر للحظة في خاتم المطرقتين المتقاطعتين، لكن ما يُظهره له الرجل مختلف تمامًا. إنه مجرد

خاتم لامع -على الأرجح مزيف- ومطلي بفضة سيئة الجودة. يُبدي دونوسو إيماءة مزدرية ويحرك يده ليتخلص من هذا المحتال، لكن فجأة، إذا بخيال مجنون وسخيف بعض الشيء يتولد داخله.

- كم ريالًا تريد؟

- ستة ريالات. فقط ستة ريالات ويصبح ملكك.

- سأدفع أربعة.

اشتراه بخمسة ريالات. لم يرغب في الضغط أكثر على الرجل وقاوم إغراء أن يقول له إنه رجل شرطة، لأنه أصلًا لم يعد كذلك. ينظر الآن إلى الخاتم. صحيح أنه ترك نفسه يتعرض للاحتيال، لكن الأمر لا يهمه، فهذا الخاتم الذي يُمسكه بين يديه يُمثل رغبة تتشكل داخله، التودد إلى جريسي. يريد أن يعتني بها. هذا صحيح، لكنه يرغب في أن يقطع خطوة إضافية، وأن يعاملها كملكة وألا يصبح معجبًا بها فقط، وإنما أن يغدو رفيقًا مخلصًا ووفيًا، ورجلًا أمينًا ومحبًا يعيش من أجلها ولأجلها. هل تخيُّل جريسي ترتدي هذا الخاتم في إصبعها أمر ساذج وحالم أكثر من اللازم؟ يصب كأس «الأجوارديينتي» في فمه ويلاحظ فعلًا أنه لا يطيق صبرًا ليبدأ حياته مرة ثانية كورقة بيضاء. حانت لحظة التخلي عن المرارة وفعل الأمور بشكل جيد. لن يغلق عينيه -أو عينه كما يفكر مبتسمًا- بعد أن ظهر شعاع من الشمس وسط قذارة وعتمة المدينة التي تحتضر من الكوليرا.

يجتاز شارع «القبو السفلي» بخُطى جيدة، وهو يكاد أن يُصفر. لم يشعر منذ فترة كبيرة بمثل هذه الراحة أو السعادة. بمجرد أن يدخل من البوابة وقبل أن يصعد السلم، تُبلغه ثيثيليا، جارته العجوز كجذع شجرة زيتون ملأى بالتجاعيد:

- جاء الجنود وأخذوا هذه المرأة.

يقتحم البيت بقلب مثلوم. يُلاحظ بعد النظرة الأولى فوضى تؤكد وقوع شجار. يجد أن طقم فناجين البورسلين الذي تركته زوجته السابقة حين غادرت وراقها كثيرًا قد تحول إلى بحر من الرغوة المتشظية. يكتمل المشهد الذي يجده دونوسو بالمقاعد المقلوبة وشرشف المائدة المتكور وبزة الحارس الملكي، التي كان يُعلقها كغنيمة على الجدار، وهي ملقاة على الأرض تحت سيقان الطست.

- الجنود؟ هل أنت متأكدة؟ ألم تري أي راهب في الأنحاء؟

- لم أرَ أي رهبان يا سيد جوال. كانوا الجنود. قالوا إنها مصابة بالكوليرا وأخذوها إلى «محجر بالبيردي».

لا يُصدق مسألة الكوليرا. لم تعانِ الممثلة أي أعراض منذ بضع ساعات، حين ذهب إلى «وزارة الإحسان والعدل». من الواضح أنهم أخذوها عنوة، لكنه لا يفهم السبب. يطرد ثيثليا بطريقة غير لائقة، وهو يجرها من ذراعها، ثم يصفع الباب حين تصل إلى الجانب الآخر من العتبة. ينهار فوق الأريكة. لا يتوقف الصداع عن ضرب رأسه كهراوة. ما الذي حدث؟ لماذا أخذوها؟ ألن يتمكن أبدًا من التخلص من «الوحش» وأمواجه الارتدادية؟ ثمة شيء واحد يثق بـه، يرتبط ظهور الجنود بكل هذا، وبخاصة أنه حدث وهو ليس في المنزل.

حين صار دونوسو أعور، قرأ خماسية لبريتون دي لوس إيريروس، الذي فقد هو الآخر إحدى عينيه. لم ينسَها منذ ذلك الحين:

تركت لي القوة العليا

في رحمة خاصة

ما تراه ضروريًا:

عينان للبكاء

وواحدة فقط لأرى الناس.

لا يعرف كثيرون أن العين العوراء تبكي أيضًا. يعترف بأن ما سماه «خيالات دييجو» بات مؤكدًا، هذا الأمر أكبر مما قد يتخيله أحد. قد يمد «الوحش» و«مشعلو الفحم» أذرعهم في كل أركان المدينة. يبحث داخل جيبه ويخرِج الخاتم المرصع بألماسة زائفة، فيما تبلل دموعه رقعة عينه.

توجه دونوسو منذ ثلاثة أيام فقط إلى «محجر بالبيردي»، حين ذهب للبحث عن آنا كاستيلار لإبلاغها بوفاة دييجو كي يطلب منها أن تتكفل بمصاريف دفنه. لم يعد شرطيًا الآن، ولهذا لا يُمكنه أن يدخل أي مكان من دون جواز مرور أو تصريح. يحتاج إليها كي يعثر على الممثلة. ليس لديه

آمال حقيقية في العثور عليها، لكنه يرغب في المحاولة قبل أن يغرق مجددًا في بحور الإحباط والكحوليات.

إنه محظوظ؛ الدوقة في بيتها. تستقبله من دون أن ينتظر وتعرض مساعدتها عليه من دون أي اعتبارات.

- توجد طريقة واحدة لمعرفة ما إذا كانت هناك. سنتحقق من الأمر بأعيننا.

يتوجهان إلى هناك في عربة تملكها آنا كاستيلار، وهي العربة ذاتها التي حضرت بها دفن صديقه. يعجز دونوسو داخلها، وهو وسط كل هذا الرفاه والأقمشة المخملية والجلد، عن تحمل المزيد، فيصارح الأرستقراطية، يحكي لها عن خيانة زوجته، وسنواته مع النساء مقابل المال، ولقاء جريسي وومضات السعادة القصيرة إلى جوارها.

- أعلم أنها ليست مريضة.

- لو أنهم أخذوها فعلًا إلى «بالبيردي»، فكونها مريضة من عدمه لن يصنع فارقًا، لأنها ستمرض في ظرف أيام قليلة.

آنا كاستيلار أكثر شخص موقر في المحجر. ينحني الكل أمام أدنى رغباتها، فبفضلها يحصل المرضى يوميًا على طعامهم، ويقبض العاملون رواتبهم، ويُمكن شراء الدواء.

- أريد أن أتحدث مع المدير الطبي. عليه أن يأتي إلى هنا حالًا.

- إنه ليس موجودًا. لن يأتي اليوم. تُشرف السيدة دي بيافرانكا على المطابخ. لو أنها رغبتك، يُمكنني أن أقول لها أن تأتي لتتحدث معكِ.

ينتظر دونوسو وآنا كاستيلار في المكتب المخصص لها في قصر ماركيز وماركيزة «موريو»، داخل جناح الرهبان الدومينيكيين القديم.

لا وجود لقوائم موثوقة لمن أودَعوا في المستشفى، بل إنه في كثير من المرات لا يضعون أي وثائق تعريفية لهم حين يتركونهم هنا كأنهم مجموعة من الصُّرر، مع ذلك يحاولون دائمًا معرفة هوية الجميع، فقط ليضعوا اسمًا فوق قبورهم. تُعد إينماكولادا دي بيافرانكا، التي تتمتع بعضوية «المجلس الخيري»، من ضمن أكثر الأشخاص الذين يبذلون مجهودًا في هذا الصدد.

- جريسي؟ لا يبدو لي اسمًا مألوفًا.

- ميلاجروس بينيا رويث.

عرف دونوسو اسمها عبر المصادفة البحتة. لم يدرك الأمر إلا في الليلة الماضية، حين سألها. لكن لا يظهر هذا الاسم بين النزلاء.

- يفترض أنها وصلت صباح اليوم.

تُراجع إينماكولادا دي بيافرانكا أوراق السجل.

- وصل هذا الصباح سبعة رجال وامرأة واحدة.

- إنها هي. لا بد أنها هي.

يغوص دونوسو في الأعماق المظلمة لمشاعره. يرغب من ناحية أن تكون جريسي على الرغم من أن السيدة دي بيافرانكا أخبرته بأن المرأة التي دخلت اليوم قد أودَعت في قسم الحالات الميؤوس منها، ومن ناحية أخرى لا يريد أن يُفكر أصلًا في أن الكوليرا اصطادتها وتقودها إلى أبواب الموت.

- يجب أن أدخل. ينبغي لي أن أراها.

- إنها منطقة خطرة جدًا. لو عبرتها فقد تخرج مصابًا.

- لا يهمني. لو أنها ستموت، فعليَّ أن أودِّعها.

تسمح آنا كاستيلار له بأن يدخل. كان سيروقها هي الأخرى أن تقول لدييجو «أنا أحبك» في اللحظات الأخيرة من حياته، ليفهم أنه سيترك في هذا العالم شخصًا يأسف على خسارته، وبالمثل كي ترافقه حتى النهاية.

يجب على دونوسو أن يدخل بمفرده إلى هذه القاعة التي تحتضر فيها المرأة وهو يغطي فمه بمنديل، كما أمر المدير الطبي للمحجر، وبالمثل ألا يلمس أي شيء كما أصرت آنا والسيدة دي بيافرانكا.

تنتظرانه في الرواق، إلى جوار الباب. يستغرق دونوسو وقتًا قصيرًا في الدخول والخروج، بصورة قد تجعل المرء يفكر في أن حبيبته قد ماتت، لكن الأمر ليس هكذا.

- ليست هي. هذه المرأة ليست جريسي.

59

حين خرج توماس أجيرِّي ذلك الصباح من المستشفى، فكر في الابتعاد عن مدريد ونسيان كل شيء: مبادئه، والمهمة التي كلفوه بها، والحرب، لكن شيئًا داخله قال له إنه من دون هذه الالتزامات، ومن دون اندفاع المحارب أو الرغبة في بناء عالم أفضل، سيغدو رجلًا تائهًا.

ظل يتجول عبر مدريد الخاوية، لأن عودة الحياة إلى الشوارع تتأخر وقتًا أكثر من المعتاد بسبب الجائحة. لم يرِد أن يفكر في لوثيا، لكن الأمر بدا له مستحيلًا. تركها بمفردها، وهي مغمومة لأن اكتشافات الدكتور آلبان لم تقل شيئًا عن موقع أختها، وإنما عن سبب وفاة اثنين من رجال الحركة الكارليَّة.

لا يُخادع توماس نفسه، فبعيدًا عن مبادئهما، من الواضح أن أسينثيو دي لاس إيراس وإجناثيو جارثيا، قد انقادا بأفكار مشؤومة جذورها غارقة في خرافات قروسطية. هل من الممكن أن ينقاد رجلان مميزان، استعملا ذكاءهما في خدمة القضية الكارليَّة وتمكنا من الوصول إلى دوائر البلاط، وراء هذه الخرافات؟ هل يُلحق الخوف من المرض أو الموت ضررًا بهذا الحجم في إدراك الإنسان؟ يعجز أجيرِّي عن تفهم الأمر، ويود أن يفكر في أن الحكم على

الآثمين مهمة الرب. ولو أن أسينثيو وإجناثيو قد ارتكبا إثمًا، فلا بُد أن الرب قد عاقبهما بالفعل.

بينما تتردد ضوضاء المتاجر الأولى التي تفتح أبوابها، يناول أجيرِّي شحاذًا نائمًا عند الممرات المسقوفة لـ «الساحة الكبرى» بعض الريالات ويطلب منه أن يسلم رسالة إلى متجر أدوية تيودوميرو جارثيس، ثم يرحل بعدئذٍ لينتظره.

يقع «المتحف الملكي للوحات والمنحوتات» في متنزه «إل برادو» وشيده كارلوس الثالث في نهاية القرن الثامن عشر تحت مسمى «ديوان العلوم الطبيعية». دُمر بالكامل تقريبًا في حقبة الاحتلال الفرنسي، واستُخدم كقاعدة لسلاح الفرسان، بل وصل الأمر إلى صهر صفائح سقفه الفولاذية لتصنيع المقذوفات. لكن في أثناء ولاية فرناندو السابع، وبفضل تدخل زوجته الثانية ماريا إيسابيل دي براجانثا، خضع إلى الترميم وصار مخصصًا لعرض مجموعات اللوحات التي كانت موزعة في تلك الفترة على «المنشآت الملكية». بهذه الطريقة صار بإمكان المواطنين أن يروا ما يزيد على ثلاثمائة لوحة في ثلاث قاعات مخصصة لهذا الغرض.

دخل توماس أجيرِّي هذا المتحف مرة واحدة في زيارة إلى مدريد منذ خمس سنوات. انبهر آنذاك ببعض الأعمال مثل «انتصار الموت» لبيترو بروخل الأكبر، بجيش الهياكل العظمية الذي يجتاح أرضًا مجدبة، أمام أفق يضطرم بالنيران. تتبقى خمس دقائق على ناقوس البشارة وحينئذٍ سيقف مجددًا أمام هذه اللوحة، التي يتخطى طولها المتر بقليل، وعرضها المتر ونصف المتر. يشعر اليوم بما شعر به نفسه حين رآها المرة الأولى، هي ودمارها، ودخانها، ونيرانها، وغرقاها، وموتاها، وهياكلها العظمية المسلحة، وتوابيتها. إنه الرعب، وهو شيء اختبره مرات كثيرة كلما دخل أرض المعركة.

لو أن الأمر بيده لقضى ساعات أمام هذه اللوحة -وهي مسألة لا يستبعد أن يقوم بها في المستقبل- لكن وصول تيودوميرو جارثيس يُقاطع تأمله.

- يا له من مكان غريب لنلتقي فيه. على أي حال لقاؤنا مسألة خطرة. أتمنى أن يكون ما تريد أن تقوله لي مهمًّا.
- انظر إلى اللوحة. إنها جميلة ومُقلقة في الوقت نفسه، بل ومعاصرة جدًّا، فمنذ وصولي إلى مدريد، شهدت دائمًا على الرعب.

يُقدم له أجيرِّي، وهو ينظر إلى اللوحة، موجزًا لكل ما تحقق منه، من دون أن يخرجا من القاعة التي يجلسان فيها بمفردهما، وبالأخص تسميم القامتين الكبيرتين في الحركة الكارليَّة بعد تسللهما إلى جماعة «مشعلو الفحم» السرية.

- الزرنيخ؟ هل أنت متأكد؟

- أجل. تمامًا.

- وكيف سُمِّما بالضبط؟

- عبر خلطه بدم حيض بعض الفتيات، الفتيات اللاتي قتلهن «الوحش».

تغدو حكاية شيء مثل هذا أمرًا معقدًا، فهي قصة مفجعة. يسود الصمت في الثواني التي يستغرقها تاجر الأدوية لاستقبال هذه المعلومات. ينتبه المحارب إلى أنه لا تبدو عليه أدنى درجات الاندهاش ولا حتى التفاجؤ أصلًا. يصر أجيرِّي على إبراز ما اكتشفه بحثًا عن رد فعل من تيودوميرو:

- كانا عنصرين مهمين في الحركة الكارليَّة في مدريد، ولا، لم يأتِ موتهما مصادفة ولا عن طريق الكوليرا. اغتيلا بعد مشاركتهما في طقس قروسطي مخيف وشنيع نظمه «مشعلو الفحم». هل سمعت عن هذه الجماعة؟

يُومئ جارثيس برأسه.

- إنهم من أنصار كريستينا، الملكة الوصية. يُكرسون أنفسهم للحط من القضية الكارليَّة في الصحافة والأحكام القضائية، بخلاف إدارة كل المساعي الدبلوماسية الضرورية لحرمان الحركة الكارليَّة من أي دعم.

تتكون هذه الجماعة، وفقًا لجارثيس، من أشخاص مؤثِّرين ولامعين، لكن اجتماعاتهم سرية ومن دون سجلات. يُعرف أيضًا أن قوامها مائتا شخص، لكن لا يرتدون كلهم الخاتم، وإنما السادة فقط، وهم صفوة من فيهم ويجتمعون في مكان مجهول. إنهم اثنا عشر شخصًا من ذوي القلنسوات ويمارسون طقوسًا قروسطية من ضمنها الشعوذة. تُعد التضحية بالفتيات الجزء المفزع في هذه الطقوس.

- كيف تعرف كل هذا؟ لماذا لم تقله لي حين التقينا في المرة الأولى؟

- كان عليَّ أن أجري بحثًا استقصائيًّا حولك.

- هل انتهيت؟ هل تثق بي الآن؟

- الآن، نعم. ثومالاكارِّيجي يُقدرك جدًّا.

- احكِ لي ما تعرفه.

- تعال معي إلى لوحة أخرى.

يُطيعه أجيرِّي. لا يُمكنهما أن يظلا عالقين أمام اللوحة نفسها، فقد يلفتان الانتباه. يتقدمان بضع خطوات إلى أن يتوقفا أمام لوحة «انتقال العذراء» لأندريا مانتينيا، حيث تلفظ «أم الرب» أنفاسها الأخيرة، ومن حولها الحواريون.

يعترف له تاجر الأدوية سريعًا:

- كان لدينا ثلاثة رجال اخترقوا الجماعة.

- هل إجناثيو جارثيا وأسينثيو دي لاس إيراس من ضمنهم؟

- لم أرد أن أؤكد الأمر لك قبل أن أعرف إلى أين وصلت بتحقيقاتك، لكن الإجابة هي نعم. جارثيا ودي لاس إيراس من ضمنهم، ومن الواضح أنهم اكتشفوهما وسمَّموهما.

- شاركا في هذه الطقوس على أي حال. استحقا مصيرهما.

- لم نبتعد قط عن مثل هذه القسوة. دعني أذكِّرك بـأن «محاكم التفتيش»، التي ندافع عنها بحماس كبير، لم تتميز قط بطهارة أساليبها.

- نحن نتحدث عن قتل فتيات.

- بوصفي صيدلانيًّا، أرفض أمرًا كهذا، لكن بوصفي إنسانًا، من الذي قد لا يفعل كل ما في وسعه كي ينجو من الكوليرا حتى لو تضمن الأمر قتل فتاة؟

- أنا لن أفعل أمرًا كهذا.

- من الأفضل ألا نراجع الجرائم التي ربما ارتكبتها في الجبهة. يُقال إنك من أمر بإطلاق الرصاص على «حراس آلابا». كلنا لدينا خطايانا التي سنعترف بها حين نقف أمام خالقنا. لا أعرف ما إذا كنت أنت أنسب شخص لإلقاء أول حجر.

- لم أوذِ أحدًا لا يستطيع الدفاع عن نفسه قبلئذٍ قط.

- كل هذه تفاصيل غير مهمة ولا أظن أنها ستصنع أي قيمة في يوم الحساب.

تُداهم الشكوك توماس أجيرّي مرة ثانية، هل أيديولوجيته الكارليَّة فوق كل شيء؟ ربما لو أنه وجه لنفسه هذا السؤال في وقت سابق، لصارت الإجابة نعم وإلى الأبد، لكن الآن لا يُمكن لرده أن يتميز بمثل هذا الطابع الحاسم.

- قلت لي إن ثلاثة أشخاص اخترقوا الجماعة. من الثالث؟

- لا أعرف، لكن من الواضح أنه الخائن.

- الخائن؟

- لا بد أن أحدًا ما كشف العميلين المقتولين. لا يُمكن أن يكون أحدًا غير الكارليّ الثالث الذي اخترق هذه الجماعة.

- هل نتحدث عن عميل مزدوج؟

- هذا ما أخشاه. عليك أن تتحقق من هويته.

يُخرج أجيرّي ورقة من جيبه. إنها قائمة الأسماء التي عُثر عليها في معطف الأب إجناثيو. تندهش عينا تيودوميرو جارثيس أمام هذا التصرف المتهور، وينظر حوله بانزعاج. يتفحص رجل ما في القاعة ألوان إحدى اللوحات وهو يدخن سيجارًا بتلذذ. يراقب تاجر الأدوية المدخن بشك، ثم ينظر إلى القائمة. يتفقدها باهتمام وهو يتوقف عند من يتمكن من التعرف عليهم.

- «أناباوسيس». أ د ل إ: أسينثيو دي لاس إيراس. «الانتصار دائم الخضرة». إ ج: إجناثيو جارثيا. «الشرق الأبدي». خ ج. ربما أراهن على أن هذا اختصار اسم دون خوليو جامونيدا.

- لا أعرفه.

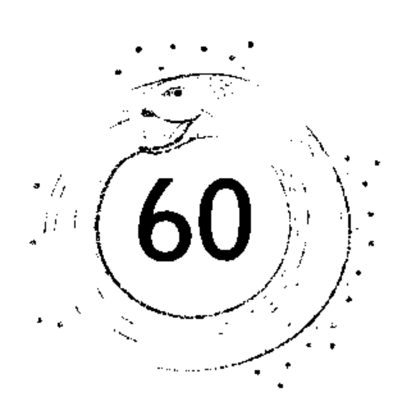
- إنه قاضٍ، لا ينتمي إلى الحركة الكارليَّة رسميًا، لكن أحكامه ذات أيديولوجية متمسكة بالتقاليد. عارض إلغاء القانون السالي أكثر من مرة، ولم يتردد في إبداء رأيه علانية.

- هل قد يكون من «مشعلو الفحم»؟

- لا أعرف. لا أعرفه بشكل كافٍ. يقال إنه عشيق مومس مشهورة. خوسيفا «اللبؤة». تدير ماخورًا في شارع «القرنفل»، وهو أحد أشهر مواخير مدريد.

- متمسك بالتقاليد في العلن وليبرالي في السر.
- كحال الجميع يا توماس، كحال الجميع.
- حياته في خطر. قد يغدو الضحية المقبلة لعمليات التسميم.
- هذا لو أنه لا يعمل لصالحهم. لا تنسَ أن هذا الرجل قد يكون من كشف أمر إجناثيو وأسينثيو.

حين يخرج أجيرِّي من المتحف، بعد عشر دقائق من رحيل تيودوميرو جارثيس، يسير عبر شارع «القلعة» ويحدق إلى نزل «الجمارك» حيث ثمة عربة تستعد للسفر إلى بيتوريا وبايونا. سيروقه أن يستقلها وينضم إلى الصفوف الكارليَّة ويحارب بصدر مفتوح، بعيدًا عن مؤامرات البلاط، ففي الحرب لا وقت للتفكير ولا للمشاعر الفياضة. ثمة أمر صحيح، وجدت مشكلات لوثيا مستقرًا لها داخل رأسه وعليه أن يتعامل مع نقطة الضعف هذه في أقرب وقت ممكن، فالنزعة العاطفية عدو للقضية الكارليَّة، وهذه الطفلة، كلارا، ليست مسؤوليته. ترتبط حريته في استئناف الحياة التي تركها في الجبهة بتفكيك جماعة «مشعلو الفحم» التي تقتل رفقاءه. سيركز جهوده لتحقيق هذا المسعى. تتضح له أول خطوة عليه أن يقطعها، زيارة خوليو جامونيدا، لأنه لا يزال يجهل هل القاضي ضحية أم جلاد.



استيقظت خوسيفا وهي في حالة أفضل، من دون حمى شديدة أو توعك كاليوم السابق، حين لم تقدر على الوقوف على ساقيها وفكرت في أن موتها محتوم. مع ذلك تأبى أن تبالغ في تصوراتها، إنها مريضة، والفرصة الوحيدة لتنقذ حياتها هي ما يقدمه لها عشيقها، خوليو جامونيدا. لا تعرف شيئًا عن الأمر سوى أنه غادر متفائلًا ومقتنعًا بشفائها. طلب منها أن تنتظره اليوم. لا تعرف متى سيصل، لكن يجب عليه أن يُنهي بعض الأمور قبل أن يأتي لاصطحابها. سيأتي، عليها ألا تشك. يُباغتها الغم للحظة، ألا يُفكر فعلًا في أن يودعها في أحد المستشفيات -أو الأسوأ من هذا في محجر- ككل من ماتوا من دون علاج؟

بالأمس لم تغادر الصالون الأخضر للمرة الأولى منذ سنوات لتتفقد أجواء البيت. يروقها أن تمر على الغرف المتنوعة التي يدخلها الزبائن مع النساء اللاتي يعملن لصالحها، مثل غرفة النباتات، المفضلة لدى دلفينا، حيث توجد نباتات غريبة ووارفة، وقاعات الانتظار حيث تشرب أصغر الفتيات الشاي ويتبادلن الحديث، و«الليفينج روم» بديكورها الزائد. سمتها هكذا لأن التعبيرات الإنجليزية تُضفي رونقًا في هذا العمل. يظن الكثيرون أن الماخور

مجرد مكان للعلاقة الجسدية بين الرجال والعاهرات، لكن الأمر ليس هكذا، أو على الأقل ماخورها. يمتلئ المكان هنا بالحياة الاجتماعية كما يحدث في جلسات السمر التي يحضرها المدريديون كل مساء. رأت هنا كيف تُغلَق الكثير من المتاجر، وكيف تحاك المؤامرات ضد الحكومة أو الوزير الفلاني، بل ومخططات لزواج ابن عائلة من ابنة عائلة أخرى. ذات مرة جاء لها رجل ليخبرها بأنه مغرم بإحدى عاهراتها ويريد انتشالها من هذه الحياة. لم تعارض قط الأمر، ما دامت هذه رغبة المومس، فالسعادة من حق هؤلاء الفتيات.

استيقظت اللبؤة مبكرًا جدًّا على عكس عادتها، وفي هذه الساعة، تكون أغلب القاعات خاوية ولا تُسمَع موسيقى البيانو التي تُبهج أجواء السهرات. تنام النساء في غرفهن وتبدو قطع الأثاث والجدران المكسوة بالقماش باهتة وسط ضوء النهار. تستغل رفاهها، الذي تعتبره عابرًا، كي تتمشى في البيت. يُباغتها الحزن، ماذا لو أنها آخر تمشية لها في هذه المملكة التي ورثتها وستتيتم من بعدها؟

أرادت أن تتحدث مساء الأمس مع خوليو عن الأمر، لكنه رفض أن يقدم لها المشورة.

- كيف سنتحدث عن خليفتك وأنا سأرافقك غدًا إلى مكان ستشفين فيه؟ خليفتك في السنوات العشر أو الخمس عشرة القادمة، هي أنتِ، إلا إذا...
- إلا إذا ماذا؟

تحدث معها خوليو للمرة الأولى بجدية، من دون خيالات، وترهات العشق المستحيل، عن مستقبلهما المشترك. تحدث عن هجران زوجته ومغادرة المدينة معًا. ستبيع ماخورها وسيبيع هو بعض ممتلكاته ليبدآ حياة جديدة بعيدًا عن مدريد. سرحت بخيالها بعض دقائق، باريس؟ أم فيينا؟ مالَ القاضي إلى فيينا، لكن خوسيفا ترى أنه لا يوجد شيء أكثر أناقة من باريس. اتخذا قرارًا يُرضي الطرفين داخل هذه اللعبة، ستة أشهر في فيينا وستة أشهر في باريس. حين غادر سالت دموعها، لأنها ستموت بعد أن قال لها ما انتظرت طيلة سنوات أن تسمعه منه، ألا وهو أنه سيترك زوجته. بالنظر إلى أوراق لعب الحياة التي كانت من نصيبها منذ ولادتها، يُمكن قول إن الحياة

نفسها قد تصرفت معها جيدًا، لكنها في تلك الساعات الأخيرة تتلاعب بها كما قد يتلاعب قط قاسي القلب مع فأر.

ترجع إلى الصالون الأخضر وتتناول بعض المعجنات بشهية جيدة، كأنها استعادت صحتها من جديد، لكن توجسها يظل قائمًا، إذ إنها سمعت أن أخطر الأمراض تشهد دائمًا بعض التحسن قبل النهاية القاتلة. ما من شيء يُمكنها أن تفعله سوى انتظار وصول عشيقها والتفكير فيما ظلت تفكر فيه طيلة هذه الأيام: الماضي والمستقبل، وهذا لأن الحاضر ملتبس إلى درجة تُفضِّل معها أن تمحوه من أفكارها.

تنتهي خوسيفا من ارتداء ملابسها أمام خوليو جامونيدا. جاء لها بالفستان الذي سترتديه ولم يخفِ عليها أنه لزوجته ليونور. إنه فستان محتشم وداكن لن يلفت الانتباه أبدًا مثل بقية الفساتين التي تحتفظ بها خوسيفا في خزانة ملابسها، بفتحات صدرها المتسعة وخصورها الضيقة.

- ليس عليكِ أن تبدي جميلة اليوم.
- هل معنى هذا أنني لا يمكنني أن أبدو كعاهرة؟
- اعذريني على صراحتي، لكن هذا مقصدي بالضبط.
- لماذا يجب عليَّ أن أذهب وأنا متنكرة؟
- لأنه من غير الملائم أن نلفت الانتباه إلى حيث نذهب.
- إذن ربما من المناسب لي ألا أذهب.
- أرجوكِ يا خوسيفا. لا تصعبي عليَّ الأمر أكثر من هذا. انتهي من ارتداء ملابسك وكوني رزينة حين نصل.
- هل الأمر وما فيه أنك تشعر بالخجل مني؟
- أن أرافقك إلى حيث سنذهب هو أكبر إعلان عن الحب يمكنني أن أسمح لنفسي به. أؤكد لكِ هذا.

عند باب بيت شارع «القرنفل»، تنتظرهما عربة مغلقة يجرها حصانان بسائقها الذي يجلس فوق مقعد الحوذي. تدرك خوسيفا أن جامونيدا اختار العربة المغلقة عمدًا، وليس تلك المفتوحة التي يزورها فيها عادة. تفترض أنه فعلها لكيلا يراه أحد في رفقتها، لكن الإنهاك والقلق يدفعانها إلى الإحجام عن تأنيبه.

لا يضطر جامونيدا إلى أن يأمر السائق بأي شيء كي تسير العربة.

- إلى أين ستأخذني؟

- كلما قل مقدار ما تعرفينه، صار الأمر أفضل.

يسود الصمت وهما في طريقهما عبر شارع «القلعة». لربما ودت أن يعِدَها ثانية بحياة مشتركة في باريس أو فيينا أو أي مكان يروقه، حتى لو كان الأمر مجرد كذبة لإلهائها، وهذا لأنه ينظر إلى الشارع بتركيز كأنه يود نسيان وجودها. توتره أمر واضح وينعكس في اهتزاز ساقه وعرق يديه وابتسامته المرتعشة.

يتوقفان أمام نقطة أمنية عند «بوابة القلعة». ينظر أحد الجنود المنوطين بعدم خروج أو دخول أحد من المدينة إلى العربة. يتعرف على القاضي فورًا.

- اعذرني سيد جامونيدا. يمكنكما أن تمرا.

تشعر خوسيفا بالقلق، على الرغم من ثقتها في عشيقها.

- لماذا نخرج من مدريد؟

- لن نخرج من مدريد، لا تقلقي. المكان الذي سنذهب إليه يقع على بعد بضع دقائق.

تسير العربة بالفعل بمحاذاة «الجدار» من دون أن تجتازه عبر طريق موحل. يتوقف الحصانان أمام قصر يبدو مهجورًا. ترى خوسيفا وهي تترجل ساحة الثيران التي تتراءى من بعيد. ذهبت في مرات كثيرة لرؤية المصارعة، لكنها لم تنتبه قط إلى هذا القصر ذي الأجواء الجنائزية. تنظر إلى مدخله بخوف، لكن عشيقها يُمسكها من كوعها ويقودها إلى هناك.

- هيا.

- ما هذا؟ إلى أين جئت بي؟

- كفانا أسئلة يا خوسيفا. هل يشق عليكِ أن تثقي بي بمثل هذه الصورة؟

- هل هذا حجر محجر؟ هل ستحبسني هنا؟

- جئت بكِ هنا لأشفيكِ، لا لأتركِك تموتين.

يرتعش جسد خوسيفا. لا تعرف ما إذا كان مرد الأمر الخوف أم الحمى التي بدأت تعود. يقرع خوليو الباب بضربات حاسمة، وعلى الفور يفتح الحارس شبكة الرؤية.

- من هناك؟

يُظهِر له القاضي شيئًا يرتديه في يده من دون أن ينطق. يفتح الرجل الباب ويفسح له المجال. لم ترَ خوسيفا ما أظهره له. هل هو خاتم؟ لم ترَ أنه يرتدي أي خواتم طوال الطريق وهما في العربة. ربما ارتداه حين نزلا.

- تقدمي.

تخطو خوسيفا داخل قاعة الاستقبال وتسير وراء خوليو. هنالك أكثر من عقافة معلقة فوق الجدار وفوقها أردية سوداء كالغربان، ولكل منها قلنسوة ضخمة.

يُجيبها حين تسأله عن هذه الملابس:

- لا توجهي أي أسئلة.

بعدئذٍ يتحدث هامسًا مع الحارس:

- هل يُمكنك أن تخبر «الكاهن» بأننا هنا؟

يُومئ الحارس برأسه موقرًا ويتيه داخل هذا القصر العتيق.

- لماذا جئت بي إلى هنا؟ من هو هذا الكاهن؟ ألا تعرف أصلًا أنني لا أريد أي علاقات مع الكنيسة؟

- لا تجمعه أي علاقة بالكنيسة يا خوسيفا، فهذا الرجل سيعطيني ما تحتاجين إليه. نحن نضع أنفسنا في خطر بفعل كل هذا من دون إبلاغ «المعلمين». توقفي عن الشك. كلما بكرنا بالخروج من هنا، صار الوضع أفضل.

لطالما تعامل معها خوليو باهتمام ومودة، لكنه اليوم يتصرف من دون رباطة جأش وهو على وشك الانكسار من شدة توتره بل وربما فزعه. ثمة شيء يلمع في يده وسط ظلال الدهليز المشعشعة. هكذا تراه خوسيفا. إنه خاتم ذهبي. تشعر أن قلبها قد انقلب داخلها حين تتعرف عليه. ها هما تان المطرقتان المتقاطعتان اللتان تشكلان علامة ضرب. تتردد داخل رأسها كلمات لوثيا. إنه خاتم «الوحش». إنها العلامة التي تُعرِّف سفاح الفتيات.

لماذا يرتدي خوليو جامونيدا رمز الموت هذا؟

تتذكر أيضًا شكوك الفتاة، لا بد أن زبونًا من الماخور قد أشار إلى خوانا، ولهذا اختُطفت. «من قد يكون يا لبؤة؟ من؟». ينبعث وميض مشؤوم من

عينَي خوليو جامونيدا وسط عتمة الدهليز. تنحني خوسيفا من فرط دوارها. تشعر أنها ستفقد وعيها.

- ما الأمر؟

- أحتاج إلى استنشاق بعض الهواء.

- ليس لدينا وقت لهذا يا عزيزتي.

- لا تلمسني. أريد أن أخرج حالًا.

تخرج «اللبؤة» من هذا القصر الكئيب بخطوات حائرة وتتوغل في الغابة التي تحيط البناية. لا تريد أن يراها أحد وهي تقيء ولهذا تبحث عن ملاذ وسط الأشجار. ينتهي بها الأمر وهي تقيء وسط حوض من زهور الداليا. بينما تقرفص، تشعر بأنها تطرد معدتها بالكامل من داخلها. بعدئذٍ تتساءل من أين ستأتي بالقوة لتنهض. تشعر بالعجز، بأنها ستموت هناك في هذه الحديقة المظلمة منعدمة الألق. هل كانت تخطط لحياتها مع سفاح؟ كيف ظنت أن الحياة ستخصص لها مصيرًا رائعًا؟ ترغب فقط في الابتعاد عن هناك وقطع الطريق الموحل وإيقاف أي عربة للعودة إلى الماخور في أقرب وقت ممكن، لكنها فقدت الإحساس بالاتجاهات.

تقترب عربة من القصر وتنزل منها امرأة ترتدي حرملة طويلة. تغطي رأسها بطرحة «مانتيًا». تحركها هبة ريح بصورة مباغتة، وفي الثواني التي تستغرقها لارتدائها من جديد، تتعرف خوسيفا على ملامح آنا كاستيلار. تراها من بين أشجار الغابة وهي تدق الباب وتُظهِر الخاتم الذي ترتديه في إصبعها. لا تراها خوسيفا بشكل دقيق، لكنها متيقنة من أن عليه المطرقتين المتقاطعتين.

صار عليها أن تهرب الآن من وحشين. يجب أن تصل إلى الماخور وترسل إنذارًا عاجلًا إلى لوثيا، بعدم الاقتراب تحت أي ظرف من دوقة ألتويانو.

يسود الصمت وسط الزنازين. لا يكسره سوى البكاء المنهَك لإحدى الفتيات. توشك كلارا على النوم. لم تعد تشعر البرد. تلاحظ، وهي على مشارف فقدان الوعي، انسياب شيء رطب، لكنه دافئ. تضع يديها بين ساقيها، ثم تنظر إلى أصابعها. تمنعها العتمة من الرؤية. ترفع إحدى يديها نحو فمها، وتجد مذاقًا معدنيًا تعرفه جيدًا، الدم!

تفكر فيما يجب عليها أن تفعله كي لا يغدو الأمر ملحوظًا. ليس لديها سوى الخرقة التي أعطتها إياها ميريام. تكورها وتغطي بها مهبلها. صار النوم مستحيلًا.

تجلس وظهرها إلى الجدار. تعرف أنها ستكون التالية. ما من حاجة إلى تغطيسها وتحميمها. حين يُجبرها «الطباخ» على الخروج من زنزانتها، سيكون الدم قد بلل قطعة القماش وسينساب فوق فخذيها.



تفزع لوثيا حين تسمع بضع ضربات فوق الباب. ليس لديها وقت هذه المرة لتتساءل عن هوية الطارق، لأن الصوت الحاد لباسيليا، صاحبة البيت، لا يترك مجالًا للشكوك.

تقول المرأة من دون تحية:

- يجب أن تغادري اليوم. أجَّرتُ الغرفة إلى طالب إكليريكي ينتظر في الأسفل.

تتفهم لوثيا فورًا أنه ما من طريقة لإقناعها بالبقاء قليلًا، بسبب إيماءاتها القاسية وطرف ذقنها المشعِر المرفوع تعبيرًا عن التحدي، وقبضة يدها المستندة إلى فخذها.

تقول وهي تجرب أكثر أصواتها إثارة للشفقة في محاولة لتليين قلب المرأة:

- دفع دييجو إيجار أسبوعين.
- لماذا سأبقي الغرفة لشخص ميت؟
- لست ميتة. قال لي دونوسو، صديق دييجو، إن بإمكاني البقاء.

- هذا الشرطي الأعور ليس صاحب البيت يا جميلة. قواعد هذا البيت شأن يخصني، وتقول بوضوح إنه إن مات المستأجر، فلا وجود للميراث. أحسنت لكِ أكثر من اللازم بتركك تقضين بضع ليالٍ.

تمسك باسيليا لوثيا من ذراعها من دون قول شيء آخر وتدفعها لتنزل السلالم. تثور الفتاة بطبعها الذي يشبه حيوانات الشوارع وتوجه، من دون تفكير، ركلة إلى صاحبة البيت في ساقها، فتستقبلها بصرخة. صحيح أنها تصرفت بتهور، لكنها ليست قادرة على كبح غضبها. تصرخ باسيليا طلبًا للمساعدة بنبرة شاكية قريبة من النواح، فيخرج بعض الجيران فجأة من بيوتهم. آخر ما تحتاج إليه لوثيا أن يظهر الحرس لفرض النظام، فأمر الاعتقال بتهمة قتل مارثيال جارّيجيس لا يزال يحلِّق فوق رأسها. لهذا تنطلق إلى الخارج. مع ذلك حين تخطو في شارع «الأثرياء» تكتسحها الحيرة. أين يُمكنها أن تذهب؟ بمن يُمكنها أن تثق؟ دونوسو ليس خيارًا، لا هو ولا توماس أجيرّي.

يصرخ صوت ما فجأة مناديًا اسمها. تشعر بغواية الفرار من دون أن تلتفت، لكنها حين تسمع كلمة «لوثيا» تتعرف على نبرة مألوفة في هذا الصوت، وحين تستدير فعلًا ترى أنها راكيل، المرأة السمينة ذات النهدين الكبيرين، التي تعمل لدى «اللبؤة». تقترب منها مسرعة، بتعبير وجه محتقن.

- حمدًا للرب أنني عثرت عليكِ. شق عليَّ جدًّا العثور على بيت الصحفي. قالوا في الماخور إنك تقيمين في بيته، لكن أحدًا لم يعرف مكانه إلى أن عثرت على الشرطي الأعور، لكن كل هذا ليس مهمًّا الآن. إنها خوسيفا، الكوليرا ستأخذها منا ولا تفعل شيئًا سوى نطق اسمك. ما من أحد قادر على انتزاع كلمة واحدة منها. أعتقد أنها تود أن تقول لكِ شيئًا.

تمضي لوثيا وراء العاهرة حتى الماخور، حيث تلحظ نشاطًا غريبًا. تخرج فتاة لم تتحدث معها قط وفي يدها حقيبة. حين تعبر الباب، ترى أن بعض الأغراض غير موجودة، كأن البيت يُنهب تدريجيًا. تتوجه مباشرة إلى المطبخ. حين ترى دلفينا تبكي، يقودها اندفاعها الأول إلى الاستدارة والخروج فوق أطراف أصابعها، لكن صوتها يمنعها من العودة.

- أرادت خوسيفا أن تتحدث معك. ظلت تكرر اسمك من دون توقف.

- هل هي بخير؟

- لا. خرجت صباحًا مع دون خوليو جامونيدا وعادت مفزوعة ومريضة. إنها الكوليرا.

تعرف لوثيا ما يعنيه الأمر، فقد شاهدت أمها وهي تموت في نهاية المطاف.

- هل يُمكنني أن أتحدث معها؟

تنفي دلفينا برأسها، وتُخبرها بأن الأمر ليس ممكنًا. ماتت «اللبؤة» منذ عشر دقائق. تركض لوثيا نحو الصالون الأخضر، حيث ترقد خوسيفا فوق أريكة. لم يهتم أحد بجثتها، ومع ذلك ثمة علب كثيرة مفتوحة. لا بد أن إحدى النساء دخلت بحثًا عن النقود قبل أن تغادر البيت. تركوا الهدايا والعطور وخطابات الغرام المربوطة بعقدة والمذيلة كلها بتوقيع عشيقها: خ ج.

تخرج لوثيا من البيت وتسير دائخة، في البداية من دون وجهة، لكنها تتوجه لاحقًا نحو شارع «لا أورتاليثا». لم تذهب إلى هناك قط، لكنها تعرف إلى أين ستذهب، وأين هو ذلك البيت. تملكه سيدة عظيمة قالت لها في دفن دييجو إن بإمكانها المجيء وقتما يحلو لها. بعد أن ضاعت كل الأيدي الصديقة، فاليد الوحيدة الباقية لها في هذه المدينة هي يدها.

تخرج خادمة لفتح باب القصر. إنها شابة متحفظة، ترتدي زيًّا لا تشوبه شائبة.

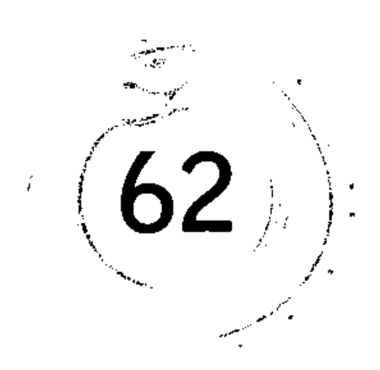
- أنا اسمي لوثيا. أنا...

تُقاطعها الخادمة:

- أعرف سعادتك. تفضلي.

إنها أول مرة يخاطبها أحد بصيغة توقير. المدخل واسع جدًّا. في نهايته باب زجاجي يُفضي إلى حديقة. يتردد من بعيد تغريد الطيور التي تحلق داخل أقفاصها. يولد سلم رخامي مزدوج عند جانبي مدخل صحن البيت، وعبره تنزل الآن آنا كاستيلار، بألق وأناقة وجمال، كما هي حالها دائمًا.

الجزء الرابع



مدريد، 25 يوليو 1834

تغرق مدريد في الظلمات. يرسم القمر المكتمل الذي يتوسط السماء الخالية من النجوم الإطار الخارجي لطبقة الضباب الثخينة التي تشكلت مع انطفاء قناديل الغاز. تحتضن لوثيا نفسها لتُهدئ الرجفة التي تجتاحها وسط الجو الرطب. تنفتح الأزقة من الجانبين كأفواه سوداء قادرة على بصق المتشردين واللصوص والعاهرات. تُسارع خطاها، إذ يُرعبها الصمت أكثر من الحياة التي قد تكتنفها العتمة. لا وجود للضوء في نوافذ البنايات التي ترتفع بلونها الرمادي على جانبَي الشارع في سكون وتأهب. في الأعلى ثمة مسوخ وشياطين قد تجمدت وهي تحاول الوصول إلى قِباب المباني، ومعها جراجيل تحجرت صرخاتها فوق أفواهها.

ما الذي تفعله هنا؟ لماذا تبدو المدينة كأنها غير مسكونة؟ لماذا تحولت مدريد إلى مشهد شبحي؟ خرجت من ماخور «اللبؤة» لتذهب إلى بيت آنا كاستيلار، لكن عينَي خوسيفا اللتين فقدتا الحياة بعد أن ماتت من الكوليرا تتبعانها بل وتزحفان على الأرض خلفها كذيل فستان عروس، ومعهما لا مبالاة النساء اللاتي تنازعن كحيوانات ضارية على الأغراض القيمة الموجودة

في بيتها. ألم تفتح لها خادمة بابًا وأفسحت لها الطريق لتدخل قصر شارع «لا أورتاليثا»؟ ألم تستقبلها آنا كاستيلار بعناق؟

على الرغم من الصمت، يخفق صدغاها بنبض يضربها بغضب كبير إلى درجة أن جلدها يوشك على التشقق. تزداد سرعته بمرور الوقت. سينفجر صدغاها في أي وقت، فيما يبدو القمر في السماء كعين عمياء.

هل صدى نبضاتها هو ما ينغرز في مخها أم أنه صوت حوافر حصان؟ تتعرق. لا تعرف ما إذا كانت قادرة على الحفاظ على وعيها. ربما من الأفضل أن تفقده. يتوقف حصان قوي بالقرب منها. تركع وسط الشارع لتنظر إليه. يُمسك إيلوي بشعر رقبته. تلمع عيناه الزرقاوان وسط الشارع بحدة تجعلها تفكر في أن بقية العالم، الموجود حولها، فقد ألوانه. يضحك كما اعتاد أن يضحك كلما تمكن من سرقة شيء من أي طالب غافل. ليس بمفرده، إذ تظهر فوق الحصان وهي تعانق خصره فتاة لها يدان طفوليتان وشعر ذهبي. يطل نصف وجهها من وراء الفتى. إنها كلارا.

– أختي، توقفي عن البحث عني. أنا بخير. بفضلك صرت بالفعل مع أمي.

– لستِ ميتة. أعرف أنكِ لستِ ميتة.

تنهض لوثيا وتركض بكل قواها نحو الحصان، لكن إيلوي يهمزه كي ينطلق راكضًا. لا تأبه، ستلحق به. ستركض بالسرعة التي سيتطلبها الأمر لتصل إلى الحيوان وتنقض على كلارا لتنتزعها من عالم الأموات حيث تراها الآن. تُصدِر الحوافر صريرًا حين يدفع إيلوي مُطيته إلى تغيير المسار ويدخل بناية بوابتها مفتوحة. يحرس عمودان المدخل الذي تجتازه لوثيا وهي تلاحق الجواد الذي يمتطيه إيلوي وكلارا، لكنها بمجرد عبور العتبة تتعثر في شيء ما.

تحاول أن تتعرف عليه وسط الظلال المشعشعة. إنه شيء رطب وبارد ولدن، يتكفل القمر بالظهور من بين البنايات كي ترى لوثيا أنه ذراع وساق وجذع طفولي ومعها رأس كلارا. تفور الدماء من كل نواحي هذه الأشلاء كأنها اقتُلعت للتو. تحاول بهستيرية أن تُعيد تجميع قِطع الأحجية التي صارتها أختها. ثمة ذراع متصلة بالجذع. لا بُد من أن تُبقيها ملتصقة لكيلا تفقد دماءها. يصرخ الرأس فجأة:

– إنه ذنبك. ما تفعلينه لن يصنع فارقًا. دمي سيكشفني.

تُبعدها ضربة مفاجئة عن أختها. ارتطم شيء ما بمعدتها وقطع أنفاسها. إنها قبضة. ثمة رجال ونساء اختبؤوا بين ظلال المبنى وانتظروها. تشعر بأيادٍ وسيقان تشل حركتها على الأرض. تحيطها رائحة أنفاسهم النتنة كاللحم المتعفن. يبدون جميعًا ككتل بشرية يصعب التعرف عليها، إلى أن يظهر فجأة وجه يوشك أن يلتصق بوجهها، يُضيئه وميض هذا القمر الذي يسخر من كل شيء. إنها كانديدا، أمها.

- هل هكذا تعتنين بأختك؟

تبصق كانديدا في وجهها، فلا تقدر لوثيا بعد أن قيَّدتها هذه الأيدي التي ظهرت من العدم على تنظيف وجهها من اللعاب الذي ينزلق فوق وجنتها ويلامس شفتيها.

- آسفة! أمي، من فضلك! أفلتوني! آسفة.

- ما الذي تأسفين عليه يا لصة؟ استغلال الأموات؟

انسحبت كانديدا من بين الظلال وينظر إليها الآن وجه رجل عجوز. إنه الأب إجناثيو جارثيا، بالتعبير الخالي من الحياة نفسه الذي نظر إليها به حين اختبأت تحت فراشه.

- لماذا سرقتِ مني الخاتم؟ الآن يمكنني أن أحيا!

- الآن جميعًا يمكننا أن نحيا!

دخل أحد ما بين الأذرع والسيقان والأجساد المتشابكة الموجودة فوق لوثيا وتمنعها من الحركة بل وتقريبًا من التنفس. إنها خوانا.

- ساقطة. أنتِ ساقطة!

تشعر لوثيا بشيء ما يجذبها. تُبعدها قوة الجذب هذه في النهاية عن الذين أسروها وتُعيدها إلى الشارع. تحاول أن تعرف مكانها وهي هائجة ودائخة. تعرف أن الكابوس لم ينتهِ وأنها ستظل عالقة فيه إلى أن تفقد قدرتها على التحمل. لم تعد لديها قوى حتى للبكاء. تسيطر عليها فكرة واحدة، أنها تستحق كل أشكال العقاب. جاءت بها أفعالها إلى هذه الجحيم. تستحق أن تُلحق ضررًا بنفسها وأن تعاني.

تبحث عن حجر في الأرض أو شيء تكشط به جلدها، فتجد تحت قدميها قارورة زجاجية مكسورة، كأن القدر قرر تسليمها لها على وسادة وثيرة.

يلتصق دم الفتيات المتجلط بطرفها. تأخذ قطعة من الزجاج المكسور وتقرِّبها من ذراعها، لكن اليد التي أنقذتها من الحشد الهائج توقِفها. تتعرف على صاحبها الآن.

- ستجدين نورًا في النهاية، حين تبدو كل الأمور على وشك الانتهاء. لا ترتبط هذه المدينة بالظلام فحسب. قولي لدونوسو ألا يخاف. لم يعد توماس أجيرِّي، هذا الكارليُّ، الشخص نفسه الذي عرفته. أنتِ قادرة على تحويلهما.

يُفلت يد لوثيا ويرفع يده نحو وجنتها ويداعبها.

- لن تتركك مدريد وحدك.

- ليتك إلى جواري.

تعجز عن كبح دموعها. تبحث عن ذراع دييجو. تحتاج إلى الدفء الذي أهداه إليها في ذلك اليوم الأخير الذي ودَّعا بعضهما فيه إلى الأبد من دون أن يعرفا في الغرفة التي منحها فيها ملاذًا. شعرت مع ذراعيه وأنفاسه بالأمان والثقة في أنه مهما ازدادت قتامة الرحلة، فإن لها نهاية، وفي أنهما سيخرجان معًا من هذا النفق. مع ذلك تتلاشى هيئته كالدخان وهو على بعد سنتيمترات منها ويضيع وسط الليل.

تغدو المدينة مقبرة مرة ثانية، بصمتها وبرودها وبُعدها. يبحث القمر المكتمل عن انعكاسه في شظية الزجاج التي لا تزال في يد لوثيا. لا تفكر مرة ثانية. تغرز طرفها في معصمها، فترسم بها خطًّا متعرجًا وينفتح لحمها حتى كوعها. تشعر بألم لا يُطاق، لكنها لا تفكر في التوقف. تصرخ كي لا تفقد قواها. تصرخ لكيلا تسمح لنفسها بالتفكير.

تشعر بحرقة في حنجرتها من الصراخ، لكنها حين تنظر إلى ذراعها تجدها سليمة. تتعرق وسط رؤيتها الضبابية. تستغرق وقتًا في التعرف على الحيز المحيط بها. إنها داخل غرفة فارهة جدًّا، وترقد فوق أوثر فراش استقر عليه جسدها. ينفتح الباب وتدخل آنا كاستيلار.

- اهدئي. إنه مجرد حلم.

تجلس آنا إلى جوارها وتجفف العرق من فوق جبهتها بمنديل. تتذكر لوثيا الآن أنها بمجرد وصولها إلى القصر، رافقتها آنا إلى هذه الغرفة حيث

تركت جسدها يسقط فوق الفراش وهي مغلوبة على أمرها، لتستيقظ لاحقًا بعد عدد لا تعرفه من الساعات.

- سمعتك تصرخين من غرفتي. لا تقلقي وتنفسي، الآن أنت في مأمن.

تشعر لوثيا بأن بصيرة من نوع غريب قد استقرت داخلها. لا تبكي أو ترتعش كطفلة لا تقدر على الدفاع عن نفسها.

- لا أحد في مأمن، فمدريد عبارة عن مزيج من الأكاذيب والموت. الأمر المؤكد أن جسد أختي في أي مستنقع موحل، أو ربما أن أحدًا سيلقيه فيه غدًا. لا فارق. ستموت مثل الأخريات والذنب ذنبي.

- ليس الذنب ذنبك، وإنما ذنب هذه المدينة. تلتهم مدريد نفسها، لكن يومًا ما ستولد مدريد مختلفة عن تلك التي نعيش فيها الآن. ستكون نسخة تتجاوز فيها هذه المعارك الداخلية من دون كارليِّين أو محاكم تفتيش، بل ومن دون أن تغدو الاغتيالات عملتها الرائجة. إنها رحلة صعبة وملأى بالمعاناة، لكن ستشرق الشمس في النهاية.

تمكنت آنا من انتزاع ابتسامة خفيفة من لوثيا. لا تعرف أن كلماتها يتردد فيها صدى النبوءة التي قالها دييجو لها في الكابوس. سينتهي هذا المخاض الذي تحياه مدريد وستعود إلينا مدينة أفضل، وهي مدينة ترغب لوثيا أن تفكر في أنها ستتمشى عبرها وهي تمسك ذراع كلارا.

- سيعود زوجي اليوم من البلاط، وهو رجل صاحب صلات. سأطلب منه أن يعمل مع الشرطة أو الجيش لو تطلب الأمر، كي يعثروا على أختك.

ترقد لوثيا فوق حجر آنا التي تسرح بأصابعها فوق شعرها الأحمر النامي الذي يُكسب رأسها ملمسًا مخمليًا. شعرت منذ لحظات بأن روحها مثل شخص يحتضر يعرف أن نهايته محتومة. ربما هو أمر صحيح، لكنها لن تتوقف عن الكفاح إلا إن ألصقت أذنها بقلب أختها وسمعت أنه لا ينبض. لو حدث هذا ذات يوم، فستُنهي هي الأخرى حياتها.



لا تزال بعض المقابر الصغيرة الموجودة وراء كنائس مثل «القديس سباستيان» و«الهناء السعيد» تشهد بعض حالات الدفن، على الرغم من أن الملك جوزيف بونابرت أرسى في 1809 قواعد تفرض إخراج المقابر من المدينة خشية من أن تلفظ الأرض ما فيها من جثث بعد أي حرائق أو كوارث طبيعية، إذ إن حريقًا في كنيسة «الصليب المقدس» عام 1773 أغرق المدينة في الرائحة المنفرة لجثث من دُفنوا هناك. لهذا السبب تحديدًا شُيدت مقابر كثيرة خارج «الجدار».

أولها وأكثرها فخامة هي «مقبرة الشمال» الواقعة بالقرب من «بوابة فوينكارّال» التي تُسمى أيضًا بـ «بوابة بلباو». يُمكن قياس مدى أهمية أي مدينة عبر عدد الموتى الذين تحتضنهم. تخطى الموتى عدد الأحياء في مدريد منذ فترة، بل وصاروا يهددون باحتلال أرضهم، ولهذا قرر خوان دي بيانويبا، مهندس «مقبرة الشمال»، أن يستلهم عمله من الباريسي بير لا تشيز، فاستقر على إنشاء أفنية تضم كُوات للدفن على عدة مستويات داخل الجدران.

بمجرد أن يمر المرء أمام الصليب الحجري الذي يستقبل الداخلين، سيجد الكوة التي ستُدفن فيها خوسيفا «اللبؤة». تقع في أفخم فناء ضمن أفنية المقبرة الستة، وتحيطها جثث لأفراد من عائلات مشهورة ونبلاء مهمين. ليس السماح بدفنها هنا أمرًا سهلًا على الأرجح، لأن العاهرات عمومًا لا يُرحَّب بهن في أي مكان، حتى وإن تعلقت المسألة بخوسيفا، صاحبة أنجح ماخور في مدريد. هكذا يخلص توماس أجيرِّي إلى أن الأمر تطلب تدخلًا من شخص لديه نفوذ كبير.

لا يحضر الدفن إلا عدد قليل من الأشخاص، نتيجة لحظر التجمعات الحاشدة، ولأن الرجال الذين استمتعوا برفقة وصداقة القوادة في السر ليسوا مستعدين للظهور في العلن. يراقب أجيرِّي المراسم المقتضبة من بعيد. لا يزال كاحله ملتهبًا. شق عليه الوصول سيرًا إلى المقبرة. يستند إلى نافورة ينبثق منها خيط رفيع من الماء. نام بضع ساعات في بيت مهجور، ما دفعه إلى التفكير في لوثيا ومصنع الثقاب الذي حكت له أنها اتخذته ملاذًا هي وأختها. فكر أيضًا في لوثيا لأنه تخيلها بمفردها وهي تمضي عبر الشوارع بحثًا عن كلارا. فكر فيها، أكثر من كاحله المصاب، إذ آلمه كيف تركها عند بوابة «المستشفى العام» منذ ليلتين. استيقظ وهو يفكر في العثور عليها، لكنه لم يجدها في بيت دييجو، وإنما وجد طالبًا إكليريكيًّا أحمق. تمكن بفضل انتحاله لشخصية الأخ براوليو مرة أخرى من التحدث معه بل ودفعه إلى دعوته لتناول الإفطار في إحدى الحانات. أكل هناك الخبز المحمص بشهية، بل وسدد له الطالب ثمن قطعة من سجق «الشوريثو». في المقابل غذى مخاوف الطالب الإكليريكي وحكى له عن مذبحة الرهبان بكل تفاصيلها. «هذه هي الطريقة التي سترد بها المدينة على تفانيك من أجل الرب». أراد فقط أن يُثير فزعه. لا يعرف أجيرِّي الآن أصلًا ما إذا كان يؤمن بالرب، بل إن تفريغ المدريديين لغضبهم المشحون ربما صار يبدو له عادلًا. سقط إيمانه، وتفانيه لنصرة القضية الكارليَّة، كالأقنعة وهي تتساقط في نهاية حفلة تنكرية. مع ذلك لا يشعر بالإحباط، وإنما نقيضه. لو أنه أراد الاستمرار في تنفيذ المهمة التي قادته إلى مدريد لاقترب من خوليو جامونيدا من دون أن يدخر جهدًا في استخدام العنف لينتزع منه هوية من وقف وراء الوشاية

بالكارليِّين المُسمَّمين، لكن أولوياته صارت مختلفة الآن. يود الآن أن يصارع من أجل لوثيا وكلارا والفتيات الأخريات اللاتي حبسهن معلمو «مشعلو الفحم»، فهذه المسألة حقيقية أكثر من أي شيء آخر فعله في حياته. كان الموت في الجبهة، إلى جوار ثومالاكارِّيجي، ليصبح سخيفًا، لكن الموت من أجل هذه الفتيات ليس كذلك، سواء كان هناك رب أم لا ينتظره في العالم الآخر. لهذا السبب لم يفعل شيئًا سوى البحث عن لوثيا.

لكنها ليست في المقبرة، إذ لا يوجد سوى عاهرات قليلات، بعضهن كبيرات في السن بصورة يفترض معها المرء أنهن متقاعدات. بعيدًا عن مجموعة النساء، يلفت الانتباه وجود رجل أبتر يستند إلى عكاز وهو يرسم الخطوط العريضة لشيء ما في دفتر. إنه بائس. يكفي المرء فقط أن ينظر إلى ملابسه ليدرك المسألة. لهذا فأجيرِّي مقتنع أنه ليس المُحسن الذي جعل عظام «اللبؤة» تستريح في مكان مميز كهذا.

مع انتهاء المراسم، يقترب من امرأة تتشح بالسواد، لكنها شابة. حين تُخبره بأن اسمها دلفينا، يتذكر أن لوثيا تحدثت معه بخصوصها. إنها أم إحدى الفتيات اللاتي قُطعت أوصالهن.

- لا أعرف أين هي هذه الفتاة. ربما مرد الأمر الحمى، لكن خوسيفا في لحظاتها الأخيرة لم ترد سوى التحدث معها. تعجلت الأمر أكثر من وصول قس لإجراء المسحة الأخيرة. حين وصلت لوثيا البيت، كانت المسكينة قد فارقت الحياة فعلًا.

- أليس لديكِ أي فكرة إلى أين ذهبت؟ طلبتْ مساعدتي. أعرف أن السلطات تبحث عنها وفكرت في إخراجها من المدينة.

يكذب أجيرِّي لتلافي الإحجام الذي قد يُثيره وجود راهب بزي كنسي مُتسخ في دلفينا. مع ذلك توقفت عن إعارته اهتمامها، إذ تُحدق الآن بازدراء إلى الأبتر الذي يرسم، فإذا به يغلق دفتره، كأنه يشعر بعينيها تصفعانه، ويجر عكازيه بعيدًا عن الفناء.

- مقرف. أطعمته «اللبؤة» حينما لم يرِده أحد بقربه، يظن أنه قد أفلت بآثامه لأنها لم تعد موجودة.

- دلفينا، أحتاج إلى معرفة مكان لوثيا.

- قلت لك إنني لا أعرف.

- أنا أحاول منع قتل فتيات أخريات كابنتك.

صارت كل الأوراق مكشوفة على الطاولة. قالها أجيرّي. ليس لديه وقت فائض كما أنها ليست اللحظة المناسبة للحيل. لو أن دلفينا لديها معلومة قد تساعده، فهو في حاجة إليها الآن. يبحثان عن فناء خاوٍ لإكمال محادثتهما. يتحدث معها عن «مشعلو الفحم» وعن الطقوس التي يمارسونها وعن أن ابنتها راحت ضحية لأفعالهم.

- لا يُمكن أن نفعل شيئًا لخوانا، وإنما من أجل الفتيات اللاتي ما زلن على قيد الحياة.

- قرأت لي «اللبؤة» مقالًا للصحفي الذي جاء للماخور. بدا لي محض خيال. لوثيا من جلبت «الوحش». هذا الرجل ذو الوجه المحروق.

- «الوحش» مجرد بيدق لـ «مشعلو الفحم». ما الذي قالته لكِ «اللبؤة» أيضًا؟

تسير دلفينا إلى جدار كُوات الدفن. تنظر إلى الشواهد التي نُحت بعض الملائكة على حجارتها، فيما نُقشت على أخرى رسومات سيئة الجودة للموتى. تُبعد شعورها بالحنين كمن يهش حشرة وهي تقول:

- لا أعرف أين ترقد ابنتي.

ثم تلتفت نحو الراهب المزيف.

- أظن أن «اللبؤة» ظلت تهذي في ساعاتها الأخيرة. قالت إنها من جلبت «الوحش»، وليس لوثيا، وإن الذنب يقع عليها في موت خوانا. كانت محمومة.

- لماذا تظنين أنها قالت هذا الأمر؟

- على ما يبدو ألقت لوثيا الذنب على أحد زبائن الماخور. قالت إن أحدًا منهم اختار خوانا حبيبتي كي يأخذها «الوحش».

يُمكن لهما رؤية الفناء الذي دُفنت فيه «اللبؤة» من حيث يقفان. حين اقترب توماس أجيرِّي من دلفينا، تمكن من قراءة الأسماء المركبة لبعض النبلاء وتعرف على ألقاب بعض البرجوازيين من أصحاب الحظوة في البلاط.

- من الذي سدد مصاريف دفن خوسيفا؟

- عشيقها. إنهما معًا منذ سنوات كثيرة. إنه قاضٍ. اسمه خوليو جامونيدا.

لم يواجه صعوبات في التوصل إلى عنوانه، وهو قصر يقع في شارع «الكونت دوكي»، إلى جوار ساحة «حرس الفيلق»، فخوليو جامونيدا شخص معروف في المدينة. أتى شخصان على ذكره بالفعل، دلفينا وتيودوميرو جارثيس تاجر الأدوية بالأمس. أخبره أيضًا بأمر الشائعات التي تقول إنه عشيق قوادة وبأن تعاطفه مع الكارليِّين ظهر في كل واحد من أحكامه القضائية. لقد عزم على إيجاد لوثيا وصارت مهمته لا تقبل مزيدًا من التأخير. «خ.ج». ظل هذان الحرفان يضربان رأسه طوال الطريق إلى شارع «الكونت دوكي». ظهرا في القائمة التي كتبها الأب إجناثيو جارثيا، إلى جوار اسم «الشرق الأبدي» المُشفَّر، ضمن سادة «مشعلو الفحم» الاثني عشر.

قرر أن يظل مرتديًا ثوب الكاهن، لأنه على الرغم من اتساخه وتمزقه، جواز مرور مثالي لدخول بعض الأماكن. تفتح له إحدى الخادمات فيطلب ملاقاة سيدة المنزل. ترجوه أن ينتظر في مدخل البيت، فهي ستتأخر بضع دقائق.

يتخطى عمر ليونور أوروتيا الخمسة وأربعين بقليل. لها ملامح حادة وترتدي فستانًا أسود لم يعد رائجًا وشعرها شائب ومعقوص في ضفيرة. إنه المظهر المعتاد للنساء اللاتي يحطن بالمواهف[1]، ولامرأة مُفرطة في التقوى ستغدو حساسة أمام رجاء أي راهب. يسمح أجيرِّي لنفسه بتفكير بذيء وغير نبيل نوعًا ما: ليس غريبًا أن يبحث القاضي عن رفقة «اللبؤة».

- ما مسعاك يا أخي؟

- طلب المساعدة من مسيحية طيبة. دُمر مصلى ديري بعد جنون الأسبوع الماضي.

---

(1) جمع موهف وهي غرفة في الكنيسة يُحتفظ داخلها بالأغراض المقدسة. (المترجم).

- لا أعرف كيف سمحت الحكومة بالأمر. يجب أن يحترقوا في الجحيم، حتى ولو بسبب هذا الأمر فقط. تلتهم قوى الشر إسبانيا. ليت الرب ينهي هذا الكابوس يومًا ما.

- ليسمع الرب منك! أنتِ لا تعرفين كيف تعبِّر كلماتك عن الحقيقة. حالفنا التوفيق ولم يمت أي من إخوتنا في الهجوم، لكن حريقًا أشعله هؤلاء الهمج أحرق كل شيء، اللوحات والمنحوتات، لم يعد لدينا كأس أصلًا لمباركة جسد ودم يسوع.

- ادخل. هل تريد تناول الشاي؟ سنتحدث مع زوجي. أنا متأكدة من أنه سيخرِج صدقة إلى ديرك. لم تقل لي أي دير هو.

- دير «القديس لويس» في شارع «مونتيرا».

- إلى جوار المكان الذي بدأ فيه كل شيء. يقولون إن عصابات مجرمة خرجت من حي «الشمس». يا للمهزلة!

ينتظر توماس أجيرّي في مكتب صغير قرب مدخل البيت، فيما تمضي دونيا ليونور لمناداة زوجها. لا يُزين الجدران شيء سوى لوحة تُمثل المسيح وهو يعظ داخل معبد. إنها لوحة قديمة لكنها تخلو من الجماليات. أيضًا توجد بعض قطع الأثاث الكلاسيكية القشتالية التي لها قيمة اقتصادية كبيرة، لكنها غير مريحة في الجلوس.

- مساء الخير يا أخي. لم تخبرني زوجتي باسمك.

- براوليو، الأخ براوليو.

- قالت لي إنك من دير «القديس لويس». لم تنمُ إلى علمي أنباء عن تأثره بالهجمات.

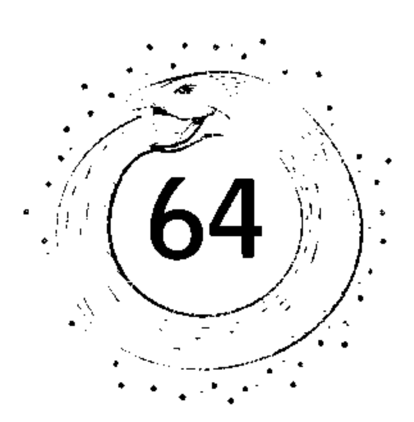
- هذا لأن أيًّا من الإخوة لم يلقَ مصرعه. مقارنة بما حدث للبقية، لم تتخذ الأمور منعطفًا سيئًا، لكن المصلى تدمر، وللأسف تُوفي الشخص الذي لطالما ساعدنا اقتصاديًّا.

- تقبل عزائي.

- ربما تعرفها. إنها دونيا خوسيفا أرلابان.

يرتبك خوليو جامونيدا، فيتحقق مسعى أجيرّي. يتحول تعبير وجهه المسترخي إلى عبوس مفعم بالتوتر. يُجبره دخول زوجته في رفقة خادمة تحمل صينية عليها ثلاثة أقداح وطبق من المعجنات على المداراة.

- ليونور، قررت مساعدة الدير. ما فقدوه قيم جدًّا، لكن من الأفضل أن أتحدث مع الأخ براوليو في المكتب، وألا يُزعجنا أحد.



دون بينيتو جرانادوس، دوق ألتويانو، زوج دونيا آنا كاستيلار، رجل أنيق ويتباهى بأنه لم يظهِر قط مشاعره علنًا، بل نادرة هي المرات التي أظهرها في السر أصلًا، لكن الغضب يُسيطر عليه الآن ولهذا يتحدث مع زوجته بقسوة. تظل هادئة وتسمح له بتفريغ مشاعره. تعرف أنه لن يفقد صوابه بسبب شيء تافه كالخيانة الزوجية.

- الاتفاق كان واضحًا، وجب عليكِ فقط أن تتجنبي القيل والقال، لكنكِ نسيته كله بالكامل.

- في هذه المدينة يُعرَف كل شيء قبل أن تفعله أصلًا. ليست المرة الأولى التي يحدث فيها أمر كهذا.

الأمر صحيح. لطالما صار الدوقان هدفًا للنميمة بسبب عادات آنا كاستيلار الخليعة. مع ذلك حدث مرة واحدة أن خطر على بال أحد، وهو محامٍ معروف، أن يأتي على ذكر الأمر في وجه الدوق مباشرة، فتلقى حينذاك رد فعل زائدًا على الحد من دون بينيتو جرانادوس، الذي لم يتردد في منازلة المحامي المتهور وإثبات أن الإشادة بمهاراته في المبارزة ليست محض مبالغات،

وعلى الرغم من اتفاقهما على انتهاء النزال مع أول قطرة دم، ترك الدوق علامة ستظل باقية على وجهه طيلة حياته.

- وصحفي أيضًا؟ لم أظن قط أنكِ قد تهبطين إلى مثل هذا المستوى!
- من فضلك يا بينيتو، أنت تعرف أنه كان هناك رجال من كل الطبقات الاجتماعية. الصحفي ليس أقل من فيهم. بخلاف هذا لم يكن لديَّ خيار.
- هل وجب أن تحضري الدفن؟
- وجبت أمور كثيرة لا تعرف عنها شيئًا لأنك كنت في البلاط.

يبحث الدوق عن زجاجة من نبيذ خيريث ويصب لنفسه كأسًا. يذوقه قبل أن يقرر استئناف لوم زوجته:

- والبكاء أمام قبره من ضمن هذه الأمور؟
- كانت دموعًا حقيقية.

ملت آنا من كل هذا التمثيل الإيمائي، فلعبة المشاعر المجروحة التي يُمارسها زوجها خارج الإطار. يصب بينيتو لها كأسًا من نبيذ خيريث هي الأخرى:

- هل أغرمتِ بـ «القط المستخف»؟
- أفترض أن الأمر يبدو سخيفًا، لكن هذا ما حدث. حين مات انكسرت روحي. قد أبدو لك غبية، لكنني في بعض الأيام فكرت في اللحاق به، لا لأنني حلمت بلقائه في الفردوس إلى جوار الرب، فأنت تعرف أنني ليس لدي إيمان بأي شيء موجود بعد الموت، وإنما لأنني فكرت في الانتحار بعد أن شق عليَّ النظر إلى نفسي في المرآة، والتعرف في ملامحي على المرأة التي بدأت كل هذا. لم أجد إلا قاتلة، لا المرأة التي رأى دييجو أنها موجودة داخلي. هل تحولت إلى ما أمقته؟
- وفقًا لما أراه، فهذه النوبة الرومانسية انتهت كنوبات الحمى.
- أنت قلتها، كالحمى! لا تزال تؤلمني عظامي، لكنني استعدت السيطرة. أعرف أنه في الحرب يجب على المرء أن يتقبل الخسائر. لا نصارع من أجلنا وإنما من أجل المستقبل، كي نُسلم إلى الجيل التالي بلدًا أفضل.

تُفرغ آنا الكأس في جوفها. تهدأ حنجرتها مع طعم الشراب الحلو. شعرت بأنها تحرقها مثل كل مرة تذكرت فيها دييجو. على الرغم من أنها

قالت لزوجها إنها تجاوزت حنينها إليه، فالأمر ليس كذلك، لأنها حين لا تتوقع الأمر، تتذكر ابتسامته وهو هنا تحديدًا في قصر شارع «لا أورتاليثا»، حين دعته لتناول العشاء، وبالمثل قبلاتهما فوق الفراش، وتفانيه في المحجر. لا تريد أن تخسر هذه الصور، لأنها تعي أنها لن تشعر فيما يتبقى من حياتها بإحساس بمثل هذا النقاء حيث يتمازج الإعجاب مع المودة والرغبة. لربما اختلفت القصة لو لم تصل إليه عبر «الوحش» والمقالين اللذين كتبهما في «إل إيكو ديل كوميرثيو»، ولو أنه تخلى في أي لحظة عن تحقيقه. يقدر الحب على كل شيء، بل وربما كان ليتغلب على هوس الصحفي بهذه القصة، لكن الأمور لم تسِر هكذا.

تصرف مارثيال جارِّيجيس -أو «الوحش» كما سموه بحذاقة من يعيشون عند الجانب الآخر من «الجدار»- بإهمال في أيامه الأخيرة وترك خلفه كثيرًا من الأمور العالقة. لا يتعلق الأمر فقط بالخاتم الذي سرقته لوثيا من بيت الأب إجناثيو، وهي مشكلة كان من الممكن حلها من دون تعقيدات كثيرة، وإنما بالقائمة التي كتبها رجل الدين الكارليُّ، ففيها تظهر الأسماء المشفَّرة والحروف الأولى لمعلمي «مشعلو الفحم» الاثني عشر، بما فيها هي آ. ك. «المعلمة العظيمة»، ملكة هذه الدزينة المختارة.

- ما الذي عرفتِه عن القائمة؟
- لو أن أحدًا يقدر على أن يخبرنا بمكانها، فهي لوثيا.
- الفتاة ذات الشعر الأحمر، رأيت أنكِ جعلتِها تستقر في غرفة الضيوف.
- تثق بي. أختها من ضمن فتيات الديماس وكادت أن تُحرك السماء والأرض بحثًا عنها.
- بعد كل هذا المجهود، لا يُمكن لطفلة أن تهدم كل شيء.
- عرفت كيف تُحيط نفسها بحلفاء جيدين.
- مثل هذا الصحفي، أليس كذلك؟ لا أعرف يا آنا ما إذا كانت قناعاتك قد بدأت تضعف.
- مات دييجو. من يُقلقني هو ذلك الراهب الذي اقترب من الفتاة. اسمه توماس أجيرِّي وعمل تحت قيادة ثومالاكارِّيجي في الشمال. أبلغني عدة عملاء بالأمر. لا بُد أن القائمة معه الآن، لكنني سأبحث عن طريقة لاستعادتها قبل أن يتحقق أحد مما تشير إليه الأحرف الأولى.

- إنها أول مرة أشعر بالخوف في صوتك.

- وحدهم الحمقى من لا يشعرون بالخوف يا زوجي العزيز. للأسف كلنا معرَّضون للخسارة، حتى أنت. على الرغم من أنك تظن أنه لا يُمكن النيل منك وأنت إلى جوار الملكة الوصية، فإفلاتك من العقاب ليس مضمونًا، حال انكشف كل شيء، مع أنك لم تلعب سوى دور الواشي.

- لا تقللي من تقديري. بأي طريقة أخرى كنتِ ستعرفين أسماء الكارليِّين؟

لا يطيق الدوق نظرة آنا. يملأ كأس النبيذ ويبحث عن مقعد ليسقط فوقه. سيساعده الكحول على تحمل أيامه في القصر وشبح الزوجة التي قد تقتله بطقطقة من أصابعها. شاهدها تأمر بإعدام أشخاص وتختار فتيات إلى جوار «الجدار»، وقرأ المقالات التي تصف كيف ظهرن وهن مقطوعات الأوصال.

- ما الذي تريدينه مني؟ أفترض أنك لم تجعليني آتي من البلاط كي أحضر هذه الحفلة ولتقديمي إلى الفتاة.

- يرتبط الأمر بخوليو جامونيدا. كسر اتفاق الصمت. رافق عاهرة إلى القصر كي يُسلمه «الكاهن» الشراب. أفترض أنه فعلها مدفوعًا بعِرق الكارليِّين العاطفي لأنني لا أفهم طريقة أخرى قد تدفعه إلى التفكير في أنه سينجح في الأمر. لسوء الحظ، رآني حين وصلت.

- طلبتِ مني الشيء نفسه بخصوص أسينثيو دي لاس إيراس منذ بضعة أيام. لا يُمكننا إثارة كل هذه الجلبة. يجب أن نترك الأمور تهدأ حتى...

- افعل ما أطلبه منك يا بينيتو. يجب أن يموت خوليو جامونيدا. يعرف من أنا. قد يتمكن الراهب من ربط الأمور ببعضها بسبب وفاة «اللبؤة». ربما أجيرِّي مجرد محارب، لكن الوصول إلى القاضي عبر الساقطة ليس أمرًا معقدًا، وكذلك أن يخبرهم بمن هي «المعلمة الكبرى». على أي حال نهايته كانت مقرَّرة في الطقس القادم.

لن تناقش آنا قراراتها مع الدوق. توقفت عن فعل هذا الأمر منذ فترة. لقد اختارت طريقًا لم يفعل زوجها شيئًا فيه سوى السير خلفها.

- سأفعل ما تطلبينه.

يترك بينيتو جرانادوس الكأس الخاوية فوق المائدة. يغادر الصالون بظهر محدب وهو يقول في نفسه إن الجبن ليس ما يُجبره على تلبية رغبات

زوجته، وإنما الواقعية، فمعارضتها أمر مستحيل. ما دام ظل نافعًا، فسيستمر في الحفاظ على هذا المكان الذي يستمتع به جدًّا في البلاط.

تجلس آنا على مقعد الصالون الذي تركه زوجها خاويًا، وتتمكن عبر النافذة الداخلية من رؤية الفناء الذي تتنافس الطيور فيه بتغريداتها. تنظر إلى الوراء ويشق عليها تذكر كيف مرت أيامها قبل أن يبدأ كل هذا.

ذات صيف في باريس، حظيت بعلاقة رومانسية مع دبلوماسي إيطالي اسمه ميكيلي سيلفاني. رافقها إلى الاجتماع الأول لجماعة «مشعلو الفحم» السرية. طالبوا بالحريات وسط مزيج من الطقوس والرموز التي تُذكِّر بالماسونيين، لكنهم فعلوها من منظور الجندية، العنف ليس سوى أداة لتحقيق ما يريدونه. إنه شر لا بُد منه وسط الحرب. جذبتها رؤية هذه الجماعة منذ البداية. ودت أن تعرف المزيد وأن تغدو جزءًا من دائرة «مشعلي الفحم» الحصرية، ولهذا أصرت حتى رافقها ميكيلي سيلفاني إلى هذه الاجتماعات.

اثنا عشر شخصًا من ذوي القلنسوات. اثنا عشر شخصًا يختبئون وراء أسماء مشفَّرة. التقوا في قاعة مهجورة داخل سجن «لا فورس» في شارع «روا دو سيسيل»، لكنهم لم يتحدثوا هناك عن السياسة، وإنما عن كونهم سلالة يجب أن تنجو أمام أي تهديد، لأنهم مهندسو المستقبل. قالوا إن بقاءهم على قيد الحياة أهم من أي شيء، بل ومسؤولية. أكثر التهديدات التي أثارت قلقهم في ذلك الصيف الباريسي هي الكوليرا بعد أن انتشر المرض في المدينة ولم تنفع كل العلاجات الطبية.

أثَّر الخوف من الكوليرا على «المعلمين»، فجاءت الخرافات. أتى واحد من ذوي القلنسوات -ولم تعرف اسمه قط- إلى أحد الاجتماعات ومعه موجز عن الكيمياء. لطالما فزعت آنا من هذه الكلمة المجردة، «الكيمياء»، لكن بقية الحلقة أنصتت باهتمام إلى ما أراد ذو القلنسوة هذا أن يقوله، لقد جمع يوهان كونراد بارشوسين، وهو أحد أساتذة كيمياء القرن الثامن عشر من مدينة ليدن، مخطوطات كيميائية مجهولة الأصل وأمر بنشرها، تقريبًا بغرض التسلية. يظهر داخل هذا الموجز -بخلاف كيفية تصنيع حجر الفيلسوف- طريقة صنع خلطات تُشرَب لها قدرات إعجازية. ارتكزت إحدى الوصفات على استخدام الحيض الأول، أو دم الدورة الشهرية الأول، لصناعة إكسير له خصائص شفائية، بل والقدرة على القضاء على الطاعون الأسود. لم يتضمن

الأمر شيئًا علميًا، إذ كان مجرد شعوذة ترتدي ثوب الدين. لم يكفِ الحصول على الدم فقط، إذ وجب أيضًا التضحية بصاحبته.

ابتعدت آنا فورًا عن هذا التوحش وقررت العودة إلى إسبانيا. لما رجعت عرفت أن «مشعلو الفحم» بدؤوا يُشكّلون جماعة في مدريد. قررت حضور هذه اللقاءات في «بيت شركة الفلبين» في شارع «كارّيتاس»، حيث اعتاد أن يجتمع ماسونيّو «محفل الشرق». كانوا مجرد قلة، لكن داخل هذا الإطار رأت آنا فرصة لمكافحة الحركة الكارليَّة التي أخذت قوتها تتصاعد ولطالما اعتبرتها أكبر خطر على مستقبل المجتمع.

طغى حضورها وسط «مشعلو الفحم» وسارت على الفور في الطريق الذي دفعها لتصبح «المُعلمة الكبرى»، ألا وهو وعد بالحصول على شراب الدم المُعالِج للكوليرا. تحول السحر والخرافة والخوف إلى السلاح الذي وصلت به إلى القمة، إلى مكان السلطة المخفي دائمًا بين الظلال.

حين رأت الأمر مناسبًا، نسخت حلقة «المعلمين الاثنا عشر» تحت وعد بأن من سيصل إلى هذا الشرف سيُكشف له أكبر أسرار «مشعلو الفحم»، علاج كل الأمراض، فصارت كإحدى هذه الزهور الجميلة اللاحمة التي تُفرز روائحها الفاتنة لتأسر ضحاياها.

صار الخلط بين خطاب «مشعلو الفحم» السياسي المعادي للكارليَّة والغموض المحيط بهذا «الكشف الأخير» مثاليًا لجذب كارليِّين لهم وزنهم. جاء بعضهم برغبة في استقصاء الحركات الإيسابيلِّيَّة، وآخرون بعد أن أغواهم السحر الخفي لآخر درجات هذه الجماعة. بدا منذ الجلسات الأولى أن كلًّا من أسينثيو دي لاس إيراس والأب إجناثيو جارثيا منجذبان إلى هذا السحر، أما الفتيات فتعلمت آنا أن تراهن كجنود سقطوا في المعركة.

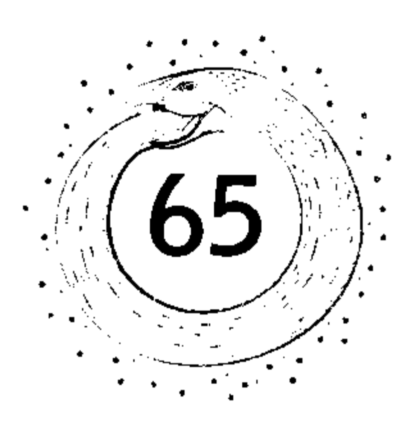
اعتادت بعد الطقوس أن تُسقط بضع نقاط من الزرنيخ في القارورة، من دون أن يلاحظ أحد الأمر. مات آخرون قبل أسينثيو دي لاس إيراس والأب إجناثيو جارثيا حين شربوا ما ظنوا أنه سيُبقيهم على قيد الحياة. سقط خمسة عشر كارليًّا بشرابها ودُفنوا ضمن أرقام ضحايا الكوليرا.

ربما كانت ستتمكن من مواصلة الأمر من دون عثرات لولا لوثيا وسرقتها المتهورة، ولولا دييجو. من المثير للسخرية أن الشخص الوحيد الذي أحبته فعلًا هو الشخص ذاته الذي أوشك على إفساد مسعاها. لو أنه موجود أمامها

الآن، لقالت له إنها ليست المسخ الذي يظنه، لأن جرائم «مشعلو الفحم» في باريس، كانت ستتكرر في مدريد بمجرد أن يثبتوا أوضاعهم، ليقتل اثنا عشر شخصًا من ذوي القلنسوات فتيات أبرياء. ما فعلته هو استخلاص شيء جيد من هذا الأمر المرعب، ألا وهو القضاء على هؤلاء الأشخاص الكارليِّين الذين لا يسمحون للإسبان بالتحليق بحرية والتخلص من الموروثات القروسطية وبناء مجتمع أعدل.

تُحاول آنا أن تنفض الحزن عن ذاتها بتناول جرعة أخرى من نبيذ خيريث.

مات دييجو. ليست في حاجة إلى تبرير نفسها أمامه. سيظل سر «مشعلو الفحم» باقيًا حين تعثر على توماس أجيرِّي وحين تختفي لوثيا. لن يتذكر أحد اسميهما وما أوشكا على كشفه.



يقع مكتب القاضي جامونيدا في مكان منفصل نوعًا ما عن بقية البيت، تحديدًا في جناح في حدائق القصر ربما كان إسطبلًا في زمن آخر، لكنه الآن صار مجهَّزًا بكل أشكال الرفاهية، ومن ضمنها أرفف ملأى بالكتب المُجلدة، ومدفأة مطفأة ومقاعد تدعو المرء للجلوس عليها.

- لا أعرف لماذا قد يزج شخص يستمتع بكل هذا بنفسه في المشكلات.

لا يبدو القاضي، الذي يعتاد الوعظ وتحديد توقيت كل شيء، مستعدًا لأن يدير الراهب دفة المحادثة.

- قل لي من أرسلك. لماذا ذكرت اسم خوسيفا أرلابان أمام زوجتي؟

- ليس من شيم المسيحية أن يحظى رجل كاثوليكي متزوج بعشيقة، وبخاصة إن كانت صاحبة ماخور، لكن أفترض أنك ستعترف قبل الوفاة وستطلب الغفران. لا أعرف ما إذا كانت سهولة غفران الخطايا هكذا أمرًا جيدًا أم سيئًا.

استعاد خوليو جامونيدا رباطة جأشه في الطريق المفضي إلى الجناح الذي يستخدمه مكتبًا. انخفض مستوى التوتر في وجهه، ولم تعد نظرته

تتفادى الراهب الذي نطق اسم عشيقته منذ لحظات، فالآن هو الرجل الحاد المعتز بنفسه، والمشهور بقسوة أحكامه.

- ما غرضك؟ المال؟

- لا. ليس الأمر سهلًا بهذه الصورة سيدي القاضي.

يلمع نصل مِدية توماس أجيرّي المصنوعة في ألباثيتي في يده اليمنى. يتذكر صديقًا في جبهة الشمال لطالما قال له إن غرض أي مِدية هو الدم، وإنها يجب ألا ترى النور إن لم يفكر المرء في استخدامها. لطالما التزم بنصيحته، ولهذا لا يُخرجها إلا وهو يشعر بنية حقيقية لاستخدامها.

- ربما سمعت عني من قبل. اسمي الحقيقي توماس أجيرّي.

- مساعد الجنرال ثومالاكارّيجي؟

- سابقًا، لنقل إننا لسنا متحدين كما كان حالنا في أزمان سابقة.

- أنا كارليٌّ أنا الآخر. يُمكنك أن تنزل سلاحك هذا.

- قالوا إنني مسؤول عن إعدامات «حراس آلابا» بالرصاص، لكن في الحقيقة لم يربطني شيء بها. مع ذلك ينسبون إليَّ أمورًا أخرى صحيحة، ذات مرة قطعت أنوف وآذان ستة جواسيس من القوات الإيسابيلِّيّة. فعلتها بهذه المدية نفسها، فهي لا تخذلني أبدًا.

- هل يجب عليَّ أن أسمع كل هذا التبجح؟ قل لي ما الذي تريد أن تعرفه.

- «مشعلو الفحم». خواتم عليها مطارق متقاطعة. طقوس تضحية لاستنزاف دماء فتيات. إكسير ما ضد الكوليرا، ما تُسميه الصحافة «الوحش».

تهرب عينا القاضي جامونيدا من أجيرّي وهو يسعى لاستعادة رباطة جأشه من أجل الكذب بعد بضع ثوانٍ.

- لا أعرف شيئًا عن هذا.

- هل تظن أنني وصلت إلى هذا البيت مصادفة؟ لديك أذنان. سأقطع لك واحدة، وربما بعدها سأضطر إلى قطع الأخرى. بت ترى الآن أن لديَّ هوسًا معينًا بقطع الآذان.

يحاول خوليو جامونيدا أن يدفع توماس ليبعده، لكنه ليس رجلًا معتادًا الصراع البدني، على عكس الراهب الباسكي المزيف. لا يستغرق توماس وقتًا

طويلًا في تحجيمه والإمساك بأذنه بيده، بينما يقرب يده الأخرى منها وفيها المدية المسنونة.

- سأمنحك فرصة أخرى. المطرقتان المتقاطعتان؟

- سأتحدث. أقسم لك. لا تؤذني.

يُفلت أجيرِّي القاضي الذي شحب وجهه من فرط الرعب. يتحدث كجرح حديث يفور بالدم:

- «مشعلو الفحم» جماعة سرية تُهاجم تقاليد بلادنا. يريدون ملكًا ليبراليًا والفصل بين الكنيسة والدولة، لهذا تسللت إليهم. لم أكن الوحيد، فالكثير ممن يحضرون اجتماعاتهم في شارع «كارِّيتاس» من أنصارنا.

- تعرف أنني لم أسألك عن هذا، أريد منك أن تُحدثني عن الجماعة التي تجتمع بصورة منفصلة. «المعلمون الاثنا عشر».

- لو قلت شيئًا، فسيقتلونني.

- وإن لم تقل شيئًا، فسأقتلك أنا.

- لا يعرف من في الشمال معنى أن تعيش في مدريد مع الكوليرا وأن ترى الناس وهم يموتون يوميًا. قد يفعل المرء أي شيء لينقذ حياته.

- بما في ذلك قتل بعض الفتيات؟ كيف سقطت في هذه الخرافات القروسطية! كلها مسرحية لاغتيال الكارليِّين المتورطين؟ ألم يبدُ لك موت الأب إجناثيو جارثيا وأسينثيو دي لاس إيراس مثيرًا للشبهات؟ لستم أوغادًا فحسب، وإنما أيضًا حمقى.

يصمت القاضي، ويُطأطئ؛ ليس معتادًا أن يُهينه أحد. لو أن الأمر في يده لاحتج، لكن مِدية الراهب تردعه.

- من هم «المعلمون الاثنا عشر»؟ قل لي أسماءهم!

- يرتدون جميعهم القلنسوات. لا أعرف. الإبقاء على سرية هويتهم هو أول قاعدة.

يختار أجيرِّي ألا يهدده، لكنه يلف رقبته بحركة سريعة ويبتر بضربة حاسمة أذنه اليسرى.

- لقد حذرتك. لا أريد أي حماقات أخرى.

يضع جامونيدا يده فوق الفراغ الذي خلَّفته الأذن ولا يتوقف الدم عن الانبثاق منه. يبكي ويكتم صرخته لكيلا يستفز الراهب مجددًا. يفيض الدم ويسقط فوق السجاد. يحاول أن يصنع ضمادة توقف النزيف بمنديل، فيما يراقبه أجيرِّي بهدوء.

- هأنذا أكرر سؤالي، من أعضاء هذه المجموعة؟

- لماذا يجب عليَّ أن أخبرك؟ تهديداتك لا تعنيني. صرت ميتًا منذ ارتكبت خطأ مرافقة خوسيفا وأنا أحاول أن أحصل منهم على الشراب. لكن ما المشكلة؟ لست نادمًا على المحاولة. لا يهمني أنهم قد اكتشفوا الأمر.

- من الذي اكتشفه؟

- هي. «المعلمة الكبرى». آنا كاستيلار.

ينظر إليه أجيرِّي باندهاش.

- دوقة ألتويانو؟

- لم أعرف هويتها إلا حين رأيتها تصل. لطالما حضرت الطقوس ووجهها مُغطى. كفاني فقط أن أسمع صوتها لأتعرف عليها. إنها من تختار من يدخل الدائرة ومن لا يدخلها. إنها المسؤولة عن «المعلمين الاثني عشر» وعن الفتيات.

- أين تُخفيهم؟

يسقط القاضي دائخًا على الأرض من كثرة الألم والنزيف.

- لا أعرف. أقسم لك إنني لا أعرف.

- ناولني الخاتم. أعرف أنه مهم لدخول هذه الجماعة. ناولني إياه!

يزحف القاضي حتى مكتبه، وفيما يُلطخ خشبه بدمائه، يفتح مجرورًا ويُخرِج علبة صغيرة مرصعة باللؤلؤ. يُسلمها إلى الراهب ومعها مفتاح. حين يفتحها أجيرِّي يجد الخاتم الذهبي ذا المطرقتين المتقاطعتين داخلها.

- لا تقتلني.

- قل لي الآن. أين تُقام هذه الطقوس؟

تدوي فرقعة كبيرة داخل الجناح ويُسمع دوي طلقتين.

يركض أجيرِّي إلى الحديقة ويرى عبر الزجاج مجموعة من الجنود تقتحم البيت الرئيسي. تصل صرخات الخدم بوضوح ومعها صرخة حادة ورهيبة من ليونور أورِّوتيا. ينهض القاضي مترنحًا ويركض نحو البيت، تاركًا خلفه مجرى من دمائه فوق العشب.

- اتركوا زوجتي. لا تفعلوا لها شيئًا.

يرفع أحد الجنود سلاحه ويطلق رصاصة على رأسه من دون أي مقدمات. يسقط جامونيدا بكل ثقله، كطائر اصطاده صياد بمهارة. تنقض ليونور فوق الجندي وهي تصرخ بتوحش، فيستغل أجيرِّي تلك اللحظة للقفز من فوق السور الخلفي لينطلق راكضًا عبر شارع «الليمون». حينذاك يشعر بوخز الألم في كاحله، لكنه لا يتوقف حتى يصل إلى «جادة القديس برنارد» حيث يتمازج مع بقية الناس. يبحث عن ملاذ في كنيسة «مونتسيرَّات» في شارع «أراضي المزارع». يرتاح فوق أحد مقاعدها ويحاول إعادة ترتيب أفكاره.

القاضي جامونيدا من ضمن الكارليِّين الموجودين في مدريد ولا بُد أن لرأسه سعرًا، لكن جنود الجيش لا يتصرفون بمثل هذه الطريقة التي حدثت من دون دقائق. لا يقتلون من دون التفكير في العقاب وبمثل هذا البرود. ربما اليد التي نفذت الأمر هي الجيش، لكن من المؤكد أن الأمر جاء من «مشعلو الفحم». أرادوا أن يُخرِسوا جامونيدا إلى الأبد ونجحوا.

يتحسس جيب ردائه. لا يزال الخاتم الذهبي موجودًا هناك. على الرغم من أن مفتاح دخول دائرة «المعلمين الاثني عشر» صار معه، لا يعرف أين يقع الباب المفضي إليها. أيضًا لا يعرف أين ستنعقد الطقوس ومتى موعد الطقس المقبل. مع ذلك لديه اسم، آنا كاستيلار.





66

ما معنى أن تصبح الفتاة امرأة؟ ترتعش كلارا في ركن زنزانتها. بلَّل الدم خرقة الفستان التي أعطتها إياها ميريام. حين تُبعدها وتنظر إلى أعضائها التناسلية بفضول، تجد أن رقعة كبيرة من الدم المتجلط تمتد من فوق القماشة وحتى مهبلها. تؤلمها ساقاها كأنهما على وشك الانفجار، لكن بعيدًا عن هذا الألم، لا ترى نفسها مختلفة. لطالما تحدثت أمها معها في «لاس بينيولاس» عن أن الحيض يُعَد تحولًا، عن أنه سيُحولها إلى امرأة مستعدة للإنجاب. لماذا إذن تشعر أنها الطفلة نفسها التي لم تحِض من قبل؟

ربما أشرقت الشمس. لا يصل الضوء إلى الديماس ولا تزال الفتيات غارقات في نعاسهن، في صمت، انتظارًا لنزول ذوي القلنسوات للسلم الحلزوني. حين يحدث هذا، ستغدو كلارا المختارة. سيحملونها إلى الطابق العلوي وهي ملطخة بالدماء. تتذكر كيف وصفت خوانا الفتيات اللاتي ظهرن بعد مقتلهن وهن مقطوعات الأوصال. لا يعُد تخيل المعاناة التي تعرضن لها ممكنًا. ما الذي قد يشعر به المرء إن انتزعوا منه ذراعًا أو ساقًا؟

لم يُحولها الدم إلى امرأة، بل إلى ضحية. ربما هذا التحول الحقيقي الناجم عن الحيض.

في حيها، كلما تلطخت ملابس أي امرأة، كفت عن العمل، وتوقف الرجال عن رغبتهم في معرفة أي شيء عنها وابتعدوا عن منزلها إلى أن ينتهي الأمر. لم يسمحوا لها بغسل الملابس، إذ قالوا إن أمرًا مثل هذا قد يجلب المرض، لكن مكمن خوفهم الحقيقي هو استحالة معرفة كيف تتصرف أي امرأة في أثناء الحيض لأنها وهي واقعة تحت سيطرة رحمها، تغدو هشة ويتزعزع جسدها وأيضًا عقلها، ولهذا قد تتعاظم قوى الشياطين داخلها وتستحوذ عليها، مع كل ما يُثار عن التأثير الأبدي للقمر والمد والجزر على النساء. هكذا وفي ظل عجزهن التام أكثر من أي وقت آخر، جرت العادة على إجبارهن على الاختفاء حتى ينتهي كل شيء. قبلن جميعًا الأمر وهن خاضعات، أما لوثيا فلا.

على الرغم من أوامر كانديدا، اعتادت أختها أن تمضي لتلعب في الشارع وأن تقضي اليوم في الخارج وألا تعود قبل حلول الليل. لطالما سألت أمها كلما وبختها على عدم إذعانها لضرورة الراحة: «ما السيئ في دمائي؟».

تظن كلارا الآن وهي في هذه الزنزانة القذرة، الواقعة في مكان ما داخل مدريد، أنها تفهم لوثيا بصورة أفضل، يصر العالم على إقصائهن وتحويلهن إلى كائنات تابعة ومريضة، بل وإلى ضحايا يجب أن يحصلن دائمًا على العناية. اختلفت نساء القصص التي اعتادت لوثيا أن تهمس بها لها ليلًا عن هذه الصورة، فهن من اكتشفن مدينة اليهود السرية ولغة السُّحب ونافورة المال، هن من وصلن إلى «شجرة الندم» وتسلقنها. مع ذلك تفكر كلارا في أنها مجرد قصص لهذا السبب تحديدًا، لأن الحياة ليست هكذا. تُحبَس النساء دائمًا في ديماس وهن ينتظرن أن يسمح لهن أحد بالخروج، في مرات قليلة لأجل هدف جيد، وفي أغلب المرات لاستغلالهن واستخدامهن وإلحاق الأذى بهن.

يشق نحيبٌ جدار الصمت. ليس لديها أي قوى لتتحرى ما يحدث داخل الديماس. تحاول فتاة حبس بكائها، لكنها لا تنجح، وبينما تتشنج تفلت منها بعض الآهات. تسند كلارا رأسها إلى الحجر وتغلق عينيها. ليتها تتمكن من النوم إلى الأبد، كي تستيقظ بين الغيوم وتحلق إلى جوار كانديدا أخيرًا كطائرين ملونين حُرين.

- إنها تدمي!

يدفعها صراخ ميريام إلى فتح عينيها. كيف اكتشفتها؟ تتكور في ركن الزنزانة وهي تعانق ساقيها.

- لا تختبئي! أنتِ تدمين!

تنضم إلى اتهام ميريام الجديد دمدمة تتصاعد من بقية الزنازين. «هل الأمر حقيقي؟». «اقتربي من القضبان». «ما هذا الموجود على الأرض؟». تخشى كلارا أن تكون دماؤها قد امتدت خارج الزنزانة، لكن هذا ليس صحيحًا، إذ إنها لا تزال ملتصقة بجلدها.

- اتركنني في حالي!

تُخرس فاتيما بقية الفتيات داخل الديماس بتفجرها الغاضب. تزحف كلارا على الأرض كي تتمكن من رؤية طيف فاتيما من وسط الظلال المشعشعة على الجانب الآخر من السجن ثماني الزوايا وهي تبتعد عن القضبان لتلوذ بنفسها وسط الظلال كحيوان يشعر بالتهديد.

- رأيت فستانك. إنها دماء.

لا يسمح إصرار ميريام لفاتيما بنسيان الموقف. تتصاعد الدمدمة الاتهامية مرة ثانية من باقي الزنازين، فتبكي فاتيما مجددًا. تحاول أن تُخفي ألمها، لكن لم تعد قواها تُسعفها.

يتردد صوت طقطقة معدنية داخل الديماس، يليه انزلاق قطعة حديد، ثم ضوضاء انفتاح الباب. تتراجع الظلال مع ضياء القنديل الأبيض كلما تقدم الرجل ذو القلنسوة في نزوله فوق الدرج الحلزوني. يأتي خلفه رجلان يحملان الطست الذي سيجعلان الفتيات يغطسن في مياهه الملأى بالزهور العطرية. صار الطقس معروفًا. فجأة يُسيطر الصمت من جديد على الفتيات.

- تعرَّين.

لا يقع الأثر المرجو من الأمر. على الرغم من أن الصوت ذكوري، فإنه مختلف عن المرات السابقة. ما الفارق؟ يبدو كل الرجال من وراء القلنسوات متشابهين. يريدون كلهم الشيء نفسه.

- أمرتكن بالتعري!

تُطيعه بعضهن الآن، إذ يخلعن الأسمال التي تُغطيهن، لكن كلارا تلاحظ الرجفة العامة التي تستحوذ على الزنازين، كأنهن يسرن على حد سكين وعلى وشك الوقوع، كأن مقاومتهن الأخيرة على وشك الانهيار.

يتردد صوت ميريام وهو يكتوي بلهيب العار:

- إنها تدمي.

يلتفت الرجل ذو القلنسوة في اتجاه زنزانة ميريام. انفتح الصنبور ولا أحد قادر على غلقه. يُسمَع بكاء فاتيما وهي منكسرة بالكامل.

- من تدمي؟

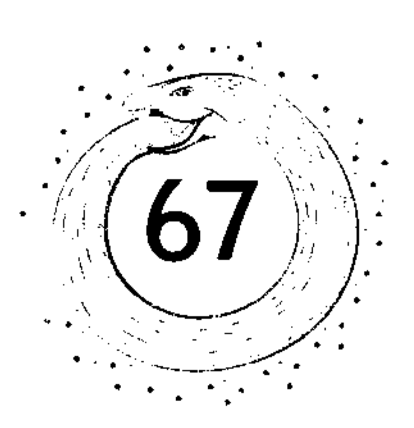
صار ذو القلنسوة أمام القضبان بعد أن قطع خطوتين فقط. لا يمكن لكلارا أن تُؤنب ميريام أبدًا، لماذا يجب مطالبة أي شخص بأن يتغلب على خوفه من أسوأ ميتة ممكنة؟ إنها تدافع فقط عن حياتها، حتى ولو لمجرد ليلة أخرى. ربما كانت ستفعل الأمر نفسه في ظروف أخرى.

- من؟

يشق على ميريام أن تقول «فاتيما» وأن تشير بإصبعها إلى الزنزانة الواقعة أمامها، إذ تعي أنها بهذا سترسلها إلى المذبح.

- أنا.

تنهض كلارا. تترك الخرقة تسقط فوق الأرض. لا تخفي الدماء التي تلطخ فخذيها، بينما تتشبث بالجدران وهي عارية ومتجمدة من البرد. تشعر بالخوف، لكنها تفكر في أن هذه هي الطريقة الوحيدة للقضاء عليه، مواجهة نهايتها في أقرب وقت ممكن، مع إهداء فاتيما وبقية الفتيات يومًا آخر من الحياة. ربما هذا ما يعنيه أن تكون امرأة.



تشعر لوثيا أنها مثل نعجة الغجر الذين عاشوا بالقرب من «لاس بينيولاس»، أي نعجة عشيرة «الطفل رامون» التي لطالما رقصت فوق منصة صغيرة على أنغام الموسيقى، وجمع أصحابها المال الذي ألقاه الجمهور المنوَّم مغناطيسيًّا في أثناء العرض. هكذا ينظر إليها الآن الأشخاص الذين يتحركون عبر صالون قصر آنا كاستيلار، وهم مبهورون بتعبير اليُتم المرسوم على وجهها وملامحها كفتاة فقيرة وتصرفاتها كأمية. ينظر إليها الجميع ويبدون كلهم كأنهم يتعاطفون معها. يتحدثون عن مساعدة أكثر المعوزين، فيما يُخرِج الخدم صواني الطعام القادرة على كبح جوع كل سكان حيها القديم لمدة أسبوع كامل.

ألقت صاحبة البيت منذ بضع دقائق خطابًا مؤثرًا أمام الحاضرين. تحدثت عن الأحياء الواقعة خارج «الجدار» وعن الفقر المدقع وعن الوضع المؤسف لمن يعجزون عن الدخول إلى مدريد بسبب جائحة الكوليرا، وعن الوفيات، وعن «محجر بالبيردي»، وعن المال الذي يجب على الجميع أن يتبرعوا به لمساعدة أكثر المعوزين. تحدثت أيضًا عن «الوحش»، وعن الفتيات المقتولات مقطوعات الأوصال -ما تسبب في ارتسام تعابير الفزع

فوق وجه السيدات الحاضرات- وبالمثل عن وجود فتيات مختفيات يُرجَّح أنهن بين أيدي خاطفين. لو أمعن أحدهم النظر، لتمكن من رؤية الاستياء المرسوم على وجه الدوق لأن زوجته لم تأتِ على ذكره، لأن حفل استقبال هذه الليلة أصلًا على شرفه، لإبلاغ مجتمع مدريد الراقي بعودته عقب الوقت الذي قضاه محبوسًا في قصر «المزرعة»، لكنها لم تقُل ولو حتى كلمة واحدة عنه. ثمة أطعمة مختارة وحلقات للثرثرة والنميمة تتناول شؤون صفوة الطبقة الأرستقراطية، ومتطوعات يبعن تذاكر مزاد ستُباع فيه قطع رُخامية صنعها «مصنع الخُلوة الطيبة الملكي للرخام»، الذي دمرته القوات البريطانية في أثناء حرب الاستقلال ضد الفرنسيين.

اقتربت نساء كثيرات لتحية لوثيا، التي ألبسوها ملابس فارهة وشعرًا مستعارًا أشقر لتغطية شعرها الأحمر القصير. سألتها واحدة منهن عن «لاس بينيولاس»، وأخرى عن أيامها في ماخور «اللبؤة» -وهي مسألة أتت آنا كاستيلار على ذكرها في خطابها- وأيضًا عن دروس القراءة والكتابة. لكن لوثيا لم تستشعر الصدق في تمنياتهن الطيبة. تعرف أنها بالنسبة إليهن مخيفة كالفهد الموجود في «بيت الضواري»، وبالمثل أنهن يعتبرنها غير مؤذية بسبب قضبان القفص الذي يفصلها عنهن، ولهذا صارت تشعر بأنها أقذر مما كان عليه الأمر في ماخور شارع «القرنفل»، مع كل مداعبة من هذه السيدة أو تلك، وهي تتنقل من ابتسامة شفقة إلى تربيت ينم عن التعاطف.

من ضمن السيدات اللاتي اقتربن منها، إينماكولادا دي بيافرانكا. تعترف لوثيا بأنها ساعدت أمها وجاءت إليهن بالطعام والدواء وهن في أشد الاحتياج إليه. ربما يجب عليها أن تُغيِّر نظرتها إليها. مع ذلك لا تثق بها، فعلى الرغم من أنها أعادت إليها الخاتم، تعجز عن التوقف في التفكير في أنها حاولت خداع كلارا والاحتفاظ به حين تصادف وجودها معها في بيت رهونات شارع «المرملة».

- هل أنتِ بخير هنا مع الدوقة؟ أسألك لأنكِ لو رغبتِ، يمكنكِ أن تأتي معي. أنا أرملة وليس لديَّ أبناء. ستكونين صُحبة كبيرة بالنسبة إليَّ.
- أنا هنا بخير. تُساعدني آنا في البحث عن كلارا وهي مسألة لم تفعلي بخصوصها شيئًا.

أصاب السهم الهدف. تستقبل دي بيافرانكا بابتسامة هذه الدلالة الحادة على النفور، ولا تحاول إيقاف لوثيا حين تستدير.

حين تشعر بأن أنفاسها تختنق، تخرج إلى حديقة القصر الرئيسية بحثًا عن بعض الهواء. يتمشى الديك البري والطاووس بملايين الأعين المفتوحة في ذيله بين النباتات والأعمدة الغريبة تمامًا. تفزع حلقة ثرثرة نسائية حين يقترب منها الطاووس أكثر من اللازم. تبدو الأقفاص الخشبية التي تغرد داخلها الطيور كأنها قصور، فبعضها مُعلَّق في الهواء، والبعض الآخر موضوع على الأرض إلى جوار نباتات تمتد فروعها وزهورها بين القضبان كي تتمكن الطيور من تذوق رحيقها. وسط تغريدات الطيور المختلفة، تنبعث وتطفو رائحة من زهر العسل وزهور التبغية التي تزين الحديقة.

تبحث نظرات السيدات، اللاتي ربما يرين أن آنا كاستيلار أسرفت حين خلقت هذا الفردوس داخل قصرها، عن لوثيا بالاندهاش نفسه الذي ينظرن به إلى الطاووس وهو يتباهى بريشه. تختبئ بين الأقفاص حيث يُمكنها أن تسمع بين رفرفة أجنحة الطيور أجزاء من محادثاتهن.

- كالحيوانات، يعيشون كالحيوانات. ذهب زوجي في مرات كثيرة إلى هذه الأحياء الواقعة على الجانب الآخر من «الجدار» وأخبرني بالأمر.
- سأقول لكُنَّ شيئًا. يستحقون ما يحدث لهم. إنهم رجال ونساء يُساكنون بعضهم بعضًا من دون أن يتزوجوا وبينهم أطفال لم يُعمَّدوا، وآباء يدفعون أبناءهم إلى العمل في التسول والدعارة.
- مثل تلك الفتاة التي تضعها تلك الدوقة أمام أعيننا وخرجت من ماخور. كم من الوقت ستستغرقه للعودة إليه؟
- لو باعوها هي في مزاد، لا القطع الرخامية، فسيحصلون على قدر أكبر من المال، يبدو عليها أنها وُلدت لهذا الغرض.

تتحرك لوثيا بين أعمدة ونباتات الحديقة وهي مشمئزة مما تسمعه، لكن يصل إليها صوت حلقة ثرثرة أخرى، كأن الأصوات تلاحقها.

- يقولون إن غسالات النهر ينظفن مخاطهن بشراشفنا.

اختبأت لوثيا وراء قفص تقتحمه بعض زهور التبغية. يلفت انتباهها هسيس يبدو كطنين حشرة. ثمة طائر أحمر، معلَّق في الهواء، يرفرف بجناحيه بصورة تكاد تجعلهما غير مرئيين، ولديه منقار يشبه بوقًا رفيعًا

يتغذى منه على رحيق الزهرة. يبدو لونه الأحمر الناري كشعلة في وسط الهواء. ليست في حاجة إلى أن تأتي آنا أو أي سيدة أخرى لتُخبرها أن هذا هو الطنان الذي رآه إيلوي في إحدى المرات، ذلك الطائر الذي شبَّهها به ذات يوم، مدفوعًا ربما بجماله وطابعه المتملِّص. لكن بينما يطفو الآن وهو معلَّق في وسط الهواء، تشعر لوثيا أنه ينظر إليها ويقول لها: أنت محبوسة، كغنيمة غرضها التباهي، مثلي بالضبط.

تخرج لوثيا من مخبئها بين الأعمدة والنباتات وتبحث عن السيدات اللاتي ازدرين الغسالات.

- عملت أمي في النهر وكانت أنظف من أي واحدة فيكن.

كفت النساء عن إخفاء ازدرائهن أسفل غطاء التفضل.

- ربما هي الوحيدة، فجميعنا نرى نوع التربية الذي حصلتِ عليه منها.

تهز لوثيا رأسها باستياء. تستغل أن أحدًا لا يراقبها لتخرج إلى الشارع. يبدأ المساء تسحُّبه وترسم الشمس موجة بنفسجية وصفراء غريبة في سماء مدريد. تود أن تهرب من هذا الإحساس اللزج والمزعج الذي شعرت به طوال الوقت في قصر الدوقة. تغرق المدينة في الصمت وترد إليها صدى خطواتها ولُهاثها وهي تتنفس، ومعها شيء آخر، ثمة شيء ما يترصدها. إنه شيء حقيقي، لا كما كانت حال الحلم.

حين تنعطف في الشارع، تتوقف لرؤية المشهد. لا أحد في الجادة. تلمح في الشارع المقابل لها أحد المارة ومعه شمسية. لا تُمطر، لكن السماء تلبدت طوال النهار بالغيوم ورائحة الرطوبة. حين توشك على استعادة الهدوء، تُغطي يد مشعرة فمها بسرعة وتكتم صرختها. تحاول لوثيا أن تفلت وأن تعض هذه اليد الكاسرة. تنتفض بالكامل حين يهزها صاحب هذه اليد وتجد نفسها في مواجهة توماس أجيرّي.

- اهدئي. إنه أنا.

- ما الذي تفعله هنا؟ لا أريد أن أعرف شيئًا عنك.

لا يُجيبها توماس. يُرافقها إلى مكان لا يراهما أحد فيه، عند حارة «احمني يا رب» الهادئة.

- يجب أن تخرجي من هذا البيت. هل تسمعينني؟

- لماذا؟ ليس لديَّ مكان آخر لأذهب إليه.

- أعرف كل شيء. اكتشفت من يقود «المعلمين الاثني عشر».

- من؟

يصمت بضع ثوانٍ، فتتفهم لوثيا الوضع قبل أن يشرحه توماس بالكلمات.

- «المعلمة الكبرى» هي دوقة ألتويانو. آنا كاستيلار.

68

يعتقد أوجوستو مورينتين أن وجه الرجل الذي ذهب لملاقاته مألوف. يتذكر السبب فورًا، أولًا لأنه حضر دفن دييجو، وثانيًا لأنه يشق على المرء نسيان رجل يضع رقعة فوق عينه. لهذا وافق أن يجلس معه إلى مائدته في حانة «باكو دي تريجو» الواقعة في شارع «الحملة الصليبية»، على الرغم من أنه معتاد تناول غدائه وحده منذ بدأ الوباء.

- قال لي دييجو رويث ذات مرة إنك تأتي إلى هنا كثيرًا.

- رحيله خسارة كبيرة، ولا أتحدث فقط من منظور صحفي. أعتقد أننا نفتقده صديقًا.

يقدِّم النادل قارورة من نبيذ «بالديبينياس» وكوبين وطبقًا يضم بعضًا من قطع جبن «مانتشينجو».

- تذوق النبيذ، إنه من أفضل الأنواع الموجودة في مدريد.

لا يتجرأ دونوسو جوال، الذي لا يألف التعامل مع أشخاص مثل مورينتين، على التحدث من دون أن ينفِّذ ما بدا له أمرًا من مدير «إل إيكو ديل كوميرثيو».

- قل لي، لماذا بحثت عني؟ أفترض أن الأمر مرتبط بدييجو. هل ترك دينًا ما؟ لم أكن إداريًا جيدًا بالقليل الذي دفعته له. أفترض أنني مسؤول، لهذا لن أمانع أن أساعدك.

- لا. لا يرتبط الأمر بالديون أو المال، وإنما بذكراه وحبه لعمله. تفضل.

يتعرف مورينتين فورًا على خط الصحفي المستدق في الأوراق التي يُسلمها له الأعور.

- هذا مقال دييجو رويث الأخير. يتناول جماعة «مشعلو الفحم». كان مقتنعًا بأنهم يقفون وراء مقتل الفتيات اللاتي ظهرن مقطوعات الأوصال بالقرب من «الجدار».

لا يحكي له دونوسو عن عناء اليوم السابق، حين بحث لدى خروجه من «محجر بالبيردي» عن ملاذ في حانة «ملتهم الأطفال»، ولا كيف أنه دفأ صدره بكأسين من «الأجوارديينتي»، ولا عن الكيفية التي عجز بها الشراب عن إخماد حزنه، ولا عن أن خسارة جريسي وحنينه إلى دييجو قد استقرا داخله إلى درجة آلمت ساقيه، ولا أنه شعر بالحاجة إلى صديقه ليبوح له بثقل هزيمته، وحلمه الزائل المتلاشي عن وجود مستقبل قد يجمعه بالممثلة.

لكنه يُخبره بإيجاز أنه مضى حين أشرقت الشمس تحت تأثير هذا الدوار نحو بيت شارع «الأثرياء»، حيث حكت له باسيليا عن اللقاء الذي جمعها بالفتاة وهي تطردها من بيت دييجو الذي صار يسكنه الآن طالب إكليريكي. سلمت له صاحبة البيت حقيبة تراكمت فيها فوق بعضها الممتلكات القليلة الباقية من مستأجِرها المأسوف عليه. بعدئذٍ ببرهة، حين وصل الأعور إلى بيته، بدأ يُخرجها. احتوى كل غرض على ذكرى، مغامرة، ليلة لا نهاية لها من شرب النبيذ، أو بحث عن شاهد لأحد مقالاته. لاحقًا توقفت نظرته عند أوراق هذا المقال غير المكتمِل، فشعر بالذنب. صحيح أنه احتاج إلى دييجو لمساعدته، لكنه لم يفكر قط في أنه أيضًا قادر على مساعدة أفضل أصدقائه، على الرغم من كونه ميتًا. لهذا قرر أن يمضي بحثًا عن مورينتين وأوراق مقال «الوحش» أسفل ذراعه، كي يُكمل العمل الذي حرَم الموتُ دييجو من إتمامه.

- «الوحش»، لم نتحدث خلال أيامه الأخيرة عن شيء سواه.

- مارثيال جارِّيجيس، العملاق الذي يقولون إن إحدى عاهرات «اللبؤة» قتلته، ليس «الوحش». حسنًا، كان «الوحش» ولم يكُنه. يبدو أن مارثيال ليس سوى الذراع التنفيذية لجماعة سرية.
- جاء إليَّ في يوم وفاته نفسه ليطلب مني نصيحة للاستقصاء حول «مشعلو الفحم». ساعدته حتى نقطة معينة بالطبع. لم يتمكن أحد من التعمق في أمرها كي يقول ما الذي تفكر فيه أو تفعله هذه الجماعات.
- من المحتمَل أن تكون محاولته دخولها ما كلَّفه حياته.

يقرأ مدير الصحيفة الأوراق سريعًا، فيما يُراقبه دونوسو من دون أن يتجرأ على قول شيء.

- انظر يا دونوسو، ثمة مشكلة، المقال غير مكتمل وينقصه شيء مهم جدًّا، ألا وهو إثبات أن ما يقوله حقيقي، ودييجو ليس موجودًا ليثبت هذا.
- لم يكذب فيما كتبه. يستحق دييجو أن يُنشَر مقاله الأخير، من أجل ذكراه.
- أشاركك حزنك على خسارته، لكن أنا مدير صحيفة والفارق الوحيد بين «إل إيكو ديل كوميرثيو» وصحف أخرى أنه لا يظهر فيها مقال واحد من دون أدلة. لا يُمكنني أن ألقي هذه المجموعة من الافتراضات في الشارع. إنها لافتة للانتباه، وإذا ما ثبتت، فسيغدو تحقيق السلطات في أمرها عاجلًا. أنا في حاجة إلى مقال متنٍ وإلى شهادة من المتورطين.

يُعيد المدير الأوراق إلى دونوسو. يتجنب الشرطي السابق إمساكها بإيماءة خفيفة وينهض.

- سبب الرفض ليس نقص المعلومات، وإنما الجُبن.
- لن أسمح لك بإهانتي.
- لا أقولها لك كإهانة، وإنما لأجد منك رد فعل. نحن جميعًا جبناء وأنا أولنا وأمارس الجبن يوميًّا. أنت جبان لأنك تخاف من رد فعل قد ينجم عن هذه الكلمات. على النقيض منا، كان دييجو واضحًا: لو أن ما يكتبه لا يُثير استياء أحد أو يُشير إلى أحد ما بإصبع الاتهام أو لا يرفع ظلمًا، فإنه لا يستحق عناء الكتابة.

- لا أعتقد أن تهور دييجو مثال يُحتذى به.

- عاش وهو يرفع رأسه. ثمة مرات بدا فيها مائعًا، لكنني أعترف بأنه كان رجلًا بلا خوف. عرفت أشخاصًا قلائل في حياتي بمثل هذه الاستقامة والنزاهة.

يشرب مورينتين كأسه من النبيذ. يستطعمه لبضع لحظات، ثم يلوي شاربه وهو ينظر إلى دونوسو.

- ربما أنت محق، لكن رفض المقال لا يرتبط بالخوف، وإنما بالحيطة.

- رأيت جثث هذه الفتيات المعذَّبات وهي ممزقة بوحشية يا دون أوجوستو. أنا أول من يرغب في نسيان الأمر، لكنني أعجز. حين أذهب إلى فراشي ليلًا وأغلق عيني الوحيدة الباقية، أراهنَّ ثانية. لا أنام إلا بعد تناول عدة كؤوس من «الأجواردييнتي». هنا لا مجال للخوف أو للحيطة. لا بد من إيقاف الأمر.

يُمسك مورينتين الأوراق مرة ثانية. يبدو أنه يُعيد التفكير في الأمر.

- لو أردت أن تنهي المقال، فابحث عن الممثلة.

- جريسي؟

- أجل. هذا هو اسمها. جاء بها دييجو إليَّ ذات مرة. بدت كأنها تهذي، لكن وفقًا لما هو مكتوب، فمن المحتمل أن لديها معلومات أكثر مما قالته لنا.

تُفلت من دونوسو ضحكة مريرة، وهو رد فعل حزين، لم يمر على مدير الصحيفة مرور الكرام.

- هل تعرفها؟

يُومئ الأعور برأسه بحزن.

- أخذوها بالأمس وقالوا إنها مريضة بالكوليرا. كانوا سيحتجزونها في «محجر بالبيردي»، لكنها ليست هناك. ربما جعلوها تختفي لأنها تعرف الكثير، أو ربما...

يُشجعه مورينتين على المُضي قدمًا:

- أو ربما؟

- ربما أنها سئمت من أن تظل دائمًا تحت عناية شخص ما. يحتاج المرء إلى أن ينظر إليَّ فقط للحظة وسيتأكد من أنني لست شريكًا جيدًا.

- هل بحثت في مصنع مملحات الخنزير؟ حولوه إلى مستشفى للكوليرا، وصاروا يرسلون إليه المرضى منذ نحو أسبوع.

- في ساحة «القديسة بربارة»؟ في سجن «إل سالاديرو»؟

- أجل. تجمعني علاقة جيدة بالمدير. سأبعث له برسالة كي يسمحوا لك بالدخول والبحث عنها. ربما ستقول لك شيئًا يربط الخيوط السائبة التي تركها دييجو. لو حدث هذا، فكن متأكدًا من أنني سأنشر مقاله.

69

إنها ثاني مرة في ظرف أيام قليلة تضطر فيها آنا كاستيلار إلى تحمل تأنيب زوجها.

- هذا ذنب علاقتك مع الصحفي، أنتِ تتصرفين بتهور. كيف يخطر على بالك تنظيم حفل جمع تبرعات لصالح هذه الفتاة؟ هل تحسبينها ثمرة حبكما؟

- لا أطيق السخرية.

- عليكِ أن تطيقي كل ما أقرره لأنني من سيجب عليه إصدار الأوامر كي يبحثوا عنها إلى أن تظهر. في البداية اضطررت إلى قتل جامونيدا والآن عليَّ أن أبحث عن هذه الفتاة، حتى أنا نفسي لا يمكنني إصدار كل هذه الأوامر من دون أن ألفت الانتباه.

- أريد أن يعثروا عليها، لكن إياهم أن يلحقوا بها أذى.

- هل سيهمك موتها؟

- لو قتلوها فلن نعرف ما الذي فعله دييجو أو ما الذي فعلته هي بالقائمة التي أعدَّها الأب إجناثيو جارثيا، ولا ما إذا كانت أصلًا مع توماس أجيرّي ولا أين هذا الكارليُّ أيضًا.

- أفضِّل ألا أعرف وأن أراها ميتة وننتهي. لقد تسببت لنا أصلًا في مشكلات كافية.

- لم يعد ما تفضِّله مهمًّا منذ فترة يا بينيتو.

ينظر الدوق بغضب إلى عينَي زوجته. يُلاحظ منذ عدة سنوات استمتاعها بإثبات تفوقها عليه. تدخل الخادمة بلانكا إلى الصالة.

- دونيا آنا، لقد عادت لوثيا. إنها في غرفتها.

تُقيِّم آنا رد فعل الدوق بنظرة جليدية. يبدو هادئًا مع هذا الطارئ الجديد. يُمكنهما أن يسترخيا لبعض الوقت، فها هي ذي المشكلة تُحل من دون تدابير جذرية، الأمر وما فيه أن لوثيا دخلت في نوبة تمرد، أو ربما هي نوبة عزة نفس خاصة بالفقراء تخرج بين الفينة والأخرى، لكنها لن تُعارض خططها.

- خذي لها شيئًا لتأكله وكوبًا من الحليب. سأصعد إليها الآن.

تكبح آنا رغبتها الملحة في الحديث مع الفتاة والتعرف على حالتها المعنوية واستكشاف نياتها. تخلص إلى أنه من المناسب ألا تلاحظ توقها إلى المعرفة، وأن تتساءل ما إذا كانت ثمة عقوبة ما تنتظرها وأن تساورها الشكوك، بل وحتى الخوف، فحتى أذكى الفتيات ينهَرن في نهاية المطاف.

يسألها الدوق:

- ما الذي ستفعلينه معها؟

- توبيخها ومسامحتها، ومن ثم إبقاؤها تحت السيطرة.

تشعر لوثيا فعلًا بالتوتر. جاءت لها الخادمة بشيء لتتناوله على العشاء، فيما ارتدت هي قميص النوم، لكن آنا كاستيلار لم تظهر بعد. تندهش من خوفها ويتردد صدى تحذيرات توماس أجيرّي داخل رأسها: «لقد دخلتِ فم الذئب. عليك أن تخرجي من هذا القصر. حياتك في خطر». مع ذلك أصرت على العودة إلى البيت كأن شيئًا لم يكن، وإعادة بناء صورة اليتيمة الممتنة لعناية المرأة الطيبة لمواصلة استقصاء الأمر، فهذه فرصتها الوحيدة للعثور

على كلارا. الآن بينما هي تحت الملاءات، لا تثق بأن قواها قادرة على تحمُّل هذا التنكُّر.

الغرفة التي خصصوها لها هائلة، أكبر بالكامل من بيت «لاس بينيولاس» الذي عاشت فيه مع أمها. إنها في حجم بيت دييجو رويث، مع العلم بأن هذا البيت أصلًا بدا لها فارهًا عما هي معتادة. يكفي فقط الفراش كي تتوه فيه. نامت الليلة الأولى في غرفة أخرى، غرفة الضيوف، فيما يجهزون هذه الغرفة لها، وفقًا لما قالته آنا. في الصباح التالي لم تتجهز الغرفة فحسب، وإنما امتلأت خزانة ملابسها بقطع يُمكن أن تستخدمها وفقًا لهواها. في لحظة ما نسيت لوثيا كل شيء لتلامس الحرير والتطريز والقمصان، لكن بعدئذٍ جاء رد فعلها، البحث عن كلارا هو أهم شيء. تنظر الآن بازدراء، بل وبغضب، إلى كل هذه الأشياء. لن تخدعها آنا كاستيلار مرة ثانية، لا هي ولا زوجها.

- ظهرتِ أخيرًا.

تظهر هيئة الدوقة عند فراغ الباب، ويخلق نور الطُّرقة هالة من الضوء تكلل رأسها كالعذراء في إحدى اللوحات.

- آسفة على مغادرة الحفلة في منتصفها، لكن هؤلاء النساء...

تقترب آنا ببطء من الفراش، وتلاحظ لوثيا أن جلدها يقشعر.

- أعرف، إنهن لا يُطَقن وعاملنك كأنك أحد مسوخ المهرجان. ليس هذا فحسب، بل ظللن يتحدثن بالسوء عن الغسالات ولهذا تذكرتِ أمك. حكين لي كل شيء.

- أجل.

- لكنهن كن سيتبرعن بالمال لمساعدة عائلات مثل عائلاتك، وأمهات يقعن فريسة للمرض ولا يقدرن على جلب الطعام لبناتهن. لا يفعل المرء دائمًا ما يرضيه، وفي مرات كثيرة عليه أن يتحمل ويبتلع أمورًا أسوأ من هذه.

- آسفة.

تبتسم آنا لأول مرة، فتهدأ لوثيا.

- مع ذلك أعترف بأنهن مثل الببغاوات كبيرة المناقير.

حين تحدثت لوثيا مع أجيرِّي وأقنعته بأن العودة إلى المنزل والتظاهر بأن الأمور طبيعية هي أفضل شيء لمواصلة الاستقصاء، لم تتوقع ما ستشعر به وهي إلى جوار المرأة التي ظل التفاهم الجيد قائمًا بينهما حتى الآن، ألا وهو النفور البدني، لأن أي لمسة منها ستصير كملامسة أفعى. ذات مرة وهي طفلة لامست جلد واحدة منها واضطرت إلى رفع يدها فورًا، كأنها قد احترقت، ولهذا تأمل أن تقدر على إخفاء هذا النفور إن لامستها آنا.

بينما تتحدث معها الدوقة عن النساء اللاتي حضرن العشاء الخيري وما ساهمت به كل واحدة منهن وما سيفعلنه بالمال، تستمتع لوثيا بتخيل فكرة قتلها. سبق أن قتلت شخصًا، ألا وهو مارثيال جارِّيجيس، ولم يشق الأمر فعلًا عليها، بل ولم تشعر بالتأنيب لاحقًا. لا تعتقد أنها في ظل ما تعرفه الآن عن دوقة ألتويانو قد تشعر به، لكن تسيطر على نفسها، إذ تعي ضرورة تجنب هذه الأفكار، وخداعها كي تثق بها.

- لم تتحدثي معي قط عن الليلة التي دخلتِ لتسرقي فيها بيت ذلك الكاهن والبيت الذي سرقتِ منه الخاتم.

تتوخى لوثيا الحذر، فاهتمام آنا كاستيلار بهذه الأمور جديد. يبدو أن العنكبوت بدأ يحيك شباكه.

- لم أجد شيئًا قيمًا، الكثير من الكتب فقط. حسنًا، أنت الآن تُعلِّمينني القراءة وتعلمت أن الكتب قيمة، لكن آنذاك لم أفكر بهذه الطريقة، والخاتم المصنوع من الذهب بالطبع. ليتني لم آخذه.

تُخفي الدوقة اهتمامها:

- كل هذا بسبب الكوليرا وانعدام الثقافة في هذا البلد، لا الخاتم.

- لا أعرف. لطالما قالت أمي إن هذه الأشياء تجلب النحس، وكانت محقة. لم يجلب الخاتم سوى الحظ السيئ.

- ما الذي أخذتِه أيضًا يا لوثيا؟

- بعض الشمعدانات وأدوات مائدة. بدت كأنها من الفضة، لكنني لم أحصل على الكثير في مقابلها، مجرد خمسة عشر ريالًا. بعتها إلى تاجر خردة في جادة «القديس برنارد». يدعونه «الأكتع». ينقسم محله إلى جزءين، في الأمام توجد التوافه والخردوات المتنوعة في كل مكان، لكن الجزء الخلفي منظم بشكل أكبر، ويشتري ما يجلبه له اللصوص.

- لحسن الحظ أنكِ لن تعودي إلى هناك أبدًا. سأتكفل بألا ينقصك شيء.

تأتي اللحظة التي تخشاها لوثيا، حين تداعبها آنا بصورة تحاول صبغها بالأمومة، لكنها تقشعر معها. مع ذلك تتمكن، على عكس توقعاتها، من المقاومة والابتسام.

- ألم تأخذي شيئًا آخر؟

تفشل الدوقة كلما مر الوقت في إخفاء قلقها. تنتظر أن تخبرها لوثيا بشأن القائمة، لكنها تدرك شيئًا ما، ربما لا تعرف أنها كانت مُخبأة في بطانة المعطف. من الواضح أن هذا هو ما تبحث عنه مثل مستكشِف الينابيع الذي يبحث عن الماء. الأسماء المشفَّرة. الأحرف الأولى. أحرف اسمها الأولى.

- لم آخذ شيئًا آخر. كنت سأواصل البحث لولا أن جاء ذلك العملاق واضطررت إلى الهرب.

- ولا كتاب واحد؟

- لماذا قد آخذه؟ بحثت عن المال أو الجواهر وهي أشياء يُمكن بيعها بسهولة.

- لو تذكرتِ شيئًا آخر فقوليه لي. من يعرف؟ فقد يُساعد في العثور على كلارا. سأتركك الآن لتنامي. أفترض أنكِ منهَكة جدًّا.

حين تعود آنا إلى غرفة نومها، تجد الدوق ينتظرها.

- جلبوا هذا.

يمد لها ظرفًا عليه ختم مفتوح بالشمع الأحمر، لكنها لا تُمسكه في تلك اللحظة.

- من الذي جاء به؟

- واحد من خدم الأمين. إنه المسار التقليدي للأمور.

تجلس آنا بجدية، وتأخذ في هذه المرة الظرف. تفتحه. إنه إخطار من أجل موعد الطقس الجديد لـ «المعلمين الاثني عشر».

يقول الدوق من دون أن يُخفي الفضول الذي قاده لقراءة الرسالة:

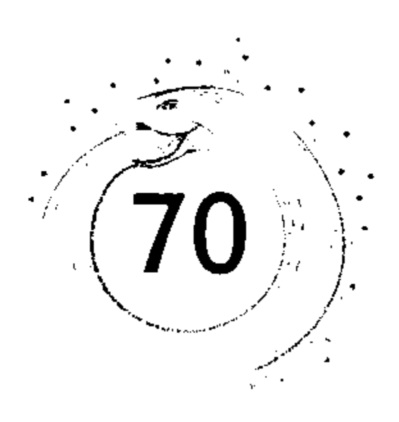
- إنه غدًا. من الأفضل أن ترتاحي الليلة.

تجلس آنا أمام مرآة وتبدأ في خلع جواهرها. على الجانب الآخر من النافذة، حل الليل على مدريد حالكًا كالقطران. ما من صوت يخرج من أقفاص الطيور المغطاة، لقد نامت.

تعترف آنا بعد بضع دقائق:

- إنها تخدعني. لا تريد أن تخبرني بأي شيء عن القائمة.

يختار بينيتو أن يظل صامتًا، فيمكنه للحظة أن يستمتع بلا يقين زوجته، وبخوفها من أن ينهار كل ما شيدته.



ينتصب مصنع مُملحات لحم الخنزير القديم، الذي أسسه بينتورا رودريجث، أمام دير «القديسة بربارة» في الساحة المُسماة بالاسم ذاته. تتميز البناية من الخارج بطابع جمالي، على الرغم من أن القدر قادها لتصبح مذبحًا للخنازير. صارت مع مرور السنوات وتغيير وظيفتها مكانًا مشوهًا من الداخل. خضع المبنى في السنوات الماضية إلى تعديلات وأصبح سجنًا -سجن «إل سالاديرو» الشهير- وهو أكثر مكان يخشاه قطاع الطرق والقتلة واللصوص، لكن بما أن كل شيء يدور حول الكوليرا في مدريد، فقد خضع مؤخرًا إلى تعديلات جديدة كي يصبح مستشفى مُكرَّسًا لهذا المرض، فيما أُرسل سجناؤه إلى منشآت عقابية أخرى.

- أطلقوا عليه لقب «مستشفى»، لكنه مجرد محجر آخر هدفه الوحيد إبقاء المرضى بعيدين عن المخالطة حتى وفاتهم.

وافق الدكتور آلبان على مرافقة دونوسو إلى «إل سالاديرو»، لكنه فعلها مُكرَهًا. توجه الشرطي السابق إلى «المستشفى العام» بالتزامن مع إنهاء آلبان لورديته وهو في قمة الإنهاك، كما هو حاله يوميًا منذ بدأت الجائحة. فكر دونوسو في أنه سيكون شريكًا مفيدًا في تمشيط المستشفى بحثًا عن

جريسي والتيقن من أن الكوليرا هي ما أبعدها عنه. صحيح أنهما لم يعرفا بعضهما، لكنه احتاج فقط إلى أن يذكر اسم دييجو، كي يتغير سلوك آلبان من عدم الاهتمام إلى الرضوخ. لقد تمكن دييجو من اكتساب بعض الصداقات التي لم تنته بموته.

سهَّل لهما المدير الدخول بعد أن أخطره مورينتين. ينظر آلبان برعب إلى الأوضاع التي يعمل فيها زملاؤه ويعيش فيها المرضى. يشغل المدريديون المنحوسون الذين أُصيبوا بالكوليرا الأماكن التي خُصصت في وقت سابق للخنازير قبل أن تغدو لاحقًا للسجناء، فيما صارت القاعات التي خُصصت سلفًا لذبح الخنازير للعلاجات. تمنع الطرقات المظلمة الواقعة بين الغرف، والملأى في أحيان كثيرة بأسرَّة يرقد فوقها موتى وأحياء، التهوية وأي أمل في الخلاص.

- أنتما مسؤولان عما قد يحدث لكما. التجول في هذه القاعات أمر أحمق أكثر من كونه متهورًا. لا أعرف ما الذي تبحثان عنه، لكنني أؤكد لكما أنكما على الأرجح ستصابان بالكوليرا.

يُودعهما المدير بهذه الكلمات التي تدوي داخل رأس دونوسو وهو يسير وراء آلبان عبر ذلك المكان الذي يبدو مشرحة أكثر من كونه مستشفى. صار التحرك عبر المدينة في ظل الخوف من الإصابة بالمرض أمرًا منهِكًا، ولم يعد المرء يعرف عدد الموتى. بينما يجتازان إحدى القاعات، يظهر بعض المرضى على مقاعد حديدية وهم ينتحبون من الألم، وغيرهم من الشاحبين الذين يقيئون فوق الأرض. لا يشعر دونوسو فحسب بأنه يحضر آهات الموت الأخيرة لمجموعة من المواطنين، وإنما للمدينة كلها. تتصفى مدريد عبر بالوعة، بل بئر سوداء تلتهمها وستُخفي كل أشكال الحياة الموجودة داخلها. لن تبقى سوى مبانيها، لكن ذات يوم سيمحوها الزمن هي الأخرى، ولن يتذكر أحد مَن عاشوا وكافحوا هنا ذات مرة وحاولوا أن يغدوا سعداء في هذه الأرض.

- النساء في الطابق الثاني.

يُشير أحد الحراس إلى الطريق. لا تبدو ملامح السجن ظاهرة على المكان الذي يتوجهان إليه بسبب طابعه المنظم، فهذه القاعة مُرتبة عن بقية المكان وتضم عشرين فراشًا تتراص في صفوف كل واحد منها مكون من أربعة أسرَّة. ثمة طاولة عند الباب تجلس إليها راهبة كبيرة عابسة.

- إلى أين تذهبان؟ لا يمكن لأحد أن يدخل هنا.

- أنا طبيب يا أختاه.

- لا تحتاج هؤلاء النساء إلى أطباء. من الأفضل أن يزورهن كاهن ليحصلن على المسحة الأخيرة.

- نبحث عن امرأة معينة، اسمها جريسي.

- هذا ليس اسمًا مسيحيًا.

- ميلاجروس بينيا رويث.

- إنها هناك، في الصف الخلفي. أوصيكما بتوخي الحذر. لا تلمساها، لو أنكما لا تودان أن تصبحا مثل هؤلاء الآثمات المسكينات.

يتقدم دونوسو عبر الأسرَّة كأنه يمضي بين شواهد قبور. ينظر هنا وهناك إلى أن يصل إلى الصف المنشود. يشق عليه التعرف على جريسي في هذه المرأة ذات المنظر المنفر التي لا تقدر سوى على الرد بمقاطع أحادية. يفحصها الدكتور آلبان ويقيس نبضها ويفحص بؤبؤيها ويسمع رئتيها.

- أعتقد أن هذه المرأة لا تعاني الكوليرا.

- إذن؟

- هل تعرف ما إذا كانت تتعاطى أي مواد؟ لا أعرف ما إذا كنت قد سمعت عن الأفيون.

يتحدث معه دونوسو عن إدمان الممثلة، لكنه يؤكد له أنها لم تتعاطَ شيئًا منذ أيام، إضافة إلى الفترة التي قضتها في المستشفى. ألا يجب أن يتراجع تأثير الأفيون؟ أم أن أحدًا قدَّم لها هذه المادة؟

- لا يمكن لشخص سواها أن يخبرنا بما حدث، لو تمكنًا من إخراجها من هذه الحالة.

- بترياق؟

يستقبل الطبيب مقترح دونوسو بابتسامة، فالترياق علاج قديم، مجرد خلطة من الأعشاب والمعادن بل ولحم الأفاعي وشاع استخدامه في حقبة اليونانيين كمضاد للسموم، وفي المخيلة الشعبية يعد أحد أنواع العلاجات الشافية لكل شيء.

- أخشى أن الترياق لن يفيد بشيء. بخلاف هذا فالأفيون هو مكونه الرئيسي. ستغدو محاولة علاجها بالمادة نفسها التي تُدمنها أمرًا سخيفًا. أفضل شيء هو غسل معدتها بالخل وأن تتناول مُنبِّهًا. أريد أن أتحدث مع الراهبة الموجودة عند الباب.

يبقى دونوسو مع جريسي وينسى توصية عدم لمس أي شيء. يُجفف عرقها من فوق جبهتها ويتحدث معها بحنان، لكن الممثلة لا تُجيبه.

- سأحاول أن أخرجكِ من هنا. سآخذكِ بعيدًا حيث لن يتمكن أحد من إيذائكِ.

يعود آلبان بعد بضع دقائق في صحبة الراهبة ومعهما صينية ملأى بالقوارير.

- سأطلب منك أمرًا يا دونوسو. ابق في الخارج، فما سنفعله ليس لطيفًا.

- أفضِّل البقاء.

- ستعرقلني فقط. اخرج!

يصل دونوسو إلى حالة من الهدوء لأنه لم يحضر العلاج الذي تخضع له جريسي من الطبيب. يقف في الطرقة، حيث ثمة نافذة يدخل منها على الأقل الهواء وضوء القمر المكتمل. دفع آلبان الممثلة إلى شرب الخل وجعلها تقيء في طست، ثم جهز بمساعدة الراهبة وهما ينتظران أن تفرغ معدتها بالكامل شرابًا من النبيذ مع أوراق نبات أمريكي جنوبي يُستخدَم في بعض المستحضرات الطبية، ألا وهو الكوكا. تقول آخر الدراسات إن مزج الكحول مع أوراق الكوكا منبه قوي للنظام العصبي. بعدئذٍ ببضع دقائق، تخرج الراهبة لمناداة دونوسو.

- يُمكنك أن تدخل. لا تُنهكها، فالمريضة ضعيفة جدًّا.

الفارق بين جريسي التي تركها وتلك التي يجدها أمامه ليس كبيرًا. لا تزال المرأة النحيفة المتعرقة المنهارة نفسها، ولا يصدر منها رد فعل تقريبًا حين يتحدثان معها. تبدو هيئتها أقرب إلى الموت من الحياة. ينتظر دونوسو تفسيرًا من آلبان.

- فعلت كل ما يُمكنني فعله. يجب علينا أن ننتظر الآن. قد يحدث شيئان، إما أن تستيقظ وإما أن تظل في هذه الحالة الموحشة التي

تركها فيها المخدر إلى الأبد. لو أنك مؤمن، فَصَلِّ. لو أنك لست مؤمنًا، فتحلَّ بالصبر. تأخر الوقت ويجب أن أصل إلى «المستشفى العام» في السادسة صباحًا.

- هل يمكنني أن أبيت هنا؟
- أجل. تحدثت بخصوص الأمر فعلًا مع الأخت أدوراثيون.

تمر الساعات ببطء في ليل «إل سالاديرو». يشعر دونوسو بألم في جسده كله ويفزع مع كل آهة من رفيقات جريسي في البؤس وهن يتألمن في بقية الأسرَّة. اندهش حين تحقق من أن الأخت أدوراثيون ألطف مما ظن بعد مقابلتهما الأولى. جلبت له ماء باردًا وبعضًا من الخبز والجبن، بل وجلست لتتحدث معه برهة.

- هل كانت ممثلة فعلًا؟
- بل من أفضل الممثلات. أوشكت على عرض عملها الأول في «مسرح الأمير» وعملت في باريس.
- هل هي زوجتك؟

يُخرِج دونوسو من جيبه الخاتم المزيف الذي اشتراه من حانة شارع «المقدَّرون» ويُظهره للراهبة. يستسلم لخياله ويتحدث بعفوية.

- أوشكت على أن أطلب منها الأمر.
- على الأرجح ستكون محظوظًا وستطلبه منها، تبدو امرأة طيبة، لكنها عانت كثيرًا، وآذاها دخول المستشفى بشكل أكبر. منذ وصولها يأتي طبيب مرة يوميًا ويحقنها بشيء ما. آه لو أنني تخيلت أنه يفعل هذا الأمر لإيذائها، لا لعلاجها.
- من هو هذا الطبيب؟
- لا أعرف. يأتي الأطباء إلى هنا ويرحلون بسرعة مثل المرضى، لكن لا تقلق. لن يقترب منها مرة ثانية أبدًا.

تتلاشى آمال دونوسو مع تقدم الليل. يُؤلمه جسده كله من عدم شعوره بالراحة. إنه منهَك ويخشى في بعض اللحظات من إصابته بالعدوى الموجودة بين هذه الجدران، لكن ما معنى أن يغادر ويترك جريسي؟ فهذه الممثلة

المغمورة الجميلة كأنقاض توحي للمرء بألقها القديم، هي كل ما لديه في هذه الحياة، بل والشيء الوحيد الذي يستحق عناء الصراع من أجله.

بينما يوشك على الاستغراق في النوم، فإذا بصوت مألوف يُباغته ويوقظه:

- آسفة.

فتحت جريسي عينيها أخيرًا، وعلى الرغم من ذلك تبدو كأنها تنظر إليه من مكان بعيد.

- جريسي، كيف حالك؟

- وضعتك في خطر. كذبت عليك. دفعت دييجو إلى أن يورط نفسه أكثر من اللازم.

- أين قد ورط نفسه؟

- مع «مشعلو الفحم».

تُغلق عينيها. ربما تحاول مكافحة النوم أو العار. تكتسح دونوسو رعشة رعب بعد أن قالت إنها كذبت عليه، هل استغلته جريسي بصورة ما لتحقيق غرض ما؟ هل ستتلاشى كل أحلامه المستقبلية هكذا بسهولة مع بعض الكلمات كهبة ريح؟

- استيقظي يا جريسي. لا تنامي. احكي لي كل شيء.

تفتح عينيها وتنظر إليه بحثًا عن الغفران.

- ستكرهني.

71

يمتلئ قصر دوقي ألتويانو نهارًا بالضوء الذي يخترق نوافذه الكبيرة، فيما تمحو قناديل الزيت المُعلَّقة في طُرقاته الظلال من الأماكن التي لا تصل إليها الشمس. مع ذلك لا يختلف ظلامه ليلًا وكل سكانه نيام عن العتمة التي لطالما خشيتها كلارا وهن في بيت «لاس بينيولاس»، على الرغم من أن القمر مكتمل تقريبًا. لطالما ألهتها لوثيا آنذاك بالقصص، فيما رجتهما أمهما المنهَكة من عملها في مغسلة «باليتين» أن تصمتا لتتمكن من النوم.

تأخذ لوثيا شمعدانًا وشمعة من الشموع الكثيرة الموجودة في غرفتها في محاولة للعثور على أي دليل. لا تتجرأ على إشعالها في الطريق. لن تفعلها إلا حين تصل إلى مكتب آنا كاستيلار، ولهذا تجتاز الطُرقات فيما تتحسس الجدران وهي تخشى أن تتعثر بأي شيء فتوقظ الدوقين.

تقع المكتبة في الدور السفلي وفيها مخرج إلى الحدائق. إنها غرفة كبيرة تملأ جدرانها أرفف من الخشب الداكن وفيها مئات من الكتب المجلدة وبعض الخرائط المؤطرة المعلقة فوق جدار وحيد خالٍ من الأرفف. ثمة بابان على جانبيها يقودان إلى المكتبين. يقع مكتب الدوق يمينًا ومكتب الدوقة يسارًا.

لم تدخلهما لوثيا قط، لكنها تمكنت من الانتباه إليهما، فولية نعمتها المزعومة تقضي أغلب وقتها هناك.

تبدو الغرفتان مجهَّزتين بالأثاث نفسه تقريبًا، لكن ديكور كل منهما مختلف، لوحات قديمة عفا عليها الزمن في مكتب الدوق ومشاهد رعوية ريفية في غرفة الدوقة، كتب قانون حول مائدة إحداهما، وصحف وروايات رومانسية فوق مائدة الأخرى. تعرف لوثيا بعضًا من هذه الصحف. إنها نسخ من صحيفة «إل إيكو ديل كوميرثيو»، التي نشرت مقالات دييجو، وهنالك أيضًا نسخة من «إل أوبسيربادور» تظهر فيها صورة لوثيا التي رسمها الأبتر في ماخور «اللبؤة»، لكنها لا تبحث عن أي من هذا. لو أن ما تحتاج إليه موجود فعلًا هنا، فلن يظهر أمام العيان، أو أن هذا ما تفترضه.

تفتح لوثيا الأدراج على الضوء الخافت المنبعِث من الشمعة التي أشعلتها. تنظر داخل صفحات الكتب وترفع الأوراق من دون نجاح. تعثر في النهاية على شيء يُثير فضولها فعلًا، علبة مغلقة بمفتاح ومخفية نوعًا ما داخل قطعة أثاث إلى جوار الجدار، وراء مكتب الدوقة. تتعامل مع القفل بفتاحة خطابات عليها درع دوقي ألتويانو. ليس أمرًا سهلًا، كفتح باب شقة الأب إجناثيو جارثيا. تَصدر أكثر من طقطقة تمنح لمهمتها إيقاعًا. تبدو لها هذه الضوضاء البسيطة وسط صمت البيت كعاصفة من المدافع. حين تفتحه تكتشف أنه ملآن بالأوراق لكن أول ورقة تراها كاشفة، ففي مقدمتها ثمة شعار. إنهما مطرقتان متقاطعتان تشكّلان علامة ضرب.

تنظر لوثيا إلى الباب. هل سمعت خطوات في الرواق؟ ينبض قلبها بقوة فيما تحف الريح بأوراق الشجر فيبدو صوتها كهمس متقطع. تظل الطيور نائمة تحت قطع القماش التي تغطي أقفاصها. لم تعد الخطوات مسموعة ومع ذلك تثق بأن أحدًا ما قريب. يُسعفها الوقت لإخفاء الأوراق أسفل ملابسها والابتعاد عن قطعة الأثاث والوقوف أمام المكتبة حين تسمع مفاصل الباب وهي تنفتح، فتظهر آنا كاستيلار بعد ثانيتين.

- ما الذي تفعلينه هنا؟

- لم أقدر على النوم وجئت لأبحث عن شيء لأقرأه.

تنظر إليها الدوقة في صمت من بين ظلال المكتب قبل أن تقترب منها كما القطة. تعتقد لوثيا أنها تحاول السيطرة على نفسها لكيلا تُبدي غضبها.

- هيا بنا، عليكِ أن تعودي إلى الفراش ولا تدخلي المكتب أبدًا من دون إذني.

تتبخر الابتسامة التي حاولت آنا كاستيلار أن ترسمها في ظل عجزها عن إبقائها لثانية إضافية. تُرافق لوثيا حتى غرفة النوم وتنتظر دخولها إلى الفراش.

- هل كنتِ تبحثين عن شيء ما؟
- لا، مجرد شيء للقراءة. سنواصل غدًا دروسنا، أليس كذلك؟
- لا أعرف ما إذا كنت سأقدر. أنا مشغولة جدًا. سأبحث عن بديل لي كي يعلّمك أفضل مني.
- يروقني حين تعلّمينني أنتِ.
- قلت لك أنا مشغولة.
- هل أنت غاضبة مني؟ هل فعلت شيئًا سيئًا.
- بالطبع لا يا حبيبتي. الأمر وما فيه أن لديَّ انطباعًا أنكِ لا تثقين بي كما وثقتِ بدييجو. لا أحمِّلك الذنب، إنها مسألة طبيعية، ما زلتُ بصورة ما غريبة بالنسبة إليك. سيروقني أن يتغير هذا الأمر. أعدك أن أفعل كل ما في وسعي للعثور على أختك. لو أن ثمة شيئًا، مهما تصاغر في نظرك، تظنين أنه قد يغدو مفيدًا، فقوليه لي، فالوقت المتاح لكلارا للأسف ليس أبديًا.
- أعرف وأقسم لكِ إنني حكيت كل شيء.
- سيكون أفضل شيء أن أعثر على المدعو الأخ براوليو، قال لي دييجو إنه على الأرجح لديه معلومات عن كل ما يحدث.
- لم أرَه منذ المذبحة.

يجب على لوثيا أن تتحلى بالحذر، إذ إن آنا كاستيلار مع مرور الوقت يشق عليها إخفاء غضبها. تأمل أن تتمكن من الفرار من البيت قبل تفجُّره. حين تصبح وحدها، تترك الوقت يمر كي يهدأ قلبها، فلعبة الأكاذيب مع آنا لها ثمنها. تُخرِج الورقة التي أخفتها تحت قميص نومها، وعليها شعار الخاتم. ربما سر العثور على كلارا موجود هنا، لكنها لا تفهم شيئًا من الأحرف المتراقصة أمامها.

تبذل جهدًا وسط العتمة لتذكُّر دروس آنا، فتتمكن تدريجيًا كمن يحيك قطعة ملابس بعناية من جمع أحرف كلمة تقع تحت شعار المطرقتين: «م-ي-ر-ا-ل-ب-ا».

ما معناها؟ هل تُنطق «ميرالبا» أم «ميرابلا»؟ ماذا لو أن هذه الكلمة مكتوبة بلغة أخرى؟ لا بُد أن توماس أجيرّي قادر على فك شفرتها. ستبحث عنه غدًا. اتفقا على أن يلتقيا في ميدان «القديسة بربارة» حين تدق أجراس العاشرة.

72

- ستكرهني حين أحكي لك الحقيقة، لكنني أستحق هذا. لست بريئة. أنا مذنبة بقدر بقية أعضاء الجماعة السرية.

يشعر دونوسو بالدوار بعد سماع خطاب جريسي، فالأمور أقسى بكثير مما توقعه.

- تعرفت على أسينثيو دي لاس إيراس وأنا أُمثل في باريس. كان قنصل إسبانيا. ذات يوم جاء لمشاهدتي في المسرح، ثم أرسل لي باقة زهور ضخمة، فوافقت على تناول العشاء معه. رافقني إلى أماكن لم أزرها من قبل، أفضل المطاعم وأكثرها تميزًا في المدينة. صرت عشيقته، وخضت معه تجربتي الأولى في زيارة وكر للأفيون في «لو ماريه»، ليس مثل ذلك الموجود هنا في مدريد في شارع «الصليب» حيث ترقد على حاشية سيئة الرائحة، فكل شيء هناك فاره، ويُحَضِّر الصيني المسؤول عن المكان الأفيون في نرجيلة مصنوعة من الفضة، ملعون هو اليوم الذي دخنته فيه لأول مرة، لكن هذا ليس الشيء الوحيد الذي أظهره لي، إذ قدمني إلى الدائرة المقرَّبة لجماعته السرية.

تصمت جريسي، كأن ما ستقوله الآن أكثر ما سيشق عليها أن تكشفه طيلة حياتها، فيُشجعها دونوسو على المضي قدمًا:

- «مشعلو الفحم»؟

- أجل. رافقته إلى اجتماعات الجماعة. بدت لي مملة جدًّا، حتى بدأ كل شيء يتغير. آنذاك وصلت الكوليرا إلى باريس، وانتشرت شائعة تقول إن ثمة علاجًا، لكن مجموعة مختارة فقط تقدر على الوصول إليه، فأدخلني أسينثيو في هذه المجموعة المشؤومة.

- لماذا تصفينها بالمشؤومة؟

تنبثق ذراعا جريسي العظميتان من تحت الملاءة وتتشبثان بدونوسو بقوة.

- لم أعرف شيئًا عما يُفعل في هذه الطقوس. يجب أن تصدقني. لم أعرف...

- اهدئي يا جريسي. احكي لي كيف كانت.

- أُقيمت الطقوس في قاعة مهجورة في سجن «لا فورس». كنا اثني عشر شخصًا وارتدينا قلنسوات، لهذا لم أعرف هوية البقية، باستثناء أسينثيو. ربما لم نكن نفسنا في كل مرة. كان هناك «معلم كبير» يترأس الطقس. لا أعرف هل هو نفسه الموجود في مدريد أم أنه مختلف. لم أحضر اجتماعات هنا قط. جاؤوا بطفلة عارية وربطوها في صليب، طفلة حاضت للمرة الأولى. جمعوا بعضًا من دمائها في كأس وخلطوه بشراب وفقًا لتعليمات إعداد وصفة سحرية، سماه أسينثيو «شراب الدم» وكان مقتنعًا بأن هذا الدم يحميه من الكوليرا.

- إنها معتقدات قروسطية.

- وبعد أخذ الدماء من الفتاة، ضحوا بها.

يختنق صوت جريسي وهي تنتحب، وتستغرق بضع ثوانٍ قبل أن تستأنف حديثها:

- قطعوا أوصالها للتخلص من جسدها الدنس وتحقيق الخلود في وجه الكوليرا.

لا يود دونوسو أن يُقاطعها. صحيح أنها تتحدث معه عن باريس، لكنه ما يحدث نفسه في مدريد، وما دعاه دييجو بـ «جرائم الوحش».

- حين رأيت ما يفعلونه، تجمدت. لم أعرف كيف يجب أن يكون رد فعلي. أثار هؤلاء القوم خوفي. لم أعد قط إلى أي من اجتماعاتهم ولا إلى المسرح. أصبحت مهووسة بكل ما رأيته ولم أجد سوى مكان واحد للاسترخاء، وكر الأفيون في «لو ماريه». لم يهمني أي شيء آخر، حتى ابنتي، التي عاشت معي في باريس وقضت النهار كله بمفردها. ثمة أيام لم أعد فيها إلى مسكننا، فأكلت بفضل إحسان بوابة المبنى، وهي امرأة من بالنثيا عاشت في باريس منذ الصغر. من الأفضل ألا تعرفَ ما فعلتُه في هذه الأشهر، لأنك على الأرجح ستشمئز.

ينتظر دونوسو أن تواصل حكايتها من دون أن يُجبرها، إذ يتكهن بأنها ستعود قريبًا إلى مسألة الفتيات.

- عثر عليَّ أسينثيو في وكر الأفيون وأفهمني أنه ما إن يضع المرء قدمًا في داخل الجماعة، حتى يغدو ممنوعًا من تركها، لكنني لم أرد أن أخطو داخل ذلك المكان مرة ثانية، وحينئذٍ اختفت ابنتي.

- هل اختطفها ليشتري صمتك؟

- ضحوا بها في طقوسهم. حين ظهر جسدها، وهو مقطوع الأوصال، فهمت كل شيء. اختطفوها لتصنيع هذا الشراب. تهاويت وغدوت مجنونة ولم أقدر على تحمل الحياة إلا بالأفيون. فقدت عملي في المسرح، ووصل بي الأمر إلى ممارسة البغاء لأقدر على شرائه. توقفت عن الذهاب إلى «لو ماريه» وبدأت أذهب إلى أوكار أخرى أكثر بؤسًا، في «مونمارتر» و«بيجال»، ذات يوم ظننت أنني سأقدر على تخطي كل هذا، فعدت إلى مدريد وأنا عازمة على التخلي عن الأفيون والعودة إلى المسرح والحياة، حتى لو فعلت كل هذا وأنا أتألم من ذكرى ابنتي.

تتوقف مجددًا بسبب البكاء. يطلب منها دونوسو أن ترتاح وتستأنف الحكاية غدًا، لكن جريسي تصر على استئناف الحكاية حتى نهايتها.

- توجهت إلى مقابلة جوان جريمالدي، مدير «مسرح الأمير». عرفته منذ سنوات مضت وعرفت أيضًا أن طريقتي في التمثيل تروقه. تمكنت من الحصول على دور البطولة في مسرحيته التالية وبدأت البروفات.

حينذاك قرأت مقالًا في الصحيفة حول ظهور طفلة مقطوعة الأوصال بتوقيع «القط المستخف». عرفت فورًا أنه ما رأيته في باريس نفسه. تحققت من أنه اسم دييجو المستعار، فالأمر ليس سرًّا، وحصلت على عنوانه وذهبت لمقابلته. في اليوم التالي ظهر أسينثيو دي لاس إيراس مرة ثانية. انتظرني عند مخرج المسرح بعد البروفة. هددني وأجبرني على صعود عربته. عرفت في تلك الليلة وكر شارع «الصليب» ودفنت كل الشهور التي توقفت فيها عن التعاطي. صرت مجددًا سجينة للأفيون ولهذا الرجل.

- لماذا لم تحكي لي؟ كنت سأساعدك!

- حين ذهبت لمقابلة دييجو في بيته، أردت أن أفعل خيرًا، أقسم لك، أردت المساعدة لكيلا يتكرر في مدريد ما حدث في باريس، لكن المقال أشار إلى فتاة مقطوعة الرأس إلى جوار نهر السين، وافترض أسينثيو أنني قدمت هذه المعلومة، لهذا جاء بحثًا عني وهددني بالموت لو حكيت ما أعرفه.

- كان هذا الرجل عشيقكِ وحاميكِ، هل أردتِ أن تعودا معًا من جديد؟ ألهذا لم تكشفيه لي في بيت «توكامي روكي»؟

- لا. ليس صحيحًا. لم أفعلها بسبب خوفي.

- أنا كشفت أمره من ناحيتي. أعطيت اسمه للراهب. مات أسينثيو. ألهذا غادرت؟ لأنه لم يعد يمثل تهديدًا؟

- لا!

- لماذا إذن؟

- جاء بعض الرجال من أجلي وجاؤوا بي إلى هنا.

- هل تريدين مني أن أصدق هذه الأكذوبة؟

- جاؤوا بي قسرًا وأعطوني الأفيون. ينتحلون هوية أطباء ويأتون به إليَّ.

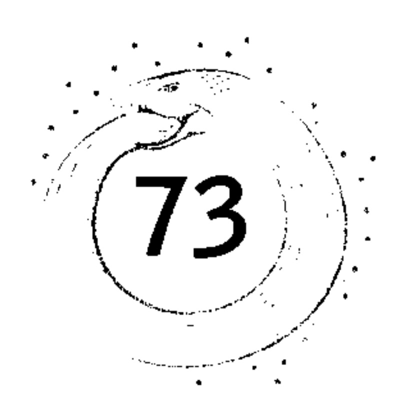
يقول دونوسو بمرارة:

- خدعتِني يا جريسي. جعلتِني أصدق أن أسينثيو مجرد معجب وهو قاتل. حكيت ما قلته لدييجو ومات دييجو الآن. قد يكون الأمر ذنبك.

- أتمنى فقط أن أتحلى بالقوة الكافية لأنهي حياتي. هذا ما وجب عليَّ فعله حين ماتت ابنتي.
- وأنا أردت أن أقترح عليكِ حياة جديدة، بعيدًا عن مدريد، لنا نحن الاثنين معًا. يا لحماقتي!
- وجب عليَّ أن أتوجه إلى السلطات وأحكي لهم كل ما أعرفه، لكن يُصيبني الذعر من هؤلاء القوم. إنهم في كل مكان. دونوسو، لقد مضيت في أثر أسينثيو ذات ليلة إلى قصر «ميرالبا»، وأظن أنه المكان الذي يُقيمون فيه الطقوس. لا تعرف من يحضر. ثمة أشخاص نافذون جدًّا في هذه الجماعة. أنا جبانة يا دونوسو. لست سوى جبانة.

يُومئ برأسه بغضب. لن ينكسر أمام جريسي، حتى وإن شق عليه أن يغادر ويتركها لنصيبها في «إل سالاديرو». ربما ستجد طريقة تُنهي بها حياتها وربما سيُغرقها «مشعلو الفحم» ثانية في كابوس الأفيون. لا فارق. يُكرر داخل نفسه هذه العبارة، لأنه لا يقدر على تحمل الأكاذيب. خانته زوجته في ذلك اليوم وتركت خدعتها علامة غائرة فيه إلى الأبد، وصارت روحه كلها تتشبع بهذه المعاناة. لن يسمح لنفسه بأن يقع ضحية خدعة أخرى.

لا يشهد دونوسو، بعد أن خرج من الصالة، بكاء جريسي الخافت، ودموع عجزها لأنها فشلت في حب الرجل الوحيد الذي اعتنى بها فعلًا طيلة حياتها.



تحاول لوثيا قراءة الورقة التي أخذتها من مكتب آنا كاستيلار مرارًا وتكرارًا. تتمكن عبر معرفتها البسيطة من فك شفرة بعض الكلمات، لكنها لا تعني شيئًا بالنسبة إليها. «**Manoir de Mirabla**»[1]. لا تزيد السطور التالية إلا من ارتباكها وعجزها: «**Séance du samedi 26 au siége de la Manoir Miralba**»[2].

لكن لا مبرر للإصابة بالذعر، فلديها موعد مع توماس أجيرّي، وسيخبرها بالتأكيد ما إذا كانت هذه الورقة مهمة أم لا. عليها أن تجد طريقة للخروج من القصر من دون أن تلفت الانتباه، فهي تعي أنها قد تدفع ثمنًا غاليًا حال ارتكبت أي زلة أمام صاحبة البيت. تختار ملابس أنيقة كي تنزل لتناول الإفطار وتُجبر نفسها على السير بخطوات قصيرة والتحدث بصوت خفيض، وهي السلوكيات التي أوصتها بها آنا قبل المزاد. تُغطي رأسها بمنديل عقب الإفطار وتخرج إلى الحديقة الخلفية لتتأمل الطيور الغريبة. يهز الطنان

(1) وردت في النص الأصلي بالفرنسية ومعناها «قصر ميرالبا». (المترجم).

(2) وردت في النص الأصلي بالفرنسية، وسيدرك القارئ معناها لاحقًا. (المترجم).

الأحمر الصغير جناحيه من دون كلل وهو يستخرج رحيق زهور التبغية. إنه المكان الوحيد في البيت الذي لا تشعر فيه بأنها مراقَبة. دقت أجراس الساعة التاسعة منذ برهة. يجب ألا تتأخر كثيرًا في الخروج، لو أنها تود أن تصل إلى اللقاء في موعدها. ينظر إليها أحد الببغاوات بتبجح، بل وبطريقة تكاد تكون ساخرة إلى درجة قد يظن معها المرء أنها تُنبئ بمصيرها.

تحدث كل الأمور بسرعة، ضوضاء عند المدخل، ثم بعض الخطوات العسكرية الحاسمة، فظهور بعض الحراس في الحديقة وانطلاقهم نحوها. يرافقهم دون بينيتو، دوق ألتويانو، ومعهم آنا كاستيلار التي تضبط قبعتها وهي تسير وراء هذه المجموعة بخطوتين.

- ها هي ذي! إنها قاتلة مارثيال جارّيجيس.

يُقارن الرجل الذي يترأس مجموعة الحراس وجهها بالصورة التي نُشرت في الصحيفة ورسمها ماوريثيو الأبتر.

- ستأتين معنا.

لا تُبدي لوثيا رد فعلها في الوقت المناسب، بل إنها لا تتمكن أصلًا من محاولة الفرار قبل أن يمسكوها من ذراعيها.

- فعلتما حسنًا بالإبلاغ عنها.

- يجب أن تهنّئا زوجتي فهي من تعرفت عليها وجعلتها تأتي إلى البيت لكيلا تتمكن من الهرب.

يقتادون لوثيا بخشونة، فتبصق في وجه الدوقة وهي تمر إلى جوارها.

- أعرف ما تكونين. أنتِ مسخ.

- أبعِدوها. يجب أن تدفع ثمن ما فعلته. لا مكان في مدريد للقاتلات.

تقترب آنا كاستيلار من لوثيا قبل أن تخرج بحجة استعادة المنديل الذي تغطي به رأسها وتهمس في أذنها بعبارة:

- لديَّ هذه الليلة موعد مع كلارا، سأبلغها تحياتك.

- سأقتلك! أقسم إنني سأقتلك!

تحاول لوثيا أن تفلت من الحراس وتنقض عليها لكن الرجال يُمسكونها جيدًا، ثم يجرُّونها حتى عربة سوداء مغلقة تنتظرهم في الشارع.

يحضر توماس أجيرِّي وهو يقف عند إحدى النواصي إلى جوار واجهة زجاجية لأحد ورش الخياطة مأزق لوثيا ويرى الدموع التي تنساب فوق خديها، وفستان ابنة الذوات الغريب المجعد من عند الكمين الذي ترتديه. يقتادها الحراس بأيدٍ كالأغلال تُقيد ذراعيها الهزيلتين. يرفعونها ويدفعونها إلى داخل العربة. يخرج الدوق من القصر، ويُوقف العربة بإيماءة ويوجه بعض التعليمات إلى السائق. يتفهم توماس أنها لحظة التحرك، فهو يراقب البيت كبومة منذ أصرت الفتاة على البقاء هناك. عرف أن الأمر خطير وها هي ذي الأحداث تُثبت توقعاته، فغريزته المتوحشة لا تخيب أبدًا.

يُمسك الباسكي بمقبض مديته في جيب ثوبه الكنسي المهترئ، إما الآن وإما فلا. سيضع السلاح فوق رقبة الدوق، وسيصدر أمره الحاسم للحراس، إما أن يفلتوا الفتاة وإما سيفتح رقبة الوزير كبطيخة. لا يبدو له الهروب عبر شوارع الحي صعبًا. تتشكل هذه الخطة داخل رأسه في ثانية. لا وقت للعودة إلى الوراء. يشعر الباسكي بنداء يُحذره من الداخل، بصوت يُنبهه إلى الهدوء الذي يتصرف به الدوق في الشارع في زمن الحرب. إنه وزير وعدو للكارليَّة وعنصر يطمع فيه الجميع ومع ذلك يتمشى عبر المدينة بوجه مكشوف. يفرض الوضع المُلح كلمته. لا ينصت إلى ذلك الصوت الذي يوصيه بتوخي الحذر وينقض على بينيتو ألتويانو. يكفي فقط أن يُصدر تحذيرًا واحدًا كي يُوقِفه عن الحركة.

- إما أن تتركوا الطفلة وإما سأقطع رقبته.

انبغى له أن ينتبه إلى ابتسامة الوزير، لكن من الواضح أن ردود فعل المرء تضعف حين يقضي بضعة أسابيع بعيدًا عن الجبهة ولا تغدو حياته في كل دقيقة في خطر.

يخرج أربعة رجال فجأة من العدم، ويرى أجيرِّي نفسه فجأة محاصَرًا، مع مسدسين وبندقيتين مصوَّبتين نحوه.

يقول الدوق:

- كم وددت أن أراك يا أخ براوليو.

ينطق كلمتَي «أخ براوليو» باستهزاء، ما يُوحي بأنه يعرف تمامًا هويته الزائفة.

يدرس أجيرِّي خياراته. ليس لديه شيء ليفعله. لقد خسر. لا يمكنه أن يثق بعدم دقة تصويب أربعة جنود من الجيش.

- كان سيروقني أن أبقى وأمنحك ما تستحقه بنفسي، لكنني في عجالة من أمري، فأنا مدعو هذه الليلة إلى احتفال أخشى أنك ستغيب عنه. رافقوه إلى الجانب الآخر من «الجدار» واقتلوه. لا تشغلوا أنفسكم بإخفاء جثته، فمن الأفضل أن يعثروا عليه سريعًا ليعرفوا ما نفعله بالكارليِّين في مدريد.

يُصوب الجنود سلاحهم نحو رأس أجيرِّي إثر إيماءة رفض خفيفة منه، أما رأس لوثيا فيطل من نافذة العربة، وقبل أن يدفعه أحد الحراس إلى الداخل، تتلاقى نظرتها مع توماس. تبحث عن الأمل أو عن غمزة تواطؤ تكشف جزءًا من حيلة ما وأن كل شيء مدروس وأن القبض عليها جزء من الخطة. مع ذلك لا ترى سوى اليأس والهزيمة.

- هل تخدعك زوجتك يا بانكراثيو؟

ترك بانكراثيو جرَّة النبيذ في متناول دونوسو كي يصب لنفسه منها كيفما يشاء، لأنه يعرف جيدًا مزاجه العكِر. صحيح أنه خاض شجارًا مع راهب في آخر مرة جاء فيها إلى هنا، لكنه لا يظن أن زيارته اليوم سينجم عنها أي عنف. ليست المرة الأولى التي يأتي فيها دونوسو إلى «خمارة الجدران» ليرطب جراحه بالكحول، ولن تصبح المرة الأخيرة. أيضًا ليست المرة الأولى التي سيسمح له فيها بالنوم في المخزن عقب الإسراف في الشرب، فوق فراش قوامه النشارة التي تفوح منها رائحة الجعة والبول.

- لو خدعتْني، فسأطحنها ضربًا بالعصا. هذا هو الشيء الوحيد الذي يُمكنني قوله لك.

يقول دونوسو وهو يصب الكأس في فمه:

- هذا ما وجب عليَّ فعله.

يضرب المائدة بقبضته ويصب لنفسه كأسًا أخرى ليواصل خطابه المهووس.

- يوجد شيء واحد أسوأ من أن تخدعك امرأتك، هل تعرف ما هو؟

يقول له بانكراثيو:

- لا بد أنك تعرف.

- أن تخدعك امرأتك التالية.

يتحقق صاحب الحانة من مخزون «الأجوارديينتي». حين ارتبطت أحزان دونوسو بالعمل -أي بشكواه من العمل كمراقب لبوابات مدريد أو بأي مشكلة في نِظارة الشرطة- انتهت كآبته بست أو سبع كؤوس من النبيذ، لكن مقاومة أحزان الحب أكبر. لا ينسى بانكراثيو الحالة المزرية التي وصل إليها الشرطي السابق الأعور حين هجرته زوجته. يخشى الآن تكرار ذلك المساء حين ظن أنه سيموت في حانته.

- هذا النبيذ مغشوش بالماء، لا يكفي حتى لإشباع بغل.

- لكنه النبيذ نفسه الذي تتناوله دائمًا يا دونوسو.

- أعطني شيئًا أقوى يا بانكراثيو.

يضيف بعدئذٍ وهو يتمتم:

- حتى الصديق لم يعد يُعاملك جيدًا في بيته، يبدو الأمر خيالًا. يا لها من حياة قذرة.

تنزل زجاجة من «الأجوارديينتي» فوق المائدة مع كأسين. يملؤهما بانكراثيو ويرفع كأسه:

- في نخب تحسن حياتك. لا تقتل نفسك بالشرب يا دونوسو، فالأمر لا يستحق العناء.

يُطيح الأعور بكأس بانكراثيو بضربة من يده، ثم يتجرع شرابه من مرة واحدة ويصب لنفسه كأسًا أخرى.

74

منذ أصدر فيليبي الثاني قرارًا بتحويل مدريد إلى عاصمة إسبانيا، تقرر وجود سجنين مختلفين فيها، «سجن البلاط» و«سجن المدينة». ينتهي المطاف بسجناء قضايا القتل في ذلك الأول، كي يغدو «التاج الملكي» منبع العدل، أما أصحاب جرائم الاحتيال والتهريب وأي جنح صغيرة أخرى، فيُرسَلون إلى الثاني، التابع للحكومة. هكذا أُرسلت لوثيا إلى «سجن البلاط»، الذي عاد مؤقتًا إلى ميدان «الصليب المقدس» بسبب امتلاء سجن «إل سالاديرو» حاليًا بمرضى الكوليرا. ثمة زنازين منفصلة للرجال والنساء، لكن هنالك مناطق مختلطة يعيشون فيها مع بعضهم، حيث تحدث شجارات ومناوشات، حين لا يرتبط الأمر بالاعتداءات الجنسية. جرت العادة أن يُرسِل النظام، الذي لا يعمل بكامل كفاءته حاليًا، النساء إلى سجن «بيت الأروقة» في شارع «أتوتشا» كي ينفذن أحكامهن هناك، لكن في تلك الأزمنة المضطربة، وسط جموح الجائحة، صارت السجون مجرد زرائب تضم المجرمين العاديين والقتلة، مع المشاغبين البسطاء والعاهرات، بل ومرضى الكوليرا والمجذومين.

على الرغم من بارود الشجارات اليومية والاغتصابات والنصول القاتلة وتهديدات التمرد، فإن التدابير الأمنية ليست متعنتة جدًّا. عدد الحراس ليس

كافيًا، وفي ظل الخوف من الكوليرا، الذي يتزايد بسبب الاقتناع بأن أي سجين مُعدٍ أكثر من أي برجوازي، صدرت لهم توصيات بالبقاء على بُعد معقول منهم. هكذا صار السجناء يتصرفون على هواهم ويرتكبون مصائب من كل شكل ولون، ثم يتقبلون، كأثر جانبي، العقوبة العرضية التي قد يفرضها عليهم أي حارس يقرر التعامل معهم بقسوة. يتجمع السجناء في الفناء، حيث ثمة نافورة تُغسَل فيها الملابس، وكأي مجتمع تزدهر الأعمال، ثمة سجينات لا يردن الخروج من هذا البيت، لأنهن يعملن غسَّالات لبقية السجناء ويكسبن مبالغ جيدة، على الرغم من المخاطر الكثيرة التي تجابههن والظروف غير الصحية.

يشغل الزنازين الصغيرة، التي تبلغ مساحتها ثلاثة أمتار في أربعة أمتار، من سجين واحد إلى أربعة، وفقًا لما يقدر كل منهم على دفعه للسجانين. كل شيء يُشترى ويُباع، حتى فرصة الخروج من الباب، من دون حاجة إلى الفرار. يخرج بعض السجناء صباحًا ويعودون للنوم من دون أن يحاسبهم أحد.

بمجرد وصولها، تشعر لوثيا بالانبهار من هذا المكان الفائر بالعنف والازدراء والانحطاط البشري. تخترقها النظرات -القاتلة والملولة على حد سواء- في أول مرة تمضي فيها عبر الأروقة التي تقودها إلى زنزانتها. يدفعها حارس إلى الداخل ويغلق الباب، من دون تفسيرات أو تحذيرات أو بروتوكول للاستقبال. ما من شيء في الداخل سوى فراش عفن وحلقة في الجدار الحجري. تقاوم فكرة الجلوس على الفراش لأنها تعتبر هذا التصرف طريقة لفقدان الهمة والاستسلام. تفضِّل أن تسير من هذا الجانب إلى ذاك داخل هذه الحفرة التي تجتازها في خطوتين قصيرتين. كيف ستخرج من هنا؟ لا وجود للنوافذ وليس لديها مال لرشوة الحارس.

انتهى كل شيء. أظهرت لها آنا كاستيلار أوراقها بعد أن خلعت قناعها وأزالت زينتها. «لديَّ هذه الليلة موعد مع كلارا». إنها عبارة لا لبس فيها. حانت لحظة أختها. سينعقد الطقس اليوم ولا يُمكنها أن تفعل شيئًا.

يتردد داخل عقلها صوت كلارا وسط صمت محبسها وغضبها فيبدو تأنيبًا جارحًا. يقول الصوت: «لا تتركيني بمفردي، لا تتركيني بمفردي». تمسح لوثيا دموعها بظهر يدها. تعهدت بأنها لن تبكي حتى تعثر عليها، لكن دموعها تتساقط الآن من دون عائق، بعد أن أدركت هزيمتها. يتصاعد صوت لطقطقة

منتظمة وسط تجويف الزنزانة. يقترب أحد وهو يسير ببطء، مستندًا إلى عكاز. تبدو الضوضاء الإيقاعية لصوت هذه الدقات مألوفة بالنسبة إلى لوثيا. ينجر غطاء وصواص باب الزنزانة وتتفحصها عينان من خلفه، ثم ينفتح الباب. يقف ماوريثيو، أبتر الماخور، عند الجانب الآخر وهو يستند بصعوبة إلى عكازيه المتهالكين. لا تفهم لوثيا ما يفعله هذا الرجل هناك، ولماذا ينتظر الحارس الذي جلبها إلى الزنزانة إلى جواره بتعبير أبله.

- لقد أمسكوا بك.

تُجيبه:

- بسببك.

ينظر إليها ماوريثيو بضع ثوانٍ، يخرج لسانه المدبب من فمه، فتسقط نقطة من لعابه. يُخرِج ورقة مالية من جيبه ويقطب جبينه، ثم يزمجر كحيوان قبل أن يمد المال إلى الحارس.

يقول له قبل أن يمضي وهو يجرجر ساقيه:

- خذها إلى الأخريات.

لا تفهم لوثيا شيئًا، لكنها تمضي وراء الحارس إلى قاعة كبيرة تضم ثلاثين فراشًا موزعة على خمسة صفوف. يشغلها جميعًا نساء. تنام بعضهن وتتكاسل البقية. تنظر واحدة منهن إليها بفضول، فيما تنشغل الباقيات بأمورهن. يُخصص الحارس فراشًا للوثيا، ثم تحصل فورًا على الطعام الذي يخص كل سجينة يوميًا، رطل من الخبز. تشرح لها امرأة هزيلة أن هذا هو كل الطعام الذي ستحصل عليه حتى الصباح التالي، وأن حصولها على أي غذاء آخر سيعتمد على مهارتها.

تسألها واحدة بلا أسنان:

- هل رحبوا بك؟

تقول أخرى من فوق فراشها وهي تعض أظفور قدمها، فيما تمسك ساقها بزاوية مستحيلة:

- إنها مجرد طفلة.

- ولديها جسم امرأة، وهذا أكثر ما يروقهم.

تتفهم لوثيا الوضع. ليس لديها وقت لصنع صداقات بالداخل. تحتاج إلى العثور على ماوريثيو في أقرب وقت. تغادر القاعة وتندهش من مدى سهولة التحرك عبر السجن من هنا إلى هناك، فبوابات الزنازين مفتوحة. يُوجه لها بعض السجناء إشارات بذيئة وهي تمر، لكنها لا تتوقف. حين تصل إلى الفناء، تلمح الأبتر وهو يتحدث مع سجينين. تقترب منه.

- هل يحتفظون لك بالسجينات كي تتذوق كل واحدة منهن؟ هل أنت قذر إلى هذه الدرجة؟

يضحك السجينان اللذان يرافقانه.

- لقد أنقذتكِ هنا. ليس لكِ حق في الشكوى.

- قالت لي «اللبؤة» إنك من قدم صورتي للحراس.

يُبعد ماوريثيو السجينين اللذين لا يتوقفان عن حركاتهما الساخرة وهما يبتعدان.

- لم أقدمها إلى الحرس، وإنما إلى صحفي. دفع لي ستة ريالات في المقابل. ندمت، إذ أغلقت «اللبؤة» بابها في وجهي إلى الأبد. ماتت المسكينة الآن من الكوليرا. كانت امرأة طيبة، ولم تسمح لي دلفينا بأن أقدم أي تفسيرات. لا بد أنها منحت الحرس الذين أوقفوني الليلة الماضية نساء بالمجان.

- أريد منك أن تساعدني. أنا في حاجة إلى الخروج من هنا.

- لفعل هذا ثمة حاجة إلى المال، وليس معي شيء الآن.

- بل معك. ناولت الحارس ورقة مالية منذ قليل.

- إنها الأخيرة، لكن جمع المال هنا سهل بالنسبة إلى فتاة جميلة مثلك. عليكِ فقط أن تفعلي ما فعلتِه عند «اللبؤة» نفسه.

- ليس لديّ وقت. سيقتلون أختي، ولا يمكنني فعل شيء وأنا هنا.

- مقابل عشرة ريالات، سيترك لكِ الحراس الباب مفتوحًا.

- ليس معي عشرة ريالات.

- لن تستغرقي وقتًا طويلًا في جمعها في ظل الأسعار الموجودة هنا. لو أردتِ، فسأبحث لكِ عن زبائن. سآخذ ريالًا على كل زبون، والباقي لكِ.

تدهس لوثيا بحنق ساقه الوحيدة، فيصرخ ماوريثيو من الألم.

- أنت تُثير اشمئزازي.

- دهس الأبتر ممنوع! اغربي عن وجهي يا ساقطة! لن أساعدك أبدًا مرة ثانية!

تبتعد لوثيا، وهي تتجنب نظرات السجناء. تستند إلى حائط وينزلق ظهرها فوقه إلى أن تجلس. يقترب صعلوك ذو حرقدة بارزة جدًّا منها. يُمسكها من طرف ذقنها ويُحرك وجهها من هذا الجانب إلى ذاك، كأنه يدرس فكها.

يقول:

- أنتِ تروقينني.

- أبعد يدك عني.

- أنتِ تروقينني جدًّا.

يبدأ في ملامستها إلى أن تُسقطه ضربة عكاز فوق رأسه. تلتفت نحو المعتدي الذي يرفع عكازه مجددًا. إنه ماوريثيو.

- ارحل عن هنا.

يبتعد السجين وهو يُتمتم بكلمات بذيئة. تكافح لوثيا لتكسب نظرتها طابعًا قاسيًا.

- لم أطلب منك هذا. يمكنني أن أتولى أمر خنازير مثله.

- اصمتي.

- لا يحق لك أن تقول لي أن أصمت.

- ثمة طريقة للخروج من هنا.

الآن فعلًا يتمكن ماوريثيو من إجبار لوثيا على الإنصات إليه.

75

لا يبدو فراره أمرًا ممكنًا، فهو من دون مديته ومعصماه مكبلان بالأغلال، ويراقبه اثنان من الحراس الذين اعتقلوه وأجبروه على ركوب عربة تابعة لهيئة الحرس الملكي. مع ذلك تمكن توماس أجيرّي من الفرار من مواقف أسوأ من هذا. ذات مرة قتلت كتيبة إعدام شخصين قبله بالرصاص، لكنه هرب حين حان دوره. لم يرتبط الأمر طبعًا بشيء فعله، وإنما بمعجزة ظهور مجموعة من الكارليّين أخرجته من هناك، لكنه لن يحصل اليوم على العون منهم.

يرى أجيرّي فرصة وحيدة حين يصلون إلى جسر «القديس إيسيدرو» العائم، وهو الطريق الذي اختاره الجنود للخروج من المدينة وتلافي البوابات الكبيرة الملأى دائمًا بالناس. ينساب نهر «مانثاناريس» تحته ولا تفيض مياهه بكثرة كما هو حاله دائمًا. من الصعب أن ينجو إن سقط من هذا الارتفاع، لكن دقائقه ستصبح معدودة في هذا العالم، لو لم يقفز. يُغلق عينيه ليُكمل صورة السجين المستسلم الذي غلبته الظروف. حين تُهدئ العربة سرعتها لدخول الجسر، الأضيق بكثير من الطريق المؤدي إليه، يوجه ركلة إلى الحارس الموجود أمامه ودفعة قوية إلى الآخر الموجود إلى جانبه، ثم

يقفز من العربة. يسقط في المياه فوق جانبه. يرى الطلقات وهي تمر إلى جواره ويتساءل كيف ظل على قيد الحياة، وكيف تمكن النهر من استقبال جسده من دون أن يمزقه.

يحاول الوصول إلى الضفة الموحلة، وهو شيء صعب بالأغلال الموجودة في يديه. يصعد الجنود فوق العربة. يُطلق أحدهم الرصاص من فوق الحاجز، وينزل اثنان منهم فوق المصطبة الترابية ليحظيا بزاوية تصويب أوضح. يركض أجيرِّي بين الطلقات وهو يدعو أن تنقذه الأجمات وعدم دقة تصويبهم. يشعر بألم كبير في جانبه. لا يعرف في الواقع هل هي إصابة برصاصة أم أصداء الطعنة التي تعرض لها في «كنيسة القديس فرانسيس العظيم»، وتحتج الآن على مجهوده الكبير.

يصل إلى منطقة الغسَّالات اللاتي رأين كل شيء. تُرتب النساء أمورهن في ظرف لحظة لمساعدته، إذ يصنعن بالملاءات غطاء يسمح له بالاختفاء واكتساب الوقت للفرار. ليته يقدر على التوقف وشكر كل واحدة منهن على هذه المساعدة، لكن لا وقت لهذا. تزداد حدة ألمه ويصطبغ رداؤه الكنسي بالدم. لا مجال للشك، أصابته رصاصة وبدأ يفقد دمًا كثيرًا. يحتاج إلى مساعدة عاجلة، وثمة شخص واحد يقدر على تقديمها إليه.

حين يصل إلى متجر أدوية تيودوميرو جارثيس في مطلع شارع طليطلة، يجده مغلقًا. مع ذلك يقرع فوق الباب عدة مرات، وينتظر وهو يُقوِّس جسده، فيما يوشك على فقدان وعيه. تحرقه جبهته ويشعر بأن معدته تهرب من جسده عبر الجرح المفتوح. تراقبه عينان من وراء الستارة المعدنية. يخرج تاجر الأدوية إلى الشارع، وينظر إلى كلا الجانبين ليتأكد من عدم وجود أحد في الشارع، ثم يحمله إلى الداخل.

يسأله مرعوبًا حين يرى أثر الرصاصة:

- من فعلها؟

- الحرس الملكي.

يفرش تيودوميرو حصيرة، ويراه المحارب وهو يُخرِج قوارير وضمادات ومقصات.

- أولًا الأغلال وبعدها عالج الجرح.

- لا. الجرح أولًا. لو مت فلن يصنع فارقًا أن تكون يداك مقيدتين أم لا. أيضًا سأنظفه بالكحول وهو أمر سيؤلمك. أفضِّل أن تكون مقيَّدًا وأنا أعالجك.

لو أن الألم لا يُضنيه، لضحك مقهقهًا على هذه المزحة. ينسكب الكحول فوق الجرح، بعد أن يخلع رداءه، فينتابه إحساس مفزع بالحرقة، لكنه رجل معتاد تحمل المشقة من دون شكوى.

يقول جارثيس وهو ينتشل أنسجة الجرح بمقصه:

- لا أصدق أنه لا يؤلمك.

- يُؤلمني جدًّا، لكنني لن أحقق أي مكسب بالصراخ. في الجبهة ثمة جنود يموتون من الصراخ وهم مصابون، إذ يسهل على العدو أن يعثر عليهم.

- أتساءل أحيانًا ما إذا كنت سأقدر على الدفاع عن الكارليَّة خارج مدريد. قبل أن تُجيبني سأجيبك أنا، لا. أعتقد أنه ما من شيء يستحق مثل هذه المعاناة، لا عرش الملكة المستقبلية إيسابيل ولا أن يصل كارلوس إيسيدرو إليه.

- لست في وضعية لتحمُّل هذه السُّفسطة. أسرع.

- لستُ طبيبًا. أعالجك بأفضل وأسرع طريقة أقدر عليها.

- ستشهد هذه الليلة طقسًا ويجب أن أمنعه، وإلا فستظهر غدًا فتاة مقطوعة الأوصال.

- اذهب مباشرة إلى «المستشفى العام». اسأل عن الدكتور ميرامون. ليست أول مرة يُساعدنا.

- ليس لديَّ وقت لمثل هذه الأمور.

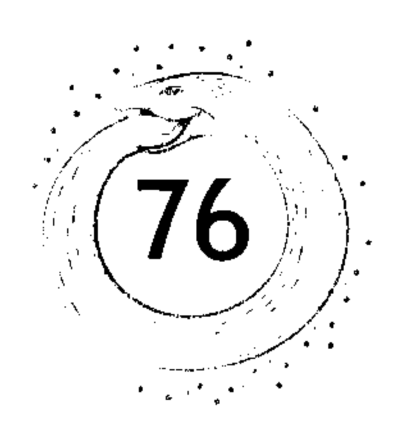
- اسمع جيدًا، في ظل حالة الجرح، لن تتمكن من إنقاذ أحد. لا أظنك قادرًا على الوصول إلى الناحية الأخرى من الشارع.

- عالجني ودعني أنا أتولى أمر أي شيء آخر.

يفصل تيودوميرو كل النسيج السليم بدهان صبغة اليود ويضع عدة قطع من الشاش فوق الجرح قبل أن يشد ضمادة ضاغطة فوقه. حين يفرغ من عمله، يبتعد بضع خطوات ويفتح بوبيًا خفيًا ثم يعود ومعه فأس ويحرِّر توماس من أغلاله بضربة دقيقة. يُسلِّمه قميصًا قديمًا وبنطلونًا لارتدائهما.

- لو أنك لا تود أن تذهب إلى المستشفى، حسنًا، لكن ارتَح على الأقل قبل أن تُصاب بالحمى. الساعات الأولى محورية.

يُومئ أجيرّي برأسه. يشعر بأن جسده كله يضطرم، فيما تبلَّلَ وجهه كله بالعرق. يجمع تاجر الأدوية أدواته. سيضطر لاحقًا إلى فرك بقع الدم بالماء والصابون، لكن أول شيء يجب عليه فعله تهيئة فراش لراحة المحارب. بينما يفعل هذا، وهو يجهز إحدى الوسائد، يسمع ضوضاء عند الباب. حين ينظر داخل المتجر، يتمكن من رؤية توماس يعبر الشارع وهو يعرج.



يفتح ذو القلنسوة باب الزنزانة. لم يأخذوها في الليلة الماضية حين رفعت صوتها، لكن الحارس ظل هناك منذ اكتشفوا دمها ليتأكد من أنها لن تُخرِج قطعة القماش التي أدخلوها في مهبلها واصطبغت رويدًا رويدًا بالحمرة. تتكور كلارا في ركن الزنزانة، في انتظار تعليمات لا تصل إليها. تنهض وتحسب للحظة أن ساقيها لن تقدرا على تحمل وزن جسدها، فعضلاتها متيبسة. تسير ببطء نحو الكيان القاتم الموجود أمامها الذي يبدو غولًا من قصة أطفال. يتردد رنين مفاتيح في جيب الرداء حين يصعد ذو القلنسوة فوق الدرج. تلتفت كلارا نحو بقية الفتيات قبل أن تمضي خلفه لكن كل ما تراه هي براجم واحدة منهن، أما بقيتهن فظللن في زنازينهن. لا يقدرن على الوداع من فرط إنهاكهن.

- آسفة.

لا تحتاج إلى أن ترى فاتيما لتعرف أنها صاحبة العبارة. يتوقف ذو القلنسوة، الذي كشف لهاثه على الدرج الحلزوني أنه رجل، أمام غرفةٍ بابها مفتوح وتدخلها كلارا.

إنها غرفة لطيفة تشبه إضاءتها الأديرة بالنور الذي يخترق نافذتها الطويلة والواسعة ويعميها بسبب اعتيادها ظُلمة الديماس. ثمة فراش وطاولة تستقر فوقها صينية ملأى بالأطعمة. يرحل الرجل الذي جاء بها ويُغلق الباب. تأكل الصغيرة العنب وتتذوق اللحم الطري اللذيذ، لأنها ظلت صائمة من فترة طويلة. تصب لنفسها كوبًا من السائل الموجود في جرَّة من الفخار. إنه نبيذ لم تجربه قبلئذٍ قط. لا تروقها أول رشفة، ومع ذلك تشرب الجرة كاملة. تتناول السكاكر وتأكل العيش مع معجون بني لا تعرف ماهيته، لكنه أطعم شيء ذاقته طوال حياتها.

تشعر بالثقل والخمول بعدئذٍ بنصف ساعة ومعهما ندم وألم في أحشائها. ما كان ينبغي لها أن تأكل كثيرًا هكذا.

يدخل ذو القلنسوة مجددًا وهو يحمل طستًا من الماء ويتركه فوق الأرض ومعه رداء نظيف ومناشف معطَّرة يضعها فوق الفراش، ثم يأخذ الصينية وبقايا الطعام.

تضع كلارا يديها في ماء الطست. إنه دافئ. تتحمم وتستمتع بإحساس النظافة الرائع. ترتدي الرداء. تسبق نحنحة عند الباب دخول ذي قلنسوة آخر. لديه بنية جسدية ونبرة صوت لم تسمعها قط.

- جئتُ كي تعترفي. هل اعترفتِ قبلئذٍ قط؟

- لا.

لا تعرف أصلًا ما إذا كانت مُعمَّدة. لطالما قالت لهما أمهما إن كل شيء يغدو أفضل حين يبتعد المرء عن الكهنة والكنائس، إلا إن اضطر إلى الذهاب إلى الأبرشية بحثًا عن شيء من الطعام.

تفترض أن هذا الرجل فعلًا كاهن. يرشم الصليب فوق جبهة كلارا. تبدو لها الحركة بذاءة وانتهاكًا.

- لا أريد أن أعترف.

- إذن أنتِ تختارين المثول أمام الرب وأنتِ ملطخة بآثامك.

تبقى بعدئذٍ بمفردها وتظل هكذا لفترة. ترقد فوق الفراش. تشعر بعد تسعة أيام من النوم على الأرض أن الملكة بجلالتها لا تنام في مثل هذه

الراحة. لا تتجرأ على إزالة القماش الذي وضعوه في مهبلها، ولا تتأخر في الاستغراق في النوم.

تحلم بأنها حرة وأن أختها لوثيا إلى جوارها وأنهما تأكلان من اللحم والحلوى والعنب نفسهم وكل ما أكلته سابقًا، وأنهما أيضًا تشربان النبيذ بكميات لا نهائية، لكن لوثيا لا تتحدث معها كأنها مستاءة، على الرغم من أنها تأكل وتشرب معها.

- تبدين مثل أختك وأنتِ نائمة.

حين تفتح كلارا عينيها، تجد امرأة تجلس إلى جوارها على الفراش.

- هل تعرفين لوثيا؟ أين هي؟ هنا؟ في الديماس؟

- لا، إنها ليست هنا. انهضي، ستأتين معنا الآن.

- إلى أين؟ هل ستقتلونني؟

- على العكس، سنمنحك حياة أبدية. لن تضطري إلى القلق من أي شيء، لا الجوع ولا البرد ولا الكوليرا. أنتِ مميزة.

لا تعرف كلارا من هي هذه المرأة، وإنما فقط أن رائحتها وملبسها جيدان، بهذه الفساتين التي لطالما تخيلت هي ولوثيا أنهما سترتديانها يومًا ما حين تكتشفان واحدًا من الكنوز الكثيرة التي حدثتها عنها أختها. إنها امرأة جميلة، لكن نظرتها فيها شيء ما يُصيبها بالقشعريرة، كأنها ليست بشرية بالكامل.

- ستفتخر أختك بكِ جدًّا.

- كيف تعرفينها؟

- أنا ولوثيا صديقتان، بل إنها تعيش في بيتي. انظري.

تُظهِر لها خاتمها، فتتعرف كلارا عليه. ها هما تان المطرقتان المتقاطعتان.

- هل استعادته؟

- بالطبع، وأعطتني إياه، فتخيلي إذن كم نحن صديقتان.

لا تثق كلارا بالأمر برمته. ليتها تقدر على تصديق أن كابوس الزنزانة والجوع والمباول القذرة وذوي القلنسوات قد انتهى، وأن ما حكته خوانا ليس صحيحًا، وأن فتيات الديماس لا ينتهي بهن المطاف وهن مقطوعات الأوصال.

- هل تعرف أختي أنني هنا؟ هل سأراها؟

- ربما هذه الليلة. هل تشتاقين إليها؟

- أجل.

- إذن دعينا نجهزك. تناولي هذا.

أخرجت المرأة من جيب ملابسها قارورة صغيرة فيها سائل أحمر اللون. تنظر إليه كلارا بريبة.

- لقد شربت فعلًا. لا أشعر بالعطش.

- لا فارق. يجب أن تشربي هذا.

- وإذا لم أشربه؟

- ستشربينه.

تحاول نظرة هاتين العينين أن تبدو ودودة، لكنها ليست كذلك. تُمسك كلارا القارورة التي خلعت المرأة غطاءها المصنوع من الفلين وتشربها.

- كلها.

تُطيعها. لا تشعر في البداية بشيء، لكنها تستغرق بضع ثوانٍ قبل أن ينتابها إحساس بأنها أفضل وأهدأ. لا تشعر بألم أحشائها ولا توترها ولا الخوف. لم تكن طيلة حياتها في حال أفضل من هذه.

تقترب المرأة من الباب وتطل برأسها في الطرقة.

- إنها جاهزة.



ينبثق الصوت المُحذِّر من حنجرة المرأة عديمة الأسنان. ثمة فتاة تقيء في فراشها وتتلوى من الحمى ويدق قلبها بجموح. إنها أعراض المرض. يتراجع الحارس أمام احتداد السجينة، لكن ماوريثيو الذي يرى كل شيء من زنزانته يعرف أنه يتراجع أمام صوت الكلمة المرعبة، «الكوليرا».

- لا تقتربي. عودي إلى زنزانتك.

- لا أفكر في الدخول إليها قبل أن تُخرِجوا منها هذه الفتاة.

ينتشر تيار التوتر في عنبر النساء. ثمة صراخ وضربات فوق القضبان، أي الاستهلال المعتاد لكل حالات التمرد. تحمل امرأتان تُغطيان فميهما بخرقتين قذرتين جسد لوثيا كأنه صُرة وتتركانه ملقى في الطُرقة، أمام قدمَي الحارس.

- قاءت حتى أحشائها. إنها مصابة بالكوليرا.

تتلوى لوثيا على الأرضية بشعرها الملطخ بالقيء. يخرج ماوريثيو من زنزانته ويقترب وهو يتظاهر بالتوجس.

- في أي ساعة تمر العربة؟

يعرف الأبتر أن ثمة عربة تمر يوميًا على السجن لجمع مرضى الكوليرا ونقلهم إما إلى «إل سالاديرو» وإما إلى «محجر بالبيردي»، حيث يضعونهم في مخزن مغلق.

- إنها عند الباب. يأخذون اثنين من العنبر الآخر.

- هيا بنا. سأساعدك.

تظهر علامات القرف على وجه الحارس وهو يضبط المنديل الذي يُغطي أنفه، وهي مسألة تعلَّمها من زياراته إلى المحجر. بينما يجران لوثيا نحو المخرج، يُفكر ماوريثيو في أن هذا الرجل لا يعرف ما هو معنى القرف حقًا، لأنه في وقت سابق جهز معجونًا من الأوراق وفضلات الحمام وشاهد لوثيا وهي تأكله، وفي ظرف عشر دقائق بدأت تتلوى، كأنها معجزة، من ألم بطنها، وبعدئذٍ بدقيقتين بدأت القيء. حمل لوثيا صعب، فماوريثيو أبتر ولا يقدم أي عون تقريبًا، أما الفتاة فلا تساعد هي الأخرى لكيلا تفسد التمثيلية. يضطر الحارس إلى فعل كل شيء بمفرده، فيما يبدأ ماوريثيو ندمه على نوبة الإنسانية التي سيدفع ثمنها أكثر من المطلوب -وبالمثل على الريالات التي دفعها للسجينة معدومة الأسنان كي تُثير الهستيريا والتمرد داخل العنبر- لأنه سيواجه آلامًا مفصلية في ساقه السليمة لعدة أيام.

مع ذلك يدين لها بهذا الأمر. يعرف أن المطاف انتهى بهذه الصهباء في السجن بسببه، بسبب اللوحة التي باعها لذلك الصحفي. يعرف أيضًا أنها أصغر جدًّا من أن تغدو ساقطة.

يُتمتم حين يرى الحارس الملكي الذي ينزل من العربة ليتحقق من أنها مريضة:

- يا للخراء!

- ما الأمر؟

يُجيبه الحارس:

- تقيء ولديها حُمى، لا يُمكن أن تظل هنا.

يُقرِّب الحارس قنديلًا من وجه لوثيا. ثمة قيء عند زاوية شفتيها وفي شعرها. تبدو الفتاة ضعيفة، كدمية قماشية.

- ارفعوها إلى العربة. لدينا ثلاثة سجناء. أريد رجلين يراقبان الأمر طوال الطريق. هيا بنا.

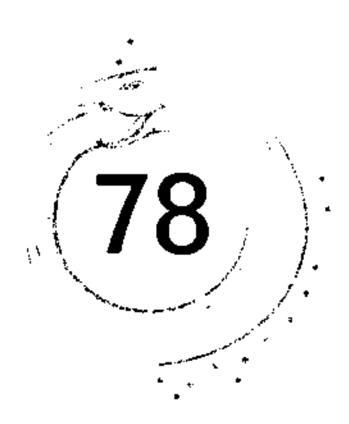
لا بد أن صاحب القنديل رأى شيئًا أثار ارتيابه ولهذا طلب تعزيز المراقبة، أو أن هذا ما يفكر فيه ماوريثيو. إنها عربة مفتوحة ويجرها حصانان، لهذا يثق بأن لوثيا ستعرف كيف تستغل أي إلهاء لتقفز وتركض بسرعة أكبر من الحراس الثلاثة المسؤولين عن النقل. تبدأ العربة في السير وتُخفي الريح الكلمات غير المسموعة التي تنبثق من شفتَي الأبتر:

- حظًا جيدًا يا فتاة.

تفتح لوثيا عينيها وتُبعد الحذاء الموجود فوق وجهها. يمد أحد السجينين جسده، ويتأوه باكيًا باستمرار، فيتلقى ركلة من أحد الحراس.

- اخرس، وإلا فسأقولها لك بالسيف في المرة المقبلة.

بإمكانها أن تقفز الآن لكن المكان مفتوح أكثر من اللازم. قد تتعرض لإطلاق النار، لهذا فإن اللحظة المثالية ستحين حين تغدو الشوارع متعرجة. تفترض أيضًا أن زميليها في الرحلة يتظاهران مثلها. يكفيها أن يبدآ محاولتهما في الفرار، وهي مسألة لم تتأخر كثيرًا، إذ إن صاحب التأوهات يبدأ في الصراخ بصورة تُصيب الحراس بالجنون. يستغل من وضع حذاءه على وجهها الأمر وينقض على حارس، فينزلق الاثنان فوق الأرض، أما الآخر الشكّاء فينقض الآن على الحارس الباقي في العربة. يتردد دوي طلقة. يسقط السجين ميتًا عند الإطارين الخلفيين. يتوقف الحصانان ويصوب الحارس الملكي سلاحه نحو السجين الآخر الذي يتشاجر مع زميله وسط الأجمات. ما من شيء أسهل من نزول لوثيا من العربة وهي تثب، لتبتعد عبر الشوارع الضيقة والمظلمة. تسمع أصواتًا وراء ظهرها. تركض إلى أن تجد مخبأ وراء نافورة حجرية، لكن أحدًا لم يلحق بها أصلًا.



يلعق لسان لزج وجه دونوسو جوال. إنه جرذ جذبته رائحة القيء الذي يُلطخ وجهه بعد ليلة ثمله. ثمة نافذة مكسورة في مخزن «خمارة الجدران» يتسلل منها اللصوص والقوارض، مع أنه لا يوجد شيء كبير لسرقته. يفتح دونوسو عينه ويُبعِد الجرذ بضربة من يده ويحاول تذكر أين هو. يشعر برأسه ينبض كأن داخله عاصفة ترعد وتهز الزجاج، في حين تبدو له معدته كأجمة تحترق، ووعيه كغيمة تتبدد قبل أن تظهر أمامه عدة استنتاجات، لن يُنقذ هذه الفتيات، ولن يتمكن من تكريم اسم صديقه دييجو رويث والانتقام لمقتله، ولن يُساعد لوثيا في العثور على أختها. أيضًا لن يرى جريسي مجددًا. تعود إلى عقله الكلمات الأخيرة التي قالتها له في «إل سالاديرو»، والكلام الخشن الذي ودَّعها به. يشعر بالذنب يخترق مخه مثلما يخترق سلاح مصارع الثيران أعناقها.

يرقد فوق ظهره، على كومة صغيرة من القش غالبًا. يندهش من أن بانكراثيو قد شغل نفسه بصناعة فراش له، أو على الأقل وسادة. يُحدق إلى عارضة خشبية ويفكر في أنه لن يكون مكانًا سيئًا لعقد حبل وشنق نفسه. إنها لحظة جيدة لإنهاء حياته وتوديع هذا العالم المتقلب والمضطرب، الذي

لم يتحلَّ معه بالسخاء إلا في مرات قليلة. لو عثر على حبل، فسيفعلها. هذا لو أنه تمكن أصلًا من الوقوف فوق قدميه.

ينفتح الباب بضربة قوية، يعمي دونوسو الضوء الداخل وقبل أن يوجِّه بصره نحو العتبة حيث تتراءى هيئة رجل ما، إذا بلطمة من الماء البارد، كفيضان هائج، تسقط فوق وجهه وتُخرس فجأة كل آلامه وشفقته الذاتية التي تمرغ فيها. صار الآن مبتلًا، فيتشجع جسده على النهوض على الأقل لمواجهة المعتدي.

- انهض. ليس لدينا وقت.

إنه صوت حاد وعسكري وصارم، لكن في الوقت ذاته ثمة يد ودودة ممدودة لمساعدته على النهوض. يسقط خيط من الماء من شعره ويشكِّل غطاء سائلًا فوق عينه السليمة. مع ذلك يتمكن دونوسو عبره من تمييز الأخ براوليو، لكنه هذه المرة لا يرتدي ثوبًا كنسيًّا. لا يبدو مظهره أفضل منه إذ يقف بمشقة ويتعرق بشدة، كأنه يعاني حمى قوية، وثمة ضمادة تصطبغ بالدم فوق بطنه.

- وجب عليَّ افتراض أنني سأجدك هنا، غارقًا في النبيذ. شق عليَّ كثيرًا العثور عليك. أنا في حاجة إليك.

يندهش دونوسو:

- إليَّ؟

يظن توماس أن احتياجه إلى الشرطي الأعور سخيف بالصورة نفسها التي يراها بها دونوسو. مع ذلك ليس لديه أحد آخر يلجأ إليه، فبعد مروره على متجر أدوية تيودوميرو جارثيس عاد إلى قصر شارع «لا أورتاليثا». بينما يقف عند إحدى النواصي، راقب المبنى، ووجده هيكلًا صامتًا يخلو من الحياة. لم يلمح أثرًا لا للدوق ولا لزوجته، واعتبر محاولة دخول القصر إفراطًا في التهور. ربما أدرك دوقا ألتويانو مسألة فراره، وانتظره جنود آخرون قرب هذه الأسوار. لهذا مضى ليبحث عن دونوسو لأنه عدَّه الوحيد القادر على دخول القصر وتفتيش أغراض آنا كاستيلار، سواء ارتبط الأمر بالخوف الذي قد يُثيره فيه أو باحتمالية بقاء ذرة من الشرف داخله ورغبته في الانتقام لصديقه المقتول. لدى المحارب الكارليِّ قناعة بأنه لا بد من وجود أي خيط،

في أي درج أو ورقة مكتوبة، يسمح بتحديد المكان الذي تنعقد فيه الطقوس، ذلك المكان الذي قال دوق ألتويانو إنه سيذهب إليه في الليلة ذاتها.

ولأن دونوسو لا يفهم سبب تعجُّل الراهب في اقتحام القصر، يسأله حين يحكي له الأمر:

- وما علاقة آنا كاستيلار بكل هذا؟

- إنها «الوحش» الحقيقي.

يشعر الشرطي بكلمات توماس تسقط فوقه كأنها شاهد قبر. يوشك على نطق تعليق ساخر حول اختيارات دييجو فيما يتعلق بالنساء لكنه يجد نفسه مُجبَرًا على إغلاق فمه حين يشعر بمرارة تفهُّم أن عذاب صديقه المميت كان حبه.

- الطريقة الوحيدة لمعرفة أين تُقدَّم أضحيات الفتيات هي دخول القصر والبحث عن أي خيط. ربما قد تلجأ إلى الضغط على الخدم لو لم تعثر على شيء. ربما تعرف واحدة منهن إلى أين ذهب الدوق.

يندهش دونوسو حين يرى أن الراهب يظنه قادرًا على فعل شيء كهذا لأنه لا يعي مدى إحباط أجيرّي الذي يعتبره فرصته الأخيرة، لكنه يندهش أكثر حين يتفهم فجأة أنه الوحيد صاحب السر والورقة الرئيسية في هذا التحقيق. ليسا في حاجة إلى التسلل إلى قصر دوقَي ألتويانو، فهو يعرف الجواب الذي يبحث عنه الراهب. حكت جريسي المسألة -وهي فعلًا معلومة جوهرية- على الرغم من أن الحقد والازدراء شتتا انتباهه عنها حين قالتها.

- قصر «ميرالبا». هذا مكان الطقوس، لكنني لا أعرفه ولا أعرف أين يقع.

- هيا بنا. يعرف سائقو عربات «السيمون» كل شيء.

يخرج أجيرّي من المخزن وهو يعرج، ويمضي دونوسو وراءه.

يقع الموقف بالقرب من ساحة «العربات» إلى جوار «بوابة الموروس». يعيش دونوسو إلى جوارها ويعرف بعض السائقين. لا يتأخر أحدهم في كشف مكان قصر «ميرالبا».

- إلى جوار «بوابة القلعة»، خارج «الجدار»، لكنني أظنه مهجورًا منذ سنوات.

يعرف دونوسو القصر الذي يقصده. رآه من المكان ذاته الذي عثروا فيه على جثة آخر الفتيات مقطوعات الأوصال، خوانا. ظهرت في هذه المنطقة أيضًا جثة دييجو.

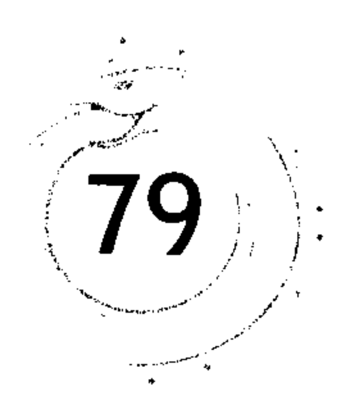
- نحتاج منك إلى أن توصلنا.

يغدو التقدم صعبًا بعد حلول الليل، فخارج الشوارع الرئيسية تتراجع الإضاءة، لكن لحسن الحظ يوضِّح ضوء القمر مجرى الطريق.

- ما الذي سنفعله لدى وصولنا؟

- سندخل!

ينظر دونوسو إلى توماس وهو ينتظر تفاصيل الخطة، لكن الراهب يصمت ويكز على شفتيه متألمًا.



في المرة الأولى التي عبرت فيها لوثيا «جدار مدريد» عبر نفق محفور في الأرض في نهاية يونيو، تلقت مساعدة من إحدى نساء الشوارع تقدم خدماتها في ساحة صغيرة هادئة. يشق عليها العثور على هذه الساحة لأنها لم تمر مرة أخرى من هناك، لكن حياتها كـ «عفريتة شوارع» زادت من معرفتها للمدينة، فوجهت نفسها جيدًا عبر متاهة شوارعها. تتذكر أنها وقعت على بعد خطوتين من ساحة «العالم الجديد». تتقدم مجددًا عبر شارع «ميرا إل ريو باخا»، فتعثر على الساحة فعلًا هناك، وتلك العاهرة تقف بقوامها الخليع وهي تغرز كعبَي حذائها في الوحل.

- تذكرتك كثيرًا. قلت لكِ أن تذهبي إلى بيت «اللبؤة». علمت بالأمس أنها ماتت. ألا تعانين أنتِ الأخرى الكوليرا؟

تؤكد لوثيا أنها في خير حال وتحكي كل ما عاشته منذ تعارفا، المزاد الذي باعتها فيه «اللبؤة»، والأيام التي عملتها في البيت، وموت أمها، واختفاء أختها.

- هل هي من ضمن الفتيات اللاتي قتلهن «الوحش»؟ لقد سمعت عنهن.
- أظن أنها لا تزال على قيد الحياة، لهذا أنا في حاجة إلى مساعدتك.

تنظر المرأة إلى الورقة التي أخذتها لوثيا من مكتب آنا كاستيلار.

- «Manoir Miralba». لا أعرف. إنها الفرنسية على الأرجح.

تمشي لوثيا مع المومس -التي عرفت أن اسمها روسا بعد أن سألتها- إلى بيت يقع على بعد عدة مربعات سكنية من هنا، في شارع «العرجان»، الواقع تقريبًا عند ناصية شارع «أرجانثويلا».

- تعيش «الفرنسية» هنا. لا أعرف اسمها، لكننا جميعًا ندعوها هكذا، «الفرنسية» أو «الفرنوسة». لا أعرف ما إذا كان لديها وقت، فكما تعرفين، تحصل الفرنسيات على زبائن كثيرين، لأنهن يفعلن كل شيء.

لا تعرف لوثيا ما تعنيه، لكن صديقتها الجديدة تقودها عبر الطريق. تعيش «الفرنسية» منذ ثلاث سنوات في مدريد وتمكنت من شراء بيت أرضي في الحي.

- ثمة أمور لا نقبلها نحن معشر الإسبانيات، لكن ما من شيء يثير قرف الفرنسيات، وربما لهذا السبب يسمون المسألة «على الطريقة الفرنسية»، وفي الواقع يجب علينا ألا نفكر في الأمر، لأنه يروق الرجال. لا أمانع في فعل هذه المسألة، لكن شريطة أن يدفعوا في مقابلها.

تجدان «الفرنسية» مشغولة كما توقعت روسا، فتضطران إلى انتظار خروج زبونها وهو شاب يرتدي ملابس العمال من البيت.

- يا «فرنسية»، نحن في حاجة إلى مساعدتك.

لم ترَ لوثيا حتى في بيت «اللبؤة» امرأة مثلها، فهي طويلة وسمراء وشفتاها مطليتان بلون شديد الحمرة وتُظهِر فتحة صدرها نهدَيها. تستقبلهما بمودة.

- هل ترغبان في شرب الشاي؟

- لا، فقط أن تقولي لنا هل الموجود في هذه الورقة مكتوب بالفرنسية.

تأخذ المرأة الورقة وتلقي عليها نظرة سريعة.

- أجل. إنها الفرنسية. «Manoir Miralba» أو «قصر ميرالبا». و«Samedi 26» تعني «السبت 26»، أي اليوم.

تتوتر لوثيا. يتردد صوت آنا كاستيلار في أذنيها: «لديَّ هذه الليلة موعد مع كلارا». لا يمكنها أن تضيع مزيدًا من الوقت.

- أين يقع قصر «ميرالبا»؟

تقدم لها روسا الجواب هذه المرة.

- قصر «ميرالبا»، زرته ذات مرة، لكن منذ فترة. أراد طالب أن يقنعني أنه يعيش هناك. إنه قصر مهجور بالقرب من «بوابة القلعة»، على الجانب الآخر من «الجدار»، قرب ساحة الثيران.

- ينبغي أن أذهب إلى هناك، في أقرب وقت ممكن.

- كيف؟ لا تفكري في أن تذهبي راكضة.

- ما الفارق؟ ليس لديَّ مال لتأجير عربة.

- ستكلفك ريالين على الأقل. لو أن معي المبلغ، لأعطيتك إياه، لكنني لم أحظَ بأي زبون منذ بداية اليوم.

تنظران إلى «الفرنسية».

- آه، لا. جئتما كي أساعدكما في قراءة شيء ما وفعلت الأمر. أنتما لا تريدان أن أعطيكما المال أيضًا.

- أقسم إنني سأعيده إليك.

- اللعنة. اللعنة. اللعنة.

تتركهما لوثيا في البيت، صار معها خمسة ريالات في جيبها وتتعهد لنفسها بأنها ستلتزم بكلمتها. لو خرجت حية، فستعيد المبلغ إلى «الفرنسية» زائدًا.

لا تقدر عربة «السيمون» التي عثرت عليها في ساحة «العالم الجديد» على تخطي «بوابة القلعة»، إذ إن خروجها من المدينة يتطلب تصريح مرور مخصوصًا لا يمتلكه سائقها، الذي يُوضِّح لها مكان القصر، على الجانب الآخر من «الجدار». لم تدخل لوثيا أو تخرج عبر هذه المنطقة من قبل، لكنها تعرف أنه لا وجود لنقط مراقبة الميليشيات تحت الأرض، وأنه من المحتمَل أن يُفضي أي مجرور إلى قصر «ميرالبا». يجب أن تعثر على أحد المهرِّبين الذين

يعملون هنا ليُوضح لها الطريق، لكن العثور على أحدهم ليلًا ليس سهلًا. وسط استسلامها أمام يقين أنها بمفردها وأن أحدًا لن يُساعدها، تُفكر سريعًا.

تحتاج إلى إضاءة كي تتقدم عبر المجارير، ولحل هذه المسألة ستسرق أحد القناديل التي تُضيء المنطقة، أمام بنايات «المخزن الملكي لحبوب مدريد»، بما فيه من مخازن قمح وطواحين وصوامع للحبوب ومواد غذائية أخرى توفر إمدادات طعام المدينة. يضم المخزن أيضًا أفرانًا ينضج فيها الآن الخبز الذي سيوزَّع على كل أنحاء مدريد في اليوم التالي. تتسلح لوثيا بالشجاعة، على الرغم من أنها شعرت في مرات كثيرة بالخوف من المشي ليلًا عبر الشوارع الخاوية التي تُذكِّرها الآن بكابوسها الأخير. تستولي على قنديل وتشم رائحة الخبز القادم من أحد المخابز، لكنها لا تأبه بزئير معدتها التي تعافت من عسر الهضم.

ترفع غطاء المجرور وتنزل إلى قاعِه عبر الدرجات الحديدية وهي تمسك المصباح بيدها. تنضح القناة بالرائحة العفنة، لكنها تتقدم بعزم ضد تيار الفضلات والماء الذي يصل إلى خصرها. احتسبت الخطوات التي تحتاج إليها كي تصل إلى الجانب الآخر من «الجدار». تُميز قرب منعطف حجري اللمعة الحديدية لبعض الدرجات. تصعد إلى الخارج لترى أين هي. لقد وجهت نفسها بشكل جيد. إنها خارج المدينة المسوَّرة وفي مأمن من نقاط مراقبة الميليشيات. تنتصب واجهة القصر على مسافة ليست بعيدة جدًّا. يبدو وهو عالق وسط ظلال الليل مثل تلك السفن التي تسافر إلى قارة أمريكا ووصفها لها أحد فتية «لاس بينيويلاس» الذي زار قادش. تقرر أن تنزل مجددًا. ليس القصر بعيدًا جدًّا، ولا بد أن ثمة مدخلًا إليه تحت الأرض.

تجرب أحد الأنفاق، لكن في تلك المرة لا يفيدها حدسها. إنه نفق مسدود. تتراجع وتستغرب حين تجد تجويفًا ضيقًا يُجبرها على الزحف. لقد تاهت. يهاجمها جرذ حين يشعر أن تقدمها يُهدده، لكنها تحمي نفسها بالمصباح وتنجو بنفسها من عضته. تتراجع إضاءة القنديل كلما مر الوقت، إذ ينتهي زيته. تتمكن مع آخر دفعة من عبور أضيق أجزاء النفق الذي ينفتح على ردهة ينزلق فوق حجارتها شلال من مياه الصرف الصحي.

تمسك المصباح بيد مرتعشة وهي مبتلة وقذرة بيدين وساقين ملأى بالخدوش ووجه ملطخ بالوحل وتنظر إلى الشلال. ثمة مفترق للطرق وراء الماء المتساقط. لا تعرف أين هي، لكن هذه هي الطريقة الوحيدة للمضي قدمًا، لو أنها لا ترغب في العودة إلى أدراجها. تدخل تحت الماء العفن وتعبر إلى الجانب الآخر من الشلال. يخبرها حدسها أن أحد الطريقين سيُعيدها إلى نقطة الانطلاق، أما الآخر فلا بد أنه سيُفضي إلى القصر، لكنه سيُجبرها على الانحناء كي تعبره. تنحني لأنها تثق بكونه الطريق الصحيح. تتقدم على أربع وهي تتألم إلى أن تصل إلى منطقة تتمكن فيها من النهوض. حينئذٍ ينطفئ المصباح وتبقى وسط العتمة التامة.



80

يختفي «قصر ميرالبا» وراء بعض الأشجار. حل الليل ولا يظهر أي ضوء سوى ذلك المنبعث من قنديل إلى جوار الباب. لا وجود لأي ضوء ينبعث من داخل المبنى، الذي تنتصب هيئته وسط العتمة كأحد أطلال الماضي، كمكان بلا حياة.

يسأله أجيرِّي:

- هل أنت متأكد من أنه المكان الصحيح؟

يرفع دونوسو كتفيه، فمعلومته منبعها جريسي، وهي امرأة استنفد الأفيون كيانها وسط هذيان الامتناع عن تعاطيه والحمى.

- يجب أن نتحقق. هل تريد أن أحاول بنفسي؟

- لا، سأدخل أنا.

وبينما يقول أجيرِّي عبارته يتحسس الفأس الموجودة تحت قميصه، وهي الفأس ذاتها التي استخدمها تاجر الأدوية لكسر أغلاله.

يتمكن من الوقوف على قدميه بمشقة وهو يقف إلى جوار الباب. يدمي جرحه مجددًا ويشتعل من فرط الحمى. لا يعرف هل تتبقى فيه فعلًا ذرة

من القوة للوصول إلى النهاية. ينزلق غطاء الوصواص فتصدر منه ضوضاء بسيطة، ثم تتفحص توماس أجيرِّي عينان تظهران وراءه. يقتصر كل ما يفعله على إظهار الخاتم، فينفتح الباب كأنه سحر. يستقبله حارس عجوز على الجانب الآخر من الباب. يرتدي كسوة خدم على الطريقة الفرنسية، مطرَّزة ومزوَّدة بشرائط وعروات تشع بريقًا وسط ظلال المدخل المشعشعة، إذ تنبثق الإضاءة الوحيدة من مشعل مُعلَّق فوق الحائط.

- بدأ القربان. الدخول غير ممكن.
- يجب أن أدخل.
- آسف، لكن القواعد واضحة.

ينظر أجيرِّي إلى وجه العجوز الملآن بالتجاعيد التي ترتسم عليه، رغم عناده، تعابير طوباوية، كراهب يتظاهر بالورع. لم يقابل طيلة حياته حارسًا مسكينًا بمثل هذه الصورة.

لا يكفي الصوت الأجش والقاسي ولا حتى نظرته الجليدية لتليين ممانعة الحارس الذي يتنهد تعبيرًا عن صبره، كأنه قضى طوال حياته يمنع مرور من يصل متأخرًا.

يُخرج أجيرِّي الفأس من تحت ملابسه. هكذا يبدأ العجوز فعلًا في الارتعاش.

- لا تؤذِني. لا يُمكنني أن أرافقك. أنا لا أرى تقريبًا. لا يُمكن إشعال النور وسط الطقس.

يُمسك أجيرِّي المشعل الموجود فوق الحائط:

- سأضيء لك الطريق. هيا بنا.

يدفعه نحو الرواق، فهي النقطة الوحيدة التي يُمكن للمرء أن يدخل عبرها إلى المبنى. إنها طرقة طويلة وضيقة تنتهي بباب خشبي. يجتازانه ويسيران الآن عبر طرقة أخرى أوسع، جدرانها عارية ويظهر عليها بقايا أُطُر زيَّنتها ذات مرة، وأرضيتها مفروشة بالسجاد. يقودهما باب جديد إلى قاعة تضم قطع أثاث قديمة وستائر ثقيلة تغطي النوافذ. لا تسمح الإضاءة بالاستمتاع بزخارف المُدجنين، كما أن أجيرِّي ينتبه إلى التمتمة الصادرة من غرفة مجاورة. تنطق جوقة من الأصوات صلوات باللاتينية كترتيل الساحرات.

يسمع أيضًا صوت طقطقة منتظمة، كساعة تعد الثواني. إنها دماؤه التي تتساقط على الأرضية. يشعر أنه على وشك فقدان وعيه، لكن لا يُمكنه أن يستسلم الآن، فمن المحتمل أن ثمة فتاة على الجانب الآخر على وشك التعرض إلى قطع أوصالها.

يُمسك مقبض الفأس بقوة وينتظر أن يفتح الحارس الباب. يبحث الرجل المسن داخل جيبه ويُخرِج غرضًا لامعًا. هل هو مفتاح؟ لا، إنه خنجر. يستدير بغتة ويحاول أن يُصيب عنق أجيرّي الذي يتفادى سنَّه بمليمتر. لا وقت لكل هذا. يُفلت الكارليُّ المشعل كي يقاتل الحارس، لكن الأخير يظهر مرونة مفاجئة. يضطر أجيرّي إلى تفادي الخنجر في محاولتين أخريين وأن ينفض المُسن من فوقه حين ينقض عليه. يطرحه أرضًا بضربة من الفأس فوق صدره. حين يستعيد سلاحه، يجد نفسه مجبَرًا على وضع قدمه فوق وجه الميت، وشد مقبضه بقوة، وفي تلك الأثناء إذا بشعلة من اللهب تُضيء المكان، فيحسب المحارب الكارليُّ لفترة أن ثمة قوة خبيثة تُعيد خلق الجحيم مجددًا. لقد التقطت إحدى ستائر المكان نيران المشعل، ولهذا تحترق بجنون. تلتهم النيران زخارف المدجنين، وتصل إلى الستارة التالية في ظرف ثانية. سيغدو إيقاف رد الفعل التسلسلي مستحيلًا، لأن عدوى النيران تتواثب من المخمل إلى الخشب، ومن الخشب إلى اللوحات الزيتية، ومن اللوحات الزيتية إلى السجاد، ومن السجاد إلى السيقان المخلبية التي ترتكز عليها قطع الأثاث المنتمية إلى القرن الثامن عشر. صار المكان كقدر يغلي ويجب عليه أن يخرج منه في أقرب وقت ممكن، لكن الجحيم الحقيقية تنتظر على الجانب الآخر من الباب.

حين يدفعه أجيرّي، يرى أمامه صليب القديس أندرو الخشبي المزين بشرائط، لكن الأهم من هذا الراية التي تتدلى بين قنديلين ويظهر عليها شعار الجماعة، المطرقتان المتقاطعتان. تُضيء مجموعة من الشمعدانات المذبح وتملأ قاعة الأضحية بالظلال. ثمة مصليات صغيرة في الجوانب، أما كلارا فتظهر مقيَّدة فوق منصة التعذيب القروسطية، وهي غير واعية، بردائها الأبيض الذي يبدو فنارًا وسط الظُّلمات.

يحضر عشرة من ذوي القلنسوات حول مائدة من خشب أشجار الجوز هذا الحدث الذي يبدو قربانًا وثنيًا، فيما يبارك الكاهن أمام الصليب قارورة زجاجية فيها شراب أحمر.

- أضحية وقربان إلى الرب. عسى هديتك تغدو مفتاحًا لدخول السماوات. ليفتح لك «الأب» الأبواب حين يظهر لكِ دليل شهادتك.

تتصاعد تمتمات باللاتينية بصوت موحد ردًا على هذه المباركة، فيما يضع واحدًا من ذوي القلنسوات -وهي «المعلمة الكبرى» على الأرجح بناءً على الشعار المطرَّز على ردائها- شيئًا ما داخل فم الفتاة ويسحب الكأس الفضية ويغطيها بقماشة مخملية.

- لتتحرر الروح من الجسد الفاسد.

يقترب واحد من ذوي القلنسوات إلى العجلة ويدير مقبضها. يشتد وثاق الحبال التي تقيِّد ذراعَي وساقَي كلارا مع هذه الحركة. لا وجود للوقت، فبعد لفتين أخريين ستنقطع أوصالها. يقتحم أجيرّي القاعة ويعجز عن فهم لماذا لم ينتبه أحد إلى حضوره. تزأر النيران ويتواثب الشرر خلفه من كل مكان، لكن يبدو أن ذوي القلنسوات صاروا أسرى لتنويم مغناطيسي شديد القوة.

- أفلِت العجلة.

يُصدِر أجيرّي أمره في الوقت نفسه الذي يُمسك فيه بـ «المعلمة الكبرى» لـ «مشعلو الفحم». لا يندهش طبعًا حين يتعرف على آنا كاستيلار من تحت القلنسوة. يُخرِج واحد من ذوي القلنسوات سيفًا من تحت ملابسه.

- أعد هذا. لا أسعى إلى إراقة الدماء. أريد أن آخذ هذه الطفلة فحسب. أطلقوا سراحها.

- «مُعلمتي الكبرى».

يبدو أن من يتحدث لا يزال يحافظ على رباطة جأشه، أما البقية فيبدو عليهم القلق. تخترق النيران القاعة وتتصاعد فوق إطار الباب. قد يُحسَب له الحفاظ على هدوئه فيما ينظر إلى «المُعلمة الكبرى» كأنه يستشيرها عما يجب فعله، لكن أجيرّي علم أنه دوق ألتويانو عبر نبرة صوته المعتدلة.

تقول آنا كاستيلار:

- لو أنك لا ترغب في إراقة الدماء، فلتُنزل الفأس.

- لن أستخدمه. سيكفيني أن تشربي علاج الكوليرا هذا، أو السم، لتسمية الأمور بأسمائها الصحيحة. هل هكذا تغتالين الكارليّين الموجودين في البلاط؟

يصرخ وهو يلتفت في اتجاه ذوي القلنسوات:

- ألا تفهمون؟ إنها ليست ليلة الخلاص لأحدكم، بل إن كارليًا منكم كان سيموت مسمومًا.

- لا تتفوه بحماقات.

- اشربيه. لو أن هذا الشراب نقي هكذا، فلن يهمك أن تشربيه. إما أن تشربيه وإما سأقسمك إلى نصفين بالفأس. أنتِ صاحبة القرار.

يصر الدوق وهو ينتظر التعليمات:

- «مُعلمتي الكبرى».

تلتهم النيران الستائر والقماش الذي يغطي الجدران. أفلت ذو القلنسوة الذي يقف إلى جوار العجلة المقبض. تتعرق آنا من تحت القلنسوة، ويضغط أجيرِّي بيده القابضة على رقبتها.

تقول آنا بغضب:

- لتتحرر الروح من الجسد الفاسد. الآن!

يتردد دوي آلية منصة التعذيب الصدئة كنعيق الغربان. يُحرك ذو القلنسوة العجلة، فتتمدد أطراف الفتاة كشرائط مطاطية مشدودة إلى أقصى درجة. يصعد أجيرِّي فوق المائدة ليحصل على الدفعة اللازمة، ثم يثب ليستقر فوق المنصة. يوجِّه ضربة فأس تصيب ذا القلنسوة الذي يُحركها. يقترب أحد منهما وهو يرفع سيفًا، فيحمي الكارليُّ نفسه بإلقاء جثة الميت فوق المعتدي، ويمسك شمعدانًا ويشعل القماش الذي يزين الصليب، ويخور كمجنون:

- في ظرف خمس دقائق، ستلتهم ألسنة اللهب القصر بالكامل. هل تريدون أن تموتوا أم أن تظلوا على قيد الحياة؟

تكشف آنا كاستيلار وجهها وتفرك رقبتها المتألمة ووجهها يكاد أن يتفكك. تبدو نظرتها محمومة، كأنها مجنونة لا تعرف أين هي ولا لماذا تحترق الأشياء من حولها. يهرب بعض من ذوي القلنسوات نحو المخرج بسرعة ويجتازون النار. مع ذلك، أخرج اثنان من طيات ملابسهما سكاكين وانقضا على أجيرِّي وهو يحاول تحرير كلارا من القيود. يحيط الدخان بكل شيء ويشق عليه تمييز المعتدين وصد طعناتهما. تسقط عارضة من السقف

كأنها جمرة ضخمة فتتطاير جذواتها في كل الاتجاهات. تتحطم قناديل الزيت منفجرة. تُسمَع صرخات وضربات وأصوات ركض. يطرح أجيرّي مهاجميه أرضًا ويستمر في توجيه الضربات بفأسه يمينًا ويسارًا إلى أن يدرك في النهاية عدم وجود أحد يقاومه. يلتفت نحو كلارا، التي فقدت وعيها. يتبقى فقط فك قيودها واصطحابها إلى مكان آمن، لكن ساقيه تخونانه. لقد فقد دماء كثيرة، ويجب عليه أن يصب كل تركيزه على بذل جهد أخير ونهائي.

يرفع فأسه للتخلص من القيود بضربة واحدة، لكن شيئًا يمنعه من تنفيذ مسعاه. يشعر بحرق في ظهره، كأن لسانًا ناريًا مسنونًا دخل أحشاءه. يغيِّم وعيه وسط دوار حاد، ومع ذلك يسمع صوت دوق ألتويانو في أذنه:

- هذه من أجل «حراس آلابا».

يسقط أجيرّي على الأرض عند قدمَي كلارا، فيما يستعيد الدوق سكينه الذي غرزه في ظهر الكارليّ. يسمع صوت «المعلمة الكبرى» وسط دخان النار التي كحال الربابنة الجيدين لا تقفز من السفينة بعد اصطدامها:

- يجب أن تكتمل أُضحية الفتاة.

يُومئ الدوق برأسه. لن يُمكن لزوجته بعد هذه الليلة أن تدعوه بالجبان أبدًا. يحتفظ بالسكين في ردائه ويُمسك بمقبض العجلة. تُخفي آنا قارورة الدم في جيبها وتتراجع إلى أن تصل إلى باب خفي في الجدار الشرقي.



تحاول عينا لوثيا اعتياد العتمة، لكنه ظلام لا تُسبر أغواره. تتعاظم ضوضاء الشلال الذي تركته خلفها داخل المجرور وتكتم صرخاتها لطلب المساعدة. تتحسس ما حولها بحثًا عن مخرج. حين تتوغل داخل القناة تدرك أن مستوى الماء قد ارتفع. يتبقى لها شبر واحد كي تتنفس. ستموت غارقة داخل النفق، لو ارتفع أكثر من هذا. تشعر باليأس والخوف والرغبة في البكاء.

تعود أدراجها وتحاول السيطرة على ذعرها. تعتقد أنها رأت قبل انطفاء القنديل، مع الضوء الأخير الذي يسبق انطفاء الشعلة، وجود غرفة على شكل بئر. تتحسس الجدران وتجد ما قد يُنقذ حياتها، درجات معدنية صغيرة مثبّتة في الجدار. تتشبث بالدرجة الأولى كأنها آخر آمالها. ينزلق السطح المعدني لأنها مبتلة، لكنها تتمكن من الصعود فوق الدرجة الأولى ثم الثانية فالثالثة.

تسمع صوتًا، إنه صوت فتاة. تليه أصوات فتيات أخريات. يبكين ويرجون. تأتي هذه الأصوات من الأعلى. لا ترى شيئًا، كأن البئر مغلقة من الأعلى، لكن لا بد أن ثمة مخرجًا من هنا. تلهث من فرط جزعها والجهد الذي تبذله، وتشعر بأن هذه الأصوات تجذبها، فتواصل الصعود. تخونها ساقها فتتشبث بيديها بالدرجة الحديدية المشحمة. لا ترى قاع البئر، لكنها تُقدِّر أن مسافة السقوط

تتراوح من خمسة إلى ستة أمتار. تضع إحدى قدميها من جديد فوق الدرجة وتصعد قليلًا إلى أن تصطدم بسقف فوق رأسها. إنه غطاء خشبي، تدفعه بقوة، فينفتح بصوت مدوٍّ.

يقع مخرج البئر في قبو يبدو أنه يُستخدَم مخزنًا للفحم، ففيه زكائب مفتوحة تحتوي على أحجاره السوداء. تستقبل لوثيا لطخات من السخام مع دخان كثيف كأنها تصفعها. تجف ملابسها مع الحرارة سريعًا. لا تنبع مثل هذه الحرارة إلا من حريق، لأن «قصر ميرالبا» يضطرم بالنيران.

تخرج من القبو وتسير عبر ممرات كهفية ضيقة، وهي تسترشد بصرخات الفتيات. تصل إلى سلم يقود إلى الطابق الثاني من القصر. تأتي الصرخات من منعطف تمضي عبره وصولًا إلى الديماس، إلى السجن المقبب ثماني الزوايا، بجدرانه الحجرية التي رُكبت فيها ثماني زنازين. تشغل ستًّا منها فتيات، فتيات نحيفات، في حالة سيئة، يحيط بهن دخان أسود يتصاعد عبر سلم حلزوني. كلهن متسخات ولا تغطي أجسادهن سوى بضعة أسمال.

- وكلارا؟ أين كلارا؟

- أخذوها.

- أخرجينا من هنا.

- ثمة حريق.

تحاول لوثيا أن تفتح الزنازين، لكنها مغلقة بمفتاح.

- سأعود.

تصعد لوثيا الدرج وسط احتجاجات الفتيات، وتجد غرفة صغيرة فقيرة الأثاث. ليس فيها سوى فراش ومائدة وتمثال خشبي للمسيح مصلوبًا وطاولة يستقر فوقها سوط. لا يوجد دليل على أي شيء، لكنها تشعر أن «الوحش» نام هنا، ذلك العملاق الذي قتلتْه. حين تخرج، تجد رواقًا يضم أبوابًا على كلا جانبيه. تمنح كل الأمور شعورًا بالهجران، كحال القصر من الخارج. مع ذلك تعرف أنه شعور زائف، فالفتيات الموجودات في الأسفل ينتظرن موتهن، وهنالك مسوخ في الأعلى يحرمونهن من حياتهن.

تمضي عبر الرواق وهي تنظر إلى كل غرفة. كلها خاوية. تصل إلى درج آخر وتصعد طابقًا آخر. ها هو ذا رواق آخر. تدفع بابه كأنها تفتح صندوق

الرعد[1]. يصم زئير النيران الآذان في الداخل. تُطقطق شعلات اللهب وتهتز العوارض الخشبية وسط صرير وصوت مكتوم يشبه ضربات السياط، لكنها تُميز وسط الدخان الكثيف لمعة ذهبية لواحدة من المرايا العشرين التي تزين الجدران. ربما هي قاعة رقص. تُميز أيضًا هيئة تبرز وسط الدخان ويزداد حجمها وهي تركض نحوها. إنها آنا كاستيلار.

- أين أختي؟

- يجب عليكِ أن تنسيها.

تتحطم مرآة إلى ألف قطعة. تنحني لوثيا لتحمي نفسها من أمطار الزجاج. تستغل آنا هذا الإلهاء لتنقض عليها، لكن كل ما فعلته هو الاصطدام بمرآة. لقد هاجمت انعكاسها. يحيطهما الدخان ولا تعرف لوثيا ما إذا كانت ترى «المعلمة الكبرى» أم أحد انعكاساتها الشبحية. امتلأت القاعة بالانعكاسات التي تتواثب على الجدار المعاكس وتتضاعف في عدة صور، كرقصة أشباح. تريد أن تتقدم نحو الغرفة الأخرى وأن تعثر على أختها، لكنها تعجز عن توجيه نفسها وسط الدخان والانعكاسات. ترى بابًا في النهاية، أو تظن أنها تراه. تسمع صرخة غضِبة من وراء ظهرها. تنقض آنا كاستيلار عليها وتتمكن هذه المرة فعلًا من طرحها أرضًا. تُميز لوثيا وسط ارتباكها سنَّ قطعة زجاجية مثلثة، إنه نصل مرتجل يلمع كقطعة جليد وسط دخان الحريق.

تبدأ سنُّ قطعة الزجاج فعلًا في شق عنق لوثيا، فيما تمسك بكل قوتها يد القاتلة، لكن آنا أقوى. تنفجر إحدى النوافذ، فتصبح في يد لوثيا سريعًا قطعة زجاجة أسطوانية، كسلاح أرسله لها ملاكها الحارس. تُشهره وتتمكن من التخلص من المعتدية. تدوم الهدنة بضع ثوانٍ فقط، إذ تنقض فوقها من جديد كوحش مجنون. يصطدم السلاحان الزجاجيان. تدمي يد لوثيا وأيضًا طرف ذقن وشفاه آنا كاستيلار. تطير الفتاة بعد تعرضها لركلة، فتزحف على أربع نحو جدار لتتفادى الهجمة الجديدة المنتظَرة.

تصرخ آنا:

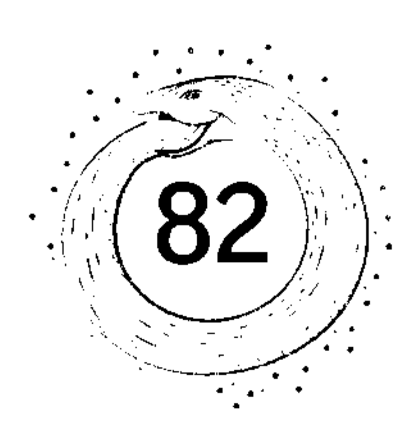
- أين أنتِ؟

---

(1) المقصود هو صندوق باندورا. (المترجم).

تبحث عنها عيناها وسط الدخان. يظن عقلها الغاضب أنه يراها في كل الأنحاء. هنالك عشرون انعكاسًا للوثيا، عشرون منشورًا متحركًا لها، كأن عشرين امرأة ترقص في القاعة التي شهدت حفلات لا تنسى. تُمسك آنا بشظية الزجاج بقوة إلى درجة أنها تجرح يدها. تنفصل عارضة خشبية عن السقف فيبدو صوتها كحيوان يتأوه وتسقط أمام قدميها، فتطلق مفزوعة صرخة تشق الآذان وتركض بين الدخان واللهب بحثًا عن مخرج.

تسير لوثيا على النقيض نحو الجانب الآخر، نحو النقطة التي رأت آنا تنبثق منها. تقودها غريزتها إلى باب لم يعد موجودًا. تتصاعد ألسنة اللهب فوق إطاره وتُجبر الفتاة على عبور عتبته جانبيًا. تجد نفسها الآن في القاعة الكبيرة التي يضطرم فيها صليب القديس أندرو كأنه أحد طقوس محكمة التفتيش. لم تعد راية المطرقتين المتقاطعتين إلا مجرد مشعل آخر يتدلى من حامل القنديل. تظهر كلارا إلى جوار الصليب، وهي مقيدة إلى أربعة أوتاد ومحاطة بالدخان والنار، ومن النظرة الأولى تفهم لوثيا أنها وصلت متأخرة.



تخرج ألسنة اللهب من السقف والنوافذ. هرب بعض من ذوي القلنسوات من الحريق وركضوا نحو ساحة مصارعة الثيران. ينجح دونوسو في تخيل توماس أجيرّي وهو يحرق ستائر المكان. يتراءى له وهو يفتح طريقه، مُمسكًا في يده بمشعل ليُضرم به هذا الحريق ويُفجر هرجًا ومرجًا لتحرير الطفلة من دون مقاومة. لكن لماذا لم يخرج؟ لماذا لا يظهر طيف المحارب وهو يحمل كلارا فوق كتفه كأنها صُرة؟ إنه متوتر. تمنعه حيطته الطبيعية من دخول القصر، لأنه لا يعرف كم من الوقت سيقدر فيه هيكله القديم على تحمل النيران.

يتفهم بحزن أن ما يمنعه هو جُبنه الذي يُضرَب به المثل، والعهد الذي قطعه على نفسه منذ سنوات بعدم التورط في أي مشكلات منذ ذلك النزال الذي أصابه بالعور. إنه ليس رجل أفعال. لم يكن هكذا قط، فقدره النظر إلى الأحداث وهو جالس فوق مقعد، والتعليق عليها داخل إحدى الحانات على أقصى تقدير. يوشك على مواساة نفسه بهذه الأطروحة الفلسفية، ومفادها أن العالم فيه كل أصناف البشر، لكن حينئذ يُسيطر عليه هاجس مجهول، يجب

ألا يظل واقفًا هناك. يتوغل شيء يُشبه الهمس العميق داخله ويُحرّك أحشاءه: «تصرف. لا يُمكنك أن تظل واقفًا هكذا. ثمة من يحتاج إلى مساعدتك».

من دون أن يفهم كيف ولماذا، يتوجه دونوسو جوال إلى باب القصر ويعبر عتبته. لا يسمح لنفسه بالفزع من اللهيب المذهِل الذي يستقبله في الطرقة. يجتازها وهو يغطي نفسه بحرملته، ثم يمر عبر غرفة مشتعلة ربما بدأ فيها كل شيء وتُفضي إلى قاعة كبيرة. في نهايتها يظهر صليب القديس أندرو. لا يقدر على رؤية شيء تقريبًا وسط الدخان واللهب كأنه أعمى. تتمازج أصوات بعض الفتيات اللاتي يطلبن المساعدة مع طقطقة المبنى الذي يوشك على الانهيار، فيتركها تقوده.

يخرج عبر أحد الأبواب ويدخل قاعة مرايا انكسر أغلبها، إذ لا تحمل الجدران سوى أُطُرها. يقوده باب آخر إلى درج حلزوني بارز ينزل نحو الأسفل.

صرخات الفتيات هي بوصلته. ربما يدخل إلى فم الذئب، لأن النيران تنتشر الآن بجموح وقد تقطع طريق الخروج في ظرف بضع دقائق، لكن عليه أن يمضي قدمًا، وأن يتخلى مرة واحدة وإلى الأبد عن كونه جبانًا.

يُمكن للمرء أن يتنفس جيدًا في الدور السفلي، لكن الدخان يتكاثف بمرور الوقت. يأخذ دونوسو أنفاسه ويقرر أن يهدأ من دون نجاح. لن يتمكن من الخروج من هنا، فألسنة اللهب تتقدم بإيقاع كبير وتلتهم القصر وهيكله لن يتحمل الحريق. يخنقه التفكير في مدى صعوبة الخروج، لكن يجب أن يُواصل طريقه. ينتهي به المطاف في غرفة فيها فراش وبعض الملابس وتمثال للمسيح مصلوبًا وسوط، لكن يلفت انتباهه شيء آخر، إنه مسمار معقوف فوق الجدار تتدلى منه بعض المفاتيح. يأخذها تحسبًا. يفتح الباب التالي وتصل إليه صرخات وبكاء الفتيات بصورة قريبة جدًّا.

يضطر إلى نزول قطاع آخر من الدرج الحلزوني كي يعثر على الزنازين. إنها ثماني زنازين وست منها يشغلها فتيات يُشكلن لدى رؤيته جوقة غير مفهومة من البكاء والرجاء.

- النجدة!

- أخرجنا من هنا!

- سيقتلوننا!

يبدو مظهرهن كأنهن جثث خرجت من المقبرة، بهُزالهن وجلودهن التي تفوح منها رائحة سيئة. يشك دونوسو في أنهن سينجين. يجرب المفاتيح ويكتشف أنه أصاب حين أخذها، إذ تنفتح بوابات الزنازين.

- هيا، بسرعة. القصر يحترق. ليس لدينا وقت.

يرشدهن إلى السلم، لكن التحرك بسرعة ليس سهلًا، فأجسادهن متيبسة وضعيفة. تتصدر فاتيما المجموعة. تصعد أولًا وتتوقف عند صحن السلم حين ترى الحريق ككرة نار ضخمة. تلتفت نحو دونوسو ولا تحتاج إلى قول شيء كي يفهم الشرطي الوضع.

- تأخر الوقت. علينا أن نبحث عن مخرج آخر.

- لقد دخلت فتاة ما من هنا.

يتوجهون جميعًا إلى حيث أشارت ميريام، فيجد دونوسو باب مخزن الفحم الخفي الذي يُفضي إلى صرف القصر مفتوحًا. تسود المكان في الأسفل عتمة تامة. يدرك دونوسو لحظتئذٍ أنه سيضطر إلى تقديم إثبات إضافي على تحليه بشجاعة هو بعيد كل البعد عنها.

83

تحولت منصة التعذيب القروسطية إلى مرعى لألسنة اللهب. تُخشخش الحبال التي تشدها الآلة حين تلامسها النيران فتنقطع ويلمع جسد كلارا وسط بريقها الأحمر.

تتعرف لوثيا على جثتين فوق بعضهما تحت الآلة القروسطية. يُعانق توماس أجيرِّي دوق ألتويانو بعد أن غرز فأسه في جمجمته، في جهد خارق أخير بذله ليمنع التضحية بأختها. مع أن خنجرًا قد شق ظهره، تمكن من جمع قواه، كأنه تشنج أخير لحشرجة الموت، ليرشق الفأس مرة واحدة وأخيرة في رأس الدوق قبل أن ينهار فاقدًا الحياة فوقه.

تقترب الفتاة من أختها وتُمسكها من رقبتها وساقيها وترفعها. لا تريد أن تفكر في أنها ميتة. يقدم لها خيالها نهاية سعيدة للقصة، تقودها فيها وسط الدخان وألسنة اللهب عبر قاعة المرايا وصولًا إلى الرواق الذي اجتازته من قبل، لتنزل الدرج حتى القبو، حيث ستجد جرَّة ماء تنعشها به، فتسعل بضعف وامتنان وهي تشرب، لكن الخيال لن يساعدها كثيرًا في درب العذاب

الذي تقطعه وهي تأمل أن تشعر بأنفاس كلارا في رقبتها. هل تلاحظ تيارًا خفيفًا؟ هل ثمة تنفس خفيف يُدغدغها وهي تعود أدراجها نحو الديماس؟ هل ثمة لمحة من الحياة باقية في الجسد الصغير الذي تُمسكه بين يديها بمشقة؟ لا تعرف حقًا.

صارت قاعة المرايا مساحة مظلمة ملأى بالدخان والزجاج، كعرض في مهرجان تنبعث فيه النيران من بؤر في كل الأنحاء. تتساقط عوارض السقف وتتحطم النوافذ وتُحلق الستائر في الهواء كطيور مشتعلة. يخلق البريق صورًا متقطعة في الغرفة، وتُميز لوثيا وسط النيران المرتعشة ستارة مفكوكة لم تصل إليها النيران. تلف نفسها وكلارا بها، فتبتكر لنفسها محرابًا بائسًا، مجرد غطاء لمواجهة جدار النيران الذي يسد طريقها. ليس أمامها سوى المحاولة.

تنطلق نحو فراغ إطار المدخل وهي محمية بغشائها المخملي، وتقطع الرواق وصولًا إلى الدرج. تتخلص من الستارة التي اشتعلت في وسط الطريق. هل تشنجت أختها؟ هل لامستها أختها؟ لا تعرف.

تواصل نزول الدرج وسط الدخان الخانق الذي لا يسمح لها بالتنفس، وتصل إلى الديماس وتجد الزنازين خاوية. لا تفهم شيئًا.

تبحث عن مخزن الفحم، وتجد أن بابه الخفي مفتوح. ها هو ذا. لقد شعرت وهي تمضي عبر المجارير بالاشمئزاز من مياه الصرف، لكنها تحتاج الآن إلى الانغماس في هذه المياه لأن جسدها كله يضطرم، ولديها إحساس أنه قد ينفجر في أي لحظة، وأن جلدها قد ينشقق من اندفاع حِممه الداخلية. يُفزعها زئير النيران. وصلت ألسنة اللهب إلى القبو، كأنها تلاحقها. هل سمعت سعالًا خفيفًا؟ هل من الممكن أن تكون كلارا قد تشبثت بشعرها كما تفعل كلما خافت؟ لا تود أن تفكر في الأمر. ليس لديها أي ثانية لإضاعتها. يجب أن تحمل أختها وتنزل فوق الدرجات الحديدية.

تحتاج الآن إلى أن تحيط ذراعاها رقبتَها وأن تمسك يديها بقوة لتنزل بهدوء وهي تتحمل ثقلها. ينعشها عبور الشلال. حين تصل إلى الجانب الآخر،

تضطر إلى الزحف وجذب كلارا بيدها. لا يزال يتبقى لها جزء قصير آخر سينبغي أن تتقدم فيه على أربع وهي تجذب أختها كأنها دمية قماشية. نعرف أنها وصلت إلى مفترق الطرق، وأنها إذا ما مضت عبر القناة بضع خطوات إضافية ستجد الدرجات الحديدية. يتلألأ ضوء في الأعلى، إنها النجوم، إنه الليل الذي يلقي شذاه المُسكر فوق الفتاتين البائستين المدفونتين تحت الأرض. لا يزال يتبقى أمامها جهد أخير.

تحمل لوثيا كلارا كأنها بُقجة من الفروع والأوراق جمعتها لتصنع فراشًا. تعتقد الآن أنها لم تسمع سعالًا أو تلحظ تنفسًا وأن أصابع أختها باردة، من دون حياة، الآن بعد أن صارت قريبة من الخلاص، تشعر مع الهواء النقي وحماية القبة السماوية أنها تحمل جثة. تصعد الدرجات بألم وإنهاك. تتمكن من وضع جسد كلارا فوق العشب. حينئذ تشعر بالدوار. لم تعد قادرة على أي شيء آخر. تترك جسدها يسقط نحو الخلف، نحو ظلام البئر، ولا تدرك لماذا لم تسقط، ولا لماذا لا تشعر بدوخة طيرانها الأخير، ولطمة غرقها في ماء الصرف الصحي.

- لوثيا!

يجرها دونوسو جوال، الصديق الأعور لدييجو، من يدها بقوة. حين تجد نفسها خارج البئر وتشعر بانتعاش العشب، تستعيد لوثيا أنفاسها، فيما يشتعل القصر وسط الليل وتُسمع أصوات بعض الكنائس القريبة وهي تدق نواقيس الخطر.

تنظر إليها ست فتيات بفضول بملابسهن المهترئة وهن مبعثَرات في الغابة الصغيرة، ولسبب ما لا يتوقفن عن تكرار اسمها. لوثيا، لوثيا، مع ذلك لا تحرك واحدة منهن شفتيها، بل إنه ما من واحدة منهن تعرفها، لذا ليس ممكنًا أن يناديْنها. لوثيا، لوثيا، تلتفت ولا تصدق ما تراه. لقد نهضت كلارا وتجلس فوق العشب وتبتسم الآن بألم وخجل، كأنها تعتذر بعد ارتكاب فعل طفولي خبيث.

تضع يدها فوق فمها وتطلب من السماء ألا تكون صورة أختها مجرد ابتكار من خيالها الجامح.

- لوثيا، ألن تعانقيني؟

تنفجر باكية أخيرًا، لكن من السعادة.

يقول لها دونوسو:

- حسنًا. لقد انتهى كل شيء.

تعجز لوثيا عن النهوض؛ إنها منهَكة. تتقدم على أربع فوق العشب وصولًا إلى كلارا. تعانقها وتضحك حين تلاحظ أن الطريقة التي تشد بها أختها شعرها أقوى من أي وقت مضى.



84

بينما تجلس في العربة التي استقلتها من عند «بوابة القلعة»، تراجع آنا كاستيلار الأحداث وتخبر نفسها أن حملتها لم تنتهِ بعد. صحيح أنها رأت زوجها يموت، لكنها لطالما ظنت أن الناس إلى زوال، أما الأفكار فتبقى. اشتعل القصر، ومع أنه مجرد بيت قديم بارد متهالك، فإن العثور على مكان آخر لاجتماعات «مشعلو الفحم» سيغدو صعبًا. الاستمرار في الكفاح مهم. تعرف أن الكارليِّين يتسللون إلى الدوائر الإيسابيلِيَّة لجمع المعلومات، وستظل هي هناك لتلقي طُعمها وتُسمِّمهم واحدًا تلو الآخر.

لا بديل سوى إلغاء الطقوس القروسطية، على الأقل في الوقت الحالي، إذ إن جثث الفتيات المتفحمة سيعثَر عليها بين بقايا الحريق. ربما يخضع الأمر للتحقيق وربما لا. ما من أحد يهتم بحياة بعض الفتيات البائسات اللاتي يسكنَّ على الجانب الآخر من «الجدار».

تتحسس جيبها لتتأكد من أنها لم تفقد آخر قارورة. وضعت بعض قطرات من الزرنيخ فيها. كانت ستقدمها للطبيب الذي عمل على احتواء جريسي في «إل سالاديرو» بواسطة الأفيون، وهو في الأصل واحد من ذوي القلنسوات في تلك الليلة، وكارليُّ الهوى. ربما تمكن من الهرب من الحريق من دون أن

يعرف أن هذه كانت ستغدو آخر ليلة له على قيد الحياة. تفتش آنا جيبها ثانية، لكنها لا تعثر على القارورة. لا بد أنها سقطت منها في شجارها مع لوثيا.

فجأة تبدأ في التوعك، تشعر بالدوار من اهتزازات العربة وسط شوارع مدريد غير الممهَّدة. لا تأبه في البداية، لكن التوعك يتحول إلى رعشات وغثيان وألم حاد في الصدر وإحساس بالشلل في ساقيها، تعجز عن تحريكهما. تجرب مد يدها، تُطيعها يدها بالفعل. تصل بها نحو جرح شفتيها، لا يزال يؤلمها. تتساءل ما إذا كانت ثمة شظية زجاجية قد انغرزت فيها، فثمة طعم لاذع تشعر به منذ خرجت من القصر. أعادته في البداية إلى استنشاق الدخان، لكنها فجأة تفهم ما حدث، لم تجرحها لوثيا بشظية من زجاج المرايا. ليست أيضًا من زجاج النوافذ التي تحطمت. لقد غرزت فيها شظية من القارورة المكسورة، قارورة دم كلارا والسم الذي أذابته فيها بنفسها.

تحسست الفتاة الظلام بحثًا عن شيء للدفاع عن نفسها ولا بد أنها عثرت مصادفة على القارورة التي سقطت من جيب آنا. لا تفسير سوى هذا للتوعك الذي يجعلها تشعر بالنعاس والخدر الذي بدأت تلاحظه في يديها وصعوبات التنفس على الرغم من الهواء اللطيف الذي يدخل العربة.

يُسمَع صوت سرينة عربات إطفاء المتطوعين، مُخمدي حرائق العاصمة القدامى. لا بد أنهم يتوجهون إلى «ميرالبا».

تُخرِج آنا رأسها لتأمر السائق بالإسراع وبجلد الأحصنة لأنها تحتاج إلى الوصول إلى بيتها في أقرب وقت ممكن. مع ذلك تعجز عن الحديث، كأن حجابًا يسد حنجرتها ويمنع مرور كلماتها.

تستند إلى المقعد. تُفكر في حياتها الهانئة، وفي تضحياتها، وفي جانبها التضامني. تتذكر دييجو رويث وكم أحبته، وبالمثل مدى وضوح مهمتها السياسية، وكيف أن الجماعة التي أنشأتها لخدمة الملكة الوصية صارت فوق كل شيء، حتى الحب. أمرت بقتله. لم تملك حلًا سوى هذا في تلك اللحظة لأنها وجب عليها أن تنفذ واجبها. ربما تلتقي به في حياة أخرى ويصير كل شيء مختلفًا.

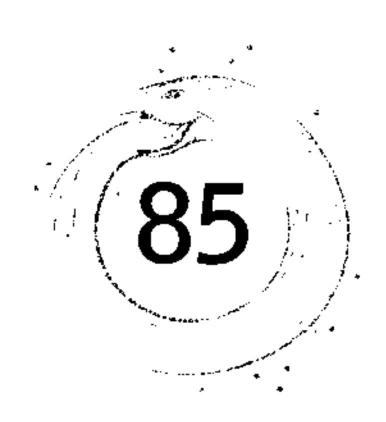
لم تعد تشكو من المطبات التي تتعثر بها العربة في طريقها. نسيت الخطط التي حاكتها منذ لحظات كي تخرج منتصرة من الأزمة التي خلقها هذا الراهب الكارليُّ وهذه الفتاة، إذ تحول رأسها بالكامل إلى غيمة.

لا تدرك أصلًا انتهاء مشوارها وأن قصر شارع «لا أورتاليثا» ينتظرها على بعد خطوتين، كمستقر سلام وادع كما هو دائمًا، حيث تُغرد الطيور الغريبة داخل حديقته ويتمشى الطاووس بغطرسته.

ينزل السائق من فوق مقعد الحوذي ويفتح الباب.

لكن آنا كاستيلار لا تتحرك.

لقد ماتت.



مدريد، الأول من سبتمبر 1834.

لم تنشر «إل إيكو ديل كوميرثيو» اليوم أخبارًا أو نقدًا مسرحيًّا أو أي منوعات عن المجتمع أو حتى فصول من روايات مسلسَلة، بل مقالًا يحتل ثماني صفحات -وهو ضعف العدد المعتاد- بتوقيع «القط المستخف». أكمل مدير الجريدة، دون أوجوستو مورينتين عبر ما عرفه خلال الأسابيع الأخيرة كل ما تركه محرره، دييجو رويث، مكتوبًا قبل وفاته. يتحدث المقال عن «الوحش» وعن «مشعلو الفحم» وعن حلقة «المعلمين الاثني عشر» الذين يحملون شارة المطرقتين المتقاطعتين، والفتيات اللاتي أُنقِذن، واغتيال الكارليِّين، و«قصر ميراليا»، وبالأخص عن دوقَي ألتويانو، والفتيات الست اللاتي قُتِلن في هذا الطقس القروسطي.

أقيم قداس الأسبوع الماضي على روح الفتيات الست، ومن ضمنهن بيرتا ابنة خينارو، وخوانا ابنة دلفينا. تمكنت لوثيا هناك من رؤية عاهرة خوسيفا «اللبؤة» السابقة التي قررت الإبقاء على بيت شارع «القرنفل». عرضت عليها القوادة الجديدة العمل هناك، لكن لوثيا أخبرتها أن هذه الأيام قد ولت، وأن ما تريده هو تعلم القراءة والكتابة والدراسة كثيرًا. لديها حلم لم تتجرأ على

الاعتراف به إلى أحد، ألا وهو أن تغدو صحفية مثل دييجو رويث، على الرغم من معرفتها أنه أمر صعب لأي امرأة. لا تفزعها المسألة. لو استدعى الأمر، فستصبح أول امرأة تمارس هذه المهنة في إسبانيا، هذا طبعًا إذا تمكنت من المضي قدمًا في حياتها، فثمة أيام تجعلها تظن الأمر مستحيلًا.

استقرت هي وكلارا في قصر إينماكولادا دي بيافرانكا بعد انقضاء تحفظ لوثيا القديم تجاه السيدة. تصرفت إينماكولادا منذ البداية بنية طيبة ونفذت العهد الذي وعدت به كانديدا، وعرضت نفسها للاعتناء بهما ومنحهما مستقبلًا. لا يرتبط الأمر بتوفير مأوى لهما فحسب، وإنما بالألقاب أيضًا، وهو شأن لا تعرف لوثيا ما إذا يجب عليها قبوله. لا تريد أن تفقد لقب «روميرو تشاكون» القادم من والديها، إذ تشعر بالفخر كلما نطقته.

عُين دونوسو مجددًا في «الحرس الملكي»، لكنه لم يُعيَّن مراقبًا للبوابات، وإنما في منصب أعلى، في قسم جديد سيُحقق في الجرائم، فلا بد من تجنب تكرار شيء مثل جرائم قتل «الوحش» في إسبانيا. سيعمل هذا القسم وفقًا لنموذج شرطة لندن العاصمية، «سكوتلاند يارد»، التي تأسست منذ خمس سنوات. سيبدأ قريبًا هذه المهمة التي تبدو له الآن غريبة نوعًا ما. قيل له إنه لن يحتاج إلى ارتداء زي موحد. لا يروقه هذا الأمر. لا يبدو له لائقًا أن ترتدي الشرطة بزة مثل موظفي الوزارات، لكنها اللوائح وسيلتزم بها.

بينما يقرأ مقال دييجو المنشور بعد وفاته، يفرك شاربه برضا، ففي تلك الصفحات يبتسم صديقه منتصرًا، وهو يناكفه بسبب جبنه ومرارته ورفضه التحقيق في مؤامرة ستهز أعمدة البلاط. ربما سيتشجع على زيارة إحدى جلسات السمر المدريدية لقياس مستوى الفضيحة داخل طبقة مدريد العليا، وللتباهي بالمَرة بغريزة صديقه الصحفية و-لم لا- بمساهمته في نهاية القصة وإنقاذ الفتيات.

تُقاطع بعض الضربات على الباب قراءته. يتخيل دونوسو دييجو وهو يدخل هائجًا إلى شقته ليشكو من خطأ ما في المقال، أو وهو يبلغه بقيمة العقد الذي عُرض عليه، لكن لا، إنه ساع من «مسرح الأمير» ويحمل رسالة. يفتحها الشرطي الأعور ويقربها من عينه الوحيدة.

«عدت إلى البروفات. غدًا موعد العرض الأول. سيروقني أن أراك في الصف الأول. جريسي».

ينتظر الساعي لمعرفة ما إذا كان عليه أن ينقل ردًا، لكن دونوسو يُودِّعه بحركة مصطنعة، ويغلق الباب ويتمشى عبر غرفته وهو يفكر. لم يعرف شيئًا عن جريسي وتُقدم هذه الرسالة معلومات كثيرة، إنها لا تحتضر في مستشفى «إل سالاديرو»، وتوقفت عن تعاطي الأفيون، واستعادت ثقة جريمالدي كممثلة. إنها أنباء جيدة.

هل تقدم الرسالة أي معلومات أخرى؟ لا يعرف دونوسو، لكنه يبتسم ويقرر أن يُجري جولة على الحانات للاحتفال بمستجدات اليوم.

خرجت كلارا صباحًا لتتسوق مع السيدة دي بيافرانكا. إنها ثالث مرة تفعلها خلال الأسابيع الخمسة التي مرت على إطلاق سراحها. ما من شيء يروقها أكثر من قياس الفساتين وتقرير ما توده منها وارتدائها لأول مرة. تحدثت لوثيا معها لتخبرها أنها لا يمكنها أن تظل هكذا، مهما وافقت السيدة دي بيافرانكا على كل نزواتها، لكنها في أعماقها يروقها رؤية تزايد ثقة أختها الصغيرة بنفسها بمرور الأيام، وأن تنسى تدريجيًا وقت أسرها وأيام الحرمان. انتهى الكابوس، بل إنها اعترفت للوثيا بأن وجه أمها بدأ ينمحي من ذاكرتها. لن تستغرق وقتًا في مناداة السيدة دي بيافرانكا بـ «أمي». لا تُحمِّلها أي ذنب. لديها كل الحق في نسيان الماضي والنظر نحو المستقبل.

هل ستنسى وجه لوثيا حينما لا تصبح معها؟ هل سيحدث لها ما حدث مع وجه كانديدا نفسه؟ لم تحكِ لوثيا لأحد أنها مريضة، وأن الكوليرا قد اجتاحت جسدها بالطول والعرض. ستستمر في إخفاء الأمر قدر استطاعتها، لأنه بعد كل هذه المعاناة، يجب عدم تلطيخ سعادة هذا البيت.

تسير بمفردها نحو قصر إينماكولادا. يحل المساء على مدريد وترتسم في السماء موجات من الألوان الحمراء والبنفسجية والزرقاء التي تصطبغ بها المدينة دائمًا قبل الليل. إنه منظر جميل، كاللوحات المعلَّقة فوق جدران متحف «إل برادو». ذهبت لتراها مع الدكتور آلبان، فهكذا قررت أن تكرم بطريقتها ذكرى توماس أجيرِّي. قال لها الراهب إن أجمل ما في هذه المدينة يُزين جدران هذا المتحف. لم يُخطئ. إنها لوحات باهرة، لكن أجمل ما في مدريد شوارعها. تتوقف أمام «بوابة الشمس». مات إيلوي هنا، وهو أسير غضب الشعب المرعوب من الجائحة. الهواء عليل اليوم. بارد نوعًا ما، لأن الخريف يقترب. تمضي مجموعة من الطلاب وهم يضحكون قرب أحد النواصي، فيما يرتاح السقَّاؤون وهم يجلسون إلى النافورة بعد يوم عملهم

الطويل. تمضي عربة «سيمون» وهي تتأرجح في الشارع. كانت هذه الساحة وهذه المدينة جحيمًا منذ فترة ليست بالبعيدة، بل وحشًا يبدو كأنه سيلتهم نفسه. مع ذلك تولَد مدريد دائمًا من جديد. يجد سكانها طريقة للتجاوز، والعودة إلى الضحك والرقص والاستمتاع بتناول كؤوس النبيذ وقطع الجبن في الحانات، وزيارة الأصدقاء في جلسات السمر، والسعادة على الرغم من الفقر الواقع على الجانب الآخر من «الجدار».

يزداد الجو انتعاشًا مع هبوب نسمة لطيفة، فتشعر لوثيا برغبة مفاجئة في العيش. ليت المدينة تمدها بهذه القوة، وهذه القدرة على النجاة التي أثبتت امتلاكها لها في أشد الأوضاع تطرفًا، لتتمكن من التعافي من الكوليرا.

حينئذٍ، ترفع نظرتها.

ربما ستقسم إنها رأت طائرًا أحمر يشق سماء المساء.

كلمة المترجم

منذ اللحظة الأولى التي أُعلن فيها خبر فوز رواية «الوحش» بجائزة «بلانيتا»، أردت الاطلاع عليها بسبب رغبتي في ترجمة رواية ذات طابع تشويقي تدور أحداثها داخل فترة تاريخية حرِجة، لأنني استمتعت إلى أقصى حد بتجربة ترجمة عملين سابقين اتسما بالسمات نفسها، وهما «أشد ألم» للبيروفي سانتياجو رونكاجليولو، و«فالكو» للإسباني أرتورو بيريث ريبيرتي.

زادت هذه الرغبة بعد اطلاعي على قرار لجنة التحكيم والأسباب التي ساقتها إلى الاستقرار على منح الجائزة العريقة لرواية «الوحش»، ومن ضمنها القدرة على إعادة خلق أجواء فترة زمنية سابقة بصورة مثالية. تضخمت الرغبة أكثر وأكثر بعد أن علمت بأمر الكشف المفاجئ الذي شهده حفل تسليم الجائزة، حين عرف الوسط الثقافي الإسباني أن كارمن مولا ليست كاتبة أو شخصًا واحدًا أصلًا، بل ثلاثة مؤلفين.

اتخذت قراري بترجمة العمل في النهاية فور أن فرغت من قراءته، حين تيقنت من توفر كل العناصر التي ستجعل متعة ترجمته مضمونة. إنها رواية ذات طابع تشويقي، داخل إطار سياسي مُحدد، في واحدة من الفترات الحرِجة في التاريخ الإسباني التي تماست مع وجود جائحة. سردها ممتاز وقادر على التسارع والتباطؤ وفقًا لمجريات الأحداث. حواراتها حية ومسلية. وصفها سينمائي إلى أقصى الحدود. حبكتها مثيرة، والأهم من كل هذا أنها تتضمن تحديات متنوعة في الترجمة إلى العربية.

تواصلت دار «عصير الكتب» معي بالمصادفة في الفترة ذاتها التي أقرأ فيها الرواية واتفقنا على موعد بعيد نوعًا ما لتسليم الترجمة في أبهى صورة، مع الهوامش الضرورية التي لا بُد أن القارئ قد اطلع عليها في أثناء قراءة العمل، ومع هذه الكلمة التي يطالعها القارئ الآن وأحسبها ضرورية له سواء كان قارئًا عاديًّا أم متخصصًا لتوضيح الإطار التاريخي والسياسي للعمل بشكل أفضل، وللحديث أيضًا عن بعض خياراتي في أثناء ترجمة «الوحش» ودورها اللغوي في الحفاظ على روح العمل وإطاره التاريخي.

تتقاطع أحداث الرواية تاريخيًّا مع الحرب الكارليَّة الأولى (1833-1840) التي قلنا نبذة بسيطة عنها في أحد هوامش الرواية، ولا بُد من شرحها الآن بالتفصيل كي يكتمل الإطار السياسي والتاريخي للعمل في عقل القارئ. لهذا سنتحدث الآن عن أسبابها وأولها بالطبع مشكلة وراثة العرش. كانت إسبانيا قبل اندلاع الحرب الكارليَّة الأولى بسنوات قليلة تحت حكم فرناندو السابع، الذي عانى الضعف والمرض، ولم يحظَ بابن ليخلفه، ولأن القوانين منعت اعتلاء ملكة للعرش، أصبح خليفته بالتالي هو أخوه كارلوس ماريا إيسيدرو. مع ذلك قرر فرناندو السابع قبل وفاته التوقيع على ما يُعرَف باسم «المصادقة البراجماتية»، وهي وثيقة عدلت القانون بصورة تسمح لامرأة باعتلاء العرش. هكذا أصبح من حق ابنته إيسابيل الثانية أن تتولى مقاليد السلطة بعد وفاته. لم يوافق كارلوس ماريا إيسيدرو بالطبع على هذا التغيير وأعلن معارضته للملكة الجديدة، فبدأت الحرب.

ثمة سبب آخر لهذا النزاع، وهو أن تكتُّل أنصار الملكية المطلقة -الذين فقدوا سلطتهم تدريجيًّا على مر السنين بسبب دعم الملك وأبيه للتيار الليبرالي- كانوا قد تحالفوا مع كارلوس إيسيدرو قبل أن يغير الملك فرناندو السابع القانون. لما تولت إيسابيل الثانية السلطة -أو بالأصح أمها ماريا كريستينا الملكة الوصية- شكل أنصار الملكية المطلقة تحالفًا قويًّا سعى لوضع أخي الملك الراحل على العرش، كي يستعيدوا سلطتهم المفقودة أمام المد الليبرالي.

يجب أيضًا ألا ننسى دور الكنيسة، وهي مسألة لا بد أن القارئ استنتجها من أحداث الرواية في ظل الإشارات الواضحة والخفية بخصوص هذا الشأن. لقد دعم الكهنوت ورجال الدين المتشددون كارلوس ماريا إيسيدرو، لأن الملوك السابقين ألغوا محاكم التفتيش وبدؤوا حملة لمصادرة الأملاك

الكهنوتية، فضعفت سلطتهم وازداد استياؤهم، ما أدى بدوره إلى أن يميل كثير من أتباع الكنيسة إلى الجانب الكارليّ، لاسترجاع كل ما ضاع من جاه وسلطان وسلطة.

أيضًا لا بُد أن القارئ لاحظ أكثر من مرة تكرار مصطلح «جبهة الشمال»، والإشارات إلى أن الأخ براوليو -أو بالأصح توماس أجيرّي- باسكي. انطلاقًا من هذه النقطة يُمكننا أن نتحدث عن أحد أهم أسباب اندلاع الحرب الأهلية، ألا وهي تمردات إقليمَي الباسك ونابارًا بسبب خوفهما من أن يؤدي تولي إيسابيل الثانية للسلطة إلى انتهاء الامتيازات التي مُنحت لهما طيلة عقود واختلفا بسببها عن بقية أقاليم إسبانيا. كان منبع هذا الخوف أن الفكر الليبرالي للحكومة الإسبانية الجديدة ارتكز على توحيد كل الأقاليم. هكذا قرر الباسكيُّون والنابارِّيُّون دعم الجانب الكارليّ، أملًا في الحفاظ على امتيازاتهم.

تسببت الحرب الكارليَّة لدى انتهائها في سقوط 130 ألف قتيل، وأدت إلى تغيير ديموغرافي كبير بسبب طابعها الدموي والعنيف. من ناحية أخرى -ولأنها مواجهة أيدولوجية في المقام الأول- يُمكننا أن نقول إنها أرست قواعد ما سيأتي من حروب أهلية لاحقة في شبه الجزيرة الإيبيرية. لم يظهر هذا الأمر فقط في الحروب الكارليَّة التالية -الصغيرة والكبيرة منها- وإنما أيضًا في الحرب الأهلية الإسبانية الأشهر بين عامي 1936-1939.

أدى انتصار الإيسابيلِّيِّين في النهاية إلى عدة نتائج: تحولهم الكامل نحو الليبرالية، على الرغم من أن إيسابيل وماريا كريستينا لم تكونا في الأصل مدافعتين شرستين عنها، وحصول العسكريين -الذين لعبوا دورًا محوريًّا في الحرب- على مناصب رفيعة في إدارة المملكة، وسعي البلاط الدائم إلى إسعادهم بكل الصور الممكنة، تحسبًا لأي طارئ حربي، وزيادة حركة مصادرة الأملاك لتعويض خسائر الحرب الاقتصادية، وعدم إلغاء امتيازات الباسك ونابارًا لكيلا يرفع سكان الإقليمين السلاح مجددًا.

لا يحتاج الإطار التاريخي الثاني -ألا وهو جائحة الكوليرا- إلى استفاضة كبيرة في الشرح، لكن تكفي فقط الإشارة إلى أن الكوليرا تفشت في إسبانيا أربع مرات، أولها في الفترة بين عامي 1833-1843، وشمل تأثيرها في المرة الأولى نحو ثلاثمائة ألف شخص.

بعد الانتهاء من تأطير الرواية سياسيًا وتاريخيًا كي يكتمل فهم القارئ لكل الظروف المرتبطة بأحداثها، أود في فقرات قليلة الحديث عن بعض التحديات والصعوبات التي واجهتُها، وأيضًا بعض القرارات التي اتخذتها في أثناء الترجمة وضرب أمثلة بسيطة بخصوصها، وهو أمر أتمنى أن يستمتع به القارئ العادي أو الدارس المتخصص الذي يجيد الإسبانية، وربما تصل ترجمتي إليه يومًا ما.

كانت طريقة التعامل مع أسماء الأماكن والشوارع والحانات والمستشفيات والمحاجر والأديرة التي تظهر في الرواية من أكثر الأمور التي حيرتني لسبب بالغ الأهمية، وهو أن كل هذه المسميات تنقل القارئ الإسباني زمنيًا إلى فترة مغايرة وتضعه داخل أجواء معينة خاصة بالإطار التاريخي للعمل، لأن جانبًا ليس هينًا من أسماء هذه الأماكن -وليس كلها- غريب أو لم يعد موجودًا. وجدت نفسي أمام خيارين، الأول هو كتابة المنطوق الصوتي الإسباني لهذه الأماكن بأحرف عربية، والثاني هو ترجمة ما يعنيه مُسمى كل مكان، إن كان قابلًا للترجمة إلى العربية. استقررت في النهاية على الخيار الثاني لأنني ارتأيت أنه الأفضل، لأنه من ناحية، سيساعد القارئ على تذكر أسماء الأماكن التي تتكرر، على عكس ما قد يحدث إن كُتبت بمنطوق صوتي غير مألوف، ومن ناحية أخرى، سيُساعده على الإحساس بالانتقال إلى فترة زمنية قديمة ومغايرة. سأترك مثالًا بسيطًا لتوضيح مقصدي: هل سيشعر القارئ بفارق البُعد الزمني والغرابة وعتاقة الاسم حين يقرأ «حانة ملتهم الأطفال» أم «حانة تراجانينيوس»؟ هل سيشعر بكل هذا حين يقرأ كلمتَي «شارع القرنفل» أم كلمتَي «شارع كلابيل»؟ هل سيشعر بالتعارض بين حالة دييجو المادية واسم الشارع الذي يسكن فيه إن كُتب المنطوق الصوتي له وهو «شارع لوس فوكاريس»، أم حين يقرأ ترجمة معنى الاسم إلى العربية ألا وهو «شارع الأثرياء»؟ هل سيشعر أنه انتقل في الماضي إلى منطقة ذات رونق تاريخي إن قرأ «منطقة ألكالا» أو «منطقة القلعة»؟ يجب ألا ننسى أن جانبًا كبيرًا من الإشادات التي تلقتها الرواية كان بسبب قدرتها على إعادة خلق أجواء حقبة سابقة. تُعد اللغة والمسميات جزءًا من هذه الحقبة، ولهذا استقررت في النهاية على الخيار الثاني. فكرت في إضافة دليل في نهاية الرواية يتضمن كيف وردت كل أسماء الأماكن والشوارع وخلافه التي كان من نصيبها أن

يُترجَم معناها إلى العربية، لكنني تراجعت لاحقًا، لأن شأنًا كهذا لن يهم القارئ العادي في شيء، أما القارئ المتخصص فقد اتضح له الأمر الآن.

من ضمن الصعوبات الأخرى التي واجهتها في أثناء عملية الترجمة، مسألة أسماء القديسين والقديسات وضرورة العودة إلى الطريقة المعتمَدة لكتابة أسمائهم أو أسمائهن في العربية، فمثلًا لا وجود لشيء في العربية اسمه «القديس خيرونيمو»، بل «القديس جيروم»، أو «سانتا باربرا» بل «القديسة بربارة»، أو «القديس بيثينتي»، وإنما «القديس فينسنت»، و«القديس فرانثيسكو العظيم»، وإنما «القديس فرانسيس العظيم»، لكن هنالك في الوقت ذاته بعض القديسين الذين نبعوا من داخل إسبانيا نفسها، وليس من فرنسا أو إيطاليا أو التاريخ المسيحي القديم، ولهذا جاء قرار كتابة المنطوق الصوتي الإسباني لأسمائهم بأحرف عربية مثلما حدث مع «القديس إيسيدرو» على سبيل المثال.

على أي حال، اجتهدت قدر الإمكان في هذه النقطة وباقي الإشكاليات الأخرى التي لا يوجد داعٍ لذكرها هنا لكيلا يمل القارئ وكي لا أطيل حديثي أكثر من هذا. أتمنى أن أكون قد وُفقت قدر الإمكان في الحفاظ على كل مقومات العمل وأن يكون القارئ قد استمتع بالقراءة، قدر استمتاعي بالترجمة.

محمد الفولي

القاهرة، 2022/11/2.





كارمن مولا هو اسم مستعار اختاره كُل من خورخي ديات وأوجستين مارتينيث وأنطـونيو ميرثيرو حـين اقتحموا الساحة الأدبية. نشروا به بـداية مـن ٢٠١٨ ثـلاثيـة «العروس الغجـرية» مـع دار «ألفـاجوارا»، فحـققت بطـلتها إيلـينا بلانكو شعـبية كـبيرة بين قـراء الـروايات البوليسية. فـي أكـتوبر ٢٠٢١، قرر الثلاثي الكشف عن هويتهم، حين فـازت روايتـهم «الوحش» بجائزة «بلانيتا» الإسبانية.

الوَحش



ليست جائحة الكوليرا الشيء الوحيد الذي يُرعب سكان مدريد في عام ١٨٣٤، فخارج أسوار المدينة تظهر جثث ممزقة لفتيات صغيرات. تتحدث الشائعات عن «الوحش» الذي يخشاه الجميع، على الرغم من أن أحدًا لم يره فعلًا سواء داخل أسوار العاصمة أو خارجها.

حين تختفي الصغيرة كلارا، تنطلق أختها لوثيا في سباق محموم للعثور عليها. يتلاقى طريقها مع الصحفي الفضولي دييجو والشرطي الأعور دونوسو، والراهب براوليو. يتعثرون جميعًا بشيء يقلب حياتهم: خاتم ذهبي غامض عليه مطرقتان متقاطعتان، وهو الغرض الذي لا يمانع البعض أن يَقتل من أجله.



ببراعة مذهلة، تحوك كارمن مولا خيوط حبكة هذا العمل الصادم والجامح، بقسوته وظلاميته وطابعه الجهنمي، لتقدم إحدى أفضل روايات الإثارة التاريخية التي كُتبت بالإسبانية في السنوات الأخيرة.

تصميم الغلاف
عبد الرحمن الصواف







aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
AseerAlkotb
AseerAlkotb
AseerAlkotb